

الألف
كتاب
الشاف
١٤٠

فرانك تيرنر
ستيثن أوزمنت

التاريخ من شتي جوانبر

ترجمة: د. أحمد حمدي محمود



الجزء الثاني



النارنج من شتى جوانبه
مجموعه مقالات

الألفا كتاب الثاني

الإشراف العام
و. سمير سرحان
رئيسة مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمسعى المطيعي

مدير التحرير

أحمد صليحة

الإشراف الفني

محمد قطب

الإخراج الفني:

علياء أبو شادي

النارنج من شتى جوانبه

مجموعة مقالات

إعداد
ستيغن أوزمنت
فرانك تيرنر
ترجمة
د. أحمد حمدى محمود

الجزء الثانى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

هذه هي الترجمة العربية لكتاب :

THE MANY SIDES OF HISTORY

By : STEVEN OZMENT / FRANK M. TURNER

الفهرس

صفحة	الموضوع
٧	تمهيد
	رابعاً
١٩	للقرن السابع عشر
٢٣	لتدلاع الحرب الاملية الانجليزية
٤١	للحكم الفردى للمويس الحادى عشر
٦١	لللعنى الاجتماعى للمينوتينية
	خامساً
٧٩	للقرن الثامن عشر
٨٣	تعمرد القوزاق وحرب الفلاحين فى روسيا
١١١	لموت كوسيلة للمردع : الاعدام العلنى فى فرنسا
١٣٥	ومسائل التسويق فى السوق الدولية
١٦١	حروب الموسوعة فى فرنسا ما قبل الثورة
١٨٧	للتصتور المدنى لرجال الدين فى الثورة الفرنسية
٢١١	لاصل الاتجاه المحافظ فى المانيا
	سادساً
٢٢٣	للقرن التاسع عشر
٢٣٥	للعالم الرومانتيكى
٢٥٧	للغراء عملها واسرتها فى أوربا القرن التاسع عشر
٢٨٥	للحى - الحى

تمهيد

يعنى التصدي لبحث العالم الحاضر - تاريخيا - مواجهة عالم فكرى جم التعيد ، لم يكتشف اكثره الا منذ ثلاثين سنة او يزيد ، ولا يتجاوز ما تم الكشف عنه التزد اليسير ، فلم يسبق قبل ذلك أن اعتبرت الحدود التى يتوقف عندها البحث التاريخى والكتابة التاريخية هى الحدود التى يفرضها حب الاستطلاع عند المؤرخ ، ومجالات أنشطة البشر ، ولقد كانت نواحي التجربة الانسانية التى يستقصيها المؤرخون الآن للمرة الأولى موجودة على الدوام ، مثلما كانت الطبيعة الفيزائية التى يدرسها العلماء الآن لأول مرة ، موجودة أيضا . غير أنه فى كلا الحالتين ، ساعدت الاهتمامات المعاصرة الجديدة والتقنيات الجديدة والمخيلات المنطلقة على الاهتمام الى كشف وتفسيرات تتطلب الكثير من الحاجة الى إعادة النظر فى فهم تلكى ، ولقد تولدت من المعرفة الجديدة والمناهج الجديدة مواضع مستحدثة أوسع وأبعد فى التاريخ ، مثلما حدث فى العلم .

وبوسعنا أن نقارن التغيرات الحديثة العهد فى الدراسات التاريخية ، بما يجرى عند التخطيط لإنشاء شبكة من الطرق العلوية . فلقد أدت الاحتياجات الاقتصادية التى أدركت حديثا ، والرغبة فى توفير فرص عمل ، وارتقاء الأجهزة والمعدات التكنولوجية - أحيانا - الى تيسير إنشاء الطرق العلوية . وبمجرد الانتهاء من إنشاء الطريق العلوى ، تظهر امكانات إقامة مشروعات عملية جديدة ، أو إقامة مجتمعات جديدة، وسيؤكد حب الاستطلاع عند المسافرين مدى ما تحققه هذه الطرق العلوية من نفع ، ويحدث تفاعل بين المسافرين على اختلاف أهدافهم ، وبين القائمين بالإدارة الذين ينظمون ويديرون خدمات أسفارهم . كما يحدث تفاعل بين هؤلاء الاناس وبين أهل البقعة التى أنشئ فيها الطريق العلوى . وما كان هذا التفاعل يحدث قبل إنشاء هذا المشروع . وغنمنا يرقب العمال والسياح الطريق العلوى الجديد فانهم يواجهون مشاهد ومناظر - وأحيانا عادات وتقاليد - لم يسبق

تعرفهم عليها من قبل • وربما بات بإمكانهم أيضا إنشاء مجتمعات جديدة ،
وينتهي بهم المطاف الى ادراك وجوب احداث تكامل بين كل ما استحدثت
من تجارب ومجتمعات وافكار ، وبين العالم الذى عرفوه قبل وجود الطريق
العلوى • ولا بد أن يقوم الأشخاص الذين لم يسافروا على الطريق بدورهم
بتحقيق تكامل بين تجاربهم وبين المعارف المستخلصة من المسافرين
العائدين • وسيكتشف من استمروا يعيشون فى مجتمعاتهم الأصلية أن حياتهم
الاجتماعية والاقتصادية قد ازدادت ارتباطا وثيقا - بالضرورة - بالمجتمعات
المنشأة حديثا على جانبي الطريق العلوى ، وأيضا بمن يعيشون عند طرفه
الأبعد • وبعد افتتاح طرق علوية جديدة فى البحث ، أصبح المؤرخون
المحترفون يمثلون جمعا هائلا من الباحثين الساعين لاحداث تكامل بين
المعرفة القديمة والمعرفة بمعناها الجديد •

وحتى قرابة خمسينات القرن العشرين ، تركزت الاهتمامات الأولية
للمؤرخين الأوربيين على الاهتمامات المتصلة بانشاء الدولة ، والعلاقات
الدبلوماسية ، والمؤسسات الدينية ، ودور العظماء فى الماضى ، وليس من
شك فى وجود بعض الاستثناء لهذا الاطار العام للكتابة التاريخية • فلقد
ظهرت بعض كتب ومقالات مرموقة عن الحياة الاقتصادية والعمال والأطفال
والنساء ، ولكن عددها كان ضئيلا نسبيا ، اذ غلب على انتباه المؤرخين
الاهتمام بالدبلوماسية والسياسة العامة ، والنزاعات الطائفية داخل الكنيسة
والخلافت السياسية ، ومن الناحية الجغرافية ، تركزت أغلب الاحداث
التي رواها المؤرخون وحللوها فى عواصم البلدان موضع الدراسة • وتحدث
المؤرخون عن ما دار فى اذهان أهل الصفوة من مفكرى هذه العواصم ،
وفضلا عن ذلك ، فلقد كتب المؤرخون متأثرين بسياق يتمحور حول أوروبا ،
أو من منظور عالمي • ولم تحظ الشعوب غير الأوروبية فى أفضل الأحوال
بما هو أكثر من الانتباه الهامشي ، فلقد اعتقد المؤرخون - بوجه عام - أن
الحضارات الأخرى اقل اثارة للاهتمام ، واقل أهمية وقيمة من الحضارة
الأوربية •

ان مثل هذه النظرة التاريخية ، ومثل هذه الاهتمامات المتركة على
جوانب بالذات ، هى ذاتها نتاج لعقبة معينة من التاريخ الأوربي • فابان
الفترة الواقعة بين ١٨٥٠ ، و ١٩٤٥ ، تمتعت الأمم الأوروبية بالسيادة على
العالم بدرجة تفوق ما تمتعت به من سيادة طيلة العهود الماضية ، وحدثت
القوى الأوروبية العظمى تأثيرا عارما فى النواحي العسكرية والسياسية
والاقتصادية فى شتى أنحاء المعمورة - وقد ساعد على منح الغلبة لأوروبا

ما حدث من تقدم في الاقتصاديات الصناعية وظهور دول قوية تركز النفوذ السياسي في يديها بفضل جيشها الضخم واساطيلها الهائلة • والحق أن من واجبتنا أن نعترف بأن «الدولة - الأمة» (*) المستندة الى اقتصاد صناعي وقوة عسكرية عاتية هي أقوى نظام استطاع البشر خلقه ، بغض النظر عن آثاره الحميدة أو المرذولة • ولقد استهوى سلطان هذه «الدول - الأمم» وفعالها المؤرخين طويلا ، وسيطر على انتباههم بالضرورة • وبالمنثور ارجاع تدهور غلبة التاريخ السياسي الى شعور المؤرخين بالاحباط - وبخاصة في فرنسا - ابان عشرينات القرن العشرين ، من مسلك حكوماتهم الممثلة لأممتهم •

غير أن للعلاقة بين البحوث التاريخية وبزوغ «الدول - الأمم» بعدا أساسيا آخر • ففي القرن التاسع عشر ، كان هناك تلازم بين كتابة التاريخ وإيقاظ الوعي التاريخي ، إذ ساعد التاريخ على وضع حجر أساس الإيمان بالحياة القومية المدنية • وكان من بين العوامل الأساسية في انشاء الدولة في القرن التاسع عشر والقرن العشرين وضع برامج للتعليم تشدد على التطور التاريخي للأمم ، وتشيد بالشخصيات القومية المرموقة - وبخاصة من الذكور - باعتبار شخصيات مثل جان دارك والملكة اليزابيث الأولى ملكة إنجلترا في القرن السادس عشر من الاستثناءات الكبرى - والتي بمقدور من يحيون في شتى الأنحاء الشعور بإمكان تقمص شخصياتهم • وابتان القرن التاسع عشر ، الف مؤرخون عديدين من أمثال ماكولي في إنجلترا ، وجيزو في فرنسا وترايتشكه في ألمانيا كتبوا تاريخية من جملة اجزاء تهدف الى توطيد الاعتزاز بالماضي العريق والإيمان بأنواع ذات طابع خاص من التقاليد والأنظمة القومية السياسية • واعتقد المؤرخون أن هذا النوع من الكتابة التاريخية سيفيد شعوبهم ، واستمر هذا التقليد سائما في القرن العشرين ، عندما ازدهرت النزعة القومية في أوروبا ، واشتملت نار المنافسة بين الدول - الأمم قبل الحرب العالمية الأولى ، وبعدها •

واجتذبت أحداث القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين انتباه المؤرخين ودفعتهم الى الاهتمام بالموضوعات السياسية وموضوعات «الدولة - الأمة» • فلبدا (بالثورة الفرنسية) عبر الحرب العالمية الثانية ، نشب اضطراب سياسي في جميع الأمم الأوروبية ، وجاء في أعقاب الثورة الفرنسية ذاتها نابليون وثورات ١٨٣٠ وثورات ١٨٤٨ ، كما

ظهرت الوخنة الإيطالية والوخنة الألمانية ، كما حدثت قلاقل بين أصحاب التزبغات القومية في الامبراطورية النمساوية الهنجرية وظهرت الأحزاب الاشتراكية الكبرى ، واندلعت الثورة في روسيا ، ونشأت « دول - ام » في شرق أوروبا ، وقامت الحركة الفاشية في ايطاليا ، والحركة النازية في ألمانيا . وبدت هذه القلاقل والثورات السياسية من بين أكثر الأحداث اثاره للاهتمام في تلك الأيام ، بعد أن تركت آثارها على أرواح عشرات الملايين من الأوروبيين . فلا عجب اذا اهتم المؤرخون بالكتابة عنها وعن مسبباتها ، بل وطفقت في بلاد مستقرة نسبيا كبريطانيا العظمى على اهتمام المؤرخين السياسيين ، ممن سعوا لتفسير أسباب الاستقرار السياسي في هذه البلدان .

وساعدت حروب اواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين على منح الصدارة في البحث التاريخي للمشكلات السياسية والدبلوماسية . فلقد اشتبكت دول أوروبا في عدة حروب كحرب القرم التي بدأت ١٨٥٤ ، والحرب العالمية الثانية ، في صراعات دموية عديدة ، تواءمت هي وعلاقتها السلطوية النسبية في القارة الأوروبية . واشتبكت هذه الدول أيضا في صراعات استعمارية شتى في مختلف أنحاء العالم ، وبذلك نقلت خلافاتها وصراعاتها الى ما وراء البحار ، وانشأت امبراطوريات استعمارية ، وطفقت الحرب واحتمالات شن الحروب على جانب كبير من الحياة العامة ، والمناقشات العامة ، وتسببت الحروب التي نشبت - خصوصا الحربان العالميتان في القرن العشرين - في فقدان عدد مهول من الأرواح ، وتدمير قدر كبير من الممتلكات . فلا عجب أيضا ، اذا طفقت العلاقات بين القوى الكبرى على الكتابة التاريخية .

وعند نهاية الحرب العالمية الثانية ، تدخلت جملة عوامل ، دفعت المؤرخين الى التمرد على ما أصبح يسمى حينئذ بالكتابة التاريخية التقليدية ، بعد أن نعمت أوروبا بالسلام زهاء أربعين سنة أو يزيد . فلقد صمم الساسة الأوروبيون ابان هذه الحقبة على الحيلولة دون تكرار حالات عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي التي أدت الى نشوء الحركات السياسية السلطوية بين الحربين العالميتين ، والى نشوب الحرب في آخر الأمر ، وترتب على ذلك احتلال العوامل الاجتماعية في المجادلات والمناقشات العامة، حيزا أكبر من الحيز المخصص للعوامل السياسية . وأدى هذا الاستقرار الذي جاء في أعقاب الحرب وتحول الاهتمام الى الجوانب الداخلية ، وانسداد الأفق المصولة بمهمة تدبير الخلفات الاجتماعية ، الى زيادة الاهتمام

التاريخي بالموامل التي ساعدت على تحقيق الاستقرار الاجتماعي والسياسي .
وبنا بوضوح موضوع المجتمع يناقش في الصدارة في التحليل التاريخي
موضوع الدولة .

وساعد ما يقارب خمسين سنة من السلام الأوربي على جعل مشكلات
العلاقات الدبلوماسية بين الدول الأوروبية تتخذ مظهرا أقل الحاحا نوعا .
فلمت انحصرت القارة الأوروبية الآن (١٩٨٧ - ولا يخفى أن الموقف تغير
الآن تغيرا شاملا) بين قوتين تتمتعان بالحد الأقصى من القوة (الولايات
للتنحة والاتحاد السوفيتي) ، وأدت نهاية الامبراطوريات فيما وراء البحار ،
وعملية تصفية الاستعمار الى تقلص مساحة العلبة التي تلور فيها المنافسة
بين الأمم الأوروبية . ولم يشفر هذا التحول في أوضاع قوى الدول الأوروبية
عن انتهاء التاريخ الدبلوماسي ، ولكن الأصح هو القول بنزوع هذه الكتابات
الى اتباع روح أكثر تركيزا على الناحية العملية ، وتساؤل الميل للنظر
للأحداث على أنها امتداد لسياسة خارجية ترفى الى هدف قومي ما .

وبوجه عام ، لم تختلف المشكلات التاريخية التي تبحث بالطريقة
التقليدية ، كما أن جميع المشكلات والمعضلات الفكرية الرئيسية التي
تناولتها هذه الكتابات لم تهتد الى خلوك مقبولة ، وإن كان بعض المؤرخين
هذه الأيام قد يؤثرون استبعاد هذه المسائل الخلافية ، وكان هذا هو الحل
الأمثل . وبدلا من ذلك زائنا ظهور اهتمامات جديدة في عشرات السنوات
الأخيرة تتخذ الصدارة في نظر المؤرخين ، وزودتهم بوسائل جديدة تمكنهم
من متابعة هذه الاهتمامات ، ونجم عن ذلك ازدهار موضوعات تاريخية شتى ،
انضمت الى موضوعات البحث الآن ، وساهمت العلوم الاجتماعية بنصيب
كبير في المناهج الجديدة - كالتحليل الكمي والأنماط الاقتصادية
وسوسيوولوجية المعرفة وعلم النفس والتحليل النفسي ، ونظريات
أنثروبولوجية شتى . وتيسر هذه المناهج الاستقصائية والتحليلية للمؤرخ
الاستفادة بالوثائق بعد أن اغفلت طويلا دون رجوع اليها . وتضم هذه
الوثائق شهادات التعميد والوفاة ، والكشوفات الحسابية للأراضي المزروعة
وتقارير ومحاضر الشرطة وشهادات الأطباء والمسؤولين عن الصحة العامة
وسجلات الضرائب . وبالإضافة الى ذلك ، فلقد ساعدت نظريات العلوم
الاجتماعية على تقديم العون للمؤرخين لمحاولة تقديم تفسيرات هامة لأنماط
من السلوك الاجتماعي بدت يوما ما مجرد غرائب في نظر من عاشوا به .
ذلك بالمعنى من الأرواح ، وساعد هذا الاتجاه - بوجه خاص - على فتح
نافذة مطللة على عالم الرثيف والثقافة الشعبية ، وفحصها وتحليلها تاريخيا ،

تبعا لذلك • وبعد أن زاد عند وسائل التحليل التاريخي ، أتاحت الفرصة للمؤرخين للانتقال إلى مجالات جديدة من البحث • بيد أنه يعين النسبية إلى وجوب الحرص على علم تفوق هذه الوسائل والطرائق وظيفتها على مخيلة الأشخاص الذين يستغلونها ، فالأهم من المنهج البعيدة هو حب الاستطلاع الذي يدفع المؤرخين إلى توجيه أسئلة جديدة ، وسبر غور التجربة الإنسانية التي سبق اغفالها •

وأهم تغير ملحوظ حدث في عالم البحث التاريخي الأوروبي القريب العهد هو ظهور « التاريخ الاجتماعي » • ويضم هذا المصطلح - الذي يبدو مهوشا نوعا - مجموعة متنوعة واسعة من الاهتمامات والموضوعات التاريخية • ويركز هذا العلم الجديد الانتباه التاريخي على نوعيات البشر التي لم يلتفت إليها المؤرخون كثيرا ، أو اغفلوها اغفالا كاملا ، انهم طوائف البشر الذين نادرا ما اشتركوا - أو لم يشتركوا قط - في بنين السلطة الاجتماعية والسياسية ، خصوصا الفلاحون وعمال الصناعة والنساء والأطفال • فقد أصبحوا الآن يلقون ما هم جديرون به من عناية التاريخ • ولم يعد ينظر اليهم كمجرد مادة سلبية تخضع لإرادتها لقوى سياسية واجتماعية أعتى • وبدلا من ذلك ، يعترف بانها قد شاركت بدور فعال في صنع التاريخ ، ثانيا - لقد ازدادت عناية المؤرخين الاجتماعيين - الذين كثيرا ما يستعينون بالأنثروبولوجيا - بالأنماط الاجتماعية والتجارب الاقتصادية للحياة اليومية لهله النوعية من البشر • وتبرز في صفحات التاريخ الاجتماعي البنات الخاصة بالأبحاث والعلاقات الجنسية والأدوار الاجتماعية التي تستند إلى نوع الجنس والحياة الأسرية ورعاية الأطفال ، وطقوس الموت وتدبير الغذاء والمأوى واستخراج الموارد الطبيعية ، واستغلالها ، والتنظيمات الاقتصادية المحلية • ويحتل هذا النوع من الوقائع حيزا أكبر في التاريخ الاجتماعي •

وأخيرا فبينما كان المنتصرون في الصراعات الاجتماعية والسياسية في الماضي يحتلون الصدارة في اهتمام المؤرخين ، فاننا نرى المؤرخين الاجتماعيين أميل إلى الاهتمام بالتجارب والظواهر التاريخية التي وصفها إدوارد طومسون (١) - وهو من أبلغ من عبروا عن رسالة التاريخ الاجتماعي ، « بانها تماثل الحارات المسلوذة والقضايا الخاسرة ، بل والخاسرين أنفسهم » • وفي هذا المقام ، لقد كثر المؤرخون الاجتماعيون محاولة الإفصاح - تاريخيا -

(١) E. P. Thompson في كتاب The Making of the English

Working Class. (نويبره ١٩٦٢) ص ١٢ •

عن أولئك الذين لم يكن هناك صوت ينطق باسمهم ، ممن لا تعرف لهم
أسماء ، من أبناء الماضي . وحاولوا أيضا النعم التاريخي لذلك السر من
الأشخاص الذين ألفوا أنفسهم في عصور مغايرة مغلوبين على أمرهم من
أثر التعيرات الاجتماعية والسياسية . ان هذه الخاصية الأخلاقية لتاريخ
الاجتماعي لها أثر كبير في جاذبية هذا النوع من التاريخ .

ومثلما اتجه التاريخ الأبرك الى التركيز على السياسة والدبلوماسية
والصفوة من الذكور ، فان التاريخ الاجتماعي هو في ذاته - في أغلب
الظن - من النتيجة التي لا مفر منها للأحوال التاريخية الراهنة . ف منذ
١٩٤٥ ، وفي شتى أنحاء العالم الغربي ، حفلت الجامعات بعشود من ملايين
الطلبة الذين انحدروا ديموقراطيا من تلك الجماعات الاجتماعية بالذات ،
التي كانت تستبعد فيما مضى من عالم سياسة وحضارة الصفوة ، وبمرور
الزمان ، رأينا هؤلاء الطلبة يتساءلون عن التجربة التاريخية لأشخاص من
الماضي يتماثلون معهم ، ومن أمثال من يرتقون فوق ظهورهم . فقبل أن
يسمح لأبناء العمال بالانخراط في الجامعة زرافات ووحدا ، لم يكن هناك
غير قلائل يرغبون في معرفة تاريخ الطبقة العاملة . ثم رأينا أناسا في
ستينات القرن العشرين ممن كانوا لا يرون أية حاجة الى التوازم وسياسة
وحضارة صفوة الأوس في أي عصر ديموقراطي حق يشروعون في متابعة
دراسة تاريخ اللاصفوة ، ورأيانهم يتعهدون بينهم وبين أنفسهم في حالات
كثيرة بإنشاء جيل جديد من الباحثين المهتمين بمسائل بعيدة الاختلاف عن
المسائل التي كانت تهم أسلافهم .

وبعكس الكشف الهام عن التاريخ القريب العهد للنساء - بالمثل -
التغيرات التي طرأت على البيئة الاجتماعية والسياسية في العقود الثلاثة
الماضية . اذ لا يقتصر الأمر على حدوث زيادة في النساء اللاتي تلقين
تعلما اعلى . ولكن لعل الأهم من ذلك هو ما حدث من تقدم في الحركة
النسوية من استحداثات على العناية المستحدثة باستحضار التجارب الأضنة
للنساء ، وفهمها . ويتطلب البحث في هذه التجربة بالضرورة ابحاثا ممتدة
في مشكلات الزواج والحياة الأسرية ورعاية الأطفال واقتصاديات الأسرة ،
وتجربة العمل عند النساء ، وأيضا النماذج الأبرك لمشاركة النساء في الحياة
السياسية .

غير انه ربما كان من الخطأ المغالاة في التشديد على التنويه بعدم
وجود لا تواصل بين البحث التاريخي في الماضي والبحث التاريخي في

الحاضر . إذ يحاول اليوم مؤرخون كثيرون - وان كان هذا الرأي لا ينطبق عليهم جميعا - تحقيق وعي تاريخي لاناس يظن أنهم يحيون في مجتمع طبقى ، بينما كان المؤرخون في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين يحاولون التزويد باحساس بالوعي السياسي القومي لاناس يدركون أنهم يعيشون في دول ذات نزعات قومية . اجل لابد من الاعتراف بان انجاز المؤرخين - في الماضي والحاضر على السواء - يعكس الوسط الاجتماعي والسياسي المعاصر . فليس المؤرخون في جميع مجالات التخصص اقل من نظرائهم في الماضي ، في ناحية الاهتمام بمشكلات السلطة ، سواء ظهروا في سياق « الدولة - الامة » واتحاد العمال والقرية او الأسرة . والى جانب ذلك ، فكما اتخذ التاريخ السياسي والدبلوماسي الصداقة في عصر سادته مثل هذه المسائل ، حدث شيء مماثل في التاريخ الاجتماعي الذي اتخذ الصداقة عنصرا سادتا العصر للصراعات الاجتماعية والدولة المؤمنة بتحقيق الرفاهية لابنائها .

فهل تعنى جميع هذه التغيرات ، وارتفاع شان التاريخ الاجتماعي ، احتجاب احد سبل النظر الى الماضي ، وبزوغ وسيلة اخرى تهيأ لاتخاذ الصداقة ؟ . ان الاجابة عن هذا السؤال بالسلب ، وان اصبحت هذه الاجابة بالحذر والحسب معا . ولينا نرجع ثانية الى تشبيه الطرق العليا ، فلقد فتحت عملية اثراء حب الاستطلاع ، والاعتراف باحقية الاستعانة بمناهج جديدة ، وادراك وجود مشكلات جديدة في عشرات السنين الاخيرة من البحث التاريخي ابوابا جديدة ، ولكنها لم توصل ابوابا اخرى . ومن ثم رأينا العديدين من المسافرين والعاملين على الطرق العلوية الجديدة يعودون حاملين تقارير عن مشاهدات لم يكشف اللقب عنها من قبل ، وعن الفرص الفكرية العظمى التي صادفوها في المنطقتين ، بل لقد قام بعضهم بتوطيد ما قامت به المجتمعات الباكورة من عمليات ريادية . ويكسر اضطرابهم ما في هذه التجربة من حداثة ، وهدى التزامهم الشخصي بما يقومون به ، ولكن الزمان كفيل باحداث التكامل بين القديم والحديث . وثالبا عندما يفتح طريق علوى ، فان حركة المرور تمتد عن الطريق السابق توطئه ، ولكن حركة المرور سرعان ما تعاود الرجوع الى الطريق الاقدم ، بعد ان يزداد ازدحام الطريق الحديث ، او تصبح المشاهد القديمة غير مالوفة ، وتجذب متفرجين جليدا .

وثمة أربعة عوامل دينامية تتخلل المجتمع التاريخي ، وتؤكد استمرار التعددية : أولا - بعض مشكلات أساسية ، كانت موضع عناية التاريخ التقليدي كمشكلة بزوغ الدولة المطلقة ، واندلاع الحرب الأهلية في إنجلترا ، أو بدء الحرب العالمية الثانية . وتستحدث أمثال هذه الأحداث ، بحكم شدة أهميتها ، وتعقدها ، على استمرار البحث فيها . ويجرى في كل مشكلة من هذه المشكلات ، وفي العديد غيرها من ميادين البحث التقليدية عمل هام وحيوي . ثانيا - لقد غدا الفهم الجديد للقوى الاجتماعية والتاريخ المحلي والحياة المادية ، قوى دافعة لإعادة بحث المشكلات التاريخية المعترف بها منذ أمد بعيد كالإمبريالية واندلاع الثورة الروسية وظهور النازية . ثالثا - في نطاق حرفة كتابة التاريخ ، كما هو الحال في أي مجال آخر من الحياة الإنسانية ، يحدث تارجح في النظر الى عواقب الأحداث . فقد يؤدي الاهتمام بقضايا جديدة في تاريخ اليوم الى تقلص البحث في مجالات كان لها الصدارة في زمان سابق . ويعرور الأيام ستعرض المجالات الحديثة للإرهاق من وطأة الأعباء التي تصحب البحث فيها ، ويكتشف ما في بعض قضاياها من تفاهات ، كما حدث سلفه في حالة التاريخ الدبلوماسية . وستنظر للمجالات الأقدم للبحث على أنها من المجالات المهمة التي تستاهل مشكلاتها العديدة التي مازالت بلا حل إثارة فضول مؤرخي المستقبل . فضلا عن ذلك ، فإن الخلافات والمجادلات التي تثيرها الأنواع الجديدة من البحث التاريخي ، ستؤدي الى ظهور أنواع جديدة من سبل سيرغور الماضي ، وأخيرا فالظاهر أن المؤرخين عندما يبحثون للماضي يتجاوزون هم والاهتمامات المعاصرة ، فعندما تحدث تحولات في الاهتمامات المعاصرة - وهذا امر لا مناص من وقوعه - ستأسر انتباهنا مجالات جديدة من البحث التاريخي . وثمة شيء واحد يبدو مؤكدا : فكما أن الدراسات التاريخية الماضية والحاضرة ليست مودعة في خزانة جديدة مغلقة ، كذلك الحال فيها سيظهر من دراسات مماثلة مستقبلا .

إن العديد من الأبحاث التالية ستقود القارىء بطريقة مباشرة الى المجال الجديد للتاريخ الاجتماعي ، وستصور له المجال الواسع المتنوع الذي عني ببحثه المؤرخون الاجتماعيون . وفي بعض الحالات ، تولى المؤرخون فحص فئات أو جماعات طالما تجاهلت ، أو نظر إليها على أنها تقوم بدور سالب ، أو بدور التلقي ، بدلا من قيامها بدور المرسل الفعال في التاريخ . ومن هنا سنرى مثلا إيزابيل ماداريجا وهي تعيد لنا رواية أحداث أكبر انتفاضة قروية في تاريخ روسيا ، وتحدث عن الضيق بالتغيرات التي طرأت على الحقوق التقليدية للفلاحين ، وسببى جوان سكوت ولونزا

تيلل وهما تقصان كيف حاولت اللغيات اللائي انتقلن من الريف الى المدن في القرن التاسع عشر استبقاء العادات الفردية ، في البيئة المدنية الحديثة . اما تسويوشي جازيغاوا ، فانه سيلخص التغيرات التي طرات على البنية الاقتصادية والاجتماعية للقوة العاملة في بتروجراد ابان الحرب، مما ساعد على تحفيز العمال لاجلاد تغير ثوري اثناء الحرب العالمية الأولى .

وفي المقالات الأخرى ، يلاحظ اكتشاف المؤرخين الاجتماعيين لأبعاد اجتماعية لم يلحظها أحد من قبل ، او لعل احدا لم يعرها ما تستحق من تقدير . وتشير مرجريت جاكوب الى الدروس الاجتماعية التي استخلصها علماء لاهوت انجليز معينون في مشارف القرن الثامن عشر من العلم عند نيوتن . ويصور ميكائيل كندى التفاعل بين الحكومة الفرنسية الثورية في باريس والأندية الجاكوبية المطية ، فيما يتعلق بالتحويلات في السياسة الدينية للثورة . ويربط ريتشارد هاملتون بين تجنيد الأعضاء الأول للحزب النازي وبين التجارب الاجتماعية للجنود الألمان المهزمن في الحرب العالمية الأولى . وفي كل مقال من هذه المقالات ، يساعد تقدير دور العوامل الاجتماعية على فهمنا لكيفية تقبل الأفكار العلمية ، وكيفية تكون السياسة الحكومية او ارتفاع الحركة السياسية .

واحيانا يسمح لنا اتجساه للمؤرخين الاجتماعيين بفهم اى مسلك بنا سلفا غربيا وشلانا ، او ربما قاسيا ووحشيا . وفي هذا المقام ، يحلل جون ماكمانرز الدور الاجتماعى للوحشية في عمليات الاعلام العلنى في فرنسا القرن الثامن عشر ، ويساعدنا مؤرخون اجتماعيون آخرون على الاحساس بما كانت عليه اوضاع الحياة آنلد . ويعرض انطوني وول المخاطر والمخاوف التي واجهتها جميع الطبقات والفئات في القرن التاسع عشر من اعراض الأمراض التي لم تكن طريقة علاجها معروفة حينئذ .

ولم يقلل التشديد الجديد على دور المجتمع من الحاجة الى فهم ماهية الأفكار التي اثرت في الأشخاص في لحظات معينة من التاريخ الأوربي . والحق ان التاريخ الاجتماعى وتاريخ الأفكار غالبا ما يرتبطان كل بالآخر . ويكشف مقالا فر نكلين باومر وكلاوس ابستين عن بزوغ الأفكار التي عارضت الثورة الفرنسية وارتابت في حركة التنوير . ويساعدنا هلدان انقلان على فهم ما قام به المحافظون والرومانتيكيون في بدايات القرن التاسع عشر، ويكشف بحث روبرت دارنتون للجانب العملى وراء نشر « الانسكلوبيديا » عن الطريقة التي تبناها الأفكار في انتشارها داخل المجتمع ، عندما تشعر

الحكومة بالعلماء نحو الكثير منها ، وثبتت تصوير أوجين فيبر لأثر مذاهب المدرسة الجديدة في القرن التاسع عشر في فرنسا كيف وطلبت الأفكار التي انتشرت بفضل التعليم الاحساس الجديد بالترعة القومية في فرنسا . ويصوّر أيضا النزاع على النفوذ بين القسس والمدرسين العلمانيين في مقاطعات الريف في فرنسا . ويحلل ميكائيل هوارد المعتقدات الخاصة بالحرب الهجومية ، التي أدت بطريقة مباشرة الى مصرع مئات الآلاف من الجنود في الحرب العالمية الأولى . ويضع روبرت وول خطين تحت الطريقة ، التي استطاعت عن طريقها حادثة كبيرة كالحرب العالمية الأولى خلق مجموعة من الأساطير في غضون عشر سنوات ، وأحدثت اضطرابا في فهم الماضي والتوقعات من أجل الحاضر .

واكتشف المؤرخون أيضا عجزهم عن تجاهل دور الاقتصاد والتكنولوجيا . ويضع روبرت دارنتون مرة أخرى في الصدارة الصعوبات التقنية البحتة التي اكتنفت مشروعا رحيبا كنشر « الانسكلوبيديا » . ويكشف جنيفر تان الصعوبات التي واجهها صناع المحركات البخارية الأوائل عند تسويق مخترعاتهم التي كانت تعد من مفاخر هذا العصر . ويربط دانييل هديرك بين كيف استطاع الاوربيون بطريقة مذهلة توطيد أقدامهم على جزء كبير من الدنيا وبين التقدم التكنولوجي في أوروبا ، ويتتبع ميكائيل ماندلباوم أثر التغيرات على التقدم في صناعة الأسلحة وأنظمة التوزيع (توزيع السلع) على طابع تحالف الناتو .

ومازالت السياسة ومسائل دبلوماسية القوى العظمى محتفظة بدورها المحوري في الأبحاث التاريخية . ويتتبع أنطوني فلتشر سلسلة الأحداث التي غالبا ما كانت غير متوقعة التي أشعلت فتيل الحرب الأهلية الإنجليزية . ويصف ريتشارد بوني كيف أمسك لويس الرابع عشر بزمام الخيوط المتحركة في السلطة السياسية حتى استطاع توطيد النموذج الاستبدادي الكلاسيكي للنظام الملكي (الموناركي) . ويبحث روبرت تاكر الوسيلة التي لجأ إليها ستالين لانشاء شكل من الأشكال التي تكررت بعد ذلك للحكم السياسي الفردي المناسب للقرن العشرين . ويوحى تحليل سالي ماركس لقضية التمييز بان ما يمتقده الناس عن الموقف السياسي والاقتصادي قد يكون أهم من طابعه الحقيقي . ويمط كل من رونالد سملسر ووليامسون موراي اللثام عن شتى جوانب سياسة التهدة وميثاق ميونخ .

غير أن القليل من هذه المختارات بمقدوره أن يصور ما هو أكثر من جانب واحد من شتى جوانب التاريخ ، أو كان من واجبه أن يفعل ذلك .

فلا بد أن يراعى من يتناول السياسة بالضرورة البشائر الاجتماعى والتوقعات الشخصية والاجتماعية • ولا بد أن يراعى من يكتب تاريخا اجتماعيا « الأفكار » • وليس باستطاعة المؤرخ الفكرى كتابة تاريخه بغير معرفة بالمجتمع والتكوين السياسى للعصر موضع البحث ، والحق أن من أهم أركان البحث التاريخى والكتابة التاريخية - وإن لم يكن هذا الشرط موضع تقدير كامل - ادراك التأثير المتبادل لمختلف المناهج المتبعة فى تناول الماضى • وعلى الرغم من أنه من المناسب التحدث عن انقسام الفعل الانسانى الى أقسام مستقلة ، إلا أن الحياة ذاتها لا تعاش على نحو مجزأ ، ولن يكتب التاريخ كتابة صحيحة باتباع هذه الطريقة •

وتصور المختارات المتنقاة لهذه المطالعات الطابع المتعدد الجوانب والثرى والذى لكتابة التاريخ الأوروبى فى العهد الحديث ، وترمى الى تقديم العون لطلبة التاريخ ، وغيرهم من القراء لتقدير التنوع الثرى لنظراته الفكرية • وبعد أن يفرغ الطالب من قراءة هذه المقالات ، فإنه قد يدرك أن أى وصف لعصر النهضة والحركة الهيومانية ، اتبع منذ أكثر من قرن من قبل أحد كتاب عصر الملكة فيكتوريا ، لم يعد مناسباً لمهنة المؤرخ :

« لما كانت ماهية الهيومانية هى الاعتقاد الذى يعتقد أنه لا يحتمل أى شك بأنه لا وجود لشيء ما من الأشياء التى اهتم بها الأحياء من البشر ، رجلا ونساء ، يمكن أن يفقد حيويته ، لذا يستطيع ادراك ماهية الهيومانية من اللفة التى تكلموها أو من طريقة استماعهم الى النبوءات فى صمت ووقار أو من نظرتهم الى الأحلام التى مرت بخاطرهم ، أو الى أى شيء شعروا نحوه بتعلق وافتتان ، أو تحمسوا له ، أو اضعوا وقتهم فى سبيله (٢) » •

إن هذا العالم الفسح من تجربة ماضى البشرية فى صوره المتعددة • هو العالم الذى يسمى المؤرخون للكشف عنه ووصفه وتفسيره •

القرن السابع عشر

أثناء القرن السابع عشر ، بدأ ظهور تنظيمات جديدة للسلطة السياسية في أوروبا . ويكمن في صميم هذا الاجراء طابع العلاقة بين الانظمة الملكية المركزية ، ومراكز السلطة السياسية المحلية ، المتمثلة بوجه خاص في طبقة النبلاء والأعيان . وفي نهاية المطاف ، اتخذ الصدارة نموذجان سياسيان مختلفان : ظهر النموذج الأول في إنجلترا ، والآخر في فرنسا . وكما هو متوقع ، فقد نسب الى هذا الاجراء الاضطراب الديني بظلاله القاتمة ، وكان ماضيا في طريقه في خطى حثيثة .

ففي إنجلترا ١٦٤٠ ، اندلعت الحرب الأهلية بين القوى التي تدعى بالولاء للملكية والقوى التي تدعى بالولاء للبرلمان الذي يتزعمه كبار الأعيان الى حد كبير . وازدادت الخلافات الأصلية الدستورية حدة من تأثير الخلافات الدينية الأساسية التي أثارها أنصار كالفان ممن يطلق عليهم اسم « البيورتان » . ويفسر أنطوني فلتشر كيف استغل الزعماء البرلمانيون البيورتان المخاوف الشعبية الدينية من حدوث مؤامرة كاثوليكية ضد الحريات الانجليزية ، عندما هاجموا سياسات شارل الأول . وأحدثت الحرب الأهلية المترتبة انقلابا في إنجلترا دام عشرين سنة . غير أن هذه الحقبة من القلاقل قد تبعتها في هذا القرن ثورة ١٦٨٨ ، التي وطلت النموذج السياسي الإنجليزي الذي قيد فيه البرلمان حكم النظام الملكي ، وساده أيضا التسامح الديني .

وفي فرنسا ، حكم لويس الرابع عشر حكما فرديا ١٦٦١ . ولقد شهد لويس في طفولته آخر تمرد للنبل الفرنسيين المعروفين باسم «الفروند» . وعندما بلغ سن الرشد ، صمم على أن لا يدع سلطانه يتعرض لآى تحد . ويتتبع ريتشارد بوني الأسلوب الذي سار عليه الملك لاختضاع

مراكز القوة المثلثة للنبله ، والمدن ، فسيطر على الواحدة منها تلو الأخرى ، الى أن أخضعها فى نهاية المطاف لهيمنة النظام الملكى . وفضلا عن ذلك ، فلقد ألغى لويس الرابع عشر ١٦٨٥ ميثاق نانت ، وبذلك انتهى التسامح الدينى والبروتستانت الفرنسيين . وتوطدت وحدة الدولة الكاثوليكية . والنموذج السياسى الذى تمخض عن ذلك هو ما يعرف بمصطلح « الحكم المطلق » ، وقلده ملوك مختلفون فى أوروبا فى القرن التالى .

بيد أن السياسة وحدها لم تكن هى المتحكمة فى القرن السابع عشر ، الذى شهد أيضا تصاعد حركة الفكر العلمى الذى بدأه كوبرنيك . ويعبر مصطلح الثورة العلمية عما حدث من فهم انسانى جديد للتكوين الفزيائى للكون - وللفلك بوجه خاص - فى مدة تقل عن القرن ونصف القرن من الزمان ، انتقل المفكرون العلميون الأوربيون من تصور الكون المتمركز حول الأرض ، الى تصور كون تدور فيه الأرض حول الشمس . وأعظم أسماء اتبعت هذا الاتجاه الجديد هى : كوبرنيك وكبلر وجاليليو ونيوتن . وتفسر مرجريت جاكوب كيف استعان الكتاب المسيحيون بهذا الفهم الجديد لحالة انتظام الكون الفزيائى فى الدفاع عن الاستقرار السياسى والاجتماعى ، وكيف سخر هذا الفكر الثورى العلمى لغايات اجتماعية محافظة .



الملك لويس الرابع عشر

اندلاع الحرب الأهلية الانجليزية

أنطونى فلتشر

كانت الحرب الأهلية الانجليزية من بين أكثر الأحداث اضطراباً في القرن السابع عشر في أوروبا . وبدأت هذه الحرب ١٦٤١ . وما إن جاءت ١٦٤٩ حتى توالى الأحداث ، فخفضت كنيسة إنجلترا حركة الإصلاح الدينى الراديكالى ، وألقى مجلس اللوردات وأعلم الملك ، وبعد أن ساد الاضطراب زهاء احدى عشرة سنة عادت الملكية ١٦٦٠ . ولم يكن هناك من هو قادر قبل ١٦٤٢ على التنبؤ بمثل هذه الأحداث التى تبعها اندلاع الحرب الأهلية بين القوى الموالية للملك والقوى الموالية للبرلمان ، أجل ! لم تخطر مثل هذه الأحداث ببال أحد . واتسم الاضطراب باتساع نطاقه، مما دعا الى ارجاع اندلاع هذا الصراع فيما بعد الى النزاع حول المبادئ الدستورية الكبرى والمعتقدات الدينية . ولا شك أن قلائل قد تسموا عن الأحداث المباشرة والتحويلات المباشرة فى الجو السياسى التى أدت الى تصدع النظام السياسى واختيار الانحياز لصف أحد طرفى النزاع .

وليس هناك شك فى وجود مجالات للصراع بين الملك شارل الأول والبرلمان ، ابتداءً من منتصف عشرينات القرن السابع عشر . فلقد زاد الملك دخل الحكومة ، وحكم البلاد دون رجوع الى البرلمان من ١٦٢٩ الى ١٦٣٩ ، أبان تلك الحقبة ذاتها التى ظهرت فيها الحركة البيورثانية ، وما صحبها من تركيز على اللاهوت الكالفانى ، وانتشار فى طول البلاد وعرضها لقراءة التوراة ، ونزوع القسس الى حب الجميع على اصلاح أنفسهم بأنفسهم . وقوبلت هذه الدعوة بمعارضة شديدة من أساقفة كنيسة إنجلترا ممن يتبعون لاهوت أرمينيوس (*) ويقومون الطقوس المقدسة .

(*) نقلا عن كتاب The Outbreak of the English Civil War تأليف

Anthony Fletcher (١٩٨٠) .

(**) الحركة الـ Arminian تتسب الى عالم اللاهوت الهولندى Arminius

الذى كان يدعو الى مذهب الارادة الحرة ، ويمارض كالفان .

ولم يتوقف الملك شارل عن مؤازرتهم، بل وتزوج أيضا أميرة فرنسية كانت تتبع الكنيسة الكاثوليكية . وليس هناك من ينكر الطابع الخطير لمثل هذه العوامل ، التي ارتحز عليها الصراع ، وان كانت لا تعد بالضرورة مبررا كافيا لنشوب حرب أهلية .

وفي ١٦٢٩ ، دعا شارل البرلمان - بعد تردد دام طويلا - للمطالبة بالتصديق على بعض الاعتمادات لنصرف منها على الحرب ضد اسكتلندا ، وكان يسمى لارغامها على اتباع « الكتاب الانجلىزى للشعائر العامة » واتبباع اخنومة لكنيسة الاساقفة بدلا من اتباع الكنيسة الاسكتلندية الكالفانية القوية ، ورفض البرلمان التصديق على الضرائب ، فأمر شارل بحل البرلمان . وهكذا أصبح هذا البرلمان يعرف باسم « البرلمان قصير الأجل » . وفي ١٦٤٠ ، دعا شارل الى انتخاب برلمان آخر أطلق عليه اسم البرلمان طويل الأجل أو المعمر (***) ، وكان من بين زعمائه جون بيم ، الذى كمن من المسعدين الصريحين للملك ، ومن البيورتان الأشداء ، ولما حدثت مواجهه بين البرلمان وشارل بعد أن ثار الخلاف بينهما ، وبعد أن حاول الملك القبض على أعضاء البرلمان ، ادعى بيم وأنصاره وجود مؤامرة بابوية لرفض الكاثوليكية على انجلترا ، وتقويض دعائم الحرية والديانة الحقنة تبعا لذلك . وأخطر بيم ومؤيدوه شارل بهذا الرأى فى مظاهره كبرى ١٦٤١ . وساعدت سنوات عدم الثقة والنزاعات الحديثة العهد بين الملك والبرلمان ، والجدل حول من يحق له السيطرة على الجيش (الذى كان منهما آتذ فى اخماد ثورة نشبت فى ايرلاندا) على استحقاق كثيرين على تصديق هذه الاتهامات . وما هى الا شهور قليلة حتى ارتبط اسم شارل فى عقول الناس بالنوايا الشريرة للمؤامرة البابوية المزعومة ، وارتبط أيضا اسم البرلمان بالدفاع عن الحرية والديانة الحقنة . فى هذه الحالة المضطربة ، التى أثارت البلبله ، اندلعت الحرب الأهلية ، ورمز فيها الملك الى المبادئ الدستورية ، كما رمز البرلمان الى المبادئ الدينية ، واحتدم الصدام بين اتباع المبدأين .

لا يلزم رد الأحداث الكبرى الى أسباب كبرى ، وان كان من الطبيعى أن يسمى المؤرخون للبحث عن هذه الأسباب . فحتى عهد قريب ، كان التاريخ البرلماني لبواكير القرن السابع عشر يعانى من أصفاد تقليد الأحرار (***) وتصوراته الكاسحة عن دورى الحكومة والمعارضة ، بالرغم من عدم مسارية هذه التصورات لعصرها . فليس من المحتوم حدوث صراع بين الملك

Short Parliament.

(*)

Long Parliament.

(***)

Whigs.

(****)

والبرلمان يسفر عن ظهور دستور متوازن في القرن الثامن عشر . كما أنه لم يثبت إمكان تفسير الحرب على أنها ثورة اجتماعية . إذ كان الانقسام في الرأي يمثل بكل جلاء انقساما داخل الطبقة الحاكمة . وبالمثل فلا يفى بالفرض أيضا التفسير المستحدث الذي يفسر الصراع على أنه قد وقع بين البلاط والأهالي . فلم يخطر ببال أحد من أغلب من اشتركوا في القصة التي سنرويها في الصفحات التالية ، أنهم ينتمون الى أي طرف من الطرفين، كما أنه كان من المستبعد لاي أحد ممن عرفوا العالم البيوروتاني من محاضراته وشعائر صومه أو ممن حدقوا بأبصارهم متأملين لوحة الرسام الهولندي روبنز التي مجد فيها عائلة ستيوارت(*) ، أن يرتاب في وجود صراع بين النزعتين في ثلاثينات القرن السابع عشر ، فلا بد اذن من وجود سبب أقوى من الصراع بين النزعتين لدفع الملك ورعاياه لخوض الحرب .

فما الذي تعنيه مثل هذه الأحداث ؟ ان أي بيان مفصل يروى حدثا هاما كاندلاع إحدى الحروب الأهلية ، ويتتبع الأحداث خطوة خطوة ، سيكتشف بالتأكيد مدى التعمق الكامن في أية عملية سياسية من هذا القبيل ، وسيكتشف كيف تسلسلت الظروف الضرورية التي أدت الى ظهور شيء ما يتناقض تناقضا شديدا هو وافتراضات عامة الناس عن العلاقة الاجتماعية والسياسية . غير أنه ليس هناك ما يدعو الى تجريد السرد السياسي للقصة من كل معنى يمتد الى أغوار بعيدة . فلا يصح القول على الاطلاق بأن الحرب الأهلية الانجليزية كانت مجرد مصادفة . فلقد لعب الحظ والاتفاق دورهما بلا مراة . ولكن لعل الأحداث كانت ستجيء مختلفة ، لو أن التمرد الايرلندي لم يقع في نفس الوقت الذي وقع فيه . وعلينا أن لا ننسى أن القصة حافلة أيضا بمثالية بعض الأشخاص ، والمشاعر الجماعية والأهواء الأيديولوجية .

ولقد بينت دراسات البرلمانات والادارة في الحقبة الواقعة بين ١٦٠٣ و ١٦٤٠ وجود انقطاع في أداء هذه الهيئات لواجبها في بواكير حكم ستيوارت . وازداد ذلك وضوحا عندما اشتمت وطأة الحرب في عشرينات القرن السابع عشر ، ومرة أخرى ١٦٤٠ . غير أنه من المهم أن نلاحظ - نظريا على الأقل - أن المشكلات الادارية التي تركز عليها الاهتمام بعد نشوب الحرب الاسكتلندية ، قد أمكن حلها خلال ١٦٤١ بفضل اصلاحات ييم الاقتصادية ، وفرضه ضريبة عامة للدخل وعقده معاهدة سلام مع اسكتلندة وتسريح الجيوش . وبعبارة أخرى ، فإن صح وصف ما حدث

١٦٤٠ و ١٦٤١. بالأزمة الدستورية ، فانها لا تزيد عن أزمة أمكن التغلب عليها ، ولم تكن هناك حاجة ماسة لاشعال حرب أهلية .

ورأى بعضهم الاهتمام المحورى فى الحقبة بين ١٦٤٠ ، و ١٦٤٢ كما نرى فى ارجاع الخلل الى أسباب برلمانية ، ومعاداة الأغلبية « للأرمنية » وضريبة السفن(*) ، والرغبة فى ازالة ستراتفوردي من الحياة العامة. وتنظيم العمل بالبرلمان . غير أن مثل هذه النظرة قد أرجعت فى تحليلها المشكلات التى لازمت البرلمان عهدا طويلا الى بداية عهده ، ولا اظن أنه قد خطر ببال معظم من زحفوا نحو وستمنستر فى نوفمبر ١٦٤٠ أن هناك سببا برلمانيا يدعوهم الى ذلك . فلقد ساد الاعتقاد بأن الهدف من البرلمانات هو حل الخلافات بالمصالحة وتصفية النزاعات ، مما يوحى بتجاوب أغلبية أعضاء البرلمان مع هذا الهدف ، ولم ير أحد ماعدا بيم وقله من أصدقائه الحميمين المسألة فى ضوء بعيد الاختلاف . فقد ظنوا أن ارجاع السبب الى البرلمان سيساعد على استئصال المؤامرة التى أصابت الأمة فى الصميم . ولا بد - بالتأكيد - من اتخاذ سوء تصورهم الأساسى للموقف السياسى الذى ذاع بطريقة متمزجة ، وانتشر فى الشهور التالية كنقطة بداية لتفسير أسباب اندلاع الحرب . فالمشكلة المحورية اذن لم تكن ارجاع هذه الأسباب الى خلل ما ، بقدر كونها التساؤل حول لماذا التفت الكثرة فى وستمنستر وما وراءها حول بيم وأعوانه وتشبثوا بهم، رغم نظرتهم المحبطة ومغالاتهم فى تصور متاعب الأمة ؟

لقد أشيد بالمية زعامة بيم واقتداره فى السيطرة على المؤيدين ، والباب المتعاطفين عليه فى المجلسين . ولكن ليس بمقدور أحد أن يتناسى التباين بين تكتيكات بيم وحادثة تبصرها ، ونزعتها العملية ، والأساس العاطفى لسياسته . فلعل هذه السياسة نفسها توحى بتعارضها مع العقل . اذ كان زعماء البرلمان أناسا غير قادرين بحكم أدوارهم على التفرقة بين الحقيقة والشائعة ، ولم تتوافر لهم الرغبة فى القيام بذلك . فمن البداية اقتصرت بضاعتهم على الكلام البليغ . فلا ننسى ما يجره عدم الثقة من ويلات . ولقد تصدع الايمان . وشيئا فشيئا ، اختفت فرصة استعادة الثقة بالملك وحواريه . وشاركت فى هذه العملية الأحداث الخارجية والطارئة ، وكشفت لأعضاء البرلمان عن مغزى قصة بيم وما تنبئ به من نتائج واضحة للعيان ، ومن ثم علينا أن ندرك وجود عدة أحداث شاركت فى صنع قرار بيم كؤميرات الجيش والمؤامرة التى جرت فى اسكتلندة ضد منتقلى الملك والتمرد الايرلاندى ، ومحاولة الملك القبض على خمسة أعضاء من البرلمان . وفى

(*) Ship money - ضريبة فرضت على الموانئ والمدن والأحياء السكنية

والريف البريطانى ، لجمع مبالغ من المال تخصص لانشاء سفن حربية .

كل مرة كانت تقع أحداث تؤيد وجود هذه المؤامرة ، وتثبت وجود بصمات الملك عليها . وبدأت المناوشات في وستمنستر ووايتهول في ديسمبر ١٦٤١ ، وبدأ حضور الملك لجلسة مجلس العموم بعد ذلك بضعة أيام كأنه تصعيد منطقي لكل ما قاله بيم وأعوانه منذ ٧ ديسمبر ١٦٤٠ . ولا بد أن يكون ريتشارد باكستر - وهو من بين من علقوا بعد ذلك على تفسير بيم للحرب - قد خطرت بباله تلك الأيام عندما كتب يقول : « لقد بدأت الحرب في شوارعنا ، قبل أن يتسنى للملك أو البرلمان حشد أية جيوش » .

وعلى الرغم من موجة العداوة التي تعرض لها بيم بعد ذلك ، إلا أنه كسب أتباعاً أقوياء في لندن في خريف ١٦٤١ . وعلق الوزير نيقولاس على العقبة الرئيسية التي اعترضت إعادة إعلان سلطة الملك فقال « ان الصخب الذي صحب النية للعودة الى العقيدة الكاثوليكية هو أول من تسبب في بغض الشعب لحكومة كل من الكنيسة والكومنولث » . ومن دلائل الروح التي سادت العاصمة (لندن) الرسالة التي أرسلها أوبريان المقيم في كوفنت جاردن الى سير فيليب برسيفال : « بالرغم من أنني أقسمت بالولاء لغبطة البابا وجلالة الملك ، إلا أنني لا أجرؤ على التمرد عليهما . فالاضطهاد أمر مريع جديد وشديد الوطأة » .

كان من الطبيعي أن لا تعي الأقاليم رسالة بيم إلا بعد مضي وقت طويل . غير أن المظاهرة الكبرى(*) قد كشفت في نهاية المطاف عن النية المبيتة . إذ أعرب آنتا. توماس ستكوديل من يوركشاير عن الاستعداد للتشهير باتهام الأعضاء الخمسة ، ووصفه بأنه مؤامرة يسوعية . وربطت الدعاية البرلمانية كل ما فعله الملك بين يناير ونوفمبر ١٦٤٢ والمؤامرة البابوية وزعم أن تطهير الملك لبعثة السلام في ١١ يوليو كان بمثابة مقدمة لتيسير التغير الكبير المستهدف للدين والحكومة ، مع الاكتفاء بذكر مثل واحد . واستمر وقع هذه الدعاية واضحا في الالتماسات التي قدمت في ربيع هذه السنة ، واستمرت أصداؤها تتردد عالية طوال الصيف . وجددت الالتماسات الجديدة الصيحات البيغوية لشهرى فبراير ومارس . وتمثل التفجرات التي ثارت في وادي ستاور ضد الكاثوليكية مدى ترحيب الجماهير بهذه الصيحات . وكشفت أعمال البحث في بيوت الرافضين في عدة مقاطعات عن وجود مبالغ طائلة من المال وأسلحة مكسمة ، ساعدت اعتمادا على براعة الدعاية المصاحبة لها على زيادة التوتر فحسب ، بدلا من أن تعيد الاطمئنان الى القلوب .

ويرجع انتصار بيم الى أنه عندما فرض مخاوفه من زحف الديانة الكاثوليكية بطريقة كاسحة على عامة الناس ، وما عرف عنهم من قابلية للتأثر بمثل هذه الأساليب ، فانه نجح في اقناع عديدين بتأهب البابويين لاشمال النيران . وانتشرت الشائعات - التي لم تكن بغير أساس بطبيعة الحال - بأن البابويين قد امدوا الملك شارل بما يحتاجه من مال . ووفقا لما جاء في أحد التقارير التي انتشرت في سائر الانحاء ، فان الملك قد تلقى بالفعل مبلغ ٨٠٠٠٠٠ جنيه استرليني من البابوية والاكليروس ونسب عامة الناس المرة تلو الأخرى عنوان الملكيين الى الرعايا الكاثوليك للملك . فرأينا جون أوزبورن يخطر هنرى أوكسيندن في ٢٧ يوليو « بانقضاض البابويين على لانكشاير ، وتهديدهم بانزال الولايات بالبروتستانت المقيمين في هذه البقاع » ، وأبلغ إيرل ستافورد أعضاء البرلمان في ٨ يوليو في معرض روايته للأحداث (*) : « لقد تأمر جميع البابويين واليسوعيين في انجلترا سويا لاحاق الدمار به وبأسرته » . وأبلغ صيدلانى من جراتنهام جاره الذى اعترف بمناصرته للملك قبل ذلك بأيام : « ان لديك قلبا عفنا داخل جسدك ، لأنك بتأييدك للملك ستضطر الى مناصرة البابويين » . وانتشرت الأقاويل عن البابويين ممن التفوا حول العرش في يورك وأعرب أحد الوجهاء (**) عن مخاوفه من احتمال استغلال « أمر البرلمان بنزع سلاح دعاة الانفصال محليا لتجريد أفضل البروتستانت ، وتركهم بلا حول ولا قوة، لكي يتكلم بهم البابويون - الذين كانوا ما زالوا غير مسلحين - ولكي يقطعوا رقابهم » واحتل جورينج بورتسموث في بداية شهر أغسطس ، وزعم أن ما ساعده على تحقيق هدفه هو العون الذى تلقاه من اربعمائة أو خمسمائة من «القرصان والبابويين» . وذكر أن سير بيغل جرينفيل - هكذا تقول الحكاية - زار أغلب الأعيان البابويين في كورنول وديفون - متنكرا - خلال شهر أغسطس لجمع الرجال والمال للملك . وتولى سير جون بيرون الزمام في اكسفورد بمساعدة لفيث من البابويين وغيرهم من الأشخاص اليائسين . وأبلغ قاضى المصالحة (***) فى كنت فى ٢٢ نوفمبر « عن انزعاج الفرق المدرية مما يفعله البابويون الذين ياقون كل ترحاب بعد أن أطلق اللودات سراح أحدهم من سجن مينستون ، بعد أن سمعوا فى جميع التصريحات أسماهم مقترنة بحزب الاسقفيين ، مصدر كل بلاء وشقاء » .

لم يعرف عن الزمرة المحيطة ببيم أنهم اتصفوا بقدر من السذاجة يدفعهم الى افتراض قيام البابويين وحدهم بتغيير العقلية الانجليزية وقلب

Leicetshire.

من (*)

Monmouth hire

من (***)

Lenthall

(****) ابلغ رئيس مجلس العموم لنتهول

حكومة إنجلترا . اذ اعتمدت براءة المخطط الكاثوليكي والمظاهرة الكبرى على مناصرة جماعة من رفاق السلاح مؤلفة من الاساقفة « أو الجزء الفاسد من الاكليروس ، بمعنى أصح » والمستشارين أو رجال البلاط ممن يعملون لصالح أنفسهم طمعا في المغانم التي يحصلون عليها مقابل اشتغالهم عملاء لئولة أجنبية . ويعكس رد الفعل السريع لاحتجاج الاساقفة على أحداث ٣٠ ديسمبر ١٦٤١ المزاعم التي تشبثوا بها بعناد وانحيازهم الى صف الحونة . وأزيح ستراتفورد من الطريق ، بعد أن اعتقد كثيرون أن هؤلاء الاساقفة يمثلون أكبر حزب مشبوه في المملكة . وعومل الاكليروس المنحل بعد اقتلاع جذوره بصرامة . فكما لاحظ أحد المعقبين(*) في ٢١ يوليو ١٦٤٢ : لقد اثبتت أبحاث المجلس أن الاكليروس الذين تسببوا في استيراد « مذاهب شريفة كالأرمينية » كانوا غالبا من أصحاب النفوس المفضوحة . وكتب رئيس البرلمان الى لجنة الأمن في ٢٢ أكتوبر يوحى بمصادرة جميع الأموال التي جمعت في عيد القديس مايكل ، بوساطة الاساقفة والعمداء والشمامسين « باعتبارهم عصابة من الأشرار الذين أثبتوا مسئوليتهم عن حالة الشقاء التي نعاني منها الآن » .

وتزايه تأويل فكرة وجود حزب شرير ينجح الى الحاق الأذى والدمار بالامة ، عندما تكشف أحداث أواخر ١٦٤١ ، وبدايات ١٦٤٢ . فلقده استدرج أشخاص مثل ديجبي وجورنغ بسهولة الى الشبكة . واعتقد ديويج أن جورنغ شخصية منحلة من الزنادقة ، تعمل لحساب البابويين لتحويل بورتسموث الى حامية ملكية . وتعذر تجاهل الحقيقة البسيطة التي كشفت عن مراقبة ضباط الجيش الذين حاربوا مواطني لندن في وستمنستر ووايتهول في نهاية ديسمبر ١٦٤١ للملك شارل في ٤ يناير ١٦٤٢ وتجرعهم لشراب نخبه في كنجسنون ، وأطلق عليهم منذ ذلك الحين اسم الفرسان . وما لبثوا أن تمتعوا بالحظوة عند الملك مثل مستشاريه راسخي القدم . ولاحظ سير جون هوتمان أن كثيرين ممن التفوا حول الملك عند بوابات هل في ٢٤ ابريل كانوا من المنتسبين الى البرلمان ! .

وهكذا انكشف الستار عن حقيقة المؤامرة ، أكثر من ذي قبل ، بعد أن كشف أنصارها الأبرياء عن أنفسهم . فلم يعد هناك من بين من تأثروا بدعاية بيم من يرتاب في تستر البابويين وراء الاساقفة والاكليروس والفرسان . ففي رسالة الى سيرجون بانكس في ٣١ مايو أجمل ايرل اسكس أعداء الأمة عندما وصفهم « بالمجرمين البابويين الراغبين في التريب على حساب متاعب البلاد » . وبعد ذلك بخمسة شهور ، وفي رسائله التي أعلن فيها احراز « نصر موفق » في ادجهيل نبذ بانكس الجيش الموالي

للملك ووصفهم اجمالا « بالأشخاص اليائسين المرضى بالولاء للدولة » ، ولم يبق غير قلائل من أمثال هنرى مارتن الذى ازدري خرافة الظن بان الملك أسير مسلوب الارادة من قبل مستشاريه . أما أغلب زعماء البرلمان فمن غير المستبعد أن يكونوا قد آمنوا نصف إيمان بدعايتهم . فرأينا توماس نول يكتب للناخبين فى نورويش فى ١٠ سبتمبر ما يأتى : « انى مقتنع بأنه لو شعر هؤلاء المجرمون ، والفرسان الذين فى معييتهم بالاطمئنان الى امكان النجاة بأرواحهم ، فان جلالة الملك سيسمعه حينذاك الحضور الى البرلمان ، ولعله شديد التأييد لهذه الفكرة » ، ولا يستبعد أن يكون معظم أعضاء البرلمان قد رددوا نفس النغمة . وليس هناك ما يدعو الى الارتياب فى اخلاص رسالة دنزيل هولز الى بانكس ، التى كتبت على عجل فى مجلس العموم فى ٢١ مايو . اذ كان واقفا من نزوع البرلمان الى الخضوع للملك وتعبير أعضائه عن كامل الولاء والاخلاص بمجرد ظهور أول علامات دالة على تغير موقف جلالته ، وتخليه عن المستشارين الذين دفعوه الى اتباع موقف البغض والمعارضة لكل ما يقومون به . وبذلك خانوا امانة ولائهم له .

وترجع قوة قضية البرلمانيين فى وستمنستر وما وراءها الى ما اتسمت به من مسلك تلقائى ، لم يحدث أى اختلاف بشأنه . فلم يكن هناك أى شك فى وصم أعداء الأمة بالأشرار المتعنتين . وبذلك غدا التواؤم والتناغم مع البرلمان والوثوق فيه رد فعل دفاعى وضرورى . وظهر هذا الاحساس واضحا جليا فى التماسات بواكير ١٦٤١ . وعبرت عنه بعض الاستعراضات الصيفية التى اشرفت عليها الميلشيا . وكم تأثر بها شديد التأثر من جاهدوا فى مجلس العموم حتى النهاية . وعبر دنزيل هولز فى حديث له فى ٢٧ يناير ١٦٤٢ عن اعتقاده بحفاظ البرلمان على معايير الاستقامة والالتزام بالواجب العام ، مما جعله يحظى بالتفرد كأداة يستعان بها لخلاص الدولة : « فكل من يسعى فى سبيل الحصول على الخطوة ، أو يعمل مدفوعا بغايات الود أو البغض ، أو أية غايات أخرى ، ولا يحرص على مراعاة الاخلاص فى فكره ، لا يستأهل الجلوس بين هذه الجدران . وكم أنا موقن أنه لن يدخل جنة الخلد أبدا » هكذا عبر سير سيمونىس ديويز فى ١٦ مايو عن شعوره بان كرامته وعزة نفسه مرتبطنان بما ينجزه «البرلمان طويل الأجل» . وأردف قائلا : « من ناحيتى أظن أن من يحملون بتحقيق السعادة لانفسهم بعد القضاء على البرلمان يملكون قدرا غير عادى من الحكمة يؤهلهم للصعود الى القمر ! ولست أرغب قط فى مشاهدة ذلك اليوم الذى يتحطم فيه البرلمان » .

على أن كل هذا لا يزيد عن أحد وجوه الحقيقة . فلقد عاش شارل الأول ومستشاروه الحميمون فى عالم عقلى مغلف بالمثل . فلقد زودته

تجربته في عشرينات القرن السابع عشر بنظرة هوائية مسممة عن البرلمانات، وبإحساس شديد بعلم الثقة في أشخاص بالذات ، اعتقد أنهم على استعداد لتهدى ملكه لأسباب شخصية وأناية • وازداد استعمار متاعبه هو والاسكتلنديين من جراء اعتقاده بأن البيورتان مشاغبون بفطرتهم • ولقد لازمته هذه الفكرة واستحوذت عليه، وترجع الى تأثره بكون(*)، والمساجلات التي دارت بينهما ايان ١٦٣٨ ، ١٦٣٩ عن امكانات مسارعة البابا بالنهوض لمساعدته • وصور كون التمرد الاسكتلندي بأنه حصيلة الشراهة والطموح المغلف بغلاف الدين • ورأى الملك - بكل بساطة - الشخصية الانجليزية بنفس المنظور • فلقد أخطر أعيان يوركشاير في ٤ أغسطس : « عدم استبعاده أن يسلمه البرلمان هو وإبنائه » لحننة من الأشرار الذين كونوا عصابة ترمي الى التخلص مني • وصرح لجيشه في ١٩ سبتمبر : « انكم لن تواجهوا أى أعداء، ولكنكم ستواجهون خونة معظمهم من أتباع براون(**) واللامعديانيين والملاحدين ، أى من الساعين لتدمير الكنيسة والدولة معا • وخص في مناسبة أخرى (***) قضيته على الوجه الآتى : « لقد عولمت من قبل حزب شرير قوى في هذه المملكة يهدف الى ما هو أدهى من تحطيم شخصى وتاجى وقوانين البلاد والسلطة الحاكمة للكنيسة والدولة • »

وامتدلت قوة شخصية شارل على احساسه الدائم بعدم استجابته لأحد غير الله • وتحدث على رأس جيشه قبل أن يخوض معركة ادجيل بيومين عن « الكفر اللانسانى ، المجرى من التقوى عند ذلك النفر الذى لا يستجيب لكلمته • » علما بأنه لا يهدف الى أى شىء غير اسعاد مملكته والدفاع عن الكنيسة والقانون وحرية رعاياه • وأصر على القول « ان علينا أن نتحرر من الطموح الذى يملأ عروق من يتصفون بالعظمة ويسعون لزيادة عظمتهم لأننا نحن الأعظم بالفعل ، وسيبقى الحسد والحقد بعيدين عنا ما دمنا لا نسعى للتنافس والتسابق • ولعل اساءة فهم الملك لأهداف خصومه ودوافعهم كانت خطورتها ستقل لو اختلفت شخصيته عن ذلك • اذ كان شارل من الأشخاص الذين أسرفوا فى عدم الوثوق حتى فى أشد الناس ولاء له • أما نظرة الآخرين له فقد تركزت على تصوره كشخصية محبة للعزلة تتسم بالجرأة ، غارقة فى ثقافة بلاطه الكوزموبوليتانية ، التى لم يفهموا أصلها وفصلها ، وراوه شخصية شديدة التعلق بزوجه الفرنسية ، التى لم يعينهم أمرها من بعيد أو قريب • أما ما دفعهم للارتاب فه - على حق - فكان ضلاله وميله للتأمر • وإبان ما دار من جدل حول تنفيذ قوانين

Con.

(١٤)

(*) (★) Brownists : انصار . Robert Browne (١٥٥٠ - ١٦٢٢) وقد

الف جماعة دينية متطرفة •

(★★) فى حديثه الى اهل Denbighshire فى ٢٧ سبتمبر •

المكابرة*) في برلمان ١٦٢٥ ، كان بمقدور أى عضو في البرلمان الاعتراض عليه دون وجل فكانوا يقولون «أن تعلق الملك بالدين يتبع أهواءه وأمانيه» . وما كان أحد يجرؤ على التفوه بمثل هذه العبارات قبل ١٦٤١ .

واهتزت ثقة الناس بشارل من جراء تززع سياسته وتردها ابان النصف الاول من ١٦٤١ . وجاء تشدده فيما بعد كأنه برهان يؤيد ما يقال عن استيلاء البابويين على لبه . وأدت أغلاط الملك - لا سيما انشقاق خمسة أعضاء من زمهرته - الى وقوع أحداث جسيمة ترتب عليها عدم حل الأزمة السياسية . وأسفرت بالمثل عن اصابة النظام الملكي (لعائلة ستيوارت) فى هذه اللحظة بالذات بالوهن . وكان بالاستطاعة الرد على مظالم ثلاثينات القرن السابع عشر باصدار قوانين جديدة . أما الحسارة المريعة فى الثقة التى نجت عن الغاء سياسات جيمس الاول الخارجية والدينية ، واقحام ثقافة ملكية غريبة ، فقد تعذر اعادتها لسابق عهدها . ولما كان نفوذ الملك قد تدنى لدرجة كبيرة ، لذا لم يكن مستغربا تعرضه لما شاع من قصص المؤامرات التى تحدثت بيم عنها .

فلقد لاحظ ايرل بريستول فى حديث الى اللوردات فى ٢٠ مايو ١٦٤٢ « بأن امراضنا ترجع الى أوهاطنا وشعورنا بالزهو بأنفسنا (وأعنى بذلك مخاوفنا ومظاهر غيرتنا) أكثر من ارتدادها الى أى سقم حقيقى أو خلل » . وجاء تحليله حصيلة لما أدركه ادراكا فعليا : « من اليسير تهدئة الاختلافات التى ترد الى أسباب معقولة ، بل ومن الممكن التهوين من الشعور بأية اساءة ، وتفوق قدرتنا على ذلك القدرة على تخفيف حالات الغيرة النابعة من عدم الثقة بالنفس ، التى تتعرض للتفاقم والتشكل فى أشكال شتى توائم كل مناسبة » . وعرض معقب آخر (**) تحليلا رصينا مماثلا فى رسالته الى سير جون بانكس قبل ذلك بيوم واحد : « من الواضح الجلى ، أنه لا الملك ولا البرلمان مجردان من المخاوف وبواعث الغيرة . فالملك يخاف ويفار خشية فقدانه لسلطانه والمدوان على حقوقه . أما البرلمان فيخاف ويفار من فقدانه للحرية التى يتعين أن يتمتع بها الرعايا الذين ولدوا احرارا ، والتى تسمح بها قوانين البلاد » . وصرح نورثمبرلاند وهو يتذكر عبارة قبلت ١٦٢٨ : « لعل تغيير الحكومة من الأمور التى يخشاها الطرفان » . وكان بعض البرلمانيين صرحاء عندما أبلوا الاهتمام بالحفاظ على حرياتهم . فكتب سير رالف فيرنى فى يونيو ١٦٤٢ : « فحتى نتمتع بالسلام ، لابد أن نستمتع بالحرية . واذا لم أستمتع بالحرية ، فأننى لن أنشد السلام » .

(*) Recusancy laws القوانين التى صدرت لالزام الموالئين باتباع الشعائر

التي تفرضها الكنيسة .

Northumberland.

(**)

صميم فؤادى ، • واقتنع جون هاتشنسون بوجود مؤامرة لاعادة العقيدة الكاثوليكية « الا أنه لم يؤيد اتخاذ هذه النديمة كمبرر للحرب ، مثل الدفاع عن الحريات الانجليزية العادلة » • ولقد وردت هذه الرواية على لسان زوجته • والظاهر أن ما أفصح عنه فرني وهاتشنسون هو علم قدرتهما على الوثوق في امكان حكم الملك باتباع القانون •

ومن المهم حيويًا التفرقة بين المشكلات التي نارت من وراء الازمة السياسية ١٦٤١ و ١٦٤٢ (كتلك الخاصة بالميليشيا وتعيين مستشارين وما ترتب عليهما) • وليس من شك أن إيرل بريستول وإيرل نورثمبرلانده قد أدركا هذه المسألة ادراكًا صحيحًا • إذ استنتجت الحرب الأهلية على وجود علم ثقة متبادلة •

فمنذ وقت باكر يرجع الى ١٦٢٦ ، ازدادت المخاوف من فكرة المساواة ، من ناحية ، ومن العقيدة الكاثوليكية من ناحية أخرى • واعتقد من منظور الحياة الانجليزية المعاصرة بوجود هوية بين هاتين الناحيتين • انها مخاوف يعكس كل طرف منها المخاوف الأخرى ، وتتبادلان التأثير على نحو غريب • إذ ساعدت كل منها بالضرورة على ترسيخ الأخرى • وما حدث ١٦٤١ ، ١٦٤٢ هو تعرض طائفتين من الناس للتقييد كسجناء للأساطير المتنافسة التي تتغذى كل منها على الأخرى ، بحيث بليت الأحداث وكأنها تؤيد تفسيرين متعارضين للآزمة السياسية • وكان التفسيران أصلا نتيجة لاساءة تصور ووقوع في الخطأ • ولربما بدا هذا الأساس أساسا هشًا لا يبرر قيام الحرب الأهلية • غير أن الحرب يجب أن ينظر إليها على ضوء اجذاب مخيلة القرن السابع عشر • إذ كان المجتمع حينذاك مجتمعًا يفتدى فيه الناس من أجل عمليات تفتقر الى القدرة على تصور الأنظمة السياسية والموازنة بينها • وكان هذا المجتمع شديد الاتباع لنظرة تقليدية للعالم تراه مكانًا لا يتوافر له « الا قدر محدود من الخير » ، ولا يتسنى لأى شخص أن ينعم بالخير الا على حساب شخص آخر •

لهذه الأسباب ، فلا بد أن يخفق أى بيان عن أصول الحرب الأهلية يتجاهل انصاف مضمونها الأيديولوجى استنادا على ما شابه من خلل • فاذا كان الخوف وانعدام ثقة الأمة قد جعلا الحرب أمرا لا مفر منه ، الا أن هناك - يقينا - عاملا آخر أكثر اتصافا بالايجابية دفع الناس الى امتشاق الحسام ضد بنى وطنهم • إذ كان هناك عديدون على الجانبين ١٦٤٢ يعتقدون أنهم يحاربون فى سبيل قضية ما ، وأن رسالتهم لا تقتصر على الدفاع عن الدولة ضد حفنة منشقة أو ضد احدى المؤمرات • نعم لقد اندلعت الحرب الأهلية لوجود توائم بين اساءة الفهم الميئوس منها ، وعدم الثقة التى لا تقبل المصالحة ، مما أدى الى نشوب صراع أيديولوجى شرس •

ولعل تعريف ايدولوجية الملكيين ، كان الأصعب عند اندلاع الحرب ، لأنها لم تتبلور الا حثيثا . ومنحت المشاعر التعميمية الهلامية الملك قدرا كبيرا من التأييد المبدي ، وان كانت هناك تلميحات باستناد مناصرة النظام الملكي على دعامة من الاتجاه الانتقادي لاهداف النخبة المسيطرة على وستمستر ، وتكتيكاتها ، وتكشفت المثالية الموجبة التي ساننت أولئك الملكيين ، وتوطدت ، خلال ١٦٤٢ . وانصب جوهر هذه المسألة على التمسك بالتصور التقليدي المعتدل لدور الكنيسة في المجتمع ، مع التشديد على أهمية اتباع نظام خاص في العبادة وحكومة الكنيسة على السواء .

أما جوهر الايدولوجية عند البرلمانيين فكان قوامه الربط في عقول الناس بين الكفاح ضد العقيدة الكاثوليكية والحفاظ على الدين الحق . وأرجع أحد المؤرخين جوهر الصراع مع الملك « الى الصدام بين الدين الحق والعقيدة الكاثوليكية » . ولن يتسنى لنا فهم حماسة البرلمانيين في بداية الحرب الا اذا قدرنا مدى ما اصاب كثيرين منهم من احباط من المظهر المتقلب للكنيسة التي اتخذت موقفا متراجعا بين الاصلاح الديني وما استلهمته من رؤياها لأورشليم الجديدة ، والصلمة التي أحدثتها اعتداء الملك في العقد السابق على التيار الأساسي للأنجليكانية البيورثانية المعتدلة . وكما بين هولز في حديث له في ٢٢ يونيو ١٦٤٢ : « لقد رأى البروتستانت مدى ما تعرضت له حقيقة الدين وجوهره من تآكل من تأثير المظهريات الفارغة والاحتفالات غير الضرورية ، والأخطاء الفادحة للعقيدة الكاثوليكية والأرمينية ، التي فرضت علينا تحت اسم مذهب كنيستنا ، فافتتح الباب على مصراعيه أمم جميع مظاهر الفجور » . ووصف مقسمو الالتماس باسم « اسكس » الدين بأنه أنفوس من أرواحهم وحريراتهم : « ان هدفنا الرئيسي هو الحفاظ على الدين » كما صرح أحد أعضاء البرلمان في معرض تعليقه على رد الملك على الاقتراحات التي أرسلت الى قصر بيفرلي في ٢٥ يوليو : « لقد بنا الآن ان الغرض الأساسي للبرلمان هو تحطيم الدين » .

أما بيت القصيد وراء هذه الأزمة فقد كان مستقبل الكنيسة ، وليس مشكلة ايليشيا أو تعيين المستشارين ، والعبارات المباشرة عن انعدام الثقة السياسية . وكان على رأس الموضوعات التشريعية المطروحة على مجلس العموم في صيف ١٦٤٢ مشروع الدعوة لاجتماع رجال الدين ، والغاء التعددية ، واستئصال البدع الأرمينية واستبعاد القسس المنحلقين ، وكانت هذه المشروعات هي التي حاول أعضاء البرلمان التعجيل بعرضها على مجلس اللوردات ، مما دفعهم الى الاسراع في الاقتراح التاسع عشر على اعطاء الصدارة لمعادمة محادثات أكسفورد في الأشهر الأولى من ١٦٤٣ .

وذكر ديويز(*) في حديث له في يوليو ، « أنه بينما أعلن بصراحة عن حقوق الرعية في التمتع بالحرية والامتلاك ، الا أن المسألة الأساسية التي مازالت تحتاج الى طمأننتنا هي اصلاح الدين » . اذ كان ديويز من بين من اعتقدوا أنه من واجب البرلمان درء خط تكرار هجوم الأرمينيين على الدين الحق ، بعد ادراك مقدار الاساءة الناجمة عن هذه الاحتفالات ، والتي لا تعد ضرورية. بأى حال ، ومن ثم يتحتم الغازها تماما ، وبذلك تنتهى متاعبنا التي نعاني منها فى سبيل ارضاء أصحاب الضمان الضعيفة ، الذين يقبلون عليها ، والتي ما كانت لتستمر باقية بدونهم » . وقبل ذلك بأيام قليلة ، شدد ديويز على القول بأن البرلمان لا يرغب تعديل « أى جزء أساسى أو جوهرى من ديننا الراسخ » وكل ما يسعى اليه هو تعديل بعض أشياء فى الاطار الخارجى ، أو فى حكومة الكنيسة » . وما يدعو الى السخرية ، أنه بينما قدح الملكيون فى البرلمانين لصفحة عن المتصيين ، الا أنهم قد لجأوا فى الواقع الى وسائل قمعية . فمثلا فى سبتمبر ١٦٤٢ ، سجن أحد عمال الطرق بأمر مجلس العموم ، لانه قام بالوعظ علنا فى هولبورن .

ولم يكن باستطاعة زمرة البيورتان فى معسكر البرلمانين التنازل عن اعتقادهم فى علو مكانة الحقيقة . ثم غدا هذا الاعتقاد متعارضاً هو ودعوة فوكس التقليدية للولاء للحاكم الذى يحكم باسم الله : وهكذا تحول التيار المناهض للكاثوليك الى دفع الناس الى العصيان . وهكذا يكون الملك هو الذى فتح الطريق للدعوة الى الحرب الحفية التى تفجرت من منابر لندن ١٦٤٢ ، وهو الذى أرغم فئة عليّة القوم على التحالف على نحو غير طبيعى مع البيورتان الراديكاليين ممن ينتمون الى مرتبة متدنية من المجتمع . وباختصار يصح القول بأن الصلة بين البيورتان والحرب الأهلية كانت الى حد كبير من صنع شارل الأول .

وفى بداية الحرب ، كان التأييد الشعبى مسألة حاسمة لتدعيم البرلمانين . وفى مقاطعة مثل سوسكس ، ما كانت الياجارية البيورتانية المحصنة لتقدم على خوض معارك البرلمان بغير اعتماد على الحماسة التلقائية لعائلات الأعبان فى الاحراج والأقاليم الشرقية . وهى حماسة تغذت لسنوات طويلة على مشاعر التقوى التى اشتهر بها البيت الانجليزى ، والتظام لامة كه منولث يرعاه الله ، واذا كان بعض الأشخاص(**) قد قاموا بدور الزمامة الضرورية ، فان اشخاصا (***) آخرين قد ساندوا قضية

D'Ewes.

(*)

(**) من أمثال John Herbert Morley, Sir William Bereton Pyne.

(***) من المشتغلين بالتجارة وفى مقدمتهم Nehemiah Willington من لندن

وتاجر الائمة Samuel Priestley ومن اهل المدن المتحمسين مثل John Coulton

البرلمانيين في هذا المضمار . ويمثل وصف وارتون لزحف البرلمانيين الى وورستر صورة للنضال البيورتاني . وكتب وارتون بعد التقهر الى كوبرى بويك : « على الرغم من اننى وآلاف عديدة كنا معرضين للتهلكة ، الا اننى كنت واثقا من مناصرة الله لنا في نهاية الامر » . وترك لنا شقيق بريستلى بينة عرفتنا كيف ذهب الى الحرب برغم توسلات أسرته ، مفضلا الاصرار على الموت في سبيل قضية خيرة على رؤية مأساة كتلك التى وقعت في ايرلاندة، وخطط لها في انجلترا . وتعتبر رسالة صمويل تيرنر لآخيه في لندن عن حملة الفرسان على هنلى فى يناير ١٦٤٣ عن نفس الروح : « لا جدال فى وجود وصف من لم ير الله حاضرا فى كل لحظة من لحظات هذا القتال ، عاملا على اتقاننا (وفركشة) أعدائنا بأنه قد فقد نعمة البصيرة » . وعندما سمع رالف جوسلين الذى ذكر أن « دوافعه للاسهام فى تقديم المقترحات كانت نابعة من مشاعره نحو الله وكتابه المقدس » بأنباء ادجهيل بعد المعركة بثلاثة أيام ، أثناء توجهه لالقاء موعظة أحد أيام الصيام ، لاحظ توافق موعده هذه المعركة ومواعيد صلواته فى يوم الأحد السابق لها : « عندما كنت ادعو الله أن يؤازرنا ضد أعدائنا » ، وهذا ما يؤيد القول بأن الحرب الأهلية الانجليزية كانت حربا دينية ..

وهكذا اندلعت الحرب فى انجلترا ، وسالت فيها السماء على نحو ما كان أحد ليتكهن به ، أو يتوقعه قبل ذلك بسنتين . لقد كانت حربا غير طبيعية ، مثلما أدرك الناس آنئذ . واستند احساس الانجليزى بالأمان فى هذه الحقبة على ايمانه بما اتصف به المجتمع المدنى من توازن وتناغم وكرامة . وبإمكاننا أن ندرك حتى بالرجوع الى الفن المصارى وتماثيل الكنيسة فى هذه الأثناء الى أى حد تمسكوا بهذه المعتقدات . فلم يكن الأشخاص مهينين للتوفيق بين التغير السياسى أو الانقلاب السياسى وبين دعائم عالمهم النهنى . فلقد أحدثت الحرب الأهلية انفصاما عما سبقها من أحداث ، وأزغمت على التحرر الموجه من الماضى . فاذا لم توصف هذه الحرب بالحرب التى لا مفر من وقوعها ، فان هذا سيبرر شعورنا بأسويتها . فهناك خليط عجيب من الحمق والمثالبية يكمن وراء الأحداث التى تحدثنا عنها . وعندما اندلعت العداوات ، كانت مصحوبة بمظهر هزل ، أضفى على الحرب صورة رقصة الموت (ماكابر) . فلقد ذبح الملكيون ثمانية من رجالهم عندما انفجر أحد المدافع أمام قلعة وارويك فى أغسطس ١٦٤٢ ، وطاحت رؤوس أربعة جنود فى لواء بدفورد « نتيجة لاهمالهم العناية بذخيرتهم » أثناء تقدمهم نحو شربورن بعد ذلك بأسابيع قليلة .

وآخر انطباع ترك اثره فى عقولنا هو الانفصالات التى أحس بها الأفراد من جراء تورطهم فى هذا المأزق، بعد وقوع الرجال والنساء فى صراع لا ناقة لهم فيه ولا جمل ، وان صح القول بأنه كان من صنعهم . اذ بدأ للمديد من

أبناء الفئة الحاكمة لانجلترا أن الحياة المتحضرة على حافة الانهيار . ولقد عرفنا من رسائل مختلف الأفراد الأحران التي شعروا بها من جراء توقعهم اندلاع الحرب . ففي تلك الأيام الباكرة التي سادها الوثام من عهد البرلمان طويل الأجل ، كان أحد البسطاء (*) يحلم بكوخ في الريف فقال لزوجته : « أتخيل وجود بيت صغير نعيش فيه سويا على خير حال حيث نضي ما بقي لنا من أيام في سلام ديني ، لأن هذا البرلمان سيحقق السلام والسكينة لنا جميعا » . وفي صيف ١٦٤٢ ، تأمل حالة بنى وطنه في أسى : « ان كلا الطرفين يسمى لاتباع القوانين . غير أن المشكلة لا تنصب على كيف سنحكم حكما شرعيا ، بقدر تركزها على من سيكون السيد والفيصل الذي يحتكم اليه عند تنفيذ هذه القوانين . انها حالة مؤسفة أن تستنزف ثروات هذه البلاد ونفاثساها - وربما دعاء أبنائها - في قليل من الغايات المراوغة » .

وشعر المعتدلون المخلصون بأوجاع أشد . انهم الأشخاص الذين لم يكن بمقدورهم ادراك النزاع كمسألة نظرية ، وان لم يكن باستطاعتهم تجنب الانحياز لفريق أو آخر . وكان أثر هذه الحرب على الصداقات الوطيدة التي تمتد جنورها في أغوار بعيدة ، أشد ايلاما . وعبر اللورد ساقيل في رسائله الى الليدى تمبل في خريف ١٦٤٢ عن شعوره بالمرارة لما حدث من قذح في سمعته في وستمنستر ، ولكن ما أثلج صدره هو تعرض صديقه الفيكونت ساي لتزييف صورته في جميع المحافل . وكتب سير جون بوتس الى ديويز ٢٢ سبتمبر : « عليك أن تنصف صديقك وتحميه من اللالسة الفحاحة ، التي أسمع قرقتها بأذني . يا سيدى اننى أؤكد لك ان ضميرى يدفعنى الى التمسك بالكومنولث الذى لن أحمده عن الولاء له » .

لم يتخيل أحد من العديدين من أبناء الأعيان وعلية القوم الذين ناضلوا أثناء الحرب الأهلية حدوث نصر فوري لأحد الطرفين . وأعلن ساقيل : « لن أرضى أن يمتن الملك البرلمان ، كما لا أرضى أى حظ من قدره ، قد يفسح المجال لعامة الناس لى يتحكموا فينا جميعا . فبرغم شدة حبى للملك ، الا أنه لا يسعدنى أن أتخلى عن البرلمانيين ، رغم أنهم كانوا مخطئين » . واعترف سير وليم وولر فيما بعد بمقته للحرب رغم اشتراكه فيها . ولكنه كان يرغب دائما « أن لا يصاب أحد الطرفين بسوء على حساب فوز الطرف الآخر » . وكتب جون هوتام لايرل نيوكاسل فى ٩ يناير ١٦٤٣ ما يلى : « اننى كالأخرين أمجد الملك الى حد كبير ، وأحب البرلمان ، غير انى لا أميل الى رؤية أحد الطرفين يقهر الطرف الآخر قهرا مطلقا ، لأن هذه النتيجة ستمتد اغراء كبيرا لفرض الارادة وممارسة العنف » .

وساقت الحرب الأهلية طبقة الأعيان الى الظلمات ، وحاولوا استبقاء مظاهر الحياة ، كما عرفوها ، بينما كانت البلاد معرضة للقضاء من اثر الصراع . وكتب جون هوثام الى نيوكاسل في رسالة (١٨ ديسمبر ١٦٤٢) يطلب مبادلة الأسرى : « يا الهى ! كم اعتبرها منة كبرى أن لا تحول هذه الاختلافات - التى أرجو الله أن يصلح أمرها - دون دفعك الى تناسى صداقتنا القديمة » . ولعله لا وجود لرسالة ماثلت الرسالة التى كتبها احدي السيدات (*) فى ٢٧ ديسمبر ١٦٤٢ فى تعبيرها عن مرارة الحرب الأهلية ، وفيها تحدثت عن المعاملة التى لقيتها من قبل أنصار الملك فى هرفورد شاير :

« ان أفكارى شاردة فى تيه . ولست قادرة على الاهتداء الى اجابة تعرفنى لماذا يعاملوننى على هذا النحو ؟ وعندما أراجع نفسى لا أرى شيئاً غير المحبة والاحترام يفران فؤادى . وعندما أتأمل الصلات العديدة التى ربطت أغلب وجهاء هذا البلد بسير روبرت هارلى ، وبعضها صلات قرابة ، وبعضها الآخر صلات زمالة ، الى جانب صداقته المخلصة الطويلة والاكيدة لى بفضل أدبه الجم وحسن معاملته لامرأة غريبة وفدت الى بلاده ، فانى أعجب من هؤلاء الناس ، فيرغم تحليهم بالأخلاق الكريمة ، فانهم استطاعوا الابتعاد عن جميع هذه الالتزامات » .

نعم لم يكن بمقدور عليّة القوم آنثذ أن يدركوا علم احتمال نشوب ثورة انجليزية .

المراجع

- R. Ashton, *The English Civil War. 1603-1649* (1978).
- W. Haller, *Liberty and Reformation in the English Revolution* (1938).
- C. Hibbard, *Charles I and the Popish Plot* (1983).
- C. Hill, *The Century of Revolution 1603--1714* (1980).
- D. Hirst, *The Representative of the People ?* (1975)
- J. P. Kenyon, *Stuart England* (1978).
- J. Morrill (ed.) *Reactions to the English Civil War (1642-1648)* 1982.
- J. Morrill, *The Revolt of the Provinces : Conservatives and Radicals in the English Civil War 1630-1656* (1980)
- J. G. Pocock, ed, *Three British Revolutions 1614, 1688, 1776* (1980).
- C. Russel. *Parliaments and English Politics 1621-1629*, (1979).
- L. Stone, *The Causes of the English Revolution 1529-1642* (1972).
- L. Stone, *The Crisis of the Aristocracy 1558-1641*, (1965).
- D. E. Underdown, *Revel, Riot, and Rebellion : Popular Politics and Culture in England (1603-1660)* 1985.

الحكم الفردى للويس الحادى عشر

ريتشارد بونى

ادت سنوات الحكم الفردى للويس الرابع عشر لفرنسا (١٦٦١ - ١٧١٥) فى اغقاب موت الكاردينال مازاران الى توطيد اقدام السلطة الملكية المطلقة فى فرنسا ، وجات بنموذج سيمى تطلع للملوك الاوربيون الاخرون لتقليده ، فلقد امسك لويس زمام جميع السلطات السياسية فى يديه . اذ كان الملك نفسه ، وليس رئيس وزرائه ، هو المسئول عن الحكومة . فلم يكن بمقدور أى شخص آخر او مجموعة من الأشخاص ، او هيئة من الهيئات التمتع بقوة مماثلة لقوة الملك الحاكم ، كما لم يكن باستطاعة احد تحدى ارادة الملك السياسية .

وفى البداية ، وضع لويس جميع وزرائه تحت سيطرته المباشرة ، وكشف عن نوع الولا الذى يتوقفه من اتباعه ، ونوع الخدمات التى ينتظرها منهم ، عندما قبض على فوكيه المسئول السابق عن المالية الذى تربع من وظيفته . وفيما بعد ، تجاهل لويس ما قام به وزيره الذى حظى باعظم تقدير منه (يعنى كولبير) ثم اقدم لويس بعد ذلك على كبح جماح استقلال المدن ، بحيث يتسنى للحكم الملكى المركزى فرض الضرائب على ايرادات هذه المدن ، ثم شرع فى تحديد الحقوق المدنية للبروتستانت الفرنسين . وهى سياسة ازداد تصاعدها بعد نقض ميثاق نانت ١٦٨٥ . ولما كان لويس قد شهد فى طفولته التمرد الارستقراطى المعروف باسم « الفروند » ، فانه بذل جهدا كبيرا لتقييد سلطات النبلاء ، ممن اكتسبوا اللقب بحكم الولد او المنصب الذى شغلوه ، وحد بطريقة صارمة من سلطة البرلمانات العلوية التى كانت بمثابة مجالس يسيطر عليها النبلاء . وقصد الملك بهذه الاجراءات السياسية الحد من سلطان أية جماعة قد تحاول تأكيد استقلالها بالسلطة ، او تقدم على أى فعل غير خاضع لارادته .

Political Change in France : Richard Bonney

(*) نقلا عن

• (١٧٧٨) under Richelieu and Mazarin

وفي نهاية المطاف ، فقد احاطت بسياسات الحكم الفردي للويس الرابع عشر احداث عديدة مثيرة للسخرية . فلقد سعى لرفع شأن النظام الملكي ودعم سلطانه داخل البلاد حتى يتسنى له اتباع سياسة خارجية عدوانية . واحتاجت مغامراته خارج فرنسا الى استمرار امتشاق السلاح والتأهب للحرب ابتداء من ١٦٦٧ حتى ١٧١٢ . غير انه عندما حل هذا التاريخ الأخير ، كانت الحروب التي شنها قد جردت مملكته من خيرة اهلها ، وجردت ارضها من الأخضر واليابس ، واضاعت من سلطات النظام الملكي ذاته ومن مكانته .

كان لويس الرابع عشر قد اكتسب خبرة فعلية بالحكم ، عندما أعلن عن نيته حكم البلاد بغير حاجة الى رئيس للوزراء ، في اليوم الذي تلا وفاة مازاران (٩ مارس ١٦٦١) . وكان الملك الفتى قد ترأس لأول مرة المجلس الأعلى للدولة في ٧ سبتمبر ١٦٤٩ عندما كان في الحادية عشرة من عمره . وكان أول قرار سياسي أصدره عندما مارس سلطاته هو القبض على الكاردينال دي ريتز (١٩ ديسمبر ١٦٥٢) . وبين ١٦٥٣ و ١٦٥٥ ، كان مازاران ولويس يلتقيان لمدة ساعة يوميا على الأقل لتصريف أمور الدولة . ولاحظ موروزيني سفير فينسيا أنه عندما كان لويس يعتقد أن القرارات المتخذة لا تلائم مصلحته - بالرغم من اقرار الآخرين لها - فانه كان يوقف العمل بها ، ويصمم على رفضها (١) . وهكذا عرف مازاران لويس في تودة ، ولكن بطريقة تدريجية ، أسلوب الحكم . وخشى أنصار الفروند من استغلال مازاران لمركزه كمشرف على تعليم الملك الفتى فيلقنه السياسة في صورة زائفة وضارة (٢) .

وأثبتت الأيام صحة مخاوفهم . غير أن وظيفة مازاران كرئيس للوزراء ، وليس كمشرف على تعليم الملك ، هي التي أتاحت له فرصة تعليم لويس مبادئ السياسة . وهكذا كانت المبادئ التي استرشد بها لويس في السنوات الأولى لحكمه الفردي في أغلب النواحي تقريبا تعزيرا للسياسة التي اتبعها مازاران قبل موته . والحق ان لويس قد طبق المبادئ التي صاغها مازاران وهو على فراش الموت ، والتي املها لويس على أحد سكرتيريه في ٩ مارس ١٦٦١ . ومن ثم يعد لويس الرابع عشر تلميذا لمازاران في السياسة .

Ne conviennent pas vraiment à son service, quoiqu'elles (١)
soient approuvées par les autres il les casse, en les désapprouvant
résolument.

Fausse et pernicieuse politique.

(٢)

ونصح مازاران لويس باحترام سيادة المجالس السيادية ، ولكن عليه قبل ذلك ان يورغم أعضاء هذه المجالس على التزام حدود واجباتهم ، وكانت النتيجة المباشرة لهذه الوصية هي القرار الذي أصدره في ٨ يوليو ١٦٦١ ، والذي يؤكد سيادة مجلس الملك على المجالس السيادية . واعتبر برلمان باريس هذا القرار (*) صفقة قاضية ضد كرامة المجلس السيادية . ولكن لويس كرر التأكيد لهم بأنه لم يقصد بهذا القرار « المساس بسلطة هذه المجالس ، وإنما المقصود فقط هو تنظيم مهامه على نفس النحو الذي اتبع في تنظيم المجلس الأعلى » (**). واتبع لويس هذا الاجراء في ٢٥ أكتوبر ١٦٦٥ بان أعاد تسمية المجالس السيادية بالمجالس العليا . وعلق على هذا القرار في مذكراته بالقول : « لقد جعلت المجالس تتمتع بالسيادة ، ومنحتها استقلالها . ولقد دفعتهم الى ادراك علم استطاعتى تحمل تجاوزاتهم » (٢) . وفي ١٦٧٣ ، تقييد حق الاحتجاج والتظاهر ، فلم يعد من الميسور تقديم أى احتجاج الا بعد اتخاذ اجراءات قانونية مناسبة . ولربما لم يقصد لويس بهذا الاجراء ما هو أكثر من الاجراء الوقتى المناسب لحالة الحرب ، ولم يهدف الى تطبيقه بصفة دائمة . وعلى أية حال فلقد ظلت فرنسا فى حالة حرب أو حالة استعداد للحرب منذ ١٦٧٣ حتى وفاة لويس ١٧١٥ ! وهذا يعنى أن القرار ظل ساريا طيلة حياته . وكما انكشف الدور السياسى للمجالس، كذلك تضاءلت امتيازاتها الاقتصادية . فحتى ١٦٦٥ ظلت الجهات المعنية تمارس مهامها الاستثمارية بدرجة معقولة . ومع هذا فقد حدث تخفيض للامتيازات المالية بعد ١٦٣٩ ، ثم أوقفت تماما ١٦٤٨ ، ثم تعرض أعضاء البرلمان فى اكس وروان لعملية حط لمرتبة وظائفهم بعد انشاء نظام لمنح الاجور كل ستة شهور ، وان كان هذا النظام قد أدى فى الواقع الى مضاعفة مصروفات هذه المجالس . ومع هذا فقد تصدى الأعضاء لهذه الاجراءات واستعانوا بالقوة المسلحة ١٦٤٩ ، ونجحوا فى الغائها . غير أنه بعد ١٦٥٢ لم يتكرر التجاء أى برلمان للقوة المسلحة ضد سلطة الملك ، ولم يصدر بعد

Un coup fatal à la dignité des compagnies souveraines. (٤)

Les compagnies ... se regardaient comme autant de souve- (★★)

rainetés : éparées et indépendantes

(٢) نصح مازاران لويس باحترام المجالس السيادية مع « ارفاعها على التزام حدود واجباتها » . وكانت النتيجة المباشرة لهذه النصيحة صدور القرار (٨ يوليو ١٦٦١) الذى يؤكد سيادة المجلس الملكى على المجالس السيادية . واعتبر برلمان باريس هذا القرار « لحظة قاضية تمت كرامة المجالس السياسية ولكن لويس عاود التأكيد لهم « بأننى لم أقصد من القرار تقليص السلطات السابق منها فى أكتوبر ١٦٦٥ ، باعادة تسمية المجالس السيادية بالمجالس العليا . وعقب على ذلك فى مذكراته بالقول : « لقد اعتبرت المجالس نفسها ذات حقوق منفصلة ومستقلة .. ولقد افهمتهم اننى لن اطين تجاوزاتهم » .

١٦٦٦ إلا القليل من القرارات التي تنقض القرارات الملكية . بيد أن هذا التدهور السياسي لم يدم طويلا . إذ استطاعت البرلمانات الاقدام على اتخاذ خطوات سياسية فعالة مرة أخرى بعد ١٧١٥ . أتبتت أهميتها على المدى القصير على أقل تقدير . وتوافقت هذه الخطوة هي وانتصار الحكومة في الميدان السياسي المنظرى بغض النظر عن النظريات البروتستانتية كتلك التي وضعها جوريو (*) بعد ١٦٨٥ . أما الآراء الداعية للمقاومة - خصوصا المقاومة عن طريق المؤسسات القانونية - فقد اختفت بالفعل من فرنسا . ولم يعد هناك أصحاب نظريات من بين شاعلي الوظائف يتبعون الطريق الذي اتبعه شارل لويسو (**) ، ويجادلون دفاعا عن حقوق المجالس السيادية ضد حكومة لويس الرابع عشر . وهكذا توقف شاعلو الوظائف عن اصدار نظريات أو تعليقات سياسية . وكان هذا التدهور من أهم مظاهر موقف المجالس السيادية ، التي لم تعد قادرة على الدفاع عن نفسها في ديسمبر ١٦٦٥ عندما خفض كولبير - بتعسف - مرتبات العاملين ، بعد أن اكتشف ضخامة الاعتماد المخصص لذلك ، مما يحرم أبواب الاقتصاد الأخرى القيام بأية عمليات استثمارية منتجة . وحاول هذا الاجراء تخفيض اعتماد بعض الوظائف القائمة بمقدار الثلث . وفضلا عن ذلك ، فقد شهدت المجالس السيادية تضاؤل عدد القضايا المعروضة عليها نتيجة تشكيل عدة مجالس تابعة للملك بصفة مباشرة إبان ستينات وسبعينات القرن السابع عشر كمجلس العدالة ومجلس تعديل امتيازات النبلاء ، ومجلس مراجعة الديون والاشراف على موارد المياه والغابات . . . وهكذا . وبذلك فقد أعضاء المجالس قدرا كبيرا من دخلهم ومن الهدايا العينية (***) ، مما أثبت أن الوظيفة كانت مصدر رزق مهين . وأنشأ لويس الرابع عشر ما لا حصر له من الوظائف الجديدة ، كان من بينها بعض وظائف تابعة للبرلمانات ، وبخاصة في تسعينات القرن السابع عشر . وخفض مرتبات شاعلي الوظائف القائمة دون تعرض لأية مقاومة من المجالس تماثل المقاومة التي واجهها في أربعينيات القرن السابع عشر . وربما قام مازاران بتحذير الملك من طموح فوكيه . ومن المؤكد أنه أخبره « أن الملك الذي لا يقدر على الحكم لا يستحق أن يحكم » (٣) . وهكذا يكون القرار الذي اتخذه الملك بالحكم دون رجوع لرئيس الوزراء ، والذي أعلنه في ١٠ مارس ١٦٦٦ تطبيقا لاحدى رغبات مازاران وهو على

(*) Pierre Jurieu (١٦٢٧ - ١٧١٢) عالم اللاهوت الفرنسى البروتستانتي . وعرف بتجادلاته مع بوسويه وكسبييه للويس الرابع عشر .
 (***) Charles Loyscau .
 (**) Epices .
 (٣) :Un roi qui ne pouvait gouverner n'était pas digne de regner .

«فراش الموت» وأوحى مازاران الى لويس أيضا بتعيين كولبير كمساعد لفوكيه . وعلى الرغم من قيام كولبير بخدمة مازاران باخلاص منذ ١٦٥١ – وبذلك بدأ وكأنه يمثل استمرارا لسياسة الحكومة – الا ان انتقاده لفوكيه بدأ سنة ١٦٥٩ قد تضمن تصميمًا على الابتعاد عن بعض مظاهر الماضي ، لا سيما نظام تمويل الحرب والسلطة المبالغ فيها التي كان يتمتع بها ناظر المالية . وفضلا عن ذلك فان كولبير كان بحاجة للخلاص من فوكيه . اذ قدرت الثروة التي تركها مازاران عند وفاته بحوالى سبعة وثلاثين مليونًا من الجنيهات ، مما دعا كولبير الى السعي للخلاص من كل مخلفات هذا الماضي السياسى غير المشرف . فقد اعتبر فوكيه محسوبًا لمازاران ومسئولًا عن كل تصرفاته المالية . وألقى اللوم عليه . وتم القبض على فوكيه فى ٥ سبتمبر ١٦٦١ ، أى بعد عشرة أيام من الغاء وظيفة ناظر المالية(*) وانشاء المجلس المسمى «المجلس الملكى للشئون المالية» (**). وكان هذا المجلس الجديد فى مرتبة أدنى من مرتبة مجلس الدولة ، ولكنه كان يعمل على المجالس الصغرى الأخرى كالمجلس الخاص مثلاً . واختص المجلس الملكى للشئون المالية بتحقيق قدر من الرقابة الفعالة يفوق ما كان يقوم به ناظر المالية دون أن يمس التاج بأى سوء . وترأس لويس الرابع عشر هذا المجلس ، وبذلك اختلف عن أبيه – وعن نفسه أيضا فى خمسينات القرن السابع عشر – فكان يخطر بجميع تفصيلات المسائل المالية والأعمال الروتينية للحكومة . وحرص لويس بكل دقة على الهيمنة بسلطانه على هذا المجلس . فكان يشطب بنود المصروفات التى لا يقتنع بوجودها ويررها . وعندما انتقل لويس الى جبهة القتال ١٦٧٢ ، عهد للملكة بترأس المجلس أثناء غيابه . وبعد ذلك بسنتين لعله ازداد حذرا . اذ طلب من كولبير اخطاره بصفة منتظمة أسبوعيا بالأعمال الهامة للمجلس . غير أن لويس احتفظ لنفسه لدى عودته بسلطة مراجعة حساب الشئون المالية الملكية .

وأخفق المجلس الملكى للشئون المالية عندما رأسه المستشار سوجيه (***) بين ١٦٣٥ و ١٦٦١ فى الحد من سلطات ناظر المالية ، ومن ثم أعد عن الاطلاع على تفصيلات الادارة المالية ، ومن نطاق المبادرة السياسية ، وكنتيجة للحكم الصادر فى سبتمبر ١٦٦١ ، لم يعد من حق المستشار بحكم كونه وزيرا التدخل الرسمى فى شئون مجلس الدولة أو المجلس الملكى الجديد للشئون المالية . ومن ثم رأينا ليتيه (***) الذى عين ١٦٧٧ وبونتشارتران (****) الذى عين ١٦٩٩ مستشارين يتمتعان

Surintendance

(*)

Conseil d'état et des finances.

(**)

Séguier.

(***)

Le Tellier.

(****)

Pontchartrain.

(*****)

بهذا الحق . ولم يتمتع بهذا الحق آخرون (*) . وحدث تدهور مماثل لمنصب المستشاريه في عهد رينسيديو وماراران عندما خصص لفيود النظام الحكومي الذي يستند الى وجود رئيس للوزراء . فقد سمح بحرية التصرف لافراد قلائل (**) ، ممن شغلوا قبل ذلك منصب قوميسير للملك في اوقاليم ، كما عمل ثلاثة منهم كمستولين في الاقاليم تحت رئاسة رينسيديو وماراران ، دون تعرض لاي وهن من جراء الخصوع لرئاسة أو اشراف رئيس مسن أو مجلس يتألف من العديد من الأعضاء . ولو اردنا معرفة مدى ما حدث من تغير فما علينا الا أن نقارن بين كولبير عندما شغل في البداية وظيفة ناظر المالية ، أو مراقب عام الشؤون المالية . فلم يزد عمله في الحالين عن مراجعة القرارات . أما بعد انشاء المجلس الجديد ، فقد عهد اليه بالمحافظة على سجلات الايرادات والمصروفات ، واقتراح المشروعات التي حققت نتائج سياسية هامة ونفعا ماليا كبيرا . ولقد مارس كولبير هذه المسئولية بالفعل ، دون أن يتمتع بأية سلطة سياسية مستقلة . وفي بعض حالات نادرة ، تجاوز فيها حدوده ، فوجه الملك اليه لوما شديدا .

ونظر كولبير الى المجلس الملكي للشئون المالية كوسيلة يمكن الاستعانة بها لاصلاح الأوضاع المالية اصلاحا جذريا . وسعى كولبير لتخفيض النفقات الاجمالية ، بحيث لا تتجاوز اثنين وأربعين مليوناً من الجنيهات ١٦٦٣ . وكان من العسير اتباع القيود التي فرضها كولبير ، ولكنه عندما شكى الى لويس الرابع عشر (١٦٧٠) وأبلغه بأن زيادة المصروفات تحول دون تنفيذ اصلاحاته ، وكان مقدار الزيادة موضع شكايته (٧٥ مليوناً) أي أقل من التجاوزات التي حدثت في أية سنة من السنوات الواقعة بين ١٦٣٦ و ١٦٦٢ ، أي السنوات التي توجد وثائق دالة على قيمة الايرادات والمصروفات فيها . ومع هذا فقد حققت اصلاحات كولبير مزايا سياسية ومالية للحكومة في المدى القصير . ففي الناحية السياسية ، عادت بالنفع على لويس الرابع عشر وكولبير بفضل تمكنها من تحقيق بعض الاهداف البناءة للويس الرابع عشر شخصيا . وفي الناحية المالية ، سرت تخفيض المصروفات الحكومية والغرامات الموقعة على المولدين من قبل مجلس الدولة (***) (١٦٦١) ، وبذلك تحقق التوازن في مصروفات الحكومة . وفي الوقت نفسه ، فالى جانب قضاء كولبير على الاسراف ، فانه أعاد تنظيم دخل النظام الملكي الفرنسي ، وأدرك وجوب استبعاد الارتكان على ضريبة الحرب

١٧١٢	ابتداء من ١٦٦١ حتى وفاته	Seguier	(*) من امثال
			و Etienne d'Aligre (عين ١٦٧٢) و Boucherat (عين ١٦٨٥) .
		Le Tonnelier, Marin, Sève Aligre, Colbert	(***) مثل
		Hervart, de Breteuil.	
		Chambre de justice.	(***)

كمصدر رئيسي ليرادات التاج الفرنسي . وتبعاً لذلك حرص على تخفيض أو تخفيف المتأخرات المستحقة عن آخر سنوات المدة التي أمضاها مازاران في رئاسة الوزارة ، وخفض ضريبة الحرب بالتدريج ، حتى وصلت الى ما مقداره أربعين مليوناً من الجنيهات حتى في سنوات الحرب مع هولاندة (١٦٧٢ - ١٦٧٨) وبذلك انخفضت الى مستوى أقل من مقدارها في ١٦٥٨ ، وخفض هذه الضريبة مرة أخرى ١٦٨٠ ، فبلغت اثنين وثلاثين مليوناً . ومن أسف أن آثار هذه الاستقطاعات قد محيت عندما حدثت كساد في المحصول الزراعي بعد ١٦٧٠ . فضلاً عن ذلك فمن الآثار الحميدة لتخفيض ضريبة الحرب ، ما حدث من ازدياد في الدخل غير المباشر . وعندما مات كولبير ١٦٨٣ ، بلغ الدخل ٦٥٨ مليوناً ، وبلغ مقدار الضرائب غير المباشرة ما يساوي نصف الدخل الاجمالي للتاج ، بينما انخفضت ضريبة الحرب الى ٣٠٪ من مجموع الدخل . ويعد قانون الاجارات، الذي دارت المفاوضات بشأنه مع فوكويه(*) ١٦٨٠ بداية لتطبيق أحد الأنظمة المالية التي حققت نجاحاً باهراً في فرنسا في القرن الثامن عشر ، مثلما حدث في ضريبة الفلاحة (**) التي جمعت عدة ضرائب غير مباشرة في ضريبة واحدة للمزرعة . وارتبطت بهذه الاجراءات التغييرات في وسائل جباية الضرائب . ففي ١٦٦١ ، ابتكر كولبير نظاماً خاصاً بالمحصلين العموميين (***) وأعاد اتباع الوسائل المألوفة بدلاً من الاعتماد على نظام المحاسبين والاستعانة برجال الجندمة للارغام على سداد الضرائب . ويحتمل أن تكون الحكومة قد جست النبض قبل اصدار هذا القرار في أواخر عهد فوكويه ، وان كان كولبير هو الذي عجل بتنفيذه . ويصح القول بأنه قد أمكن الاستغناء التام عن وسائل الارغام على دفع الضرائب عن طريق الجهات الحكومية المسئولة في ستينات القرن السابع عشر ، باستثناء حالات قليلة نسبياً . وبعد ١٦٦١ ، ازداد ارتياب كولبير عن سبقوه في جدوى الاستعانة بالقوة المسلحة لجباية الضرائب . ويعزى الى هذا الاتجاه الأخير بوجه خاص ، الى الإصلاحات المالية والاتجاه المعتدل الذي اتبعته الحكومة ، ما حدث من تغير في النظرة الى دور المسئولين الاداريين بعد ١٦٦١ ، على أن هذه الإصلاحات المالية التي قام بها كولبير لم تزد عن جانب واحد من الاجراءات الاقتصادية التي هدف كولبير من ورائها الى شد أزر الصناعة والتجارة والزراعة الفرنسية ، في فترة انكساد اقتصادي . وبرز في هذه السياسة ما سمي بحرب « التعريفة الجمركية » التي فرضها كولبير على الهولانديين وقد احتلت مكانة

Fauconnet.

(*)

Ferme-générale.

(**)

voies ordinaires، المحصلون العموميون receveurs-généraux والوسائل المألوفة

للصلاوة في هذه السياسة أيضا مجسداً لانشاء نظام المتصرفين (*) أيضا في المشروعات الاستثمارية المحلية التي ساعدت على تقديم العون للفقراء وتوزيع الغلال عليهم ، لا سيما أثناء الازمات الطاحنة في السنوات ١٦٦٣ و ١٦٩٤ و ١٧٠٩ و ١٧١٠ .

واختلف المؤرخون في الحكم على اتجاه كولبير نحو المتصرفين . فطالما اسيء فهم تعليماته الى مكاتب الشكايات في سبتمبر ١٦٦٣ . وقيل ان كولبير كان يعتبر هؤلاء المتصرفين (***) مجرد موظفين مؤقتين ، بالاستطاعة الاستغناء التام عن خدماتهم عند الضرورة . ويرجع هذا الحكم الى فقرة غامضة في تعليمات كولبير ، وربما رجع أيضا الى أنه كان يصدر التعليمات الى مكاتب الشكايات وليس الى المتصرفين . وفي الحق قد يجوز القول بأن « مكتب الشكايات والمتصرف » قد عنيا نفس الشيء في هذه الحقبة . وعلى الرغم مما حدث من تحول سريع في مسؤوليات هؤلاء المتصرفين في ستينات القرن السابع عشر ، الا أن هذا لا يعنى أن نظام المتصرفين كان مجرد اجراء وقتي ، وأنهم كانوا على هامش الحياة في فرنسا ، كما يبين من اختيار بعض هؤلاء المتصرفين السابقين في مهام مثل الاشتراك في محاكمة فوكيه (****) . ومن ثم فلا يجوز الظن بأن كولبير قد تخيل إمكان الغاء وظائف المتصرفين المقيمين في الأقاليم ، كما نستطيع أن نستخلص من مذكرته المؤرخة في أول أكتوبر ١٦٥٩ الى مازاران والتي اعتبر فيها « وجود المتصرفين من القومات الأساسية للاصلاح المالي » . ومن ثم رأيناه يكتب قائلا : « من المستحيل أن ينهض بجميع هذه المهام في الأقاليم الا من يشغلون وظائف المتصرفين » (٤) . فضلا عن ذلك ، فإنه لا يعقل أن تكون الحكومة قد قررت الغاء نظام المتصرفين اعتمادا على تكليف موظفي الحسابات (١٦٦٠ - ١٦٦١) بعمليات جباية ضريبة الحرب ، وأنهم عقدوا اجتماعات غير قانونية بحجة تسريع انجاز هذه المهمة . ويذكر أن الحكومة قد رفضت مطالب هؤلاء الموظفين الحسابيين ، ولم تمس السلطات المالية للمتصرفين ، بل وأمرتهم بوضع نهاية لاجتماعات موظفي الحسابات . وهكذا يكون

(*) Intendants ولعل وظيفة المتصرف في تاريخ الاتراك والماليك هي اقرب الوظائف الى هذه الوظيفة التي يتحدث عنها الكاتب .

Maitres des requêtes

(٤٠٤)

(***) ومن الامثلة الجديرة بالذكر أيضا الصراع على الولاية بين كولبير ولى وانتقادات لوفوا للمسكرين ١٦٦٦ .

(٤) toute ces choses ne peuvent estre exécutées dans les provin-
ces que par la ministère des Intendants.

كولبير قد اعترف بالمسئولية المالية للمتصرفين في ١٦ نوفمبر ١٦٦١ و ١٢ فبراير و ٢٥ أغسطس و ٦ سبتمبر ١٦٦٣ . وترجع أية سلطة تمتع بها الصرافون (أمناء الخزينة) الى المهام التي كانوا يكلفون بها من قبل المجلس . فلا عجب اذا رأينا هؤلاء الأمناء يندوبون حظهم ويقولون ان « وظائفنا قد حل بها الخراب (٥) ، وأن المتصرفين قد انتزعوا منا ما كان يشرفنا ويثبت دورنا الفعال ، ولم يتركوا للعاملين معهم غير المهام الثقيلة لمواجهة الحملات الشرسة التي كان يشنها الملك » واحتفظ المختارون (*) بمعظم الوظائف القضائية الجنائية والمدنية ، وان يجب أن لا ننسى قضايا الفساد التي نسبت الى هؤلاء المختارين وعرضت على مجلس الملك في ستينات القرن السابع عشر ، مما أكد على شدة الحاجة الى الاشراف الدقيق من قبل المسؤولين الاداريين . ولم يكن بصدق هؤلاء المسؤولين فعل أى شيء أكثر من ملاحقة أمثال هؤلاء الموظفين اذا ارتكبوا جرائم خطيرة . تتوافر الأدلة بشأنها .

وبعد ١٦٦٩ لوحظ استبقاء المسؤولين الاداريين مدة أطول في المقاطعات أكثر مما كان يحدث في الماضي . ففي السنوات الخمسين بين ١٦٦٦ و ١٧١٦ كان « المتصرف » يقضى خمس سنوات في المتوسط في مقاطعته ، أى سنتين أكثر من المدة التي كان يمضيها في عهد «الفروند» . ومن هذا يتضح أن الشرط الذي وضعه ريشيليو ومازاران لتحديد مدة خدمة المتصرف بثلاث سنوات ، يعاد بعدها تعيين المتصرف أو ينقل أو يستدعى ، قد استغنى عنه ابان سنوات الحكم الفردي للويس الرابع عشر ، ولعل كل مقاطعة كانت تتوقع أن يتولى ادارتها تسعة أو أكثر من هؤلاء المتصرفين في الخمسين سنة الواقعة بين ١٦٦٦ و ١٧١٦ . وفاق الاستقرار في المقاطعات التي يختار محافظوها بالتعيين الاستقرار في المقاطعات التي ينتخب متصرفوها (**). فهل كان هناك عامل مساعد يفسر أسباب احتفاظ المتصرفين « المعينين » بوظائفهم ؟ ربما يرجع أحد الأسباب الى ما كان يقوم به كولبير من استبيان عن ديون المدن . ولاحظ بوشو ١٦٦٦ أن تصفية الديون القائمة لن تفي بالفرض ، فيلزم أيضا منع المقاطعات من تجشم أعباء ديون جديدة . وقد

(٥) "nos charges sont tombés dans la dernière décadence ... et le intendants retiennent ce qui est de plus honorable et plus effectif et ne laissent dans les bureaux que le fardeau du grand nombre d'expéditions pour le Roy."

Elus. (٤)

(**) لقد شهدت مقاطعة Montauban احد عشر متصرفا . أما Moulins
 Rouen, Poitiers, فقد شهدت ربما ما هو أكثر من ذلك . وخدم
 Basville
 كمصرف في بورغونيا زهاء ٢٧ سنة (١٦٥٦ - ١٦٨٢) بينما خدم
 Bouchu في Languedoc مدة ٢٢ سنة (١٦٨٥ - ١٧١٨) .

كولبير هذه الملاحظة . ففي مذكرة أرسلها الى المتصرفين في ٢٩ فبراير ١٦٨٠ ، طالب باقتراحات عن الطريقة التي يمكن أن تتبع لتحقيق ذلك . وتقرر تنفيذ ما جاء في تقارير المتصرفين في المنشورات التي صدرت في ١٨ نوفمبر ١٦٨٠ ومرسوم ابريل ١٦٨٣ . فلقد نقل هذا المرسوم مراقبة الشئون المالية للبلديات من المدن الى المتصرفين . وباستثناء السنوات الواقعة بين ١٧٤٦ و ١٧٧١ ، فقد حدد هذا المرسوم اطار العلاقات بين الحكومة والمدن ، واستمر العمل بهذا النظام الى أن حدثت الثورة الفرنسية . ولم ينص المرسوم على قيام المتصرف بمراجعة حسابات البلديات لأن كولبير لم يقر هذا الاجراء ، « واعتبره مسئولية ضخمة لن تحقق أية فائدة تذكر للشعب » (*) . ومع هذا فان ما حدث كان نتيجة لتشريعات كولبير . ويرجع الى هذا العامل أكثر من أى عامل آخر ما حدث من فرض للرقابة الاداريه (**) على المدن . وازدادت اعباء العمل الذى ينهض به المتصرفون نتيجة لهذا الاجراء ، وما ترتب عليه . وكان المتصرفون مضطرين الى الاعتماد على عون ائرووسين أثناء عمليات المراجعة وتصفية الديون ، « لانجاز مثل هذا العمل الضرورى » (***) . وما أن جاءت ١٧١٨ حتى أصبحت المسائل التي تخص المدن هي الشغل الشاغل للمتصرفين ، الذين كانوا ينهضون بمسئوليتهم من خلال شبكة من المساعدين المنتدبين (****) ، للتأكد من صرف مخصصات المدن في وجهها الصحيح . ووجدت المدن من استقلالها السياسى والمالى . وترتب على ذلك اتاحة الفرصة لاستغلال التاج لها اعتمادا على قواعد أشد قسوة وصرامة أكثر مما كان ميسورا قبل ذلك . وبعد ١٦٨٣ ، حل محل استغلال المسئولين المحليين واساءة تصرفهم واستغلال الدولة للمدن بطريقة جائرة . وارتفعت الاحتياجات المالية من أثر سنوات الحرب التسع وحرب الخلافة الاسبانية ، ثم بلغت أوجها ابان الحرب مع البولنديين وحرب الخلافة الاسبانية (فى القرن الثامن عشر) .

أما العامل الثانى الذى اطلال بقاء المتصرفين فكان الرقابة الصارمة التي فرضها لويس الرابع عشر على البروتستانت . ففي ١٦٥٧ ، كان البروتستانت (****) يخشون حدوث اضطهاد وشيك لهم . وأثبتت الاحداث فى السنوات التالية - خصوصا بعد ١٦٦١ - صحة مخاوفهم . وأسفرت المحادثات بين ممثلى الاكليروس والمستشار سيجيه فى ١٣ فبراير

“un travail immense qui ne produiroit aucun avantage aux (x) peuples..

tutelle administrative. (x x)

Pour avancer un travail si nécessaire. (x x x)

Subdélégués. (x x x x)

Midi. (x x x x x) فى

١٦٦١ عن الاتفاق على تنفيذ بنود مرسوم نانت (*) (الذي صدر في ١٥٦٦) ونشره . ولم يتخذ أى إجراء فى هذا الشأن حتى موت ماراران فى ٩ مارس . على أنه فى بحر شهر أوزيد من وفاة الوزير الأول (مازاران) أوفدت البعثات الأولى . وفى ١٥ يونيو ١٦٦١ ، وعد لويس الرابع عشر الاكليروس بتنفيذ اعلان ١٦٥٦ تنفيذا كاملا . ومن سخریات القدر ، أن تنصر « حركة الورع الكاثوليكي » بعد أن كان الوهن قد اعترى نفوذها السياسى . غير أن لويس تمكن من القضاء على هذه الحركة بأن عمد الى اتباع سياسة تتبنى فكرة شن حرب صليبية ضد البروتستانت (**). ويذكر الملك فى مذكراته أنه سعى ١٦٦١ لتنفيذ التنازلات التى نص عليها ميثاق نانت . ونفذ ذلك عن طريق المبعوثين الذين أوفدهم فيما لا يقل عن ثلاث عشرة مقاطعة فى فرنسا . وفى بعض الأحيان ، احتفظ البروتستانت بحقوقهم . غير أن حجر الأساس كان قد وضع . اذ نصت النظرية الجديدة ، كما عبر عنها ١٦٦٦ على « وحدة المجتمع وعدم جواز تقسيمه أو المشاركة فيه ، لأنه كاثوليكي قلبا وقالبا (٦) » وقيدت تقييدا صارما اقامة قداسات بروتستانتية ، كالتى نصت عليها المادتان ١ ، و ١١ من مرسوم نانت . وبوجه عام كان المبعوثون البروتستانت حريصين على الحفاظ على رضا الملك ، واتبعوا وجهة نظر المتصرف الكاثوليكي . وأحيانا كان المتصرفون يستدعون بعض أفراد اضافيين من الهجنون للمساعدة فى انجاز عملهم . ولعلمهم كانوا عملاء لهم . وربما كانوا يأملون من وراء ذلك الى اضعاف القرارات التى يصدرها المبعوثون البروتستانت (***) . وحتى فى الحالات التى لم يتبع فيها المبعوث البروتستانتى المتصرف الكاثوليكي ، فقد لوحظ ايفاد مبعوثين من قبل مجلس الدولة لبحث الالتماسات والشكايات . وكانت البعثات التى يرسلها المجلس مؤلفة - بطبيعة الحال - من الكاثوليك وحدهم ، وقد تضم اثنين من الأعضاء البارزين فى حزب الورع وابن أحد العاملين . وهذا يثبت أن الاحراء من أوله لآخره كان موجها ضد البروتستانت ، وتمخض فى نهاية المطاف عن اصدار تصريح ٢ أبريل ١٦٦٦ الذى حد بصرامة من مرسوم نانت .

Commi aire pour l'exécution de l'édit de Nantes. (*)

De Pevremales و Bazin de Bezons مثلا دير Languedoc (***)
 هجوما منتظما على حقوق البروتستانت (التى سمحت لهم بالمشاركة فى الحكومات البلدية
 من خلال Consulats mi partis . وأعاد الكاثوليك فرض هيمنتهم على
 Montpellier, Bedarieux, Sommières و Mazamet,

La communauté ne peut 'tre divisés ni partagé. (١)

***) مثلا استدعى Bazin de Bezons القاى الملكى Anouï فى
 Uzès للمساعدة فى استجواب المتصرف .

وبدا اضطهاد الهجنوت باتباع الأساليب القانونية . ففي ٢١ يناير ١٦٦٩ ، تقرر تعطيل المجلس التشريعي* (٢) في باريس وروان. ونقل مجلس كاستر الى احدى المدن الكاثوليكية . وبعد ذلك بعشر سنوات ألغيت المجالس التشريعية الباقية ، وضمت الى البرلمانات المحلية . وبعد ذلك بعشر سنوات هطل سيل من التشريعات المقيدة بعد ١٦٧٩ ، التي أدت الى نقض مرسوم نانت بعد صدور مرسوم فونتانبلو في ١٨ أكتوبر ١٦٨٠ . وأدى النزوع الى ارغام البروتستانت في يوتاييه وأماكن أخرى بعد ١٦٨١ على اعتناق العقيدة الكاثوليكية الى خلق موقف جديد . وحدثت نتيجة مماثلة لذلك من أثر النزاع البعيد الثور بين لويس الرابع عشر والبابوية . وهكذا يتضح أن نقض مرسوم نانت كان وليدا لمجموعة من الظروف الخارجية والداخلية . على أنه كان بالمقهور تنفيذ بطريقتة فعالة يغير استبعاد للحقوق المدنية البروتستانتية في السنوات التي سبقت ١٦٨٥ . وبعد هذا التاريخ ، ازدادت مسئوليات المتصرفين حيال المرتدين الجدد (**) (وهو الاسم الذي أطلق على البروتستانت حينذاك) . وأمر المتصرفين باضطهاد البروتستانت الذين قبض عليهم أثناء محاولتهم الهروب الى الخارج ، وأمروا بحكم قرار مجلس الدولة الصادر في ١٣ مايو ١٦٨٦ بالاشراف على جرد الممتلكات التي تركها المنفيون البروتستانت كاجراء تمهيدى يسبق مصادرة هذه الممتلكات . واضطهد المتصرفون « المرتدين الجدد » الذين بقوا في فرنسا وكانوا يأملون العودة الى ممارسة عقيدتهم الأصلية - واضطهدوا أيضا الجماعات التي أسرتها القوات المسلحة أثناء اجتيازاتها المحظورة التي كانت تقام فيها الشعائر البروتستانتية - بل لقد حاول المتصرفون تنفيذ أوامر الاضطهاد حتى على من فارقوا الحياة من «المرتدين الجدد» ، الذين رفضوا الشعائر المقدسة التي أقيمت لهم وهم على فراش الموت ! نعم لقد تركت الأساليب التي اتبعتها بعض المتصرفين عند معاملتهم للبروتستانت آثارا بعيدة على سياسة الحكومة . فاقدم دارت مطارحات طويلة بين باسفيل وبوسويه (أعظم عقلية كاثوليكية في العصر) حول هل يحق للمتصرفين والقوات المسلحة ارغام « المرتدين الجدد » على حضور القداس . ومما له أهمية بالغة تأييد المتصرفين لفكرة ارغام المرتدين الجدد على الحضور . ولقد شعر باسفيل بالارتباب في سياسة تهديده البروتستانت . غير أن هذا قد حدث فيما بعد ابان الصراع الطويل ضد التمرد الكالفاني بعد ١٧٠٢ الذي اشترك فيه القميصارى (***) في احدى المدن الفرنسية (****) .

Chambres de l'édit.

(*)

Nouveau convertis.

(**)

***) جماعة من الكالفانيين الفرنسيين اشتهرت بهذا الاسم لانتمائها لقمصانا تشبه

Camisc

قمصة النوم النسائية

Cévennes

مدينة (****)

ولقد أُشير أنه رغم اتباع لويس الرابع عشر المازاران في سياسته ، إلا أنه في ستينيات القرن قد نحا منحى جديدا في سياسته . وأنشأ مجلسا جديدا . وأقدم على اصلاح المسائل المالية في النظام الملكي الفرنسى . وأجرى تحريات خاصة للتعرف على ماهية ديون البلديات ، وطريقة تسديدها . وفتح البروتستانت جميع حقوقهم المدنية ، وتعرضوا - فيما بعد للتهديد - في سبيل دفعهم للارتداد عن البروتستانتية . وترتب على هذه المذترات استمرار بقاء المصرفين في المقاطعات مدة أطول مما حدث قبل ١٦٦١ . ولو صح أن لويس الرابع عشر ، يسمى حقا للحفاظ على السلام ، لما كان من المستبعد أن ينعم بحرية أعظم للعمل ، ولكان باستطاعته الخلاص من مخلفات ريشيليو ومازاران . ولقد ارتبطت اصلاحات كولبير المالية بالضرورة بالأحوال الاستثنائية لسنوات السلام الانتى عشرة بين ١٦٦٠ و ١٦٧١ ، وأيضا بمخططاته للنهوض بالصناعة والتجارة والزراعة في فرنسا في سنوات الكساد الاقتصادى . ومن المحتمل أن لا يكون كولبير من أنصار الحرب باعتبارها تتعارض على طول الخط هي وسياسة الاصلاح والاقتصاد في النفقات . غير أن لويس لم يكن في نيته الحفاظ على السلام من أجل السلام . فقد كانت لديه مخططاته الخاصة بالخلافة الأسبانية ، وعمل على إعادة تفسير تسوية وستفاليا ١٦٤٨ لصالح فرنسا . ووفق كل ذلك ، فانه في ١٦٧٢ ، أراد معاقبة الهولانديين لأنهم أنشأوا تحالفا ثلاثيا ضده قبل ذلك بأربع سنوات . وتصاعدت الحرب الهولاندية بسرعة ، وتحولت الى حرب ألمانية أيضا . وفي ١٦٧٤ ، بلغ المجموع الكلى للنفقات ١١٣ مليوناً من الجنيهات (وكانت قيمة الجنيه مماثلة لقيمة ١٦٥٣ على وجه التقريب) . وترجع الى الدين الذى خلفته الحرب الزيادة الكبرى في نفقات التى تجاوزت ١٣٠ مليوناً في سنتى ١٦٧٩ و ١٦٨١ . وبعد وفاة كولبير ١٦٨٣ ، انهارت جميع اصلاحاته ، وبدأ لويس ١٦٨٩ يواجه أول اعين كبيرين مع الموارد المالية المهولة لانجلترا . ونادرا ما كان يجتمع مجلس الملكى للشئون المالية السابق انشاؤه ١٦٦١ ولو فرض أن اجتمع ، فإن عمله كان يقتصر على التصديق على القرارات التى اتخذها المراقبون العامون للنالية (*) الذين كانوا يعملون نظارا للمالية . وكان كولبير يأمل أن يساعد الدخل غير المباشر على التزويد بأساس يحقق مساواة أفضل في توزيع اعباء الضرائب . غير أن أهم شرط للجباية الموقفة للضرائب غير المباشرة هو الحفاظ على السلام . وبعد اندلاع الحرب ١٦٨٩ سرعان ما انخفض دخل الحكومة من المائتات غير المباشرة ، فاضطرت الحكومة للعودة الى فرض ضريبة الحرب ، وانشاء وظائف مختصة بتحويل الحرب . والتسمت الفجوة مرة أخرى بين الإيرادات والمصروفات ، ومن ثم فلم يبق

أمام التاج أى خيار آخر سوى الاستعانة بخدمات رجال المال من أمثال صوبل برنار وأنطوان كروزال ، ودفع الفائدة الباهظة التى يطالبون بها مقابل خدماتهم ، وبذلك يكون لويس الرابع عشر قد شق طريقه الى الحرب بدلا من أن يواصل ضغط الانفاق والاصلاح . ولعله ظن أن مطالب السياسة الخارجية الفرنسية يجب أن تتخذ الصدارة على جميع الاعتبارات الداخلية . ومن هذه الناحية ، يصح وصف سنوات حكمه الأخيرة بأنها كانت استمرارا مباشرا لعهدى رئيسى الوزارة ريشيليو ومازاران .

ان هذا يعنى أن الاهتمامات الأساسية للحكومة فى السنوات أعقبت ١٦٧٢ قد تشابهت بالضرورة هى واهتمامات الحكومة فى السنوات بين ١٦٥٣ و ١٦٦١ ، وتركزت على كيفية تمويل الحرب دون اشارة نورد كبير بين دافعى الضرائب الفرنسيين . وكان الاهتمام بصالح دافعى الضرائب من الفلاحين فى فرنسا من بين جوانب الحكومة ، التى شدد مازاران على وجوب الاهتمام بها ، حتى وهو على فراش الموت . ويوحى التفاوض عن متأخرات ضريبة الحرب فى بواكير ستينات القرن السابع عشر بأن هذه العكرة كان لها بعض التأثير على لويس الرابع عشر . غير ان الحرب اطويلة تحتاج الى فرض المزيد من الضرائب وازديادا فى سوء حال الفلاحين من تأثير الكساد الاقتصادى . وحتى فى سنوات السلام ، فلقد حدثت بعض حالات عصيان (*) . وجرت الحروب الأخيرة فى أعقابها أحداث تمرد أخطر من ذلك خصوصا بين الكاميسار البروتستانت عندما انتفضوا ١٧٠٢ (وتعد هذه الانتفاضة موجة أيضا ضد فرض الضرائب) (**) . وبالرغم من أن «التمرد ضد الضرائب» قد حدث على نطاق له أهميته ابان الحكم الفردى للويس الرابع عشر، ووجه أحيانا الى المتصرفين، الا أن تصاعده لم يتفاقم الى درجة مماثلة لما سبق أن حدث ابان عهد ريشيليو ومازاران . ولا وجود لفسير بسيط يفسر السبب ، لأنه يرجع - من ناحية - الى ما حدث من تبدل فى توجهات الفلاحين . فعندما يورغم الفلاحون على تركيز كل جهدهم على النباش بأظافرهم بحثا عن لقمة العيش ، فان ما حدث من كساد زراعى

(*) كترك الذى وقعت فى Bénéauge (١٦٦١ - ١٦٦٢) وفى Lustucru وفى Boulonnais ١٦٦٢ وفى Audijois فى Chalosse (١٦٦٢-١٦٦٥) وفى Roure وفى Vivarais (١٦٧٠) . ثم حدثت أحداث غزو وعصيان فخرى بعد اندلاع الحرب فى Agen و Le Mans, Bordeaux و Torrebent وبعث لثروة العداة قد جرت عند التصدى لاصحاب اللانسوات الحمراء أو Torrebent بين جميع أحداث المناوشات مع القرويين فى فرنسا فى القرن السابع عشر .

(***) ولا تنس أيضا انتفاضة Tard-Avisés ١٦٧٥ وفى Quercy ١٧٠٧ .

ربما غدا من المعوقات الفعلية للاحتجاج أكثر من نزوعه الى تشجيع الاحتجاج
الفعلى . نعم لقد كان الفلاحون في عهد ريشيليو ومازاران أحسن حالا
ومن ثم فانهم كانوا سيخسرون من عصيانهم ما هو أكثر من زيادة الضرائب
التي يدفعونها للدولة . وهناك عوامل أخرى يجب أن توضع في الحسبان
كزيادة قوة الحكومة ، وبخاصة عندما توافر لها المزيد من القوات في
معظم السنوات ، وازياد رسوخ مكانة المتصرفين بعد ١٦٦١ ، والمقوبات
الأكثر وحشية التي كانت توقع على العصاة .

ومن الميقون منه أن اتجاه النبلاء الى المسألة قد ساعد الحكومة في
مهمتها لحصر العصاة الفلاحين وقمع حركتهم ، ولقد أشار مازاران - وهو
على فراش الموت - على لويس الرابع عشر بالحفاظ على امتيازات النبلاء ،
وعمل لويس بنصيحته يقينا ، فيما يتعلق بالامتيازات الاجتماعية
والاقتصادية ، ولكنه لم يسمح للنبلاء المنتمين الى عائلات أعرق وأرسخ قدما
بدخول الحكومة الا في مناسبات خاصة ولأفراد معينين . وأبرز مثل لذلك
هو الدوق بوفيليه(*) بعد ١٦٦١ . ومن الحقائق الملفتة عن الحكم الفردي
للويس الرابع عشر ، والتباين الكبير بين موقفه بعد نضجه وموقفه عندما
كان مازال حدثا ، عدم تمرد الوجهاء والأعيان عند اقصائهم . فلقد أجهضت
محاولات تأمر الشفالييه دى روهان(**) ١٦٧٤ ومحاولة شومبرج ١٦٩٢ ،
بالرغم من اصدارهما البيانات المعهودة الداعية الى الحاجة الى استعادة
الامتيازات الخاصة بالنبلاء والبرلمانات والمقاطعات وتخفيف الضرائب ،
واشتركت سياسة لويس الرابع عشر الخارجية وسياسته الدينية الداخلية
فى الحيلولة دون حدوث عمليات تخريب باستثناء ما حدث من فئة صغيرة
للفاية . أما الحجج التي ذكرها « حزب الورع » فى عشرينات القرن السابع
عشر بعدم عدالة الحرب ، لأنها أحدثت انقساما فى أوروبا الكاثوليكية فى
الوقت الذى وجدت فيه أقلية بروتستانتية (لها وزنها) فى فرنسا ، فانها
لم تنطبق على الحالة بعد ١٦٦٦ الا لاما . وأثبتت علم صحتها ١٦٨٥ .
اذ حارب لويس الرابع عشر الانجليز والهولانديين البروتستانت ، وأرغم
طائفة الهجنوت على الركوع تحت قدميه . وأدى استعداد الامبراطور
لتقسام الارث الأسباني مع فرنسا بعد ١٦٨٠ ، الى استبعاد احتمال عقد
تحالف كاثوليكي يضم أسبانيا الخاضعة لها بسبورج والنمسا ضد
فرنسا .

(*) البارون François Hournal de Beauvillier (١٦١٠ - ١٦٨٧)

(**) الشفالييه Louis de Rohan (١٦٢٥ - ١٦٧٤)

Schomberg (١٦١٥ - ١٦٩٠) Armand-Frédric

وحدث تحول تدريجي للنبله بين سنتين القرن السابع عشر وسبعينات داخل الاقاليم بفضل السياسة الملكية الواعية . فبعد أن كانوا جماعه مشاغبه الى ابعاد حد ، من المتعذر تحديد نوازهم في عهد ريشيليو ومازاران ، فانهم تحولوا خلال الحكم الفردي للويس الرابع عشر الى جماعه تتمتع بميزات شخصية وباستقلال كبير ، وان كانت ملتزمة بالقانون بدرجة متزايدة . ومن اليسير تحديد ملامحها قانونيا . وما حدث من محاولة لاصلاح حال النبلاء من قبل المتصرفين ، تنفيذا لتعليمات كولبير له أهمية بالغة ترجع على أقل تقدير لنفور النبلاء من هؤلاء المتصرفين . وهناك سوابق واضحة للتحريات التي جرت للتأكد من صحة من يحملون لقب النبالة . ففي السنوات ١٥٩٨ و ١٦٣٤ و ١٦٤٠ و ١٦٥٠ ، الغيت شهادة حديثة العهد بالانتماء الى طبقة النبلاء (*) . وجرت تحريات للتأكد من ادعاءات الانتماء الى هذه الطبقة . وظهر في احدى المقاطعات كتابان عن أنساب النبلاء . ولكن هناك مقاطعات أخرى لم تكتمل فيها التحريات ، أو لعل سجلات البحث لم يعثر عليها . وعمد كولبير الى اجراء عملية مسح واستقصاء أكثر احكاما امتدت الى مختلف المصور في أغلب أنحاء فرنسا . وكان من بين أهداف هذه الحملة هدف مالي للتأكد من الغاء جميع الألقاب الزائفة ، حتى يتحمل أعباء ضريبة الحرب الجميع بالتساوي ممن يحق لهم ذلك بحكم المولد ، (٧) . غير أن هذا الاستقصاء كان له جانبه السياسي أيضا . وبغض النظر عن النتائج غير الصحيحة التي أسفر عنها البحث في صحة ألقاب النبلاء ، الا أنه حقق ثلاث نتائج هامة : النتيجة الأولى - أنه في شتى أنحاء فرنسا - باستثناء بريتانى وبروفانس ، اتضح أن المتصرف بحكم اتصاله الوثيق بمجلس الملك (ولكن ودون اشارة الى المحافظ) - قد أصبح الفيصل الذى يؤتس برأيه لتحديد من يحمل لقب النبالة بصفة شرعية ، ومن لا يحق له ذلك . ففي كل مقاطعة ، كان هناك نبلاء زائفون رفضت مزاعمهم (**). وطلب منهم دفع غرامة لاتقل عن مائة جنيه . ولم تكثر بعض عائلات مرموقة بهذه التحريات ، ولم تحرص على الاحتفاظ بسجلات تثبت أحقيتها في اللقب ، فلما بان مسألة نسبها وأصلها وفصلها مفروغ منها ، ومن ثم ألغوا أنفسهم في مواجهة مصاعب جمة عندها واجهتهم رغبة المتصرف بالاطلاع على ما يثبت الانتماء الى طبقة النبلاء . كما أن البحث عن الاسانيد التي تثبت ذلك فى المحاكم المحلية وسجلات الكنيسة والأديرة

Le fedreau de la taille soit porté avec égalité par tous ceux (٧)
que la nais ance y assujétit.

annoblissement. (٤)

(*) فى مقاطعة Caen اسم المؤلف الأول Mesmes de Boissey
(١٥٩٨ - ٩٩) والثانى Etienne III d'Aligre (١٦٢٤ - ١٦٢٥)

كان اجراء مكلفا ، ولا يسفر عن نتائج مؤكدة . وفي مقابل ذلك ، لم يصادف نبلاء الهندام (*) صعوبات كبيرة لاثبات زعمهم ، والانتماء الى طبقة النبلاء ، وغالبا ما كان البحث يمتد الى ما قبل ١٥٥٠ . فتواريخ التهيؤ للوظائف التي تدل على الانتماء لطبقة النبلاء كانت معروفة . ولعل من حصولوا على لقب النبالة عن هذا الطريق ، كانوا احرص على اثبات هذا الحق ، واحتفظوا بالوثائق الدالة على احقيتهم . وثاني نتائج التحريات هي التعريف الجديد للنبالة . فلم يعد النبيل الشخص الذي يدعى أنه نبيل ، أو من يعتقد أنه من النبلاء ، أو يتمتع بحق الاعفاء من الضرائب المباشرة . ولكن النبيل أصبح الشخص الحاصل على شهادة معتمدة من المتصرف بحقه في هذا اللقب . وهي شهادة قانونية ملزمة ، يتم الحصول عليها بعد استقصاء الوثائق والأسانيد ، وثالث نتيجة مستخلصة من التحريات ومن الاجراءات الحكومية المصاحبة هي اقفال باب الانتماء الى طبقة النبلاء بعد ستينات القرن السابع عشر . فلقد تزايد الاتجاه الى اختفاء الفروق بين نبلاء الهندام والنبلاء الاصل (**). ويرجع ذلك - من ناحية - الى تضاؤل الكسب من مظهريات اللقب ابان حكم الملك لويس الرابع عشر . فكانت أغلبية « نبلاء الهندام » تضرر الى الاعتماد على ايراد ممتلكاتها لتعويض خسارة الدخل المكتسب عن طريق الوظائف التي كانت تتطلب انفاقا على النواحي المظيرية . وزادت التحريات الخاصة بالقب النبالة من صعوبات الحصول على اعفاءات جديدة من الضرائب . وفي ظل (النظام القديم) كانت عملية اغتصاب النبالة ، أو الحصول على اللقب « بالأمر » دون رجوع لشجرة النسب ممكنة دوما . اما بعد تشديد المتصرفين الرقابة على ضريبة الحرب ، فقد ساعدت الى حد كبير على الاقلال من المطالبات الزائفة بالاعفاء المالي . ولم يستطع النظام الملكي في عهد البوربون القضاء قضاء مبرما على استقلال النبلاء ، ثم زال خطر التهديد الذي كان يمثله النبلاء على البنيان السياسي بين ١٦٢٤ و ١٦٦٦ بفضل التحريات التي اجراها المتصرفون والجهات المصاحبة الاخرى للمراقبة التشريعية والسياسية . وفي ذات الوقت فقد الفلاحون ممن تزعموا حركة التمرد على الضرائب والتي كانت موجهة ضد انتاج ، والطامحون في التزعم قواعد انطلاقهم .

Preuves nobilitaires.

(*)

Noble de robe, Nobles d'epée.

(**)

بيد أنه يتعين عدم المبالغة في تقدير مستحدثات لويس الرابع عشر بعد ١٦٦١ . ففي أغلب الحالات ، لم تزد التغيرات التي جاء بها عن تعزيزه للمنجزات السياسية التي حققها ريشيليو ومازاران . وزادت من متانة خيوط التواصل حقيقة نهوض نفس العائلات التي كانت تسيطر على الحكومة ووظائف المتصرفين قبل ١٦١٦ ، بنفس هذا الدور بعد هذه السنة أيضا . إذ كان وزراء لويس الرابع عشر يختارون في الأغلب من عائلات احتلت الصدارة في عهد ريشيليو ومازاران (*) . لكل هذه الأسباب وحدها ، لم يكن من اليسير قيام لويس الرابع عشر بوضع سياسة تختلف عن السياسة التي اتبعها ريشيليو ومازاران ، وأن ينجح في تنفيذها .

(*) لوحظ تشكيل ابن كولبير : Seignely وابن Croissy re Colbert : Lauvois وابن لوغوا و Barbezieux فريقا ثانيا . وكان هناك وزراء للاك من أمثال Pontchartrair و Chamillart لم ينضموا إلى أي فريق من الفرقاء . أما Lionne وزير خارجية لويس الرابع عشر من سنة ١٦٦٢ إلى ١٦٧١ فكان ابن شقيق Servien ، وانضم للحكومة اعتبارا من ١٦٥١ على أقل تقدير . وكان Pomponne الذي خلف Lionne من محاسيب فوكيه وعمل كمستول إداري عن الجيش في خمسينات القرن السابع عشر . وخدم بالمثل مسئولون إداريون كثيرون ممن عينهم مازاران خلال الحكم الفردي للويس . وكان هناك إبناء وأحفاد للمسؤولين الإداريين ممن عينهم ريشيليو ومازاران . وبذلك وصل عدد من يندرجون تحت هذه الفئة إلى عشرين شخصا .

المراجع

- P. Goubert, Louis XIV and Twenty Million Frenchmen, 1966.
- R. Hatton ed, Louis XIV and Europe (1976).
- W. H. Lewis, The Splendid Century (1953).
- A.L. Moote, Revolt of the Judges : The Parliament of Paris and the Fronde, (1971).
- D. Ogg, Europe in the Seventeenth Century (1925).
- L. Rothrug, Opposition to Louis XIV : The Political and Social Origins of the Enlightenment 1965).
- J. C. Rule, Louis XIV and the Craft of kingship (1970).
- W. J. Stankiewicz, Politics and Religion in 17th Century France 1960.
- G.R.R. Treasure, Seventeenth-Century (1966).
- J. B. Wolf. Louis XIV (1968).

المعنى الاجتماعي للنيوطينية

مرجريت جاكوب

يمثل نشر كتاب « مبادئ الرياضة » لايزاك نيوتن (١٦٨٧) نقطة تصاعد الثورة العلمية . وبعد ذلك ، انتشرت على نطاق واسع نظرية نيوتن عن الجاذبية الكونية وفهمه العام لآليات الطبيعة الفيزيائية وتفسيره العلاني لها ، بفضل دوائر المعارف في أوروبا . وأثرت نظرياته في العديد من مجالات الحياة الفكرية غير المرتبطة ارتباطا مباشرا بالطبيعة الفيزيائية . وكانت الحياة الدينية من بين النواحي الهامة من هذه النواحي الفكرية في عصر ارتبطت فيه الاعتبارات الدينية برباط وثيق بالفكر الخاص بالمجتمع .

وفي إنجلترا ، قام عالم آخر بالقاء سلسلة من المحاضرات بين فيها كيفية الاستعانة بتعليم العلم في دعم « الدين الطبيعي » يضي الاعتقاد بأن حقائق الدين ومن ضمنها حقائق الأخلاق ، بالمقدور تعليمها اعتمادا على مشاهدة الطبيعة والتدقيق في أحوالها ، واشترك علماء نيوتونيون إنجليز مرموقون ، من بينهم ريتشارد بنتلي وصمويل كلارك ووليم درهام وجون هاريس ووليم ويستون بالقاء بعض الأبحاث أثناء موسم محاضرات بويل الذي عقد خلال أواخر القرن السابع عشر ومشارف القرن الثامن عشر ، وتصور كتاباتهم المزايا الدينية والاجتماعية التي أمكن استخلاصها من الفيزياء النيوتينية في السنوات التي أعقبت الثورة المجيدة ١٦٨٨ .

وكان هؤلاء المحاضرون من أنصار بويل من أتباع طائفة «الخلاصيين»(*) ، أو اللاهوتيين المعتدلين في كنيسة إنجلترا ، ومن الراغبين في حماية الدين

نقلا عن كتاب Margaret. C. Jacob : The Newtonians and the English Revolution (1720-1790) (١٩٧٦) .

(*) Latitudinarians جناح من كنيسة إنجلترا في منتصف القرن السابع عشر يهدف إلى اتباع نظرة جامعة تقتصر على النقاط موضع الاتفاق العام بين شتى الطوائف المسيحية ، وتستبعد جميع النقاط الخلافية ، التي ربما تناهت مع العقيدة السليمة .

من أوصاب المذهب المادى الملحد الذى ربطوا بينه وبين الفيلسوف الانجليزى
توماس هوبز . وسعوا - من ناحية اخرى - لمقاومة اى تطرف دينى صاحب
حاله عدم الاستقرار التى نجمت عن الحرب الاهلية الانجليزية . وقد ذكروا
ان الفهم الصحيح لعالم الفيزياء عند نيوتن ، بطابعه العقلانى ، والمنظم
انتظاما اشبه بانتظام الآلة ، لابد ان يودى الى الاعتقاد بان الله ايضا يتصرف
بالعقلانية ، ويتعين ان يعيد عن طريق العقل . واعتقدوا ايضا ان الفيزياء
النيوتينية تحمل فى ثناياها الاعتقاد بوجود خضوع المجتمع لنظام مماثل
للنظام الذى تتبعه الطبيعة الفيزيائية . وحثوا الأثرياء على كبح جماح
سعيهم نحو تحقيق الصالح الشخصى ، حتى لا تودى الأناية المتهوسة الى
احداث بليلة اجتماعية وسياسية . وراوا ايضا ان تأمل انتظام الطبيعة
الفيزيائية وتصور الأشخاص للمجتمع كشيء منظم بطبيعته ، قد يودى
الى الاعتقاد فى وجود نظام هرمى اجتماعى واضح ، ربما كان من الخطأ
اعتراض الكائنات البشرية عليه . وعلى هذا النحو ، شعر محاضرو بويل
انهم جمعوا بين مبدأ دعم فضيلة السعى المعتدل من أجل الصالح الذاتى
وبين الدعم القوى للوضع الاجتماعى والسياسى الراهن(*) . واستند الدرسان
(الدرس الأول الموجه الى الأغنياء والدرس الثانى الموجه الى الفقراء) على
تفسيرهم فى دعم النظرة النيوتينية للعالم .

حددت سلسلة المحاضرات التى وضعها روبرت بويل وأشرف عليها
فى سنواتها الباكورة اثنان من أصدقائه الحميمين : افلين وتيسون مضمون
فكرة الدين الطبيعى الانجليزى واتجاهه ابان القرن الثامن عشر . وما ان
جاءت ١٧١١ ، حتى أضحى الاطلاع على محاضرات بويل من مقومات معرفة
المثقفين . وأثرت هذه المحاضرات ، بالاضافة الى محاضرات ريتشارد بنتلى
(١٦٩٢) والى حد كبير محاضرات صمويل كلارك (١٧٠٤ - ١٧٠٥)
ووليم درهام (١٧١١ - ١٧١٢) أعظم تأثير فى سائر أنحاء أوروبا . فعندما
هاجم الفيلسوف الفرنسى هولباخ المذهب التالىهى (١٧٧٠) فانه ركز
على الفلسفة الطبيعية لمحاضرات بويل . وعندما عبر روسو عن احساسه
بوجود الله فى الطبيعة ، استشهد بكلارك كأول مؤيد لرايه . وتعلم صمويل
جونسون الكثير مما يعرفه عن العالم من مطالعته لمحاضرات بويل .

وتدل الشهرة الكبيرة التى حظيت بها هذه المحاضرات فى القرن الثامن
عشر على مدى ما قدمه هذا الفريق المعتدل من خدمات للكنيسة . وكان
الأوصياء على هذه المحاضرات يختارون المحاضرين بعناية فائقة ، ووجهوا
حججهم للدفاع عن الدين الطبيعى والدين السماوى اعتقادا منهم بان
جهودهم وانتقاداتهم ستساعد على الحفاظ على الزعامة المعنوية للكنيسة

ونفوذها السياسى فى مجتمع مههد من كل ناحية بالالحد . وعندما نتذاكر ما احتوته المحاضرات ، ونراجع ما حدث حينذاك ، سنرى أن أهم ما حقته محاضرات بويل بين ١٦٩٢ - ١٧١٤ فكريا هو التكامل بين الفلسفة الطبيعية لنيوتن باعتبارها دعامة جديدة للأيدولوجيا الاجتماعية البروتستانتية الحرة . ويرجع الفضل فى احداث هذا التكامل - أساسا - الى جهود بنتلى وكلارك ، وبمقدار أقل لجون هاريس ووليم درهام ووليم تينيسون .

وأغلب الظن أن النيوتينية قد فهمت فى بداية عهدها كظاهرة فكرية مجردة فحسب خالية من أية أيدولوجية مجاوزة للواقع ، أو مضمون اجتماعى وسياسى . ولم يشعر أحد بلور نيوتن الخلاق الأنضل نوعا فى الناحية الاجتماعية والناحية السياسية ، الا بعد أن ظهرت الأبحاث التاريخية الحديثة جدا التى تصورت نيوتن خاضعا لاهتمامات عصره ، مما دفعه الى الحرص على احداث وفاق فى فلسفته الطبيعية حتى تساير روح العصر . أما المذهب الذى نسبته أنصاره اليه (الذى رضى عنه بصفة جوهرية) والمصادر التى ارتكن اليها الأحرار عند معارضتهم له فقد ظهرت فى الكتابات الحديثة على أنها متصلة بالناحيتين الدينية أو الفلسفية فحسب . وقيل ان رجال الكنيسة قد اتبعوا الفلسفة الطبيعية لنيوتن لأنهم كانوا يخشون الفلسفة الميكانيكية لديكارت ، والعون الذى قد تقدمه للملحدين والماديين . ولكن لماذا كانوا يخشون الإلحاد ، ويخشون أكثر من ذلك المذهب المادى - بوجه خاص - عندما يستند الى الديكارتية ؟ فيل اقتصر التعرض للخطر على التقوى المسيحية ؟ وهل كانت النيوتينية مجرد أحد أسلحة الحرب بين التمسك بالدين والهرطقة ؟ لعل مثل هذه النظرة قد جعلت الدين مجرد مسألة اقتناع عاطفى وتجربة روحانية مجردة بعيدة عن الواقع الاجتماعى ، أو ربما قيل لنا ان النيوتينية قد أعادت توكيد النعمة التى ردها الاسميون (فى القرون الوسطى) من القائلين بالارادة والاختيار فى اللاهوت المسيحى الذى نما فى أواخر القرن الثالث عشر ، وأنه من ثم « فمن غير الضرورى - ومن المضلل حقا - التسليم بوجود حالات تشابه اجتماعى وسياسى ، لأن التأثير - لو وجد - سيكون تأثيرا معاكسا . ومن المفيد والهام الى أقصى حد أن ندرك أن الفلسفة الطبيعية النيوتينية تتبع أحد تقاليد الفكر المسيحى ، وان كان تصور التحول الفكرى على أنه شىء يتم بصورة آلية ، وأن المفكر يتبع فكرة ما لمجرد أنها موجودة فى انتظار من يتبناها ، يدل على اتباع فرضية منهجية تعتقد أن الأفكار النيوتينية بمقدورها أن توجد مستقلة عن بيئتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية السائدة أو بمعزل عنها . وأنها موجودة كذلك .

ان رجال الكنيسة الذين اتبعوا النيوتينية ، لم يتحدثوا باسم فقط ، وباسم الأوصياء على محاضرات بويل ، ولكنهم تحدثوا أيضا باسم طائفة « الخلاصيين » من أتباع الكنيسة ، فمنذ بدايات حركة الإصلاح الديني ، شغل رجال الكنيسة بالبحث عن مذهب بروتستانتى ليبرالى وشامل بمقدوره التحدث عن المشكلات الأخلاقية فى عصرهم . ولقد أمكن حصد التهديد الموجه للسلطة السياسية والدينية للكنيسة من قبل الراديكاليين ، بعد رجوع النظام الملكى (عهد الاستعادة) . وشيئا فشيئا كاد يختفى تأثيرهم السياسى ، وان كان رجال الكنيسة لم يقنعوا بذلك ، ففى الحقبة السابقة لسنتى ١٦٨٨ و ١٦٨٩ ، تأسفوا لانعدام الأخلاق فى عصرهم ، وسعوا لكسب رضاه جماهير الكنيسة بتأييد فكرة السعى المستدير وراء تحقيق الصالح الذاتى ، تمشيا مع ارادة العناية الالهية ، وكما أكدت قوانين الطبيعة .

وكان « الدين الطبيعى » المتأثر بعقيدة « الخلاصيين » قد ارتقى من الناحية العقائدية على عهد الملك جيمس الثانى . وبفترة ، تعرضت مصالح الكنيسة مرة أخرى للتهديد من النظام الملكى ذاته ، هذه المرة . واتجه نفر من صفار رجال الكنيسة الى النبوءات سعيا وراء الهداية والسوان . والتزم أغلبيتهم باتباع موقف هامشى ، بينما اضطلع بدور الثورة - من أجل انقاذ الكنيسة - الأمراء والحكام والأعيان .

ومن تأثير الثورة ، التى بدت فى نظر رجال الكنيسة حادثا يدعو الى الارتباب - أخلاقيا - استولى « الخلاصيون » على الكنيسة ، غير أن النظرة السياسية اليهم كانت متضاربة . فلقد اطمانت الكنيسة الى وضعها بالرغم من استناد نفوذها السياسى وسلطتها التهديدية على تحالف عشوائى مع السلطات العلمانية أو المدنية . وبعد أن انتصرت حكومة الثورة القائمة على فكرة التعاقد وضرورات الصالح الذاتى ، تازم موقف الخلاصيين . وتمكس محاضرات بويل محتتهم ، بكل دقة . اذ بدا الدين الطبيعى الذى جاء به من سبقوه من مفكرى « عهد الاستعادة » هو الحل الأوحى . ورئى أن باستطاعة المسيحية الليبرالية المستندة الى منجزات العلم ، الجلية البينة ، والتى لا استطاع الطعن فيها ، أن تحقق الولاء للدين ضد المزايم التى يرددها أنصار هوبز والمفكرون الأحرار . وعنى الولاء للدين فى نظر صفار رجال الدين الولاء للكنيسة . واستنادا الى هذا الولاء ، قد يرتقى السلوك الاجتماعى والاقتصادى الخاضع للعناية الالهية ، ويسود الاستقرار ، ويتوافر الرخاء ، وتتحقق أحلام الكنيسة بحلول القيامة الألفية (*) .

(*) millennium : فترة زمنية تقدر بالف سنة ، يتم فيها تقييد حركة انشيطان ، ويعود بعدها المسيح للحكم على الأرض . والله اعلم .

وعنى ذلك عند بعض النيوتنيين من أمثال وپستون الاهتداء الى « السماء الجديدة » و « الأرض الجديدة » بمعناها الحرفى ، كما ورد فى الأسفار المقدسة . وعنى هذا الحلم فى نظر آخرين ككلارك ، تحقق نظام مستقر متناغم ، تسوده العناية الالهية ، حيث لا تعرض ضرورات السوق أية تناقضات تتعارض وما يمليه الدين الطبيعى . واستعان النيوتنيون بعلم أستاذهم (نيوتن) لدعم أهدافهم . واتخذت الفلسفة الطبيعية لنيوتن كدعامة للايديولوجية الاجتماعية التى وضعتها الكنيسة بعد الثورة . .

وبعد ١٦٨٨ - ١٦٨٩ ، استندت صياغة الايديولوجية الاجتماعية المعتدلة للكنيسة على نظرة جديدة لدور الدين فى نطاق النظام المدنى للدولة . فلقد نظر الآن الى دور الدين على أنه سعى لتحقيق الطمأنينة الى سلامة مجرى الأحداث فى مجتمع منظم على خير وجه . وزعم جون هاريس : أن الفضائل التى ييئها الدين « ستؤدى طبيعيا وبالضرورة الى تحقيق صالح البشرية وسعادتها، والى الدعم المتبادل للمجتمع ، والتجارة ، والى استتباب السلام والسكينة لجميع الحكومات والطوائف . فالدين يزود بالسبل المناسبة لتحقيق غاية الصالح الذاتى . ولن يحدث أى ارتياب فى الغايات ، الا اذا استهلكت الوسائل المتبعة لتحقيقها قيم الاخلاق المسيحية » .

ويعبر بنتلى عن هذه النظرة الجديدة لمكانة الدين فى الدولة عندما يسأل محاوره فى معرض هجومه على هوبز : « لماذا اذن تحاول تقويض هذا الأساس ؟ ولماذا تعمل على افساد اللحمة (بضم اللام الثانية) التى تساعد على التئام المجتمع ، وأن ترد كل شىء مرة أخرى الى الحالة المضطربة والمهوشة التى تتوهمها عن أصل الطبيعة ؟ فليس باستطاعة أى مجتمع ، أو بقدوره البقاء على أى أساس آخر غير الدين » . فالدين يتشابه والأسمنت فى أحداث التلاحم داخل المجتمع ، وفى أحداث جذب متبادل بين مختلف القوى التى تهدد استقرار المجتمع .

وترتب على الدور الذى نسب الآن صراحة الى الدين ضرورة إعادة توجه تعاليم الكنيسة تجاه المجالات العامة للنشاط الانسانى ، والابتعاد عن المحوصيات التى تكفى بالدعوة الى الصلاح الشخصى والعبادات . فممارسة الفضيلة الاجتماعية تثيب الفرد ثوبا عظيما ، وتحقق أعظم نفع للمجتمع بوجه عام . ويعترف صمويل كلارك لمستمعيه بأن هذا الجزء الاجتماعى جلى بين « حتى ان أعدى أعداء جميع الأديان ، الذين يزعمون أنه لا يزيد عن اجراء ذنبوى أو سياسى من صنع الدولة ، يعترفون - حتى ضمن هذا الزعم بالذات ، بالكثير مما يتعلق به » .

وحتى يتسنى للمفكرين الدينيين إعادة توجيه أهداف الدين، واقصائها عن « الأخريات » والتعبد الشخصي أو الاتصال بالخالق ، أو لمسيرة « سياسة الدولة » ، أو لممارسة الفضائل العامة والاجتماعية ، كان عليهم أن ينسبوا للنتائج المستمدة من إعادة توجيه البشر على هذا النحو أعظم قيمة ممكنة . وعرض بنتلى فى مستهل محاضراته القيم التى قصد بها الوظيفة الاجتماعية للدين : « فالدين ذاته يمنحنا أعظم غبطة ، ويحقق لنا أسمى عيزة ، حتى فى هذه الحياة أيضا ، دون مبالاة بالبعث فى الحياة الآخرة . فكل سبيله تحقق السلام ، وكل وسائله تؤدي الى الشعور بالانسراح » .

وعرض رجال الكنيسة السلام كهدف يحصل عليه المجتمع عندما يتمسك بأهداف الدين . وحتى يكتسب عرضهم المصادقية ، ذكروا اسم المسيح كقمة للتقات الذين يرون اتجاهاتهم ، وقالوا انه أوصانا باتباع الحكمة فى مسلكتنا حتى يتواءم هو والجانب العقلانى من طبيعتنا . فاذا نظرنا الى جميع قوانينه فى ذاتها سنراها مجردة من أى توقع يحقق الصالح العرضى أو الوقتى لمن يتبعون هذه القوانين . فهل هناك ما هو أكثر نفعا لصالح الانسان أو صالحه أو مكانته أو سلامه فى هذا العالم من الاحسان والوداعة والأمانة والاجتهاد فى التضرع اليه . وما يعنيه قول بنتلى فائق الأهمية : لقد جاء المسيح بالمسيحية للبشر اعتمادا على تجرده من الأنانية ، حتى يتأكدوا من أن صالحهم الوقتى سيكون حصيلته سعيهم لتحقيق ذاتهم .

فالدين يفغر ويشجع على اتباع نظام اجتماعى واقتصادى قوامه الاعتراف بحقوق الملكية الشخصية واحترام الذات . ويطالب الدين فى المقابل أن يسمى الأشخاص لتحقيق صالحهم اعتمادا على العقل ، وأن يحرصوا على الفضائل الاجتماعية للعدالة والأمانة . وكما لاحظ افلين ١٦٨٨ : ان المتدينين لا ينفرون من الثراء ، ولكنهم يشجبون فقط « تفاهات الثراء » ويقر كلارك القول بأن المخربين والمفسدين « يعرضون أنفسهم للاكتساح من قبل النزوات العشوائية والتعسفية ، التى كان باستطاعتهم التنبؤ بعواقبها ويقعون ضحية للأهواء الطائشة والشهوات والتفاهات والكبرياء والصالح الشخصى والمتع الحسية الآنية . وهذه النواحي هى التى تدفعهم الى تعسبة ارادتهم وذواتهم بأفعالها المنافية للعقل لمواجهة طبيعة الأشياء ومعقوليتها . نعم يحاول الفارقون فى المتع الدنيوية « تدمير هذا النظام الذى أقيم الكون على أساسه » .

ولما كان رجال الدين لم يقصدوا قط شيئا بالتحديد عندما تحدثوا عن أصحاب العقليات الدنيوية ، لذا كان بمقدور المؤرخ أن يتأمل معهم فى

التعميم ، عندما يعرف « طابع » الحساسية الدينية . فلقد تحول الاحتجاج الذى بدأ فى بواكير تسعينات القرن السابع عشر ضد الطبقات المتخمة بالمال الى فيض من النقد والسخرية فى عهد انجلترا الأاجسطية (*) . وانصب اغلب هذا النقد الاجتماعى - وبخاصة عند الساخرين المحافظين من أمثال سويفت وبولنجبروك وجاى - على الكشف عن العروض الساذجة للثراء والعادات المبتذلة التى شاعت عند طبقة الأثرياء الجدد التى لم يستند وجودها على عراقة الأصل ، وغالبا لم يستند أيضا على المكتسبات « الحميدة » التى رضى عنها اقلين كمعيار للمكانة الارستقراطية . والواقع أن هذه الطبقة الجديدة قد نسبت لنفسها نفس مكانة صغار عليّة القوم الاجتماعية ، بل ومكانة الارستقراطية - الى حد كبير - بعد أن استحدثت التوسع التجارى والمالى فى انجلترا ١٦٨١ فنة اجتماعية جديدة ، كل مؤهلاتها القدرة على الاستثمار والحرص الدائب على الكسب . وأحدثت سرعة تحولهم الاجتماعى ، بالإضافة الى ما صحب ذلك من ضعف التعاليم الدينية وسيطرة الكنيسة بعد حركة الإصلاح الدينى ، نظاما اجتماعيا جديدا . ولم تعد السلطة الاجتماعية والسياسية تتبع بالضرورة انتماء الشخص الى احدى المراتب العليا فى الكنيسة ، ولم تعد المشاعر الدينية التى تبرر أحقية النجاح الدنيوى حقيقة ملموسة .

وهدد المخادعون معدومو المبادئ نظام المجتمع ، ومكانة الدين فى هذا النظام . وكثيرا ما انتفعوا على حساب أهل الفضل ، كما ذكر كلارك بأسف . فلقد خلقوا موقفا لم يقتصر أمره « على حرمان (الفضلاء) من الاستمتاع بالخيرات العامة التى ستعود عليهم بطبيعة الأحوال وبانتظام كثمرة لتستعمل بالفضيلة ، ولكن فى كثير من الأحيان ، كانت سببا فى تعرضهم لأفدح النكبات الدنيوية ربما لمجرد اتصافهم بهذه الفضائل » . وهكذا كان النظام الاجتماعى الرقيق الذى تصوره النوتونيون يتعرض بلا اقطاع لتشوويه نفر من اللاعقلانيين الذين دأبوا على السعى نحو تحقيق صالحهم الذاتى بلا شفقة ولا هوادة .

وسعى المتدينون لخلق نموذج لكيفية عمل نظام للمجتمع يمكن الاطمئنان الى تطبيقه . فلقد اعتقدوا فى وجوب شرح هذا النموذج على الملأ لأن :

« فساد الحالة الراهنة التى تكتنف الطبيعة البشرية الآن ، تحتم عدم ترك البشر بوجه عام للخضوع لما تمليه عليهم عقولهم ، ولاستعمال ملكاتهم الطبيعية ، ولواجهة المعتقدات المجردة لعقلهم . ولكن يتحتم تهذيبهم

(*) Augustan - يقصد به انجلترا بعد اعتناقها للمذهب البروتستانتى .

وتعليمهم بوجه خاص كيفية قيامهم بواجبهم . ويجب أن تفرس في عقولهم ودوافعهم هذه الأفعال ، في الأغلب وبصورة قوية ، وأن تثبت فيهم اعتمادا على سلطة لها وزنها . ويجب أن تقدم لهم العديد من المساعدات ، حتى يحافظوا بطريقة فعالة على ممارسة أعظم واجبات الدين وأبينها .

واتجه رجال الكنيسة لدراسة الطبيعة الفزيائية في محاولة لاصلاح فساد البشر ، ولحتمهم - غالبا وبطريقة قوية - اعتمادا على سلطة لها وزنها . وقبل أن نناقش الدروس الهامة التي استخلصوها من الطبيعة ، وكيفية تطبيق هذه الدروس على المجتمع ، يجب أن نتوقف لبحث مسألة لماذا اتجه العديد من رجال الكنيسة في أواخر القرن السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر الى الدراسة العلمية . وهي محاولة ساهمت بطريقة حاسمة في تقدم العلم الحديث والتكنولوجيا الحديثة على نحو يدعو الى التقدير .

ولقد زودنا صمويل كلارك باجابة جزئية . ولعل كلارك كان واحدا من قلائل من رجال الكنيسة في انجلترا فهموا الفزياء النيوتينية فهما صحيحا ، وأقام فكره الفلسفي والأخلاقي برمته على تصورات فزيائية مدعمة بمنجزات نيوتن العلمية . وكما قيل ، فإن المفكرين الدينيين الانجليز في أواخر القرن السابع عشر قد اتجهوا الى الاشادة بالدين في الحالات التي اكتشفوا فيها نهوض الدين بمرور اجتماعي . فالدين يؤدي مهمة تزويد المجتمع بالنظام ، وكبح جماح الشراة والتقتير ، وتوطيد الاستقرار داخل المجتمع عندما يساعد على لم شمله والتثامه . ويرافق التوكيد الجديد للدور الاجتماعي للدين الأهمية التي نسبت للعناية الالهية في الكون وشئون البشر . فالله يوجه ما يجرى في العالمين : « فبفضل حكمته وعدالته وخيريته التي تجلت في تنظيم العالم وحكمه لمالم الأخلاق الذي يمتد بالضرورة على ترابط هيكل وحدته الكلية وصدوره » . وأكد كلارك - بكل ثقة - الدور الفصال للعناية الالهية في الجانب الطبيعي للعالم ، وجانبه السياسي .

على أن كلارك قد كشف عن اهتمامه (ولابد أن يكون هذا الاهتمام قد اتخذ شكلا استفزازيا ومتعبا) عندما قال ان ما تفعله العناية الالهية يتكشف لا عيننا ، لأننا لا نرى غير آثارها في أحوالنا ، بيد أن دور الله واضح ومتمايز في النظام الطبيعي . انه واضح مثل المنطق الذي استعان به كلارك في شرح أوصافه وآثاره . وكتب كلارك يقول :

« وربما بدا للوهلة الأولى من الغريب أن يتوافر لكل شيء في ذاته الكثير مما هو واضح جلي من دلائل لا تنكر للبراعة الدقيقة والحكمة

اللامتناهية لخالقها العظيم ، التي تتمثل فى نظام الطبيعة فى عالم الماديات
 واجمادات ، وفى الجانب اللاعقلانى للخليقة ، ابتداء من المذنبات النجوم فى
 قبة السماء الى اصغر حصىة على وجه الأرض . فلا وجود لنتفة من المادة
 لا تعرض أمثلة للبراعة المذهلة ودقة التناسب والصنعة بقدر يتجاوز كل
 فطنة الانسان (ولا أقول قدرته على محاكاته) مما يصعب بحثه كل شئ
 باستيفاء أو فهم . ومع هذا ففى ادارته للعالم العقلانى والأخلاقي ، الذى
 خلقت باقى الأشياء من أجله ، والذى يرجع سر بقائها الى كونها فى خلعة
 هذا العالم ، لا وجود لدلائل واضحة بما فيه الكفاية فى عصور كثيرة
 لا لحكته ، ولا لعدالة الله وخبرته ، ولا لما يثبت تدخل العناية الإلهية على
 الاطلاق ، لاقتناع الكافة بوضوح وبصفة عامة ، بأن العالم خاضع للعناية
 الإلهية المباشرة وللإطلاع الإلهي على كل ما يجرى ، ولحكم الله .

ولن تظهر دلائل فاعلية الله فى النظام الأخلاقي والسياسي الا بعد
 مجيء حقبة حافلة ببعض الثورات الكبرى ، ومنجزاتها ، التي تثبت اعتماد
 الانسان على الله جليا واضحا حتى لا يبعد الناس ايمانا بالدين ، عندما
 يتكشفت المخطط الإلهي فى التاريخ ، وتعرف السماء والأرض فى صورتيهما
 الجديديتين . وحتى يحين ذلك اليوم ، يجب أن يقنع الناس بالايان بدور
 العناية الإلهية فى عالم السياسة . ولكن عندما يسمى البشر لتفسير المعنى
 المتضمن وراء مخطط العناية الإلهية لمعرفة طبيعة المجتمع ، فان الايمان
 وحده لن يعد كافيا . فاذا أمكن فهم مخطط الله فى العالم الطبيعي ،
 واستطاعت الطبيعة أن ترشدنا ، أو تقدم لنا نموذجا يعرفنا ما يجرى فى
 العالم الأخلاقي . فى هذه الحالة ، سيتسنى التعرف عند دراسة الطبيعة
 الفزيائية الى بديل لما فى هذا « العصر المرذول » من فساد وشر . وفى
 أواخر القرن السابع عشر ، استطاع العلم التزويد بديل أوضح مما قدمه
 المجتمع ، للدلالة على فاعلية العناية الإلهية . وأقبل رجال الكنيسة على
 « دراسة الفلسفة الطبيعية بأعداد كبيرة متزايدة » .

وقدم كلارك كبديل لهذا « العصر المرذول » فى محاضرات بويل النتائج
 المستخلصة من دراسته للطبيعة . فلقد استعان كلارك بمبادئ الحركة
 وقوانينها ، التي تمبر عن دور الله ، والتي تضم بنيان الفلسفة الطبيعية
 لنيوتن ، لتفسير طبيعة النظام الاجتماعى .

وربما يظهر للوهلة الأولى تصور مثل تصور « الخوا » وتصور
 « المكان المطلق » و « الزمان المطلق » و « المسادة والحركة » بعيد
 الاتصال بنموذج المجتمع الذى يتطلع اليه رجال الكنيسة . غير أن
 فلسفة الطبيعة ذاتها الكامنة وراء محاولات نيوتن الرياضية والتجريبية ،
 والتي تبناها بدورهم المعقبون عليه قد انبعثت من وسط فكري واجتماعي

قد أضفى حتى على الطبيعة الفزيائية أهمية أيديولوجية . فلقد تولى تفسير معنى القول بأن « المادة ميتة » أو « خالية من الحياة » بطريقة صارمة ، أفلاطونيو كيمبردج من أمثال هنرى مور ووالف كادورث . ولقد قاموا بالمحاولة للتعبير عن رأيهم فى مواجهة الماديين والملحدن فى منتصف القرن السابع عشر ، الذين أكدوا وجود مبدأ للحياة فى المادة ، ومن ثم استخلصوا قابلية الروح للفناء . ولقد أضفى التكامل بين هذه المعانى الفلسفية الظاهرة الأهداف الاجتماعية والسياسية والراديكالية لطوائف بالذات مثل طائفة المنادين بإزالة الفروق (*) . وليس من شك أن نيوتن قد استخلص الكثير من فلسفته الطبيعية من أفلاطونيو كيمبردج . ولا أرغب حالياً فى التعرض لتعقيدات هذه المشاحنات السياسية والأيديولوجية فى منتصف القرن . وتعيين الإشارة فقط الى أن الفلسفة الطبيعية لنيوتن حتى فى صورتها الأصلية التى ظهرت فى منتصف القرن عنده وعند من عقبوا عليه لم تنفصل البتة عن سياقها الاجتماعى .

والتصور القائل بأن المادة ميتة وخالية من الحياة وممتدة ، ولا يخترقها شيء تصور أساسى فى الفلسفة الطبيعية النيوتينية . فالمادة لا تتحرك ، سواء انخذت شكل الكوكب ، أو فى حالتها الذرية ، الا اذا دفعتها قوة لا مادية من الخارج . ومصدر الحركة هو الله . فهو الأصل والمصدر الثابت للحركة ، القائمة فى الكون . وعبر نيوتن عن تصوره للمادة فى أوضح صورة فى المبحث الواحد والثلاثين من كتاب البصريات (**) (١٧١٧ - ١٧١٨) : « ان قوة القصور الذاتى (***) هى مبدأ سلبي يساعد على استمرار الحركة أو السكون . ويتلقى الحركة على نحو يتناسب والقوة الضاغطة عليه ، ويقاوم بقدر يتساوى وقدر مقاومتها . وليس بالمقدور حدوث أية حركة فى العالم اعتمادا على هذا المبدأ وحده » .

وتحدث قوانين الحركة (الجاذبية الكونية مثلا) تأثيرها الفعال على المادة من بعد . ويلزم وجود الخلاء لانجاز هذه العملية . وللقضاء الذى يحدث من خلاله اجتذاب المادة وحركتها كينونة فى ذاته ، تعمل من خلالها قوة الله فى الكون . والواقع أن قانون الجاذبية الكونية هو ارادة الله ، كما يعبر عنها فى الكون . ويكشف « نظامها الرائع » عن ارادة العناية الالهية الكائن عاقل قادر على كل شيء .

وبعد الثورة ، قال أنصارها : لقد كانت الارادة الالهية ذاتها وراء الأحداث التى وقعت فى ١٦٨٨ و ١٦٨٩ . وتمشيا مع هذا اللاهوت المؤمن

Levellers.

opticks

Vis inertiae.

(*)

(**)

(***)

بالعناية الالهية ، شدد المعقبون النيوتينيون على الاشادة بدور الله فى الكون . فعنما بدأت الخليقة رص الله ذرات الكون فى نظام ، وشكل الله العاء البدائى فى صورة الاطار الراهن للأشياء ، ويرجع استمرار بقاء هذا الاطار الى التدخل المستمر لله . ويقول لنا كلارك : « ونبعا لذلك ، فلا وجود لما يسميه الناس عادة بمسار الطبيعة أو قوة الطبيعة . واذا توخينا الدقة فى الكلام علينا القول ان مسار الطبيعة هو ارادة الله التى تحدث آثارا معينة على نحو مستمر ومنتظم وثابت ومطرد . فأى مسار أو حالة من حالات الفعل تتصف فى كل لحظة بالعشوائية الكاملة ، سيكون من اليسير تغييرها فى أى وقت ، مثلما سيسهل الحفاظ عليها ، . فإله بوصفه كينونة بحتة وروحانية وقوة هائلة حاضرة فى كل مكان ، وكاملة وقادرة على كل شىء ، يمارس سلطته كاملة على المادة ، انه المصدر النهائى لكل حركة فى الكون . وباستطاعته تفويض الانسان لممارسة هذه القدرة .

وفى المذهب النيوتينى ، اثبتت القدرة الممنوحة للانسان لتنظيم المادة ، وتحريكها ، أو تعديل اتجاه الطبيعة ، فى نهاية الأمر ، التعاليم الاجتماعية « للخلاصيين » . فالمادة غفل وغبية (أى لا عقل لها) وللانسان السيطرة النهائية - بفضل عقله - على الأشياء فى العالم . واعتقد بنتلى أنه من السخف تخيل : « ان بمقدور الذرات ابتكار الفنون والآداب والعلوم، وتكوين المجتمعات والحكومات ، أو عقد المعاهدات والاتفاقيات ، وابتكار وسائل لتحقيق السلام ، وتخطيط استراتيجيات الحرب ، أو « التعامل فى المسائل العامة والخاصة ، وفى البحر والبر ، فى دور البرلمان ومخادع الحكام » . ويساعد التعريف النيوتينى للعلاقة بين الانسان والمادة على اجازة السعى وراء الغايات المادية ، وتسخير الأشياء فى هذا العالم لصالحنا ، وبالتساوم والبيع والشراء والاشتغال بالأمور الدنيوية ، بعد معرفة أن هذه الأنشطة من الحقوق التى منحها الله . وتعد قدرة الانسان على كسب الممتلكات المادية امتدادا لحقه فى تغيير مسار الطبيعة ذاته ، والتحكم فى المادة «انغل والغبية» . ولكن الانسان عندما يتعامل هو والأشياء المادية، عليه أن يبت فيها نظاما شبيها بالنظام الذى فرضه الله على الطبيعة . وكما لا يتوقف الله عن الارتقاء بخير الكون ، فان على البشر أيضا أن ينشغلوا بالخير الكونى . فالانسان ملزم باطاعة من يتسيدون عليه والخضوع لهم فى جميع الأشياء العادلة والحقة للحفاظ على المجتمع .

وفى عملية التحكم فى المادة ، خصصت للبشر مواقف معينة . فمن الضرورى للحفاظ على النظام الاجتماعى ، أن يلتزم الفرد بالواجبات التى يفرضها عليه هذا المركز بالذات ، أو مقومات الحياة ، أيا كانت ، أى حيث وضعته العناية الالهية فى الحاضر ، وأن يواظب على عمله ،

ويرضى عنه ، دون شعور بالضيق والتبرم من كون الآخرين قد وضعتهم العناية الالهية في مواقع أفضل ومختلفة في العالم ، أو جعلته في حالة توجس شديد وغير معقول يدفعه الى العمل على تغيير موقعه في المستقبل ، مما يشجعه على افعال واجبه الراهن * « فالبنيان الاجتماعى قد صدق الله على قيامه ، ومحاولة تبديله تدل على الانحراف » *

وحدثت مثل هذه المحاولة التبديلية ابان فترة الحواء (*) عندما سمح لانس ذوى نفوس طموحة ومضطربة من شعروا بدم الرضا وعدم الارتياح عن خصوصياتهم وانفرادهم بالحياة، وفقا لمبادئ ابيقور بالاشتغال فى مهام العولة * ويلمح بنتلى بذلك الى الطوائف المنشقة الذين حصلوا بطرق خفية على سلطات الاريستقراط « بالخصوصية » والانفراد ، والبلاط وما حل به من وهن فى النظام الاجتماعى والسياسى . ويصف بنتلى أفعالهم بالنزعات الأبيقورية والشهوانية (***) التى لمحها فى مجتمع ما بعد ١٦٨٨ .

وبالمثل لم يكف صمويل كلارك عن ذكر الفساد والفوضى التى عمت العالم المحيط به : « لقد بلغت حالة البشر فى هذه الدولة الراهنة حدا جعل النظام الطبيعى للأشياء فى العالم فى حالة انحراف واضح ، مما حال الى حد كبير دون احتلال الفضيلة والخير موضعهما الصحيح ، والنهوض بدورها فى توطيد السعادة التى تتناسب هى ومسلكهم وممارستهم . ودفع التشاؤم الناجم عن هذا التبصر بمسلك البشر فى العالم عند أولئك الذين يتجاهلون العناية الالهية والتحكم فى شئونهم كلارك ، كما دفع معاصرين له من رجال الكنيسة الى الربط بين انحراف القيم الاجتماعية وفساد الطبيعة . ولقد حفنت عظاته دوما بتشبيه المجتمع بالطبيعة :

« عندما تتخلى الشمس عن مبدأ المساواة الذى تتبعه الآن فى مسارها ، كما يبين من حرصها على نشر دفئها الرقيق ونورها الوضاء ، ورعاية كل شىء بما يناسبه ومنحه القوة فى كل بقعة فى النظام الشمسى ، وتتجه عكس ذلك الى الاحتراق واتباع مسار موج بعيد عن الانتظام ، فتهدم بعض الأجرام بحرارة لا تخضع لأى كبح ، وتترك أجراما أخرى للفناء من هول البرودة والظلمة ، فان ما يحدث فى هذه الحالة بالنسبة للعالم الطبيعى يتماثل مع حالة الظلم والظلميان والاجحاف والشر بالنسبة للجانب الأخلاقى والعقلانى للخلقة » .

للقد اعتقد كلارك ان تدهور القيم الأخلاقية وفقدان الاستقرار الاجتماعى ، بالتبعية ، قد تمثل قبل ذلك فى التدهور الفيزيائى للطبيعة .

Interregnum.
atheistical.

(*)

(***)

فاذا أمكن الميلولة ، دون حدوث انهيار للطبيعة ، لابد آتئذ من توقف انهيار القيم الأخلاقية . فمبادئ النظام والمقل تتطلب التعبير عن نفسها . وعندما يحدث ذلك يتأكد وجود نظام كامن في الطبيعة ، ينطبق على النظام الأخلاقي والاجتماعي . ومن هنا يتضح كيف استعان رجال الكنيسة بالمشهد النيوتيني كنموذج كامن في الطبيعة ، وطبقوا مبادئه على المجتمع الذي يحيون في ظله .

فالمبدأ المنظم للطبيعة هو الجاذبية ، أى التجاذب الكوني والمتبادل لجميع الأجسام . ويمثل هذا المبدأ « أمر الله » كما يتجسم في قوانين الجاذبية التي تولد النظام والتناغم في الكون . وتقوم الجاذبية بدورها في المادة المحيطة بالخلاء . وبفضل هذا الفراغ ، تيسر للذرات التحرك في المكان والتشكل عن طريق الجاذبية في مادة الكون وصورته . وتعد قوة الجاذبية المتبادلة برهانا حاسما لاثبات وجود الله ، ولعل دليل التجاذب المتبادل في الكون هو أنصح دليل لاثبات دور العناية الإلهية في الطبيعة . وقد استند كلارك في حكمه على دور العناية الإلهية على هذه الحجة : « ان مبدأ الجاذبية بالذات هو أعظم المبادئ قاطبة ، لأنه مصدر جميع الحركات الكبرى المنتظمة للجسمادات في العالم ، أو يكاد يكون كذلك . ولا يرد هذا المبدأ الى أسطح الأجسام (فاعتمادا عليه وحده يتعامل كل جسم مع الأجسام الأخرى) لأنها بحكم صلة محتواها لا يمكن أن تكون حصيلة أية حركة ضاغطة على الماء ، ويتحتم بالضرورة أن يكون مبعثها (بصفة مباشرة أو لا مباشرة) شيئا يخترق الجوهر الصلدة ذاتها لجميع الأجسام ، ويبت فيها بلا انقطاع قوة أو طاقة بعيدة الاختلاف عن تلك القوى التي تحدث تأثيرا فعلا في المادة . وهنا برهان واضح لا يثبت فقط وجود علة عاقلة سامية وراء خلق العالم ، وانما يثبت فوق ذلك اعتماد العالم في كل آن على كائن أسمى ما للحفاظ على اطاره . » ان هذه القدرة الحافظة والحاكمة ، سواء آكانت مباشرة في صورة قوة الفعل عند نفس العلة السامية التي خلقت العالم يعنى الله ، الذى بلونه لن يتمكن كائن كالمصفور من التحليق في الجو دون أن يسقط على الأرض ، والذى بفضلله وجد عدد لجميع شعرات رؤوسنا ، أو تمثلت هذه القدرة في شكل معدات ثانوية خصها الله بتوجيه أجزاء معينة أو التحكم فيها ، ففي كلا الحالين ، بوسعنا الحصول على فكرة سامية للغاية عن معنى العناية الإلهية .

وقامت المبادئ الفيزيائية التى فسرها نيوتن رياضيا في كتاب «المبادئ الرياضية» (*) لرجال الكنيسة ما بدا لهم برهانا لا ينكر لاثبات

وجود العناية الالهية . ومثل مبدأ الجاذبية الكونية وسيلة يستطاع بفضلها الحيلولة دون حدوث انهيار للطبيعة ، والعمل كأساس « للحفاظ على الأفلاك العديدة فى الكون وحمايتها من التشتت والتناثر » . وهذا حل بديل يمكن تقديمه لمواجهة مخاوف « افلين » من امكان انفجار العالم ، وتفتته الى شذرات ، ما لم يجر الاصلاح الدينى . ولم يهدف المعقبون النيوتينيون اطلاقا لتفسير مبدأ استطاع الارتكان عليه لتأكيد استقرار النظام الطبيعى ، لأن مذهبهم لم يظهر الى عالم الوجود الا بعد أن استند الى المبادئ الفزيائية التى شرحت فى كتاب « المبادئ » . وكانوا يدركون ان الأحداث فى العالم الطبيعى معلقة فى نهاية الأمر تعليقاً مباشراً على الأحداث فى عالم السياسة ، وكانوا يهدفون الى انشاء نموذج فزيائى وأخلاقى وأيدولوجية اجتماعية تستند الى علم نيوتن ، وربما اتخذ هذا النموذج كركيزة لتحقيق حركة الاصلاح .

ولقد بين كلارك بجلاء غاية المذهب الذى انشأه على أساس التجاذب الكونى والمتبادل لجميع الأجسام : « ان جميع الجمادات وجميع الكائنات اللاعقلانية ، بحكم ضرورة وجودها ، تخضع دائماً لقوانين خلقها ، وتنزع بانتظام لبلوغ النيات التى خصصت لها . وكم سيبدو مريماً اذن أن تسيء الكائنات العاقلة الى هذه الميزة السامية للحرية التى رفعت مكانتها فوق باقى خلائق الله ، ان هى وصفت وحدها بالجزء البعيد عن العقل والنظام فى الكون .

لقد ادى عصيان الكائنات العقلانية التى وهبها الله القدرة على تحريك المادة ، ومن ثم - أمكن تعريف الحرية بأنها القدرة على الفعل - ادى الى اتجاهها للعمل ضد ارادة الله، والى حجب رؤيانا لأفعال الله النابعة من عنايته فى النظام العقلانى. غير أن كلارك اعتمد على نمط العناية الالهية « والوجود » فى العالم الطبيعى الذى تكشف بعد دراسة الفزياء النيوتينية ، وعاد الى « عالم السياسة » ، وطالب بيت نظام مقارن يستند الى خضوع الكائنات العاقلة لارادة العناية الالهية . فيجب أن تتأثر أنظمة الحكم المدنية ، بالطابع العقلى للعالم الطبيعى : « اذ يبين جلياً من ممارسة ما يتسم به الكون من عدالة وانصاف وجود وسيلة تتماثل فى مباشرتها وكفايتها فى النهوض بالصالح العام هى وعدالة البشر فى المجتمع ، وهى وأية حركة فزيائية أو عملية هندسية عندما تحدث نتيجة طبيعية أو تترك اثرها طبيعياً » .

وقام مفسرو نيوتن اعتماداً على بيورتينياتهم التى كانت أمراً شائعاً بين المعتدلين من رجال الكنيسة بوضع قائمة بمظاهر الضلال والزندقة فى عصرهم : « اذ باستطاعتنا ادراك ما يحيط بنا من قاذورات من شتى الأنواع وتصنيفها الى جانب الاحاد وتآليه الطبيعة والشك والكفر بالله والإباحية

والزندقة وغلبة الجنوح الى ازدراء الله والأديان كلها ، والتومس بكل صورة في سبيل النفع الشخصى والميزات الشخصية » • وتعبّر هذه الصورة المقامة «لنهاريس» تعبيرا بارعا عن المشاعر التى انتشرت فى دوائر الكنيسة بعد ثورة ١٦٨٨ • فلقد أصبحت « النزعة الفردية التملكية » التى اكتشفها المؤرخون المحدثون فى كتابات لوك وهوبز جانبا غالبا على السلوك الاجتماعى فى انجلترا فى عصرها المجيد • غير أن المعتدلين من رجال الكنيسة عندما انتقدوا هذا المسلك لم يقصدوا فقط شجب السعى وراء الصالح الذاتى • فلقد قدم النيوتينيون - مختلفين عن منافسيهم من رجال الكنيسة - تبريرا لأسلوب معين يستطيع انباعه فى سعى الفرد لتحقيق صالحه الذاتى ، واكتفوا بادانة من يفرقون بين الصالح الفردى والصالح العام ، ومن يرون عيوب الآخرين ، ويدفعهم الانخداع بأنفسهم الى ابتكار البدع والتقاليع والتفنن فى البحث عن الرفعات • فلقد أقلقت أتباع نيوتن المساعى المضطربة عن الصالح الذاتى • ففى المجتمع يتوجب على البشر التحلى بالقوة والقدرة على توجيه المادة ، على غرار القوة التى تمارسها المشيئة الإلهية عند تسييرها للطبيعة • وبوصفهم المتفردين الآخرين الموهوبين بالقدره على تحريك المادة ، لابد أن يفرضوا النظام ، وأن يضعوا اطارا ينظم ممارساتهم لحقوقهم وامتيازاتهم •

فلا بد أن يكتسب الانسان فى مسلكه فى الأمور الدنيوية نفس «العقل» الذى يكتنف كل شئ • ، الذى يتجلى فى تحريك الله للكون الفزيائى • فكما لا تصف قوة الله المطلقة بالتعسف على الاطلاق ، بفضل عقنه التميز، فيتعين أن تخضع أيضا سيطرة البشر على المادة وقدرتهم على تشكيل الجمادات لما يناسب احتياجات عقولهم ، بعد تهذيبها وصلتها • فالآثار المتناغمة لعقل الله فى الكون أمور طبيعية ومألوفة ، وتفضى فاعلية العقلاء من البشر ، كما تتمثل فى « الحقيقة والعدالة والوجود » بالطبع وبالضرورة الى خير البشرية وسعادتها ، والى حدوث عون متبادل بين المجتمع والتجارة ، وتفضى الى «السكينة والسلام وراحة البال لجميع الحكومات والطوائف» •

وبرز من بين حجج المعقنين النيوتينيين تعريف جديد للفنصائل الاجتماعية • فلقد تأكد حق الفرد فى السعى لتحقيق صالحه الذاتى • فثمة تماثل بين حفاظ الفرد على مصالحه والحفاظ الذاتى للكائن فى النظام الطبيعى • وتحقق هذه الناحية دوما صالح الكل ، لأن هناك تكاملا وتناغما فى الطبيعة • وبالمثل فلا بد أن يفسح الصالح الشخصى الطريق أمام الضرورة العامة • وعلينا أن ندرك ان الانصياع الذى تصادفه فى نظام الجمادات نموذج يجب أن يقتدى به ما يبلية الصالح الذاتى ، الذى يجب أن يساير احتياجات المجتمع • ان اشتهاه القوة أمر طبيعى ، ولكن اساءة استعمالها ليست كذلك • وهكذا تغدو الفضيلة الاجتماعية أمرا طبيعيا

للإنسان . ويحول المسلك المضاد للمجتمع الإنسان الى شخص منحرف
« وغير طبيعي » ، ومن ثم بدأ وقوع الإنسان فى الخطيئة - أساسا - فى
نظر الأيدولوجية الاجتماعية النيوتينية ، شيئا يتنافى مع الطبيعة .

لقد وضمت سيطرة الإنسان على المادة ، من ناحية علاقته بالمجتمع ،
فى موقف مماثل لعلاقة الله بالكون . فكما ينظم الخير الإلهى مسار الطبيعة ،
ويرتقى بالصالح الكلى للكون ، لذا لابد أن يشارك الإنسان أيضا فى الجود
الاجتماعى الكلى . إذ تيسر له قدرته على تنظيم مسار الأشياء بناء المجتمع
على نحو ييسر قيامه بتحقيق التناغم الكلى .

ودفعت الرغبة فى تحقيق التناغم الاجتماعى ، التى اشترك فيها جميع
المعقبين على نيوتن ، وأيضا وبحق ، الفريق المعتدل بأسره من رجال
الكنيسة ، دفعتهم الى اخضاع حتى المشاعر الدينية لاحتياجات المجتمع .
وذكر كلارك - مدفوعا بحماسة للتناغم الاجتماعى - وجوب انطلاق الفضيلة
الاجتماعية « اعتمادا على التأمل الدائم والمعتاد للخالق ، وما يتمتع به من
كمال لا متناه وقوة لا متناهية ، وحكمته الكاملة فى حكم العالم » . إذ تؤدى
دراسة النظام الفيزيائى الى الفضيلة الاجتماعية ، والى الاخضاع المناسب
لمبيح شعواتنا وأهوائنا لحكم العقل الرصين والمتواضع . وهذه هى أكثر
الوسائل مباشرة لتحقيق السلام الوطيد والرضاء الراسخ للعقل ، باعتباره
الركيزة الأولى ، والمبدأ الأول ، وأعظم مقوم ضرورى للسعادة الشاملة
الحقة . وتهتدى المشاعر الدينية الى أنفع تعبيراتها الاجتماعية اعتمادا على
الدراسة المنهجية للطبيعية أو تأملها . وبالمثل لابد أن تخضع جميع المشاعر
الاساسية الأخرى للعقل . وفى العالم الرصين للمعقبين النيوتينيين ، نرى
العلم والفلسفة الطبيعية يزدهران الى جانب التقوى والاعتدال ، ويقع
الجانب اللاعقلانى فى الإنسان لكى يتواءم هو واحتياجات المجتمع المتناغم .

ان هذا المنهج الذى تحقق فيه خضوع سعى الإنسان للمجتمع ،
المنبع من دوافع دينية أساسا ، والذى لا تستجاب فيه الاحتياجات
الانسانية الا اذا تواءم اشباعها مع احتياجات المجتمع ، قد تلقى التصديق
النهائى عليه من الله وعنايته . فإله يترأس العالم الحديث ، ويؤدى رعايا
هذا العالم دورهم لأنه يوائم مصالحهم الذاتى . انهم يخضعون قدراتهم
لاحتياجات الكل ، ويشابون على ذلك ، بالتناغم الاجتماعى ، وبادراك أن
مسلكهم كان « طبيعيا » . ويرجع مغزى ذلك الى مبدأ كامن فى نظام الكون ،
لأن الإنسان عندما يتبع العقل فى مسلكه ، فإنه يكمل النظام الطبيعى .
ويزداد ما ينجم عن ذلك من رضاء عن النفس ، بدراسة الطبيعة أو العلم ،
لأنها تؤكد للبشر أن النموذج الذى جاءت به الطبيعة مازال يتمتع بسلامته
وصحته ..

غير أن رجال الكنيسة أدركوا غلبة الفوضى الاجتماعية والارتباك السياسي في مجتمعهم . ولما كانوا يفتقدون في وجود تامل بين « عالم السياسة » وعالم الطبيعة ، فانهم كثيرا ما خشوا من أن يؤدي انتصار الفوضى في عالمهم الى حدوث دمار وشيك في النظام الطبيعي . وسعى النيوتينيون اساسا لتقديم رؤية للمجتمع قد تدعم الاستقرار والتناغم ، وتحقق السعى المصطبغ بالصبغة المسيحية لقدرات الانسان وواجباته في النظام الاجتماعي . غير أنه رثي لضمان تحقيق هذه الرؤية وجوب نهر أصحاب العقليات الدنيوية الذين يسعون وراء القوة والارتقاء بطريقة جائرة ، والذين ربما قوضوا دعائم كل حكومة وسلطان . فلربما تسنى لهؤلاء المنحلين والملمحين - بعد انكارهم لدور العناية الالهية ودفاعهم عن الأفكار الهوبزية والأبيقورية - أن ينشئوا مجتمعا يستبعد منه الدين كقوة سياسية او اجتماعية . وقد يضعفون من مكانة الكنيسة . واذا فعلوا ذلك ، فانهم سيدفعون المجتمع الى حتفه . ولم يتوقف النيوتينيون عن الاعراب عن مخاوفهم من مخططات الدنيويين ، الذين سينشئون - وفقا لتخيلهم - مجتمعا دنيويا وحكومة تتبع اتجاهها دنيويا صرفا .

ان ما لم يدركه المعتدلون من رجال الكنيسة البتة هو أن تعاليمهم الاجتماعية المستندة الى النظام الصارم للكون النيوتيني ، قد قدمت تبريرا قويا للنظام ذاته الذي أقلقهم . ففي مجتمع السوق الذي ازدهر في انجلترا في القرن الثامن عشر ، باذن من مخطط العناية الالهية ، استطاع حتى أولئك المخادعون المجردون من المبادئ تثبيت أقدامهم في نهاية الأمر ، بالرغم من عدم ادراكهم لما جد من مخطط عظيم . . .

المراجع

- M. Boas, *The Scientific Renaissance 1450-1630*, (1962).
- I. B. Cohen, *Revolution in Science* (1985).
- E. J. Dijkstermun, *The Mechanization of the World Picture* (1961).
- C. C. Gillispie, *The Edge of Objectivity : An Essay in the History of Scientific Ideas* (1960).
- A. R. Hall, *The Revolution in Science 1500-1750*, (1981).
- M. Hunter, *Science and Society in Restoration England*, 1981.
- A. Koyré, *From the Closed World to the Infinite Universe* (1957).
- B.J. Shapiro, *Probability and Certainty in Seventeenth Century England : A Study of the Relationship between Natural Science, Religion, History, Law, and Literature* (1983).
- R. E. Schofield, *Mechanism and Materialism : British Natural Philosophy in an Age of Reason* (1970).
- R. E. Sullivan, *John Toland and the Deist Controversy : A Study in Adaptations* (1982).
- R. S. Westfall, *Never at Rest : A Biography of Isaac Newton* (1980).
- R. S. Westfall, *Science and Religion in Seventeenth Century England*. (1958).

القرن الثامن عشر

يطلق عادة على الحياة التي سبقت اندلاع الثورة الفرنسية ١٧٨٩ اسم النظام القديم . وبدت هذه الحقبة في نظر بعض من عاشوا فيما بعد حقبة هدوء قبل السنوات العاصفة للثورة . ومع هذا فقد تمتع المجتمع الأوربي في ابان القرن الثامن عشر بالحياة الى حد كبير . وليس من شك ان هذه الحقبة لم تتصف بالركود ، ولم تخل من الاحداث اطلاقا . ففيها بذرت بذور نوع جديد من المجتمع والحياة الفكرية والاقتصادية .

واضطرت جميع حكومات أوروبا لمواجهة مشكلات الواقع المتصلة بالقانون والنظام . اذ كانت الأغلبية العظمى من الاهالي من القرويين الذين يقتاتون على ما يزرع في الأرض ، التي كانت تنسب أحداث عديدة من التمرد والعصيان من جراء تنازع القرويين على حقوق امتلاكها واستئجارها واقامة الأسوار عليها . وتحدثت ايزابيل دي ماداراجا عن أضخم هذه الانتفاضات وأخطرها . انها تمرد القرويين والقوزاق في روسيا في عهد الملكة كاترين الكبرى . واثارت في المدن بعد اتساعها مشكلات مختلفة تتعلق بالقانون والنظام . وكثيرا ما لجأت في شتى الانحاء الطبقات الحاكمة الى توقيع عقوبات شديدة الصرامة على السلوك الاجرامي . ويتحدث جون ماكمانرز عن الاعدام العلني في فرنسا ، كاجراء متطرف لردع الجريمة ، وتكشف عن موافقة المجتمع على الخضوع لحكم النخبة القائمة .

وشهد اقتصاد القرن الثامن عشر في أوروبا أمس الثورة الصناعية ، والتوسع في التجارة . ويكشف جنيفر تان عن الصعوبات التي واجهت الصناع الأول للمحركات البخارية لاستحداث أسواق لمنتجاتهم . وينظر روبرت دارنتون في الجانب الاقتصادي من عصر التنوير ، ويتحدث عن كيف تم نشر الانسكلوبيديا الكبرى ، وكيف أمكن بيع مجلداتها التي حفلت بالاصلاحات الدينية والاقتصادية والسياسية في سائر أنحاء أوروبا .

ومن بين ملامح مدخلات فكر التنوير ، كما تمثل في الانسكلوبيديا وكتابات « الفلاسفة » الآخرين ، النقد اللفظ للمسيحية والكنائس الوطيدة في أوروبا . وبمجرد بدء الثورة الفرنسية ، أثبتت بعض سياساتها القليلة انها أكثر اثارة للجدل والانقسام من هجومها على الكنيسة . ويتحدث ميكائيل كنيدي عن أثر الدستور المدني للاكليروس ١٧٩٠ ، وما أثاره من جدل وانقسام في الرأي ساعدا على وضع أسس محاولة تجريد فرنسا من المسيحية إبان حكم الذعر . ويكشف كلاوس ابستين بدوره عن كيف أدى التنوير والبهجوم الثوري على الدين الى بزوغ النظرات السياسية والاجتماعية المحافظة في ألمانيا . والحق أنه يصح النظر الى ظهور الاتجاهات المحافظة في أوروبا على أنها نتيجة لقرن كامل من التحولات الجديدة في الضغوط الاجتماعية والسياسية التي دفعت الطبقات الحاكمة في نهاية الأمر الى ادراك أن موقفهم من المواقف التي تتطلب حججا جديدة ومبررات ذاتية جديدة .



ديترو (١٧١٣ - ١٧٨٤) وجان دالامبرت (١٧١٧ - ١٧٨٣)

تمرد القوزاق وحرب انفلاحين في روسيا

ايزايبيل دى مادارياجا

قبل ثورة ١٩١٧ ، كان أخطر تحد تعرضت له الدولة الروسية هو التمرد الذى حدث في القرن الثامن عشر ، وفام به القوزاق والعلاحون ، وقاده املين بوجاتشوف بين ١٧٧٣ و ١٧٧٥ . وتماثل هذا التمرد هو والكثير من أحداث التمرد والعصيان والمشاغبات المحلية في شتى أنحاء أوروبا في القرن الثامن عشر ، فيما تضمنه من محاولات لاسترداد الامتيازات التقليدية والعادات الاجتماعية التى كانت قد فقلت من جراء سياسات النزوع نحو العصرية والعقلانية فى ظل نظام ملكى مركزى قوى ، والتف حول بوجاتشوف الوان شتى من الساخطين . ومن الناحية العسكرية ، كانت اهم فئة بين هؤلاء الساخطين هم فئة القوزاق الذين كانوا - بوجه عام - من الجنود الفرسان من غير المنتمين الى الجيش النظامى ممن اضطلعوا بهمة الدفاع عن بعض حدود الامبراطورية الروسية فى مقابل حصولهم على بعض الامتيازات . ولقد كانوا يرغبون العودة الى أسلوب فى الحياة اقل انضباطا ، ويرغبون ايضا استعادة الحصول على الأرض . والتف الفلاحون أيضا فى أعداد كبيرة حول بوجاتشوف سعيا وراء المزيد من الحرية الشخصية ، وللإستيلاء على مساحات كبيرة من الأرض وللإعفاء من الخضوع للأعباء التى يفرضها عليهم الملاك ، وبالإضافة الى ذلك ، كان هناك « قدامى المؤمنين » من الناقمين على التغيرات التى جرت منذ أكثر من قرن لممارسات الكنيسة الروسية ، وكذلك الرقيق الأبيض من الكادحين فى مسابك المعادن التى انشئت ابان حكم بطرس الأكبر .

وتطلعت جميع هذه الفئات لتغيير قيصر « بالمعنى الحقيقى » ظنوا انه قد يرفع بكرمه وشهامته الضيم عنهم ، واقتنعوا بسهولة بعدم توافر هذه الشروط فى الامبراطورة كاترين المولودة فى ألمانيا ، والتى اعلمت عرش روسيا ١٧٦٢ بعد اغتيال زوجها بطرس الثالث ، ومن ثم فانها

لا تصلح لحكمهم . و أعلن بوجاتشوف نفسه قيصرا « بالمعنى الحقيقي » يتجاوب مع تطلعات السواد الأعظم من الأميين القوزاق والفلاحين . ولكن السؤال هو : لماذا اتبع كثيرون هذا الشخص الدني ، وابتعد الناس عن الصلاحية للحكم ، ليس بالاستطاعة اعطاء جواب شاف عن هذا السؤال . وليس من شك أن بعض الناس قد اعترفوا به كقيصر بالمعنى الحقيقي ، لأنه قد تجاوب بوسائله الفجة مع تطلعاتهم . فلقد اتخذ ما اعتقد أنه المظهر الحقيقي للقيصر ، والف بلاط ، وأصدر التعليمات لتحقيق اهتماماتهم ، وعلى هذا النحو ، اتخذ زعيم التمرد وأعدائه الرئيسيون المظهر الخارجى للسلطان السياسى الشرعى ، ومثلوا الدور الذى كان من المنتظر نهوضهم به . وأحرز بوجاتشوف نجاحا عسكريا مبدئيا ، أكد مزاعمه .

وأثناء المراحل الأولى من التمرد لم تكن كاترين قادة على الاستعانة بجيشها النظامى لانسغالها فى الحرب ضد الإمبراطورية التركية ، أو «الباب العالى» . وبعد أن أنهت هذا الصراع بالانتصار ، أطلقت جيشها ضد القوزاق والفلاحين . وهزم بوجاتشوف فى نهاية المطاف ، وإن كان هذا لم يتحقق إلا بعد حرب شرسة فروس دامت عدة أسابيع . وكان من المهم فى نظر كاترين وحكومتها عدم الاكتفاء بهزيمة بوجاتشوف ، وإنما كان عليها أن تثبت أيضا أن القوات المسلحة التى تتبع السلطات الروسية القوية من القوات اللاشرعية المناوئة للسلطة ، التى جمعها القيصر القوزاق الزائف .

يجب أن ينظر الى التمرد الكبير الذى وقع بين ١٧٧٠ و ١٧٧٣ على ضوء خلفية التوتر المتزايد فى معقل القوزاق ، اثر امتداد السلطة المنظمة للدولة الروسية ، وما عرف عنها من تزمّت ، وانعكاسه عليهم . وأشعل فتيل التمرد ظهور زعيم قدير هو المنشق دون قوزاق املين بوجاتشوف بعد خمس سنوات من الحرب والطاعون وارتفاع الأسعار وما تكبدته نفقات الضمات الشاقة وحشد الجيش من تكاليف باهظة . وكان فحوى الكثير من سخط القوزاق قد عرف أمره مما جاء فى تعليمات مبعوثيهم وأحاديثهم فى اللجنة التشريعية ، وإبان فترات الاضطراب المستمر فى أواخر ستينيات القرن الثامن عشر وسبعيناته . وعانت جميع معاقل القوزاق من تصادم القيادات العسكرية العليا والسواد الأعظم من الجنود ، ومن الصدام بين الأغنياء والفقراء ، وبين من ارتضوا بيع أنفسهم للخروج من الخدمة ومن أرغموا على الخدمة ، وبين اكراه الحكومة الروسية والطوحيات الفردية لزعماء القوزاق . وفى ١٧٨٨ ، وبعد أن أعلن القوزاق (*) العصيان .

استدعى بيتر كالينشفسكى القوات الروسية لحماية كبار الضباط القوزاق (*) . وما لبث أن قام هو نفسه بالتهديد بطلب الحماية من الحكومة التركية (الباب العالي) اذا لم تفلح الحكومة الروسية فى معالجة ما يسود « المعقل » من ظلم واجحاف .

وفى نهر الدون ، أدى طموح « الأتمان » يفريوف أحد رؤساء القوزاق الى اثاره مشاعر الغضب « بالمعقل » الى حد الغليان . ولكنه منذ اندلاع الحرب ، كان يتآمر هو والمقول (**) فى الامبراطورية العثمانية ، ويسعى لزيادة سلطانه فى المعقل على حساب الحكومة . وعندما حاولت السلطات القبض عليه فى نوفمبر ١٧٧٢ ، قام القوزاق بحركة عصيان ، وقتلوا العديد من الضباط النظاميين ، وقبض على يفريوف فى نهاية المطاف ، وحوكم بتهمة الخيانة والعمالة لصالح المغول ، ثم حكم عليه بالنفى الى ليفونيا ، وعاد السلام الى « المعقل » .

وبلغ الاخلال بالنظام مرحلة أخطر فى معقل آخر حيث أحدث التوتر بين كبار الضباط (***) وباقى الجنود انشقاقا شطر الجماعة الى شقين : شق « المنصاعين » وشق « الراضين » . وفى ١٧٦٩ ، أعلنت عدة مئات من الشق الأخير العصيان ، ورفضوا الخدمة فى مواقع خارجية قسوية ، وسحقت قوات الحكومة تحت قيادة الجنرال تراونبرج العصيان ، ووقعت الأحكام القاسية المهودة . وعندما لم يهتد المبعوثون الى العاصمة بطرسبورج الى اية نتيجة فى التماسهم رفع الأحكام ، اندلعت أحداث اضطراب أخرى فى يناير ١٧٧٣ ، وقتل فيها الجنرال تراونبرج ، ثم أرسلت قوات اضافية تحت قيادة الجنرال فريمان لاستعادة النظام . وبعد أن وصلت القوات فى يونيو ١٧٧٣ ، أعاد فريمان النظام الى المعقل ، ودعم رقابة الحكومة على مواقع الحماية ، وأوفد بعثة خاصة لمحكمة زعماء زمرة المتمردين ١٧٧٣ . وصدرت مرة أخرى أحكام عديدة بالجلد والأشغال الشاقة . . الخ . وأمر ٢٤٦١ من القوزاق العاديين المشتركين فى التمرد بدفع غرامة جماعية مقدارها عشرون ألف روبيل . ونفنت الأحكام فى معقل بايتسك نفسه فى يوليو ١٧٧٣ ، وترتب على ذلك تحول المعقل الى برميل للبارود لا يعوزه أكثر من شرارة بسيطة لكى يشتعل .

Starchina.

(*)

Kuban

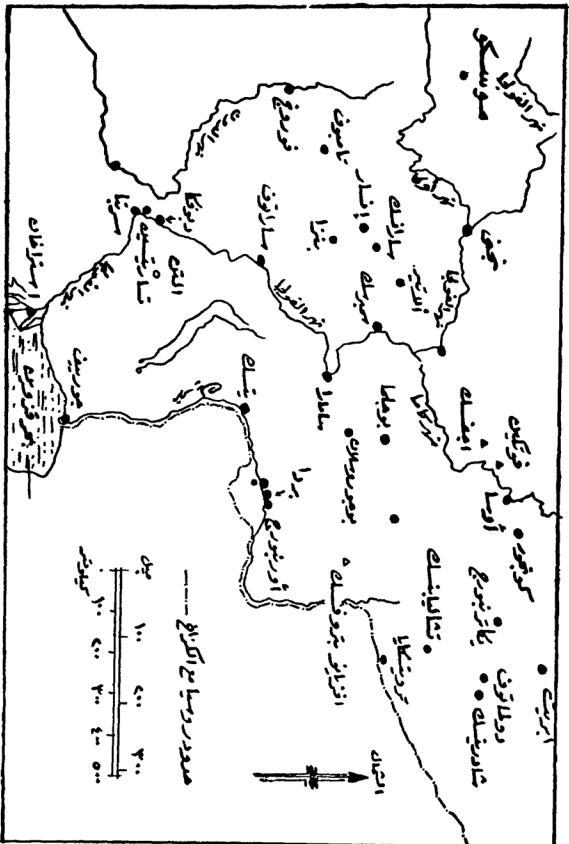
(**)

Yaik.

(***)

في مثل هذا الموقف ، كان من المحتوم أن تلقى الشائعات بوجود قيصر آخر ما زال على قيد الحياة التربة الصالحة لاضفاء الشرعية . على مزاعم الساخطين . فلقد علق الروس آمالهم طيلة القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر في الهروب من الاضطهاد على وجود أو اكتشاف قيصر حقيقي انتزع منه العرش من أثر مؤامرات البويار (النبلاء) . وأدى علم استقرار الخلافة على العرش في القرن الثامن عشر الى ظهور حفنة من الادعاء ممن انتحلوا شخصية بطرس الثاني (١٧٢٧ - ١٧٣٠) أو شخصية الفتى ايفان السادس أو حتى الكسي بتروفتش ابن بطرس الأكبر . ولكن الى أي حد اعتقد أتباعهم في صحة ما يدعون ، وإلى أي حد وثق أتباعهم في زعمهم ؟ والظاهر انهم جميعا عاشوا في عالم يجمع آنيا بين الايمان واللايمان ، يعني أنهم كانوا يعتمدون على الايمان لتبرير أفعالهم عندما يخشون ارتكاب خطيئة ضد القيصر المعين من قبل الله ، لأنهم لا يتوقعون حدوث تحسن في أوضاعهم الا عن طريق هذا القيصر . ويجنحون في ذات الوقت الى اللايان عندما يواجهون الحقيقة القاسية عند القبض عليهم ومعاقبتهم عقابا وحشيا . ونادرا ما طالب عامة الناس بأى برهان يثبت هوية « المدعى » اكتفاء بتفتيش جسمه بحثا عن علامة تثبت انتماءه الى أسرة القيصر . وساعد تركيز الشائعات دائما على شخصيات لم تحكم قط ، أو حكمت لفترة قصيرة فحسب ، أو ماتت صغيرة في السن مما جعلها غير معروفة ومحاطة بأسرار خفية، وببشرة بأمال كبيرة بقنوم عهد أفضل، ساعدت على وضع ظاهرة(*) الادعائين في عالم الفولكلور والأساطير والبلاد والشعر البطولي ، الذي يلجأ اليه دوما خيال الأذلاء والمضطهدين . وجدير بالملاحظة أن أحدا لم يزعم أبدا أنه بطرس الأكبر ، أو أن بطرس الأكبر لم يمت .

وأدت فترة الحكم القصيرة لبطرس الثالث الى تفضيله للقيام بهذا الدور عند « الادعائين » ، وانتشرت فور وفاته الشائعات باستمرار وجوده على قيد الحياة في بطرسبورج . وفي ١٧٦٣ ، اتهم أحد الجنود بأنه صرح بأن بطرس مازال على قيد الحياة . وعندما سئل كيف عرف ذلك ؟ أجاب : ألا تعرفون ان أسقف روستوف أرسيني ماستيفتش قد خلع من منصبه لأنه دفن بطرس الثالث بنوع الخطأ ؟ وهذا مثل كلاسيكي يبين كفاءة تحول الأحداث السياسية الى أساطير . وفي ذات السنة ، انتشرت شائعة في أورنبرج بالتجاه بطرس الثالث الى معقل القوزاق في يايك . وتكاثر المدعون أو الادعاء (فقد ظهر عشرة من هذا الصنف ما بين ١٧٦٤ و ١٧٧٢) وكان من بينهم بوجومووف ، وهو من المبيد الهاربين ، ولعله أهم من جسد آمال القوزاق ، وأعلن بمساعدتهم في مارس ١٧٧٢ أن اسمه هو



تورە بوجا ئاشىف

« بطرس الثالث » ، وقبض عليه في ديسمبر ، ومات في طريقه الى سيبيريا . غير أن الشائعات التي أطاحت به انتشرت على نطاق واسع ، بأن الحكومة قد أمرت بإصدار نشرة توزع في معقل دون قوزاق وفي الفولجا بالقاء القبض على القيصر المزعوم ، ومعاقبته . وترتب على ذلك ازدياد الاعتقاد بأن بطرس الثالث مازال حيا يوزق ، ويميش ومسط القوزاق .

ولم تمض سوى أسابيع قليلة بعد تنفيذ الأحكام في يايك القوزاق في يوليو ١٧٧٣ ، حتى ظهر على المسرح « بطرس ثالث » جديد أكثر جسارة واتصافا بالمهابة . فلقد ولد املين بوجاتشوف حوالي ١٧٤٢ ، وينحدر من أسرة أحد جنود القوزاق ، واشترك في حرب السنوات السبع ، ومرة أخرى في الحرب ضد الأتراك (الباب العالي) ١٧٦٨ ، حيث رقى الى أصغر رتب الضباط القوزاق . وفي ١٧٧١ ، فر من الخدمة العسكرية ، وظل يهيم على وجهه الى أن بلغ تاجانروج في الجنوب ، موطن بعض أقربائه ، ثم انتقل الى معقل القوزاق على نهر تيريك . وبعد تطواف من مستعمرة المؤمنين القلماي الى مستعمرة المؤمنين الجدد ، استغل أمرا من أوامر العفو المدينة التي أصدرتها الحكومة الروسية للفارين المائدين ، وعاود الظهور في معقل نهر اللون ، بعد أن انتحل شخصية مواطن بولاندى . وبعد أن حصل على جواز سفر في أغسطس ١٧٧٢ ، استأنف تجواله مرة أخرى ، فأقام بين « المؤمنين القدماء » ، وغالبا ما كان يتخفى في شخصية أحد التجار الأترياء . وفي نوفمبر عاد الى يايكسك ، وأقام مرة أخرى وسط « المؤمنين القدماء » . ولم يكن قد مضى على حركة العصيان في المعقل أكثر من خمسة شهور ، وكانت الأحكام مازالت سارية المفعول .

وفي هذه المرحلة ، تقدم بوجاتشوف كأحد التجار الأترياء (ممن يملكون ما ينوف عن المائتي ألف روبل في الخارج بالإضافة الى سلع تتجاوز السبعين ألف روبل) ، وعرض نقل الساخطين القوزاق الى خارج روسيا الى « كوبان » في القرم - وهي من المناطق التي يحتلها المغول ، وعرض مبلغ اثني عشرة ألف روبل منحة لكل قوزاقى ينضم اليه . وأكد لمستعبيه ترحيب « الباشا » التركي بهم . ولأول مرة في يايكسك ، ادعى بوجاتشوف أنه بطرس الثالث . أما الظروف التي أحاطت بهذه الواقعة فمازالت في طي الكتمان ، نظرا لتضارب الأدلة التي قدمها بوجاتشوف ذاته وأنصاره التواقون لتبرئة ساحتهم . وطبقا للرواية التي ردها بوجاتشوف ، فإنه أبلغ مضيفه انه الامبراطور بطرس الثالث ، الذى نجا بمعجزة من الموت ، ثم تجول بعد ذلك في مصر والقسطنطينية وبولاندة .

ومما لا شك فيه أن بوجاتشوف اكتشف أن الروح السائلة بين قوزاق يايك مشجحة . أما ما بقي غير مؤكد فهو ما كان يخطط لتنفيذه في هذه المرحلة . ولا ريب أنه عاش طويلا في عالم الفانتازيا ، وعندما كان مازال بالخدمة العسكرية ، كان يفخر بأن أباه الروحي بطرس الأكبر هو الذى منحه سيفه الأثر . ولربما يكون التقرير المتضمن القول بأن بوجومولوف هو بطرس الثالث ، وبأنه قد تم القبض عليه هو الذى نبهه الى ذريعة الزعم بأنه « القيصر » بشحمه ولحمه . ومن جهة أخرى ، فلعل الفكرة قد راودته عندما كان مقبلا بين قوزاق يايك . ويشيع افتراض قيام بوجاتشوف باختراع الفكرة في المؤلفات التاريخية السوفيتية ، اعتمادا على تدعيمها لبعض فرضياتها الأساسية ، ومؤداها أن بوجاتشوف كان يعي بقيامه بتخطيط تمرد يعم الأمة كلها ضد العبودية ، وصمم على انتحال شخصية بطرس الثالث كحيلة استراتيجية لتحقيق غايته . غير أن الدليل على صحة مثل هذه الخطة بعيد المنال وواه نوعا . إذ تذكر روايات أتباعه أن بوجاتشوف كان يخطط لقيادتهم الى ما وراء الحدود والى تركيا . ولعالمهم نزوعا الى تزييف أدلتهم للتخفيف من جرمهم فى نظر الحكومة الروسية . بيد أن الرحيل الى بلاد أخرى كان أكثر توافقا هو والتقاليد القوزاقية من الهجوم بالمواجهة على الدولة الروسية . وتثبت كلمات بوجاتشوف أنه كان معنيا أساسا بالأزمة التى تعرض لها أسلوب القوزاق فى الحياة بتأثير ضغوط الدولة الروسية ، وليس من أثر أوجاع وتأوهات الفلاحين فى جملتهم .

ولم يبق بوجاتشوف أكثر من أسبوع بعد زيارته الأولى لمقل يايك . وعندما عاد الى نهر الدون ، سرعان ما قبض عليه بتهمة الفرار من الجندية ، ونقل الى كازان فى مشارف يناير ١٧٧٣ ، واعترف عند استجوابه بأنه حرض القوزاق فى يايك على الفرار ، ولكنه لم يذكر أى شئ عن ادعائه بأنه بطرس الثالث ، ونجح فى الهروب فى مايو ١٧٧٣ ، وعاد يهيم على وجهه مرة أخرى حتى أغسطس ١٧٧٣ ، وبعدها عاود الظهور مرة أخرى فى ياتسك . وهناك أطلع مضيفيه فى الحمام على « علامات الاتهام الى الأسرة المالكة » وكانت ندوبا على القفا وعلى صدره - وهى علامات معكوسة غريبة عن الأوصاف التى تنسب للملك الإلهى الشرعى . ومنذ ذلك الحين ، بدأ الاعتقاد يسود فى المقل بأن التاجر بوجاتشوف هو فى الواقع بطرس الثالث . وكان المقل ما زال يتوجع ويتحسر من وطأة الأحكام الموقعة على العصاة فى يوليو ١٧٧٣ . وشرح زوار بوجاتشوف من القوزاق مظلهم الى « بطرس الثالث المزعوم » وتتلخص فى كون الجهات الروسية المسئولة طالبات بإقامة منشآت جديدة وتشكيلات جديدة ، بينما طالب القوزاق ، أن تستمر الخدمة التى ألفوها فى سابق عهدهم ، يعنى كما كان

الحال في عهد بطرس الأول أو الأكبر ، وتبعاً للوائح التي كانت متبعة .
واشترك بوجاتشوف ونفر من الأجرية من القوقاز وحنّة من المغول بأعداد
البرنامج الذي سيرتكن اليه للحصول على الاعتراف به كبطرس الثالث في
معقل يايك ، ووعد بتأمين العيش تبعاً للأسلوب الحر القديم ، الذي
يستطاع اجتماله : « في إتاحة حرية العمل في مسابك يايك وحرية استعمال
الأرض والمرافق واعفاء الملح والمراعي من الضريبة ، ومنح كل من ينتمى الى
القوزاق اثني عشر روبل سنوياً ، وكيلة من الغلال » .

لقد كان هؤلاء القوزاق يعلمون علم اليقين أن المدعو بطرس الثالث
ما هو في الحقيقة الا القوقازي الفار بوجاتشوف . ولا بد من الاعتراف
بأنهم قد أثبتوا بهذا الاعتراف أنهم كانوا من رواد تخطيط التمرد ، وأنهم
كانوا على دراية بضرورة تغليفها بثوب الشرعية لو أريد انتشارها . وأغلب
الظن أنهم وهم في مثل هذا الحال من التبرم والاهتياج قد رحبوا بوصول
رجل مقدم على استعداد لتمثيل الدور . واتسعت دائرة العارفين بحقيقة
بوجاتشوف ، وسره ، فضمت قوقازيين لديهم أهداف قوقازية بسيطة
وشخصيات مثل القائد السابق ليايك ومرتزم جناح العصاة أوليانوف ،
الذي كان يأمل في استيلاء بوجاتشوف على الدولة ، وبذلك يتقلد إحدى
الوظائف المرموقة . وربما كان من الصحيح أيضاً أن ادعاء بوجاتشوف
« القيصرية » لم يلق اعتراضاً يذكر ، لأنه كان من بسطاء القوزاق ،
وبالاستطاعة التعرف عليه بسهولة كأب لشعبه ، وليس بالشخص الذي
نفصله عن أقرانه فجوة ثقافية واسعة . ولعل جمع القوزاق للألفة والاحترام
في معاملتهم له لم تكن - كما يحتمل - جانباً من المؤامرة ، ولكنها تمثل
الجمع بين العيش في العالم الحقيقي والعالم الزائف في ذات الوقت .

وحدد لاندلاع الانتفاضة افتتاح موسم صيد أسماك الشتاء . وفي
الوقت نفسه ، عثر أنصار بوجاتشوف على زى مناسب عبارة عن قفطان
يقوتى اللون وقلنسوة من المخمل ، واختاروا له سكرتيراً هو اينسان
بوشيتالين ، لأنه كان أمياً . غير أن الأحوال في الخارج هي التي أدت الى
تسريع الأحداث . إذ سمع قومندان حامية ياتسك شائعات عن وجود أحد
الإدعياء ، وارسال دوريات لقبض عليه ، فصمم المتآمرون على العمل فوراً .
وكتب أول بيان لبوجاتشوف على عجل . وفي صباح ٧ سبتمبر قرئ في
مزرعة إحدى عائلات القوزاق على بعد مائة فرست (الفرست ٦٦ ميلا)
من ياتسك في حضور جمع مؤلف من ستين الى مائة شخص من القوزاق ،
وانضمت اليهم فئات أخرى من المغول وغيرهم . وجاء في البيان ما يأتي :
باسم الامبراطور بيتر فيدورفيتش ، قد صدر عفو عام عن جميع رعايا
بوجاتشوف ممن ارتكبوا جرائم ضده ، ثم طرح برنامج القوزاق أمامهم :
« يعني حرية الملاحه في الأنهار من منابعها الى مصابها ، وحرية زراعة

الأرض ، وأن يكون دفع الضرائب بالمال والرصاص والبارود ، وامتدادات من الغلال » .

ثم انتقل بوجاتشوف توا الى ياييتسك . وفى اليوم التالى ، عندما توقف عند القلعة ، كانت قواته تضم ثلاثمائة مقاتل يحملون بيارق تمرد ١٧٧٢ عالية على حرايبهم ، ومنقوش عليها صليب المؤمنين القدامى . وكان لقومندان ياييتسك ما ينوف عن الألف جماعة (الجماعة تتألف من عشرة رجال) ، ولكنه كان يعرف علم امكان الوثوق فى القوزاق ، وبخاصة بعد ان انضم كثيرون منهم الى بوجاتشوف . وقبض على آخرين ، وشنقوا من قبل التمردين حتى يصبحوا عبرة للآخرين . غير أن هجوم الحصاة على الحصن رد على أعقابه فى ١٩ سبتمبر . وأدرك بوجاتشوف أنه فى مقدوره التصدى لنيران مدافع القوات النظامية ، وتراجع فى محاذاة نهر ياييك . وأزال من الوجود أثناء التراجع التحصينات الصغيرة . وكان القوزاق والجنود فى كل مكان يتوجهون الى التمردين ، أو يطلق عليهم الرصاص . وشنق بعض القوزاق ضباط الجيش ، وبعض القسس . وكان من بين الضباط القوزاق الذين استسلموا لبوجاتشوف المساعد السابق لرئيس اللجنة التشريعية بادوروف .

ويكس اختيار الهدف التالى الأولويات الضرورية للقوزاق فى حركة التمرد فى هذه المرحلة . وكان بمقدور بوجاتشوف التحرك نحو خط « سمارا » والداخل . وأثر بدلا من ذلك التقسم الى أورينبورج ، المركز الادارى العسكرى الذى كان يسيطر على ياييك منذ انشائها ١٧٣٥ ، ووصل الى المدينة فى ٥ أكتوبر ١٧٧٣ ، يرافقه ما يزيد عن ثلاثة آلاف رجل وحوالى من ٢٠ الى ٣٠ مدفعا . ولكن لم تتوافر له القوة الكافية للاستيلاء على المدينة بالهجوم الخاطف ، ومن ثم قرر فرض الحصار على أورينبورج ، واتخذ بردا مركزا لقيادته (على بعد ٥ فرست) .

وفى ذات الوقت ، وصلت آخر الأمر انباء ظهور بطرس الثالث الجديد فى ياييك الى بطرسبورج فى ١٥ أكتوبر ١٧٧٣ ، وبدا الموقف بعيدا عن موقع الأحداث كأنه فتنة محلية صغيرة ، واستمرارا لتمرد ١٧٧٢ . اذ كانت الحكومة على دراية حسنة بان الادارة الحكومية فى أورينبورج ، والتي تضم معظم الباشكيريا تسانى من هزال المقيمين فى هذه المدينة ، وضالة حمايتها . اما الادارة الحكومية الكبيرة التى كانت تقيم بجوار كازان ، فلم تكن تضم أكثر من ثمانين موظفا يشرفون على منطقة عدد سكانها مليونان ونصف المليون . غير أن كاترين بذلت قصارى جهدها لشن هجوم ضد

الأتراك ، ولم يكن بالاستطاعة الاستغناء عن القوات المدربة ، ومن ثم اضطرت الى تجهيز حملة تاديبية صغيرة تحت قيادة الجنرال كار من كازان بالإضافة الى فصائل أخرى من سيمبرسك وسيبيريا . ولكن قوة كار هزمت فى وقت مبكر من نوفمبر ، وتوجه القائد بنفسه الى العاصمة للابلأغ عما حدث . وبعد أسبوع هزمت قوات بوجاتشوف فصيلة الحكومة القادمة من سمبيرسك (وشنق الكولونيل) . وبعد أن تحمس بوجاتشوف لما حققه من انتصار ، وشعر بالانتشاء ، سمح للطاير الثالث المؤلف من ألفين وربعمائة مقاتل واثنين وعشرين مدفعا بالانزلاق الى أورنبرج، وبذلك مكن حاكمها الحازم رايندروب من التركيز على فرض حصار استمر ستة شهور . وفى ياتيسك أيضا ، تحصن القائد فى القلعة ، واستعد للدفاع عنها تاركا باقى المدينة للمتمردين .

وفتحت هزيمة التجريدة الامبريالية التاديبية الباب أمام امتداد التمرد، فوصل الى بشكيريا حيث فرض زاروبين تشيكا - وهو من أقدر معاونى بوجاتشوف - الحصار على أوفا فى نهاية نوفمبر ، بينما احتل أحد أتباعه الآخرين (ايليا ارابوف) سامارا لفترة قصيرة (وهناك دقت أجراس الكنيسة تحية له ، وأقيمت شعائر الصلاة على شرف بطرس الثالث) فى نهاية ديسمبر ١٧٧٣ .

وفى ذات الوقت ، ساعد النجاح الذى حققه التمرد المبدئى على تصعيد مشكلات التنظيم وامدادات المؤن ، وهى مشكلات لم يعد بمقدور الحفنة الصغيرة من الأصفياء ممن التفوا حول الزعامة فى أول أطوارها ، النهوض بها ، ومن هنا تشكل فى مركز قيادة بوجاتشوف فى بردا الجهاز الحكومى للمتمردين الذى أطلق عليه اسم «كلية الحرب» . واستعيرت هذه التسمية من المؤسسة الحكومية المركزية ، باعتبار كلية الحرب من الأسماء المألوفة عند القوزاق . وفضلا عن ذلك ، فقد دعم انشاء مثل هذه الكلية الايهام بحدوث تمرد تحت قيادة «القيصر» ، الذى كان قادرا فى ذات الوقت على اقامة فاصل بينه وبين أتباعه ، استلزمه التنظيم المحكم للتمرد ، وان كان قد جنح الى الانتقاص من عنصر المساواة ، الذى كان من مقومات هذا التمرد فى أطواره الباكرة .

والمسئول الرئيسى فى الكلية تمشيا مع التقليد الروسى من الأعضاء الأثرياء واسمه أندريا فيتوشنوف . وعين ايفان بوشيتالين الذى كان يكتب بيانات بوجاتشوف سكرتيرا للمجلس . وبذلك أعيد القلب المسكوفى الذى كان قد اختفى من الوجود منذ اصلاحات بطرس الأكبر . وجندت «كلية الحرب» المتردة أيضا عددا من الكتاب الملمين بالقراءة والكتابة ، وتولى أحد القلائل ممن ينحدرون من أصول النبلاء مسؤولية الاتصال بالمتمردين .

وكلف شغانفيتش بالاضطلاع بمهام المراسلات والاتصالات باللغة الالمانية والفرنسية . وتولى اثنان من زعماء المفلول : ايدوبايميكوف وابنه كتابة هذه المراسلات ، وحرروا بيانات بالعربية والفارسية والتركية والمغولية . وجمعت وظائف « الكلية » بين الناحية المدنية والناحية العسكرية . فكانت تشرف على شئون المتطوعين الذين كانوا يتوافدون للانضمام الى بوجاتشوف ، وهم مسلحون عادة بأدوات الفلاحة ، او الرماح . وتتولى أيضا امر تنظيمهم في تشكيلات عسكرية على غرار ما يجرى في صفوف القوزاق . وبمجرد قبول المتطوع في القوة ، يمتد به كواحد من « القوزاق » للترفة بينه وبين « الجنود » النظاميين الذين كانوا يحاربون في صف الامبراطورة كاترين . ومنذ اللحظة التي استقر فيها بوجاتشوف في مقر قيادته في بردا خارج أوريينبورج واجهت حركة التمرد مشكلة التجنيد ، اذ قدمت أعداد غفيرة من المتمردين للعمل على مقربة من بردا حول أوقا(*) . وما لبثت الحاجة الى مد نطاق العمليات ، او الاعداد للدفاع ضد قوات الحكومة ، أن دفعت زعماء التمرد الى استعادة أحد أسلحة الترسانة القيصرية ، يعنى « التجنيد الاجبارى » ، فصدرت الأوامر الى الأهالى المحليين للتزويد بمجندين « بمعدل واحد من كل ثلاثة بيوت » ، بل وأحيانا بمعدل واحد من كل بيت . وفى يناير ١٧٧٤ أمر أحد المتمردين بجمع أنفار لخدمة اللورد بيتر فيودورفتش ضد رغباتهم ، « والقضاء على من يرفضون الأذعان ومصادرة أملاكهم » ونظر الى القسم بالولاء لبطرس الثالث ، على أنه اعتراف رسمى بالولاء . وبذلك أرغم جميع من مثلوا أمام المدعى العام ، أو أسروا بحلفان ذلك اليمين . ولم يكن أمام أحد فرصة الاختيار ، لأن العقوبة كانت توقع على الفور ، وجرت العادة أن يتم الموت بطريقة موجعة عقابا للرافضين .

وكان على « كلية الحرب » المتمردة مواجهة مشكلات الامداد والتزويد والذخيرة ، وتزويد الخيول بالعليقة . وجرت هذه الناحية بعض المشكلات مع الأهالى فى المناطق التى تسيطر عليها قوات بوجاتشوف ، أو فى المواقع التى لم يكن لديه انصار كثيرون فيها من الموظفين ، وانتخب آخرون بدلا منهم . وفى أول موجة من موجات التمرد ، قتل بعض الأعيان المحليين وزوجاتهم وأطفالهم وعبيدهم ، بالاضافة الى المسئولين المحليين ، وخدم الكنيسة . الخ ، بطريقة وحشية ، مريعة فى بعض الاحيان . وحاولت « الكلية الحربية » المتمردة ممارسة بعض الانضباط فى هذا المضمار باللجوء الى اصدار المنشورات(**) ، وترك الحكم فى هذه المسألة لقرار مركز

(*) وتقدموا الى ما بعد Yaka(erinburg و Chelya'insk

Ukazy.

(**)

القيادة • ولعل هذا المثل أيضا كان مثلا آخر من أمثلة المنازعات التي
ثارت ، وكان لا مفر من حدوثها ، بين القوزاق والبشكير – من ناحية -
وبينهم وبين الأهالي المدنيين – من ناحية أخرى •

واستمرت الدعوة « للايهام بأن بوجاتشوف هو القيصر » في معسكر
التمرديين بالالتجاء الى وسيلة صورت التوتير السيكلوجي داخل القيادة •
فلقد أنشأ بوجاتشوف بلاطا ، اقتدى فيه أيضا ببلاط كاترين وتسمى
بعض أعوانه الحميمين بأسماء والقاب كبار العاملين ببلاط كاترين • فاسمى
شيجاييف – وهو من أقرب أعوان بوجاتشوف ، ومن الزعماء المخلصين أسمى
نفسه بالكونت بانين • وتسمى زعيم آخر باسم الكونت أولون وتسمى
زاروبين شيكا – أجراهم – بالفيلد مارشال الكونت شيرنيشيف (وهو
الاسم الخاص برئيس كلية الحرب في بطرسبرج) • وفي فبراير ١٧٧٤ ،
تزوج بوجاتشوف بابنة أحد القوزاق في يايك ، بعد أن هجر زوجته
وأولاده وتركهم في نهر الدون • وعملت هذه الزوجة كانها « جلالة
الامبراطورة » ، وعينت بعض النسوة من القوزاق كوصيفات شرف لها •
ولكن زواج بوجاتشوف أضعف من مركزه ، لأن الجميع كانوا يعرفون أن
بطرس الثالث كان متزوجا من كاترين التي اغتصبت عرشه ! • وانضم
العوام الى قوته لاعادته الى العرش ، الذي اغتصبت منه زوجته • ولا ننسى
أنه من المستبعد أن يقدم قيصر حقيقي على الزواج من ابنة أحد العوام
القوزاق • وهكذا أدت النوازع الشخصية الأنايية الى تمزيق قناع
الوهم •

ومرة أخرى ولائبات الأصالة ، ونفى شبهة الزيف – وإن كان هذا
الصل قد عكس التصور الأول للمصدر الشرعي للسلطة ، الذي يقدر
عالم القوزاق ادراكه – أصدر بطرس الثالث منشورات ، روى في كتابتها
يقدر الامكان الأسلوب الرسمي للكتابة في روسيا في القرن الثامن عشر ،
بل وطبعت هذه المنشورات – باعتبار المنشورات المطبوعة وحدها هي المعتمدة
قانونيا في روسيا ، وضمنت مجموعة متنوعة من الأختام • ومن بين الأختام
الطريفة الالفة ، ختم استعمله بوجاتشوف في أغسطس ١٧٧٤ ، ويحمل
الكلمات الآتية : « بطرس الثالث برعاية الله – امبراطور التاج » • وتعلو
هذه الكلمات صورة شخص يرتدى باروكة وله شارب • ولعل هذه الصورة
تشبه صورة بطرس الأكبر كما تصورتها مخيلاتهم • واستعمل زعماء
آخرون أختاما تحمل شعارات العائلات النبيلة ، والمصانع ، بل ومصانع
تقطير الخمور •

ومن العسير للغاية تقدير مدى السلطان الذي كان يتمتع به بوجاتشوف
في الدائرة المحيطة به من أولئك الذين يعرفون شخصيته الحقيقية • وكان

يعامل بالاحترام في العلن . وفي الجلسات الخاصة ، كان الزعماء يجلسون لتناول الفناء سويا ، وحاول من صعدوا الى القمة في البداية منع الآخرين من الاقتراب من بوجاتشوف ، والتأثير عليه ، وصرح يوما ما لاحد اقرانه : « ان طريقى ليس مفروشا بالورد ، ولكنه طريق محصور للغاية » . فلم يكن دائما قادرا على حماية من يرغب في حمايتهم ، وغالبا ما كان يرى نفسه في مواجهة الامر الواقع (*) . وعلى الرغم من احتمال قيام الزعماء بادخال بعض الضبط والربط في معسكر المتمردين ، الا أنهم ظلوا وفقا لما ذكره المعاصرون حفنة من الفوغاء المنجلين . وكانت الصلوات تقام يوميا من اجل الامبراطور « بطرس الثالث » وزوجته كاترين الى أن تزوج بوجاتشوف « يوستينا » . غير أن المعسكر كان حافلا بزوجات الضباط وبناتهم ، ممن أسروا ووزعوا كغنائم على المتمردين . وكانت احكام الاعدام تنفذ في كل لحظة ، وكانت الأخاديد المحيطة مشحونة بالبنث بلا دفن ، وموائد الشراب منتشرة في كل مكان .

ومن اليوم الأول للانتفاضة في سبتمبر ١٧٧١ ، وجه بوجاتشوف نداءات الى الشعوب غير الروسية في المنطقة الشاسعة التي تقع بين نهر الفولجا ونهر يايك وغرب سيبيريا . وكان من بين أوائل أعوانه في سبتمبر ١٧٧٣ ، عشرون من المغول وعشرون من الكالموك ، من مجموع المعاوين وعددهم ثمانون . وقد وجه بيانه الأول لهم أيضا وخصهم بالذكر . وتضمن هذا البيان العفو عن جميع من حاربوا وبذلوا جهدا ضد الدولة الروسية في حروب الباشكير في أربعينيات القرن الثامن عشر ، وصدرت بيانات عديدة في أكتوبر ١٧٧٣ تمدد الباشكير باتباع أسلوبهم التقليدي في الحياة المتمردة وإباحة تملكهم للأرض والمياه والأخشاب ، والايامن بما يروقهم ، واتباع ما يناسبهم من قوانين وغذاء وزى ومرتبات وبارود وصيد . كما أمنهم على « ابدانهم » ، بمعنى علم استرقاقهم ، والتمتع بحق « التشبيه بوحوش الاستبس والانطلاق في الحياة الرعوية والبدوية » . ولكن بخلاف النداءات الموجهة الى الأتباع الروس ، فإننا نلاحظ أن بيانات بوجاتشوف لم تكن موجهة ضد فرانس الظلم الاجتماعى في بشكيريا لحنهم على الانتفاض على رؤسائهم ، ولكنها تخاطب زعماء القبائل البشكير ، وتحرضهم على نقض اصفاذ اضطهاد الدولة الروسية .

وما أن جاء أكتوبر ١٧٧٣ ، حتى انضم الى بوجاتشوف ما لا يقل عن الألف من الباشكير تحت زعامة كينزيا أرسلانوف ، الذي استمر مرافقا له حتى النهاية . وبغية انقض الباشكير على أحد الرموز المقوتة للوجود الروسى في بلادهم : المسابك . قفى نهاية السنة سقط بين أيدي المتمردين أربعة وأربعين من المسابك والمناجم ، التي كانت تمون بوجاتشوف بكميات كبيرة

من قطع غيار المدافع والذخائر ، وبالقدرة على صنع أشياء كثيرة . غير أن المشروعات الصناعية لم تنتقل دائما وعلى الفور الى المتمردين . فلم تشر بيانات بوجاتشوف الى الفلاحين المكلفين أو أرقاء المصانع أية اشارات خاصة . ولجأ المتمردون أحيانا الى الفلاحين المكلفين لتشغيل المصانع ، ودافع العبيد العاملون فى المصانع فى بعض الأحيان عن مصانعهم ضد محاولات الباشكير تمجيرها ، يعد أن شعروا بتوثق صلتهم بحياة المصانع .

وما أن جاءت بداية يناير ١٧٧٤ حتى رأينا قوة مختلطة مؤلفة من نحو ألفى رجل من المغول وعبيد المصانع والجنود الفلاحين والفلاحين المكلفين يقودها قائد شباب من البشكير يدعى سسالافات يوليافيف ويرافقه كوزنيتسوف تشن هجوما على مسابك النحاس فى جبل الأورال . ونجحت بعض البلاد فى الدفاع عن نفسها ، أما بلدة شليابنسك فقد احتلت لفترة وجيزة ، وتحرك المتمردون صوب دير دلائوف ، وكان مشهورا بسبب سمعته عندما كانت الكنيسة تملك عبيدا . وكان الدير محاطا بأسوار عالية مثبتا عليها ستة عشر مدفعا من مختلف الاعيرة . واشترك الرهبان وموظفو الكنيسة فى الدفاع عنه بمساندة بعض القرويين الذين لا يعتمد عليهم . غير أن الدير قد تحرر عندما هبت قوات الحكومة لنجدته فى ١٤ مارس ، وهزمت الجيش المتمرد فى أحد أحياء المدينة .

ثم ظهرت بوادر حقة تدل على بدء تحرك الحكومة ، بعد أن استشارت أنباء دحر فضيلة كار فى أكتوبر ١٧٧٣ ، والأخبار المتلقاة من محافظة لورنبوج الملكة كاترين فى نوفمبر ، ونبهتها الى خطورة الموقف . وفى ٢٩ نوفمبر ١٧٧٣ ، عين الجنرال بيبكوف المارشال السابق فى اللجنة التشريعية لآخماد الانتفاضة ، مع منحه سلطات كاملة للتعامل مع المسئولين العسكريين والعاملين المدنيين فى الكنيسة « تشيا مع القوانين العسكرية والمدنية القائمة » . وطلب من بيبكوف أيضا تشكيل مجلس تحقيق لمعرفة سبب التمرد ، وما جرى فيه ، وأصبح هذا المجلس يعرف فيما بعد باسم « المجلس السرى لكازان » .

وبعد أن اتخذ بيبكوف كازان مركزا لقيادته ، اثر وصوله فى ٢٦ ديسمبر اتخذ خطوات فورية لاعادة توطيد سلطة الحكومة ولاستعادة الروح المعنوية ، وشجع النبلاء على تشكيل عدد من وحدات المتطوعين ، وتسليح ما تحت امرتهم من فلاحين . واقتلت الامبراطورة بهذه الخطوة ، وبوصفها من « ملاك كازان » أمرت بفرض ضريبة على فلاحي القصر ، وأوفدت ضابطا لقيادتهم . وشاركت جميع الرتب فى الكنيسة بلعور فعال فى توزيع بيانات الحكومة ، وانفضح أمر بوجاتشوف ، وزيفه . وما أن وافقت نهاية يناير ،

(٤)

حتى رأينا الجانب الأكبر من القوات التي وضعت تحت تصرف بيبكوف تصل وتحتل مواقعها ، وأرسلت فصائل مختلفة لتفرقة المتمردين الذين يصلون بين كازان وأوفا .

وفي الوقت نفسه ، انفك الحصار المفروض على مدينة أوفا منذ منتصف نوفمبر ١٧٧٣ ، وشارك ما يقرب من جميع أهل المنطقة من غير الروس في الانتفاضة . غير أن الفويغود أو المدنيين وقائد القوات النظامية نجحوا في السيطرة على أعصابهم ، ولجأوا الى تنظيم دفاع فعال . وفي ٢٣ يناير ١٧٧٤ ، شن زاروبين شيكا على رأس اثني عشر ألف من المقاتلين هجوما قويا ، ولكنه رد على اعتاقه . ولجأ المتمردون بعد ذلك الى الحصار ، ثم تراخت العمليات العسكرية خلال شهرى فبراير ومارس ١٧٧٤ ، بينما قام زاروبين شيكا بالتباحث مرارا هو والمدافعون عن أوفا ، وطالبهم بالاستسلام . وفي ذات الوقت ، تقدمت قوات الحكومة تحت قيادة ابن العقيد ميخائيل - وهو من المحاربين القدامى فى حرب السنوات السبع - وشب القتال بين قادة المتمردين . وفي ٢٣ - ٢٤ مارس هزم زاروبين شيكا على رأس جيش مؤلف من (بين سبعة آلاف وعشرة آلاف رجل) فى معركة شرسة جرت بينهم وبين الجنود المحترفين لابن ميخائيل ، ورفع الحصار عن أوفا وقبض القوزاق على زاروبين وليانوف وسلموا الى ابن ميخائيل .

بقيت بعد ذلك أورنبورج تحت الحصار زهاء ستة شهور ، وكانت قيادة ياتيسك مازالت متحصنة فى قلعتها . واحتد النقص فى الموقعين فى المؤن والعليقة والوقود خلال أشهر الشتاء . وتركزت قوات كبيرة فى المنطقة الواقعة بين بورجوسلان وبوجولمان تحت قيادة جوليتسن لتحرير هذين الموقعين تمهيدا للزحف الى بوجاتشوف نفسه . وصمم قائد التمرد على التوقف فى ناتيشيفو التى تحكم الطريق المؤدية الى أورنبورج والطريق الى ياتيسك ، وحشد لهذه المهمة حوالى تسعة آلاف رجل وستة وثلاثين مدفعا . ولم يتوافر لجوليتسن أكثر من ستة آلاف وخمسمائة جندى وبين اثنين وعشرين وخمسة وعشرين مدفعا . وجرت الموقعة الحاسمة فى ٢٢ مارس . وبعد مبارزة ثنائية بالسلاح الأبيض ، اندفع الجنود النظاميون التابعون لجوليتسن، وأجهزوا على مقاومة المتمردين، وأثبتت قوات المتمردين عجزها مرة أخرى عن الصمود أمام وحدات صغيرة من الجنود المدربين . وتكبذ الطرفان خسائر فادحة . فقد فقد جوليتسن مائة وأربعين ، وجرح ما هو أكثر من خمسمائة من قواته . وقتل من بين المتمردين ١٣١ وجرح قرابة ١١٨٠ ممن سقطوا صرعى أثناء مطاردتهم ، وأسرى حوالى أربعة آلاف أسير . وهرب بوجاتشوف وقليل من الزعماء الآخرين الى بردا .

وتسببت هزيمة تاتيشيفو في خلق أزمة بين المتمردين. فقد اتخذت
الصدارة في قواته بعض القوات الشديدة المراس من القوزاق في يايك -
من المقربين من بوجاتشوف - وحلوا محل الفلاحين والجنود في واجبات
الحراسة لي بردا . وفي نفس الوقت ، أسرع آخرون الى نقل أمتعتهم
استعدادا للرحيل مما أثار شكوك الكافة من غير القوزاق . وبعد اقتراب
قوى الحكومة ، اتضح أن الهروب من المعمة لن يتيسر لغير من يملكون
خيولا. بيد أن القوزاق عندما تخلوا عن الفلاحين المسلحين تسليحا هزلا،
فأنهم كشفوا بوعى ، أو بلا وعى عن احتقارهم لمن يحرقون الأرض : « فقد
أنكروا اتصافهم بصفة المحارب، ووصفوهم بالمواشي» . وفي ذات الوقت نزح
كثيرون من القوزاق الى التفكير في طريقة النجاة ، ودبرت مؤامرة للقبض
على بوجاتشوف ، وتسليمه في الوقت المناسب ، وازداد التوتر داخل
بردا . وفي ٢٢ مارس ، غادر بوجاتشوف مقر قيادته برفقة الفين من الرجال
وعشرة مدافع . وفي اليوم نفسه ، دخل الحرس الامامي لقوات جوليتسن
بردا ، التي تفجرت فيها عمليات السلب والنهب والذعر والافراط في
الشراب ووقعت فلول قوات بوجاتشوف الهاربة في الأسر . وكان من بين
الأسرى معظم زعماء « كلية الحرب » والامين العام بوشيتالين ، وانفك الحصار
عن أورينبورج . ففي ١٦ ابريل ، حررت حامية يانيسك بعد أن كان
المحاصرون على وشك الموت جوعا . وبعد اسبوعين ، تطلعت قلعة جوريف
عند مصب نهر اليايك وبحر قزوين من المتمردين . ولم يظل المهندس
الذي وضع خطة النصر حيا لكي يرى ثمرة عمله . اذ مرض بيبكوف الذي
قاد المعركة بالحمى ومات في ١٧ ابريل ، وشعرت كاترين بالولعة لموته ،
وانتقلت قيادته العسكرية الى العقيد الأمير شيرباتوف .

وقامت البعثة السرية التي عينها بيبكوف في الوقت نفسه بالتحرك
لمعرفة دوافع التمرد : كيف استطاع بوجاتشوف تسمية نفسه « بطرس
الثالث » ؟ وهل هناك أصابع اجنبية وراء ذلك ؟ : فرنسية أم تركية ؟
وما هو مدى مشاركة النبلاء المتعاضين و « المؤمنين القدامى » ؟ وكانت
البعثة السرية - أو بيبكوف بمفرده - مفوضا - باصدار أحكام بالموت ،
وتنفيذها ، وان كان المتبع في حالة النبلاء وكبار علية القوم ، احالة
أوراق اتهامهم الى الامبراطورة للتصديق عليها . وفي الأسابيع الأولى
لممارسة البعثة السرية لمهامها ، كانت تراعى الحرص عند تطبيق حق
اصدر الحكم بالموت . فشنق أحد العبيد لاتهامه بقتل عشيقته ، وشنق
عدد قليل من الجنود المفلول لاشتراكهم في التمرد ، وحكم على آخرين
بعقوبات شتى كالسجن لمدد متفاوتة ، وأطلق سراح العديد من الأشخاص
ممن كانوا متورطين جزئيا ، بعد أن أقسموا يمين الولاء للامبراطورة ،
وابتعت ! البعثة السرية الأساليب الممهودة في انتزاع الاعترافات كالجلد

مثلا ، رغم تدخل كاترين للاقلال من الالتجاء للتعذيب . وكتبت كاترين الى بيبكوف في ١٥ يناير ١٧٧٤ : « لست أشك أنك ستلتزم بقواعدي ، وان كانت القسوة ضرورية أحيانا . وأرجو أن تأمر البعثة السرية بالحرص عند اصدار قراراتها بتوقيع العقوبة وفي رأيي أن الجندي « س » والجندي « ص » قد جلدوا رغم براءتهما . وأيضاً هل هناك حاجة للجلد أثناء اجراء التحقيق ؟ فلقد شاهدت بنفسى علم اقدم البعثة السرية - زهاء اثنتى عشرة سنة - على جلد شخص واحد أثناء استجوابه . وكانت كل قضية تصنف وفقاً لحالتها تصنيفاً صحيحاً . ورغم ذلك ، فقد اهدينا الى معرفة ما هو أكثر مما أردنا معرفته . هكذا كتبت مرة أخرى في ١٥ مارس . غير أن كاترين صدقت على أحكام الاعلام ، وبخاصة على الضباط الذين أهملوا في أداء واجبهم ، وان كانت قد تركت أمر التنفيذ لحصافة بيبكوف . وتعرض بعضهم للعناية والتعذيب (ربما لست مرات أثناء حكم كاترين) ، ولانزال رتبته الى رتبة « نقر » فى الحماية .

وبعد أن تحققت هزيمة قوات الحكومة لجماعات المتمردين المختلفة ، إزداد عدد الأسرى الى حد كبير ، حتى عجزت كازان عن استيعابهم . وفى حالات كثيرة ، خفف قادة وحدات الاغاثة العقوبة فى الموقع الذى حدثت فيه المحاكمة ، ولم يحولوا غير زعماء المصائب الى كازان ، ومنحوا الباقين شهادات بالمعفو . وبعد موت بيبكوف ، ألقت البعثة السرية نفسها بلا سيد ، ولديها ١٦٩ أسيراً فى كازان ، بما ينوب عن الأربعة آلاف فى أورنبورج ، وغيرهم كثيرون فى مختلف المراكز . وبعد أن اقتنمت كاترين بقصم ظهر التمرد ، عينت فى ١٦ ابريل الجنرال ششرباتوف للحلول مكان بيبكوف ، بغير أن يتمتع بسلطاته الواسعة . ووافقت على القرار الذى اتخذته بيبكوف بإنشاء فرع للبعثة السرية فى أورنبورج . ووضعت البعثتان السريتان حينذاك تحت سلطة محافظي المدينتين .

ولكن الحكومة تسرعت فى الاطمئنان الى انتصارها . إذ ظل بوجاتشوف مطلق السراح . وبعد أن فقد الأمل فى العمل كعميل لكوبان ، أو حتى لفارس ، تقدم متبوعاً بحوالى خمسة آلاف من الباشكير المسلحين تسليحاً واهناً بالإضافة الى شردمة من فلور عبيد المصانع والقوزاق ، من مسبك لآخر ، فى تشكيل دائرى واسع ، مخترقاً بشكيريا . وكان بعض الباشكير قد نزعوا بالفعل الى عقد مصالحة مع الحكومة ، وتقديم المساعدات لعوريات الجنود النظاميين . غير أن آخرين من أمثال سالفات يولياف واصلوا الكفاح لصالح بوجاتشوف أو ربما لصالح فلولهم . . . الله أعلم . أما المقدم ميخائيلسون الذى كان يقود فصيلة الحكومة فى المنطقة فقد أقسم على مطاردة بوجاتشوف من مسبك لآخر . غير أن ذوبان الجليد قد صعب مواصلة عمليات الطرفين الى حد كبير . وبعد مطاردة دامت ما يقرب من أربعين يوماً ، شرعت قوات إبن ميخائيل بالانهاك ، فاضطر للانسحاب الى

أوفيا ابتغاء للراحة ، وتعمييض الحسائر ، وانتشر الذعر فى سائر أنحاء بشكيريا ، وحتى مدينة أوفيا فانها فقدت الاطمئنان الى سلامتها . فلا أحد يعرف أين يوجد بوجاتشوف ؟ وأين سيضرب ضربه التالية ؟ فبعد أن مر مرورا عابرا بأوفيا ، اتجه الى الشمال ، وظهر أمام قلعة أوسا فى ١٨ يونيو ١٧٧٤ . وبعد أن حاصرها ثلاثة أيام ، استسلمت القلعة لبطرس الثالث الذى كان يتلقى التحية العسكرية الامبراطورية . وجاءت الخطوة التالية ، وهى عبور كاما للوصول الى كازان . والتقت عبيد المصانع والفلاحون من معسكر التجنيد فى برم للانضمام الى المتمردين الى جانب الكثير من الباشكير ، وتوقف لاشعال الحرائق فى ايجيفسك وفوتكين ، حيث قوبل بالترحاب رغم محاولات المدافعين من الفلاحين وعمال المسابك من العميد مصحوبا بدق الأجراس ووسط التلويح بالرايات التى تحمل صور الأيقونات . وتقدم جيش المتمردين بلا حول ولا قوة صوب مدينة كازان التى كانت خالية من أية قوة دفاعية .

وكانت مدينة كازان تضم أحد عشر ألف نسمة ، أغلبهم من المغول . وكانت مبنية أساسا من الخشب . اذ كانت حتى قلعته مبنية من الخشب . وكان الجنرال فون براننت المحافظ المريض على بينة بالأخطار المحدقة به من كل جانب وكتب فى ٢٤ يونيو رسالة عاجلة الى القائد الأعلى فى المنطقة الأمير ششربياتوف يطالب بتعزيزات ، وأوفد رسلا الى جميع الاتجاهات ، ولا سيما الى ابن ميخائيل . واستقر ششربياتوف فى مكانه - يعنى فى أورينبورج - حتى ٥ يوليو ، غير أن ابن ميخائيل قام بالضغط محاولا عبور كاما ، واعتراض سبيل بوجاتشوف . وكان يأمل فى الوصول الى كازان فى ٨ يوليو أو ٩ يوليو ، ولكن الحاجة الى خوض غمار عدد من الانهار حال دون تقدمه ، فلم يعبر كاما الا فى ٣ يوليو ، بعد أن سبقه بوجاتشوف فى العبور ، وظهر مصحوبا بعشرين ألف من رجاله أمام المدينة . وفى ١٢ يوليو ، فاجأ هجوم المتمردين المتشعب فى ثلاثة اتجاهات الدفاعات الى القلعة ، وتحصنت فيها ، وتبع ذلك أحداث سلب ونهب استمرت من الساعة السادسة مساء الى منتصف الليل ، وتبعها لما ذكره أحد المعاصرين: « فقد قتل من يرتدون زيا ألمانيا ، وحليقو الذقون ، وقبض على النساء المرتديات « زيا ألمانيا » واقتدن الى معسكر بوجاتشوف ، وأطلق سراح جميع سجناء الحكومة ، وكان من بينهم الزوجة الأولى لبوجاتشوف (أى زوجته الحقيقية) ، وأبناؤه الذين اقتيدوا الى معسكره ، وشعر « القيصر الزائف » ببعض الاضطراب . وقدمت زوجته اليه على أنها املين بوجاتشوف برفقة أبنائها . وأووا برفقة النسوة اللاتي يتألف منهن حريم بوجاتشوف الى الجناح المخصص لهن . وأشعلت النيران فى تسع نقاط

مختلفة ، وتناثرت الأنقاض في جميع أنحاء المدينة • واستمر النهب والسلب
والشراب والاعتصاب الى أن فرق شملهم الدخان المتصاعد من النيران •
ودمرت الحرائق ٢٠٦٣ بيتا من مجموع البيوت (٢٨٧٣ بيتا) •

وفي مساء ١١ يوليو ، كان ابن ميخائيل علي بعد ٦ فيرست من
كازان • وبعد أن أراح خيوله زهاء ثلاث ساعات ، استأنف السير في الساعة
الواحدة صباحا في ١٢ يوليو في مسيرة ارغامية الى المدينة ، حيث كانت
السنة الالهة تتصاعد ، ويمكن رؤيتها من بعيد ، وسمع ابن ميخائيل في
قرية تسايستين بأن بوجاتشوف في انتظاره برفقة اثني عشر ألف رجل •
وشن ابن ميخائيل بقواته المنهكة التي لا تزيد عن ثمانمائة رجل هجوما
عنيفا ضد مركز التمرد ، الذي تشتت وساده الاضطراب ، بعد قتال دام
خمس ساعات • غير أن قوات ابن ميخائيل قد تضعضعت مما صعب
مطاردتها للمتمردين •

وفي ٣ يوليو ١٧٧٤ ، دخل ابن ميخائيل كازان ، وبدأ على الفور
في حصر المشاركين في عملية السلب • غير أنه لم يكن قد انتهى من تصفية
حساباته هو وبوجاتشوف، الذي عاود الهجوم بعدد أصغر في اليوم التالي ،
وهزمت قوات الحكومة مرة أخرى ، ولم يتهيب بوجاتشوف الموقف ، وأعاد
الكرة ، اعتمادا على قطع يقارب خمسة عشر ألف رجل ، لا يصح أن
يوصف بالجيش • واتجه ابن ميخائيل لمقابلته في نفس البقعة التي
التقى فيها للمرة الأولى خارج المدينة • وأصبحت قوات بوجاتشوف تحارب
بشجاعة اليائسين ، ولكن لم تمض أكثر من أربع ساعات حتى خارت قوى
رجاله وخسروا ألفي شخص بين قتيل وجريح ، وأسروا حوالي عشرة آلاف
من كلا الجيشين ، كانوا محتجزين في معسكر بوجاتشوف ، وأطلق
سراحهم الآن •

فأين يتوجه بوجاتشوف بعد ذلك ؟ ان التقدم الى نيجيني نوفجورود
قد ينقل التمرد الى قلب روسيا والى قلعة العبيد • وشرع قائد موسكو
(الأمير فولكونسكي) في الدفاع عن المدينة والأراضي الزراعية المحيطة بها •
والتقى الأعيان وأهل المدينة في عدد من المدن الصغيرة ، وصمموا على
حشد قوات محلية لمواجهة التحدي • غير أن هذا اللقاء لم يتم قط ، بعد
أن تحرك بوجاتشوف نحو الجنوب • فهل كان ينوي حقا الزحف الى
موسكو ؟ كثيرا ما دار الحديث حول هذه الناحية بين أصدقائه الحميمين ،
ويقال انه قد جاء على لسان بوجاتشوف ما يأتي : « لو تمكنت من الاستيلاء
على أورنبورج وياتيسك • فأننى سأتوجه بعد ذلك بنفس الخيول الى
كازان • وبعد استيلائي عليها ، سأتوجه الى موسكو وبطرسبورج ، وأودع
الامبراطورة في أحد الأديرة ، وسأتعامل مع النبلاء بنفس عملتهم • وهي

خطة لا تبدو عليها أية مظاهر الحطة الحسننة التدبير . بيد أن التقدم نحو موسكو كان عنصرا سيكلوجيا ضروريا في عملية اضعاف الشرعية على دور بوجاتشوف كبطرس الثالث ، الذى أرغمه الأشرار (*) على التجوال في بلاد غربية سنوات عديدة ، وهو يعود الآن لاستعادة عرشه . على العموم ، عندما واجهت بوجاتشوف الهزيمة المحتملة ، فعل ما كنا نتوقه : أوى الى الأرض التى يعرفها خير معرفة : أرض دون قوزاق .

وأدى التصميم على الاتجاه صوب الجنوب الى حدوث تغير في النواحي التى ركز بوجاتشوف الكلام عليها في بياناته ، بحيث جعلها تناسب طبيعة المنطقة التى سيجرى عليها تحركاته . فلقد قطعت اتصالاته ببينكاريا (بالرغم من استمرار التمرد هناك) وانقطعت الى حد ما معاونة عمال المصانع له ، ودخل الآن منطقة يقطنها عدد أكبر من صغار الملاك ، الذين لا يملك أى فرد منهم أكثر من عشرين عبدا ، وان وجدت أيضا بعض اقطاعيات كبيرة . وبالمقارنة بالمقاييس المعاصرة ، فان الفلاحين كانوا أيسر حالا نسبيا . غير أن اقتصاد هذه المنطقة كان اقتصاد اعاشة أساسا ، أى لا يعتمد الا فى أضيق نطاق على الصادرات الزراعية والتسويق داخل البلاد . ويغلب على هذه المنطقة طابع الزراعة بالاكراه (**) ، وبالرغم من أن بعض الاقطاعيات كانت تدفع ضريبة سنوية (***) . وكانت المدن أيضا - أساسا - من المستوطنات الزراعية المنهكة ، التى تتعامل مع الريف تجاريا ، لأن سكان المدن يزرعون المحاصيل التى يقتاتون منها . ولما كانت المنطقة قليلة الكثافة السكانية ، لذا أصبحت ملجأ وملادا للكثير من الغامرين والفلاحين الهاربين «المؤمنين القدماء» ، وتضم أيضا من ١٪ الى ٢٪ من صغار الروس والقبائل الوطنية التى لا تعتنق الديانة المسيحية .

واتجهت المنشورات التى أصلها بوجاتشوف حينذاك ، وانتقلت من قرية لآخرى بوساطة مبعوثيه الى تحريض الرقيق بالانفصاصة ضد أسيادهم ، والقضاء على نظام الرق كلية - والاستيلاء على الأرض ، ووعد « بطرس الثالث » الجديد المؤمنين الجدد بالحرية ومنحهم الصليب القديم وحق اقامة الصلوات ، واطلاق شعورهم وذقونهم ، وبالتمتع بامتيازات القوزاق دوما ، يعنى الاعفاء من ضريبة الدخل « والبديلة » ومختلف الضرائب والأتاوات التى يفرضها عليهم الملاك الأشرار والقضاة الفاسدون . وشجع الفلاحين على القبض على النبلاء السابقين ممن سبق لهم اضطهاد الفلاحين ، ودعا الى قتلهم وشنقهم ومعاملتهم نفس المعاملة غير المسيحية التى

Dvoryane.

(*)

Barshina

(**)

Obrok.

(***)

عاملوا بها الفلاحين . وهب الصبيد استجابة لندائه ، وانتشرت اخبار انتفاضتهم من قرية لآخرى ، بعد تأثرهم بمنشورات بوجاتشوف أو بمقابلتهم له . وأحيانا كانت تظهر مجموعات صغيرة من القوزاق في احدى القرى ، وتشجع الفلاحين على الانتفاضة ضد الملاك . وفى مواضع أخرى ، كان الفلاحون يهبون من تلقاء أنفسهم ، أو بعد تأثرهم بالثلاثينات ، ويتلقائية تفوق سرعة البرق . وأحيانا كانت جماعات الفلاحين تحوم بعيدا وترتد قوة وجنوحا نحو التدمير أثناء طوافها ، وتزداد بأسا يشجعها على اختراع قصص بطولية عن المارك التي خاضتها ضد قوات الحكومة . وفى الحالات التي حدثت فيها الانتفاضة فى موقع قريب من القوات الأساسية لبوجاتشوف كان الفلاحون يصحبون معهم الى مركز قيادته اشخاصا من عليا القوم أو كبار الموظفين كى يحاكمهم « الامبراطور » بنفسه . وفى مواضع أخرى ، كانت تجرى أعمال وحشية للتنكيل بالملاك والاعيان رجالا ونساء وأطفالا . ولم ينس المشاغبيون الانتقام من القسس والخولية والمقاولين . وما يثير الاهتمام أن ملك الاقطاعات الصغيرة كانوا الاكثر تعرضا للاغتيال ، باعتبارهم أقرب الناس الى التعاقد مع الفلاحين .

وفى ذات الوقت ، كانت قوات بوجاتشوف تتقدم من مدينة لآخرى تاركة آثار الدمار . وفى ٢٣ يوليو ، وصل الى آلتير ، وقوبل بالترحاب والتمهد له بالولاء ، وأقيمت على شرفه القداسات والمواكب الكنسية . وهنا انتهب الفرصة وزود صفوفه بالمتطوعين والمجندين من بين اللائقين للخدمة . وتكررت نفس العملية فى ٢٦ يوليو فى سارانسك ، حيث تناول بوجاتشوف طعام الغداء فى دار أرملة فويفودا ، ثم شنقها ! وساعدت بدعوة المنطقة ، وانحياز الأهالى الى كلا الجانبين فى هذه الجرب الاجتماعية على زيادة العنف والوحشية . وقبل التمرد ، لم تكن المنازعات المسلحة بين الخصوم والمتنافسين مجهولة . وكانت سلطة الادارة المدنية على الاعيان واهية ، وشعر الرائد « ملين » ، الذى كان مسئولوا عن بعض فصائل الحكومة بالانزعاج عندما سمع بعض البلاغات « التي رفض تصديقها » ، عن نزوع بعض النبلاء الى الانتفاع من حالة الفوضى، وقيام كل واحد منهم بتدمير اقطاعية الآخر ، أو شنقهم لأعدائهم . ومن ناحية أخرى ، فإن مشهد النبلاء وهم يشنقون - بالجملة - بعد قطع رؤوسهم وأيديهم وأقدامهم ، قد آثار القوى النظامية وشجعها على المعاملة بالمثل ، فارتكبت عمليات وحشية فظة .

وفى أول أغسطس ، أعلنت جماعة من القوزاق فى سوق المدينة نبأ قرب وصول بطرس الثالث ، وهددت بذبح الجميع كبارا وصغارا بالسيف ، اذا لم يلق الترحاب المناسب بتقديم الخبز والملح . ولقى بوجاتشوف الترحيب المناسب ونهب خزانة المدينة ، وجند مائتين من الرجال بالاكراه .

ولما أدرك جدية قوات الحكومة فى تمقبة ، توقف هو وقواته المؤلفة من تشكيلة متعددة الألوان فى ساراتوف على نهر الفولجا . وليس بالاستطاعة الاتفاق حول عدد القوات التى التفت حوله . اذ تقدروا البيانات المعاصرة بعدد يتراوح بين الثمانائة وعدة آلاف ، ولكن تسميتها بالقوة المقاتلة كان من قبيل المبالغة . اذ كان قوام محاربيها الأشداء من مجدفى نهر الفولجا ، وبعض العبيد الهاربين ، ممن يعوزهم التدريب الصحيح . واختفى من الوجود الفلاحون الذين تجمعوا للتطوع فى أغلب الأحيان . وتناقص أفراد القوة الأساسية من قوزاق ياييك الى حد كبير عن عددهم الاصلى الذى كان يتراوح بين ثلثائة وربعمائة ، ولم يعد الجميع يدينون بالولاء « لبطرس الثالث » .

ومن ناحية أخرى ، فان « المدن » التى كان بوجاتشوف قد احتلها مؤخرا ، كانت مدنا بلا اسم فقط . أما مدينة ساراتوف فمسألة أخرى ، لأنها كانت من أهم المراكز الحضارية على الفولجا الأدنى ، وعاصمة إدارية للمستعمرين الأجانب . وكانت تضم فى ضواحيها بعض المصانع الصغيرة (للقمبات والجوارب والحيال) . ويبلغ عدد سكانها نحو سبعة آلاف من الكوتبسكى . غير أن المدينة عانت الأحوال بعد أن شب فيها حريق خطير فى مايو ١٧٧٤ ، وتسبب فى تبيده معظم نفائسها ، وإهمال تحصيناتها ، بالرغم من أن حاميتها كانت تتألف من ٧٨٠ رجلا .

وتسبب اختلاف الراى بين المدافعين (وكان بينهم شاعر عظيم دفعته الظروف للتورط فى القيام بنور مشين) بطريقة مباشرة فى سقوط المدينة فى ١٦ أغسطس . وعسكر بوجاتشوف خارج المدينة زهاء ثلاثة أيام ، وأقسم جميع الحاضرين يمين الولاء لبطرس الثالث ، وأقيمت القداسات بالكنيسة على شرف الامبراطور ، ووريثه بول وزوجته يوستنيا ، وشنق أربعة وعشرون من الملاك، وواحد وعشرون من موظفى المستشارية، وتواصلت مذابح الرجال والنساء من جميع المراتب ، وحطمت مخازن الدولة التى كانت مشحونة بالفلال والمشروبات الروحية والنقود . وحتى بعد أن بارح الضيف الرئيسى لبوجاتشوف ، فقد استمرت تسع عصابات مسلحة ، تجوب المدينة تنهب وتقتل وتدمر .

وبعد أن هرول بوجاتشوف الى تسارتيسن (**) ، فانه لم يكف عن محاولة الحصول على تأييد دون قوزاق . غير أن الحكومة كانت منذ به التمرد متيقظة لهذا الخطر بالذات ، واتخذت خطوات لدرئه . وفى أكتوبر ١٧٧٣ ،

Derzhavin.

Tsartysyn.

(*)

(**)

صدرت الأوامر بمراقبة جميع علامات التمر داخل المعقل ، ومصادرة المنشورات التي يصدرها بوجاتشوف ، وحرقتها ، وأصدرت مستشارية الحرب منشورات مضادة تحذر فيها من الأفاق بوجاتشوف ، غير أن الخطر لم تشتد حدته الا بعد أن وصل بوجاتشوف الى المنطقة الواقعة بين نهر الفولجا ونهر الدون . وأصدر بوجاتشوف بيانا في ١٣ أغسطس ١٧٧٤ هوجها على الأخص للقوزاق نهر الدون ، ويتضمن اشداءه ببطرس الثالث الذي اعترفت روسيا عن بكرة أبيها به امبراطورا عليها . ووعده القوزاق « بالحرية والصليب وبرؤوس الأسلاف العظيم وذقونهم وان كان قد استدرك وذكر أن القوزاق قد أصيبوا بالفغلة الآن ، وضلوا السبيل ووقعوا في أحابيل الجنس الملعون للنبله ، الذين لم يقنعوا بالاستجابة لرغبة روسيا تسليم المعقل الوطني للقوزاق الى الفلاحين ، وبذلك يتم القضاء على شعب القوزاق » . وهكذا نادى بوجاتشوف مرة أخرى بالمدينة الفاضلة (اليوتوبيا) التي ستأوى المؤمنين القمءاء من القوزاق . ولكن كلماته ضاعت في أدراج الرياح ، بعد أن صدر منشور يعد كل من يقبض على بوجاتشوف بمكافأة مالية قدرها عشرون ألف روبل ، واستمر معظم أبناء دون قوزاق يدينون بالولاء للدولة . ولعل ما حال دون انضمامهم الى المتمردين عاملان : العامل الأول هو توقيع معاهدة صلح (*) أنهت الحرب مع الأتراك في ١٤ يوليو ١٧٧٤ ، مما ساعد على توفير قوات قد تستعمل لردع التمرد ، والعامل الثاني - الاحجام - عن الانضمام الى الجانب الذي بات خذلانه أمرا مؤكدا ، وهكذا فرغم وجود قلة من المتذبذبين أحيانا ممن انضموا الى بوجاتشوف، الا أن أهل دون قوزاق قد استعين بهم ضد قوات المتمردين . ولكن ينبغي ألا ننسى أن أهل دون قوزاق لم تغب عن فطنتهم قط حقيقة بوجاتشوف ، وكانوا يعرفون تماما أنه ليس بطرس الثالث .

وأصدر بوجاتشوف منشورات أخرى . وربما كان مازال يأمل في إثارة أقرانه من القوزاق . وهذا جانب يكشف الكثير عن الغايات العامة للحركة : « لقد تم القضاء على القانون المسيحي التابع من التقليد العريق لأبائنا المفسدين ، وصدر بدلا منه قانون جديد حافل بالنوايا الشريرة ، وأتحت العادات الألمانية في روسيا كحلقت الذقون . وهى عادة مقرزة للغاية ، وغير ذلك من انتهاكات حرمة الأيمان المسيحي والصليب المسيحي . وكرر في هذا المنشور أيضا حكاية سلب عرشه لأنه لأنه أدخل الحرية لروسيا (**). لا سيما بعد الاعتراف به حاكما في كازان وأورنبورج وبين الملوك والباشكير .

Kuchuk Kalnardzhi.

(*)

Uchinit, Vo v sey Rossii vol most.

(**)

وأخيرا وفي ٢١ أغسطس ، ظهر بوجاتشوف في تسارتيسن • وكان القومندان قد اتخذ بعض الخطوات للدفاع عن المدينة ، واستدعى ألوية دون قوزاق • وكان يتوقع وصول التعزيزات من الجيش الثاني في الجنوب • وعسكر بوجاتشوف في تسارتيسن ، ثم تقدم للتباحث مع جماعة من دون قوزاق هرعوا لمقابلته واعترفوا به علنا ، وابتداء من هذه اللحظة ، انتشر الشك بين دون قوزاق ، والمقربين من بوجاتشوف ، وظهر التصدع في ايمانهم بهذا الافاق • وبدأ في الانهيار عالم الايمان المعلق ، الذى عاشه الكثيرون بعد أن استمعوا بأذانهم واتخذ البحث عن السلامة الصدارة في تفكيرهم •

وبعد تراشق بالنيران ، دام خمس ساعات بينه وبين حامية تسارتيسن انسحب بوجاتشوف بمحاذاة النهر نحو الجنوب ، وتوقف للنهب من مستعمرة هيرينهوت (*) الألمانية في ساربيتا • وفى اليوم التالى ، صادر قومندان تسارتيسن قافلة من القوارب المحملة بالنفائس والنبلاء وغيرهم من السجناء • وفى ذات اليوم ، وصل الى المدينة العقيد ابن ميخائيل ، الذى كان يطارد بوجاتشوف بأقصى سرعته • ولم يتوقف الا لاخلاء المرضى وراحة الحيول ، وصحب معه بعض قوقازيى الدون فى الحامية ، ثم أقلع مرة أخرى فى ٢٣ أغسطس • وبعد ذلك بيومين ، حدثت المواجهة الأخيرة • وكان لدى بوجاتشوف نحو عشرة آلاف رجل ، وان كان أكثر من نصفهم من الفلاحين غير المسلحين • وقسم قوته الى ثلاثة أقسام ، وتولى قيادة القسم الأوسط ، واخترق ابن ميخائيل صفوف جيش بوجاتشوف ، بالرغم من شدة النيران ، وتحولت الهزيمة الى هزيمة منكرة • وحاول بوجاتشوف يرافقه ثلاثون تقريبا من أتباعه عبور نهر القولجا ، وصحب زوجته معه ، وكانت زوجته الحقيقية هذه المرة •

فاين يذهب بوجاتشوف بعد ذلك ؟ وبعد أن انضم اليه نحو مائتين من قوزاق يايك ، وصحبته كينزيا ارسلانوف وقلة من المقربين الحميمين ، تخلى عن الفكرة التى راودته قبل المعركة الأخيرة ، بالتوجه الى فارس عبر تركستان حيث يوجد أصدقاء من الحانات ، ورأى عوضا عن ذلك اما التوجه الى أحد المواقع الحصينة (***) أو سيبيريا ، أو الى ما وراء بحر قزوين لاناارة المغول • ورفض قوزاق يايك التوجه الى جميع هذه الأراضى الأجنبية (واعتبروا المنطقة التى اقترحها ذاتها من البلاد الأجنبية أيضا !) ، وأصروا على العودة الى يايك ، وبوجه خاص لأنها تضم بيوتهم وعائلاتهم • وتمشيا مع الدليل الذى قلعه ايفان تفورجوف الذى انضم الى التمرد عند بدايته

Herrenhut.

(*)

Āaparozhian Sech.

(***)

في أكتوبر ١٧٧٣ ، فإنه اكتشف قبل الهجوم على ساراتوف أن بوجاتشوف أفاق ومخادع . وقرر الاشتراك مع أحد قوزاقيي يايك من المتأمرين الأصليين في تدبير مؤامرة لانقاذ أنفسهم بالقبض على بوجاتشوف، وتسليمه للسلطات ، وانضم الى المؤامرة نفر من القوزاق الآخرين ، الذين أقنعوا بوجاتشوف بالموافقة على الانتقال الى الاستبس في كالموك وبحيرة التون . وأثناء مسيرتهم استولى القوزاق ، على خيول الآخرين ، الذين لا ينتمون الى القوزاق في الجماعة ، وبذلك أرغموا على التراجع الى المؤخرة ، وسمح لكنزيا ارسلانوف بمتابعة السير معهم حتى لا تستثار شكوك بوجاتشوف، وواصلت زوجته وابنته (تروفيموت) السير برفقة الهاربين . وبعد أن تجاوزوا أوزين ، قبض المتآمرون على بوجاتشوف ، وجرده من سلاحه . وحاول يائسا الفكك ، ولكنه قيد بالسلاسل بعد أن فشلت مقاومته : « كيف تتجراون على رفع أيديكم على امبراطوركم ؟ انكم لن تحققوا شيئا من وراء ذلك ؟ واذا لم أتمكن من معاقبتكم ، فإن لدى ولي عهد هو بول بتروفنتش ، وهو كليل بذلك » . هكذا صاح « بطرس الثالث » ، ولكن عملية الاحتيال كانت قد شارفت على الانتهاء . فلقد صمم القوزاق، بعد أن سمعوا بوجود قاض عادل في ياتسيك على تسليم أسيرهم اليه . وهكذا انتهى في ١٥ سبتمبر ١٧٧٤ التمرد على نهر اليايك ، حيث بدأ .

حاشية - الف الشاعر الروسي الكبير بوشكين رواية طريفة حول هذا الحادث التاريخي الشهير بعنوان « حصار المدينة » . كما يدور موضوع الأوبرا الشهيرة « بورديس جودونوف » لموسورسكي حول نفس موضوع انتحال شخصية الوارث الشرعي لعرش روسيا (أ . ح . م) .

المراجع

- J. Alexander, *Autocratic Politics in a National Crisis : The Imperial Russian Government and Pugachev's Revolt 1775-1779*, (1969).
- J. Alexander, *Emperor of the Cossacks : Pugachev and the Frontier Jacquerie of 1773-1775* (1973).
- P. Anderson, *Lineages of the Absolutist State* (1974).
- P. Avrich, *Russian Rebels (1600-1800)* 1973.
- R. P. Bartlett, *Human Capital : The Settlement of Foreigners in Russia (1762-1864)* 1979.
- P. Dukes, *The Making of Russian Absolutism (1613-1801)* 1982.
- P. Dukes, *Russia and Catherine the Great : Volume I* 1978.
- J. G. Garrard (ed), *The Eighteenth Century in Russia* 1973.
- L. Gordon, *Cossac Rebellion : Social Turmoil in the Sixteenth Century Ukraine* 1983.
- J. M. Little, *The Service City : State and Townsmen in Russia, 1600-1800*, 1979.
- W. M. Pinter and D. K. Rowney (eds) *Russian Officialdom : The Bureaucratization of Russian Society from the Seventeenth to the Twentieth Century*, 1980.
- D. L. Ransel ; *The Politics of Catherinian Russia : The Panion Party* 1975.

الموت كوسيلة للردع : الاعدام العلني في فرنسا

جون ماكمانرز

لم تحدث الاقلة من ظواهر المجتمع في ظل « النظام القديم » صدمة للقراء المحدثين مماثلة للصدمة التي أحدثتها العقوبات التي كان توقع في حالات السلوك الاجرامي . ولقد وقعت أحداث كثيرة في جميع البلدان ، وكان بينها مئات الجرائم التي انتهت بتوقيع عقوبة الاعدام ، ولم يكن التعذيب من الظواهر غير الشائعة . ولو أريد فهم لماذا سادت مثل هذه الممارسات ، يتعين على المؤرخين سبر غور التوجهات القانونية والاجتماعية والسياسية والدينية التي أقرت هذه السياسات الاجرامية ، وشجعت على اتباعها .

وساعد البحث والتنقيب على ايضاح جملة نقاط . اذ ظهر وجود مخططات وتدابير فعلية وراء عمليات التعذيب والاعدام . وفضلا عن ذلك ، وبخاصة في حالات الاعدام ، ابتداء من اعلان الحكم حتى لحظة تنفيذه ، بل وحتى عند عرض جثة المدان ، كانت تجري طقوس علنية ، ساعدت على التعريف بالعواقب الجسيمة لسلوك الاجرامي ، وترسيخ أهمية قسرية النظام العام . وأثبت الدور البارز للقسس في مراسم تنفيذ الاعدام اقرار الكنيسة لهذا الاجراء ، والصلة الوثيقة بين النظام العام والنظام الكنسي . وعندما دعى جمهور كبير من غير الصفوة لمشاهدة أحداث تنفيذ الاعدام ، فان السلطات أثبتت بالدليل رضا الجماهير الواسعة عن القرار القانوني .

وفي منتصف القرن الثامن عشرة اتجه الكتاب المتصلون ببرنامج الإصلاح في عصر التنوير الى التساؤل والاحتجاج على عمليات التعذيب وتنفيذ الاعدام . بيد ان المصلحين انفسهم قد اجمؤوا - بوجه عام - عن

Death and the Enlightenment : Changing Attitudes
to Death among Christian and Unbelievers in Eighteenth France.

تأليف John Manners (١٩٨١) .

المطالبة بانها احكام الاعدام . والارجح هو نزوعهم الى اتباع اتجاه نفسي يعد من انماط الجرائم التي يظن أن الاعدام هو انسب حتم لها . ومن سخريات القدر ، أن نظرتهم العاتلة بوجوب اقتتصار عقوبة الاعدام على جرائم مثل الخيانة ، قد زودت فيما بعد بأحد المبررات التي ارتكن اليها عند اصدار آلاف احكام الاعدام السياسية التي نفلت أثناء الثورة الفرنسية .

قال بيير باستوريه - وهو أحد المحامين المصلحين عند تأمله للمعد الكبير من الجرائم التي تحدث اصدار حكم بالاعدام : « الويل لاي مجتمع يضم أساسا يشهدون آخرين وهم يموتون، دون أن تقشع أبداهم (*) » . وقيل هذا الكلام ١٧٩٠ قبل تحول التحمس للثورة الى شعور بالاحباط ، وعندما كان الرعب مجرد سحابة صيف ، لا تزيد مساحتها عن مساحة كعب اليد في آفاق المستقبل . ووفقا لما قلناه باستوريه ، فإن تشريعات النظام القديم وقد اشتملت على ما لا يقل عن ١١٥ جريمة أساسية ، وإن كان هناك شعور سوداوي مغلف ببسحة وطنية يمكن أن يستخلص من النظرة القائلة بأن مجموع عدد الفرنسيين كان نصف عدد الانجليز ، وأن الشعب الهمجى شديد المراس ، الذي يقطن الجزر (الانجليز) كان يمقت الموت ، حتى على أرضه . ففي فرنسا ، في القرن الثامن عشر ، كانت الخيانة والقتل ، والشروع في القتل ، وقتل الأطفال ، والاجهاض والسرقة والتهريب ، مع استعمال السلاح ، جرائم تعرض مقترفها لعقوبة الاعدام . والأجر بالمثل فيما يتعلق بأفعال مثل المبارزة وتزييف النقود والشهادة الزور وتزوير الأوراق الرسمية ، وسرقة ممتلكات يتجاوز ثمنها ثلثمائة جنيه ، واقتحام البيوت ، وبخاصة في الليل ، والافلاس والنصب والاحتيال. واختطاف احدى الوريثات والاعتصاب والزواج بأكثر من واحدة ، إن كان قد تم عن طريق التزوير ، والمعاشره الجنسية لاحدى الراهبات ، أو اعتداء احد الختم على سيدته جنسيا ، وبعض الأنواع الداعرة من الزنا ، ومخالفة قوانين الرقابة على الصحف ، والمروق الديني والشنوذ الجنسي ، وسفاح القربى ، وامتهان وظائف القسس عند البروتستانت . وكانت احكام الاعدام تنفذ بها علنا ، مع مراعاة الملاحة بين التوجع في الموت ، وفلحة الجرم المرتكب . وسن برلمان باريس طقوسا فظيعة في وحشيتها ، تتبع في حالة من يرتكب جريمة الاعتداء على شخص الملك . وقد أعيد احياء هذه الطقوس في كل دقائقها البشعة عند الاقتصاص من دامينس بطريقة الموت البطي . ١٧٥٧ ، لأنه رفع يده في وجه لويس الخامس عشر ، فضلا عن ذلك ، فقد حرم اقرباء الخائن من استعمال اسم العائلة ، وتعرضوا للنفي ، ونسف بيوتهم وتحويلها الى اقباض . وكانت عقوبة

Malheur à la société renfermant les hommes qui en volent (x)
mourir d'autres sans frémir. "Pierre Pa toret".

معظم الجرائم الكبرى الشنق • أما جرائم العنق المتعاقب بتمزيق الجاني اربا بوساطة المجلة ، ويعاقب بالهرق مرتكب جريمة حس السم ، والشنوذ الجنسي والوحشية ، وبعض حالات المروق الديني ، وفي بعض الأحيان ، كانت العقوبات تتخذ مظهرا تراكميا • ففي ١٧٨٧ ، عوقب قاتل اقرب الاقربين اليه بقطع يده ، وتمزيق جسمه بوساطة المجلة ، ثم القي به في النيران • وكانت هناك طقوس تخص عمليات التمذيب التي قد تجرى للتخصير لتنفيذ حكم الاعدام • وتتخذ شكل «الاستجواب للتمضيبي» (*) لانتراع الاعتراف بالذنب • أما الاستجواب التمهيدي (***) ، فيرمي الى الحصول على أسماء شركاء الجريمة • وصنفت هذه الطرق الوحشية للاقتناع أو التحريض في درجتين متفاوتتين في الشدة ، الدرجة العادية والدرجة فوق العادية (****) • وطبقا لما تصوره ديدرو (الفيلسوف والاديب الفرنسي) فان عدد الحالات التي صدر فيها حكم الاعدام قد بلغت ثلثمائة حالة في نهاية النظام القديم • وبالمقارنة لا يعد هذا العدد كبيرا ، كما اعترف ديدرو نفسه ، بطريقة فجأة ، لأن هناك كثيرين لا قوا حتفهم اثر اصطدامهم بعربة أو تعرضهم لريح عاتية ، أو معاشرتهم لمومس جنسيا ، وكانت مصابة بمرض خبيث ، أو معالجتهم من قبل طبيب جاهل - وربما أيضا من قبل طبيب نطاسي • وحتى لو كان ذلك كذلك ، فان هذه الاحصائيات تمثل عددا بثير التفزز وقدرا من الأوجاع يكفي لازعاج ضمائرنا ، وشعورنا بتأنيبها ، عندما نحاول تكوين فكرة نمطية عنها ، تضاف الى تاريخ الأفكار •

لقد كان النظام التشريعي الفرنسي قاسيا ، ولكنه لم يستخف بأرواح البشر • فمن الناحية النظرية ، لم يكن بالاستطاعة التصديق على حكم الاعدام الا اذا كان الدليل قاطعا • فاذا بلغ الدليل حد اليقين ، ولكنه لم يصل الى حد الثبوت الكامل ، فان من حق القاضي في هذه الحالة توقيع عقوبة اخف ، ووفقا لما ذكره سريسون (****) ، في تعقيبه الذي نشر ١٧٦٧ ، فان اليقين المعنوي لا يكفي في حالة القضايا الجنائية ، لأن « اليقين المادي » مطلوب « يعني شهادة من راوا الجريمة أثناء ارتكابها » (****) • والأمثلة التي ذكرها عن نوع الأدلة المطلوبة واضحة الدلالة • بيد أنه من الناحية العملية ، فان الألفاظ الطنانة التي تحتم وجود الدليل القاطع ،

La question préalable.	(*)
La question préparatoire.	(***)
extraordinaire, ordinaire	(****)
Serpillon	(*****)
Celle qui dépend des témoins qui ont vu commettre le crime.	(*****)

يجب أن ينظر اليها في سياق الوسائل المعيارية والاجرائية التي ابتكرت لتتملكه الوسائل البوليسية ، التي تفتقر الى الكفاءة ، وليس على أنها قد وضعت لحماية المتهم . فالاستجواب يتم سرا ، ولا يعرف المتهم اى شيء عن التهمة الى أن يواجه بالشهود . ولما كان هؤلاء الشهود قد حددوا اتجاههم بالفعل ، لذا فمن المتعذر على المتهم اقتناعهم بالمخاطرة وتعريض أنفسهم للأحلام التي تصدر ضد من يغيرون شهادتهم . ويدور دفاع المحامين في عالم بعيد عن الحقيقة من المراوغات التي يتعذر حيالها مواجهه الحجج المؤيدة للاتهام مواجهة صحيحة . ولقد قيل الكثير من الكلام الذي ارتكن الى سخريه فولتير الوحشية من سفنرات الأدلة والقرائن التي تجمع لتكوين دليل صحيح . وربما كان هذا الكلام مجرد لفو غوغائي قانوني ، أكثر من كونه وصفا منصفا للطريقة التي يعمل بها القضاة ، وان كان يوضح أسلوب اتخاذ القرارات في نهاية المطاف وكيفية خضوعه « لأمزجة » القضاة المتأثرة بانحيازاتهم لطبقاتهم وأوساطهم الاجتماعية ، دون أن يرجع ذلك الى أى ابتعاد واع عن النزاهة .

وتتمتع البرلمانات والمجالس السيادية الأخرى ، التي لها حق البت النهائي والكلمة الأخيرة في القضايا التي يترتب عليها صدور أحكام بالاعدام بقدر عظيم من الحصافة عند تقرير مدى الألم والخزي الذي يتعين أن يشعر به المجرم عند اعدامه . ورثى أن الشنق (وقطع الرأس بالمقصلة في حالة النبلاء) هو أرحم السبل . أما التمساء الذين حكم باعدامهم باستعمال العجلة ، أو بإطلاق الرصاص عليهم فبالاستطاعة تجنبهم الشعور الكامل بالألم (خصوصا اذا أثبتوا وجود شركاء لهم) اعتمادا على حق القاضي في تحديد الشروط الواجب اتخاذها عند تنفيذ الأحكام . وتثبت هذه الشروط في ذيل الحكم (ولا يطلع عليها أحد غير منفذ الحكم) . فقد يصدر القضاة أوامر مسبقة بالشنق ، ويتنفيذه بعد دقائق معدودة ، أو ربما ساعات ، أو يصدرون تعليمات بالضرب عددا محددا من الضربات . واعتبرت هذه الامتيازات الجائرة جانبا خطيرا من واجبات القاضي . وبقدر ما كان معروفا في علم الاجرام (الكريمنولوجي) في القرن الثامن عشر ، فان المقصود من هذا الاجراء هو أن تكون العقوبة مناسبة للمجرم . ولم ينظر للتعذيب . . المشروع على أنه اجراء تصفي ، ناهيك باتصافه بالسادية . ولقد وضع المحامون قواعد لتنظيم طريقة تطبيق هذا الاجراء . فالاتهام يجب أن يكون متعلقا بجريمة عقوبتها هي الاعدام ، ويجب أن تكون الاسانيد كاملة ، حتى يكون الاعتراف المنتزع من المتهم اضافة الى الأدلة الثابتة ، وليس جزءا منها . ويجب أن يكون الالتجاء الى الاستجواب مؤيلا بقرار من دار القضاء العالي ، حتى لو كان المشتبه فيه لم يتقدم بأى التماس اليه . ويعين أن يكون الاعتراف بالذنب ملزما (يعنى ثابتا ثبوتا مطلقا مستندا

الى قرائن قوية) (*) • فمثلا لا يعد اتهام شخص يحتضر كافيا ، واذا كان المشتبه فيه يتمتع بسمعة طيبة ، فان شهادة شخص واحد ضده لا تعد كافية • واذا كانت سمعته سيئة ، فان شهادة شخص واحد ضده تكفى • ولكن يلزم في هذه الحالة أن يكون هذا الشاهد الأوحد شاهدا عيانا فعليا ، ومن أصحاب السمة الأخلاقية الطيبة (فمثلا لاتعد شهادة شخصين شاهدا المتهم وهو يغادر مسرح الجريمة ملوحا بسيف مضرج بالدماء دليلا كافيا ، ما لم توجد أدلة على حدوث تهديد سابق أو تشاجر) • ولا يعرض الفتية الأصغر من أربع عشرة سنة للتعذيب ، ويسمح لمن تجاوزوا سن السبعين ببعض التخفيف لصرامة التعذيب • ويجب حضور الأطباء عملية تنفيذ الحكم حتى يشهدوا اللحظة التي بدأت فيها المراسم البشعة تبتعد عن هدفها الحقيقي ، وأيضا لكي يقدموا ما يخفف النزيف • ولقد حددت مقادير الألم التي ستوقع على الوجه الآتي : في حالة الاستجواب العادي يوضع أربعة خوازيق بين ألواح الخشب الضاغطة على القدمين • وفي حالة الاستجواب غير العادي ، تضاف أربعة خوازيق أخرى • أما في حالة التعذيب المائي ، فتسكب ستة مكابيل من الماء خلال قمع لضمان تقاطر المياه بلا زيادة ولا نقصان • ودارت مشاورات حول الإجراءات الوقائية للحيلولة دون اصابة الضحية بالكساح المستديم ، ولكنها لم تسفر عن الاهتمام الى أنسب صياغة منظمة لها • وحددت كل صغيرة وكبيرة في مواصفات الأصفاذ الحديدية ، ومدى احكام جبل المشنقة ، وارتفاع الحمار الخشبي الذي تثبت عليه ألواح التعذيب • ولكن المهش هو صدور تعليمات من برلمان باريس ١٦٩٧ تنص على استعمال ماء دافئ في مياه التعذيب ، وأن يودع المتهم زنزانة دافئة نوعا •

وتبعاً لقواعد الإجراءات القانونية ، فان الظروف المخففة لا ينظر اليها ، الا بعد أن يكون القرار بالحكم بالاعدام قد صدر بالفعل • ومن الميسور اصدار عفو عن الجاني عندما يكون صغير السن أو مسننا ، أو قمت شهادة باصابته الحبل ، أو اذا ادعى أنه أقدم على جريمته دفاعا عن النفس ، أو تحت ضغط شديد • ويصدر في هذه الحالة قرار بالعفو (**) معتمد من دار القضاء العالي التي صدقت على الحكم الذي أصدرته المحكمة السيادية • ومن المستطاع اصدار عفو عام عن ارتكبو الجريمة تحت تأثير الهوى ، وان وجب صدور الأمر في هذه الحالة من وزارة العدل (***) باعتبار هذا الاجراء يحتاج الى تصديق أعلى سلطة لأنه لا يتم العدالة والانصاف بقدر اعتماده على التسامح • وعند الحكم في الجرائم الخطيرة أو جرائم العنف ، كانت

Des preuves presque complètes et de violentes présomptions. (x)

Lettre de grace.

(★★)

Grande Chancellerie.

(★★★)

المحاكم تنظر مكرهه في اللاتماسات الخاصة بتخفيف الأحكام تفروعا بمجرد
للمتهم ، سواء آكان فتي أو صغير السن ، أو لنقص عقله . ولقد سمحت
أحدى المحاكم الإقطاعية في السنون ١٧١٨ لفتى في الثامنة عشرة بالأفلات
من الشنق بعد ارتكابه جريمة قتل نظرا « لصغر سنه الى حد كبير ، ولأنه
كان مخورا عند ارتكاب الجريمة » ، واستبدل حكم الاعدام بالسجن مدى
الحياة . وأدانت محكمة الشاتلييه (محكمة القانون) في باريس ١٧٧٨
اثنين ممن تجاوزوا سن الثمانين ، وحكمت بتزويق أبدانهم تحت العجلة
لارتكابهما جريمة القتل . وأدان البرلمان في آخر أيامه صيين ، أحدهما
في الخامسة عشرة ، والثاني في السادسة عشرة ، ووقع عليهما نفس العقوبة ،
وأمر بحرق فتاة في السادسة عشرة لأنها دسّت السم لأمها ، وكانت حالات
الحبل واللامسولية بالنسبة للشباب تطبق على نطاق ضيق بدءا بسن
السابعة ، ويترك الحكم على من تقع أعمارهم بين السابعة والرابعة عشرة
لمصافة المحكمة التي لم تستبعد الحكم مدى الحياة في حالة ارتكاب جرائم
العنف . أما فيما يتعلق بالجنون ، فلم يحدث قبل العقد الأخير من اندلاع
الثورة الفرنسية ، أن نظر الى هذه الحالة بمنظار الجدد ، أو اعترف بأن
الجنون مسألة طبية . فقلما راعت وزارة العدل الحالة العقلية لمن أدانتهم
من الأشخاص ، اللهم الا اذا واجهتها حالة مثل حالة بيري شارنتون الذي
قتل عشيقته ، لأنها ألتهت عن أداء واجباته الدينية : « ففضل التضحية
بحياتها على فقدان روحه أمام الله » . وفي ٢١٤ حالة من حالات اشعال
الحرائق التي نظرت أمام برلمان باريس بين ١٧٥٠ و ١٧٨٩ ، طلبت
بيانات عن مدى تمتع المتهم بكامل قواه العقلية(*) في ١٧ حالة فقط . نعم
لقد أقلت خمسة من الجناة في هذه الحالات من الموت بفضل التقرير الطبي ،
وسجنوا مدى الحياة(**) . ولم يلتفت الى دفوع الجنون في حالات ارتكاب
جريمة الخيانة أو قتل الأقربين ، واعتبرت ضرورة الردع ذات قيمة أعظم
من باقى الاعتبارات . .

ولعل أولوية مشكلة السلام العام هي أفضل مفتاح لتفسير سياسة
الحكم بالإدانة أو العفو في مختلف البرلمانات ، التي قد يتصرف قضاتها
باندفاع هستيرى أو يتبعون سياسة ملاينة ربما أضغفت سلطان الأحكام
الملكية . فقد تجر جريمة ارتكابها خادم أو كمين ينصب في أحد الطرق
العليا ، أو عملية « سحر أسود » تجر في ذيلها أوخم العواقب للأخلاق ،
الى حلوث جرائم تخريب واحراق . غير أنه رغم صرامة الأحكام الملكية ،
فأنا نرى من بين أربع وأربعين حالة مبارزة عرضت على برلمان باريس

Information de démençe.

(*)

Bicêtre أو Salperiere في سجن (**)

(١٧٠٠ - ١٧٢٥) أطلق سراح اثني عشر ، وأفرج عن ٢٦ لعمم توافر الأدلة ، وحكم بالادانة على ستة فقط ، ألزم أحدهم بدفع المصاريف، وشنق شبيهه للثاني ، ونفى الثالث لمدة تسع سنوات ، وسجن آخر تسع سنوات . ولم ينفذ حكم الاعدام في أحد منهم . ولم تعتبر حالات الغش والتدليس - عمليا - جرائم كبرى ، بالرغم من اعتبارها كذلك بعد ١٦٧٣ . وكان الكتاب والناشرون الذين يتفادون الرقابة ، يخشون من فقدان حرياتهم ، ولكن نادرا ما خشوا تعرض ارواحهم لأى خطر (بالرغم من ظهور تعليمات بعد الاجراءات المرعبة التي اتخذت بعد محاولة دامينس بتوقيع عقوبة الاعدام لطبع أو بيع كتب ضد الدين وسلام الدولة) . وفي حالات القتل ، كانت شهادات العفو تصدر عادة في حالات مثل اقدم أحد الملاك على التصدى للصوص الليل أو حالات دفاع المرأة عن عرضها ، أو اذا أرغم شاب على المبارزة ، أو وجهت اهانة لأحد الجنود ، أو اذا قتل زوج زوجته اثر ضبطها مضاجعة عشيقها في الفراش (وان وجب أن تقع مثل هذه الأحداث في بيت الاسرة ، وليس في أى مكان آخر) غير أنه حتى اذا تبين أن شهادة العفو قد تم اعدادها ، فان هذا لا يؤثر على صدور قرار الحكم بالاعدام ، لانه من غير المباح لأحد المساس بسلامة المجتمع ، لأن فرنسا مملكة (من المحظور فيها اطلاقا ارتكاب أى عمل من أعمال العنف) .

وتركزت حجج المحامين على وجوب الحفاظ على النظام . وكانت لديهم أيضا حجة ثانوية ، أو كانت لديهم - بالأحرى - صورة متدرجة من الحججة الأولى أو امتداد لها . وتحدث أحدهم(*) عن الحاجة لتطهير المجتمع، وانتقامه من أية فضائح ترتكب في حقه ، أو أحداث مفسرة تلحق به . وكتب قانوني آخر ١٧٧٣ عن «الانتقام» المحظور على البشر ، وان كان من حق الملك ومسئوليته بحكم التفويض الالهى له بالسيادة . وبعد ذلك بأربع سنوات ، تحدث قانوني آخر عن ضرورة توقيع العقوبة ، والانتقام لاية جريمة ، اذا رضيت الكافة عن فرضها على المجرم . وروى أنه ليس كافيا أن يستبصر القاضي بما يمليه عقله وفكره عند اجراء عملية احتساب الرادع . فلا بد أن يشعر أيضا بأنه يعمل في خدمة النار الالهى ، ويتناضل من أجل ما لحق بالنظام الاجتماعى من انتهاك . فلا يكفى أن يظهر الآثم بمظهر الشخص المرعب ، وأن يتخذ عبرة للمعتدين ، ولكن يجب أيضا أن يرى وهو يصلح خطأ في مشهد علنى اثباتا لجلال القانون وللحاكم الذى اهانة . وهناك جملة ملاحه قالها أحد المشرعين في معرض دفاعه عن علنية اجراءات المحاكمة وتنفيذ الأحكام : « لابد للمتهمين أن يدينوا

أنفسهم ، و « الاستجواب التحضيري ، لا يعنى نظريا التعذيب لاثبات الذنب وانتزاع الاعتراف به . فالمفروض أن هذا الإثبات قد حدث بالفعل عند التيقن منويا من الجرم . والأصح هو اعتبار الفرض من هذا الاستجواب انتزاع اعتراف شكلي تتطلبه عملية التهويف عن الخسارة . ولقد شجع أحد الأشخاص المدانين قبل تنفيذ حكم الإعدام عليه بإعلان شهادة الموت (*) . فهذه الشهادة شيء . والاعترافات المدونة عند الاستجواب شيء آخر . ولا تعد هذه الشهادة وصية أخيرة ، أو شهادة بالمعنى المألوف . فبعد توقيع الموت المدنى (**) عليه فانه ، لم يعد قادرا على التصرف فيما يملك . والأصح هو اعتبار هذه الشهادة مجرد اعتراف شكلي بالذنب تبرئه للذمة (***) . وقد يتخذ هذا الاعتراف الشكل الآتى : سيلتقى قاضى المحكمة برفقة أحد الكتبة والجلاد بالسجين قبل نقله الى ساحة الإعدام ، أو فى إحدى المراحل الأخرى ، ثم يستجوبونه بعد أن يقسم اليمين . وإذا تطوع بالاعتراف يسجل اعترافه رسميا ، ويختتم هذا الاعتراف بصيغة يعترف فيها المدان بعدالة الحكم ، ويطلب المغفرة من الله . وإذا رفض اعطاء مثل هذه الشهادة ، تتاح له فرصة أخرى للاعتراف ، عندما يصل الى المشنقة ، ويصرح للكتاب أن يسجل الشهادة آنئذ فى غير حضور القاضى . وغالبا ما يتضمن الحكم بالإعدام نصح المجرم بالاعتذار الكامل (****) ، عندما يكون فى طريقه الى تنفيذ الإعدام ، وقبل أن يصل الى بوابات الكاتدرائية ، أو إحدى الكنائس الرئيسية فى المدن ، وهو بين السجناء من ركاب عربة النقل التى تقلهم الى مكان تنفيذ الإعدام ، وظهره ناحية الطريق العام ، ولا يزيد ما يرتديه عن قميص قصير ، والحبل يحيط برقبته ، وهو يمسك بشمعة فى يده ، ويحمل لافتة مدونا عليها طبيعة الجريمة التى اقرتها ، باستطاعته أن يركع ويطلب الصفح من « الله والملك والعدالة » . وربما اتبع نفس هذا الاجراء فى حالة أية جريمة من جرائم العنف ، حتى اذا لم تستحق حكم الإعدام . وأحيانا ، قد تضاف الى هذه المراسم اجراءات مظهرية أبقى تدفع تكاليفها المقاطعة التى ينتمى اليها المجرم ، كاقامة قداس على روح القتيل ، أو وضع لافتة تخلد ذكرى الضحية ، ويدون عليها حكم المحكمة .

ويطلب المدان فى التماس العفو الغفران من الله بادى ذى به ، وهكذا لا يكون قد اكتفى بالتكفير عن ذنبه علنا ، ولكنه يكمل بهذا الاجراء عملية المصالحة بينه وبين خالقه ، التى بدأها - افتراضا - عندما اعترف

Tes'ament de mort. il faut encore que le accusés se jugent (✱)

condamnent.

eux-mêmes en quelque sorté — la mort civile.

(✱✱)

Par acquit de conscience.

(***)

Amende honorable.

(****)

للقس في زنائنه • وإذا أصر على انكار ذنبه ، ورفض كتابة التماس العفو ، كان على المعترف له الذي يصحبه في العربة أن يشجعه على ذلك • ولقد أذاع الصلحون الرد الشجاع الذي أجاب به أحد الخبازين (١٧٧٠) بعد اتهامه خطأ بقتل أمه السكرية : « هل أنت على استعداد أمام الله لتحمل وزر الاكذوبة التي ترغب منى الاعتراف بها على باب هذه الكنيسة »؟ وبطبيعة الحال ، لم يكن الدين مرتبطا فقط بالتسامحات العفو ، ولكنه كان معنيا أيضا بعملية تنفيذ الاعدام بكل دقائقها ، والتي ينظر إليها على أنها صورة مسبقة مريعة للموت مصير كل حي ، والذي سنلقاه جميعا بلا استثناء ، وعلى قدم المساواة عندما تحين المنية • انها صورة تذكرنا بنهاية كل آثم ، وبضرورة الاعتراف ، ورد الحق لأصحابه ، والتكفير عن الذنب ، والأمل والاطمئنان لغفران من يندم ندما حقيقيا • ومن المنظور الديني ، ليست الشخصية المحورية في هذه الدراما هي شخصية الجلاد ، ولكنها شخصية كاهن الاعتراف • وفي فرنسا ، جرت العادة على عدم اقامة صلاة مقسمة على روح المدان ، ويكتفى باقامتها لمن يعرب عن الندم • ويقتصر دور الكاهن على الناحية التعليمية والحث على التقبل الروحي لمغزى العشاء الرباني ويوقف العفو اذا كانت أسماء الشركاء في الذنب لم يكن لها دور ملح ، وان كان القسس الكابوشين(**) قد أخطأوا في حق معنى الغفران في هذه الناحية • وكان كاهن الاعتراف (وفي حالة دامينس وكالاس خصص اثنان لهذه الغاية ، وان كانت العادة قد جرت على تخصيص كاهن واحد فقط) يصحب الضحية الى المشنقة ، ويلزمه حتى النهاية ، ويقدم له الصليب لتقبيله ، عندما تشتد وطأة التعذيب وقد شددت كتب الاعتراف على الاشادة بامتداد رحمة الله الى ما لا نهاية • فبمقدور أى نم مخلص حتى عند لفظ الأنفاس الأخيرة أن يحقق المصالحة لاشد الآثمين غواية وافسادا • على أن بعض رجال الدين قد دهشوا لهذا الرأي ، ورأوا أنه من غير المعقول عمليا ، عندما تشتد مرارة الأوجاع التي تحيق بالمتهم عند تنفيذ العقوبة ، أن يتجه انسان بعقله نحو خالقه ، ومن ثم انضموا الى المطالبين بانهاء استعمال « العجلة » في تنفيذ أحكام الاعدام ، والخطب المشتعل • وكثيرا ما يطالب رجال الدين بالموامة بين الممارسة العملية ، والمنطق الصارم لنظرة العقيدة المسيحية الى الغفران • فهما كانت جريمة الآثم التي اترفها التائب مقززة ، فيجب أن لا تقتصر على منحه التسامح ، وانما علينا أن نباركه بشعائر (***) كتلك التي نقيمها للمحتضرين • ولقد

Sainte - Omer.

(*)

Capuchine (★★) . وتعنى اصحاب اللنسوات وكانت احدى طوائف الفرنسيسكان

١٥٢٨ ترجمتها •

Vaticum.

(★★★)

بينت المنشورات الأسقفية الخاصة بالطقوس في القرن الثامن عشر لماذا كانوا يرفضون إقامة قداسات في مثل هذه الحالات ؟ ويرجع ذلك الى القاعدة القانونية التي تنص على تنفيذ حكم الاعدام في نفس اليوم الذي صدر فيه الحكم ، حتى يحدث اثره الرادع « حتى يتسنى لجسد يسوع الطاهر. (*) الاتحاد بجسد سرعان ما سيتعرض لأقصى درجات التحقير » . واتصفت حجة عدم إقامة الطقوس المقدسة بوجهها ، ومن ثم اختفت بعد صدور منشور ١٧٨٨ . فقد حدد حينذاك التأخير لمدة شهر للسماح بالوقت الكافي لاعادة نظر الملك الى القضية ، واحتمال اصمدار أمر بالمفو . غير أن القاعدة ظلت بلا تغيير . ورأينا ثلاثة دفاتر تحتوى على قائمة مقمنة للجهة المختصة للاكليروس ١٧٩٩ تتضمن شكايات من تلك البشاعة التي تتعارض والمسيحية .

ولم يسع المجتمع الديوى ، سواء مثله نقاد الكنيسة ، أو نقاد قانون العقوبات لحرمان الاكليروس من حقهم السوادوى لاختكار اللحظات الأخيرة من حياة المجرم وهو يتأهب للشنق مع استثناء مفكر واحد (**). طالب القسس ، بناء على اسباب دينية فحسب بالتغيب عن مثل هذه المشاهد الفظة ، وقال ان المتفرجين يصبون جام لعناتهم على المجرمين، وكانهم شركاء للقضاة . بينما يصب المجرم المحتضر لعناته على الله لأنه تخلى عنه (!) وفى واقع الأمر ، فقد كان هناك رد فعل أكثر شيوعا تمثل فى الإعجاب بكمهنة الاعتراف الدينى الذين يضطلمون بمثل هذه الواجبات المقيتة . فمثلا يروى أحد الأدياء (***) حكاية عن كاهن يرافق شخصية كالحة نصف مائة من آثار تعذيب الاستجواب التحضيرى الى المشنقة : لقد رأيت يحتضن الشخصية التمسعة بمد أن التهمته الحمى اثر اصابته بالعدوى التي نقلتها اليه الحشرات التي تحفل بها زنازنته . وقلت لنفسى : « باركك الله أبها الدين . فهذا دليل على انتصارك ! » وفى بعض المدن ، توطن هذا الدين بحضور أحد المنتمين الى جماعة اخوان التوحين (****) وجماعات التائين (*****) الذين التزموا بحضور الحنازات ومراسم دفن الموتى . وأقام أسقف ليموج مرادا فيما بين الحاضرين ليلة تنفيذ حكم الاعدام للتسابق على الشرف الجهم لحم مخلفات الجثة بعد الشنق أو بعد تزيقها اربا بالمجلة ، ولفعا فى الكفن . وفى اليوم التالى لهذه الليلة الليلية ، كانوا يقفون حاملين للشموع الى موقع تنفيذ الاعدام . وهم يرتدون ثيابهم القرمزية اللون ،

"le corps adorable de Jesus Christ".

Boucher d'Argis.

Restif de la Bretonne.

Pentlands de la Croix.

Conférences des Agonisant.

(*)

(**)

(***)

(****)

(*****)

وقلنسواتهم وزناهم الأسود • ويحملون بأيديهم مسابح طويلة من الصلح
السوداء المحاطة بتاج من الأشواك • ويتولى مسند المسجون اثنان من
الشماسين يرتديان أوشحتهما السوداء، ثم ينشئون أحد الأناشيد الدينية
ويرتلون ادعية أخرى ليسوع والقديسين • وعندما ينتهي كل شيء ، يحملون
الجنة المكفنة الى إحدى الكنائس(*) • وهناك يهجدون طوال الليل ، ثم يدفنون
الجنة في مقبرة الكنيسة • وهي مقبرة مخصصة للترجمين وحدهم ، منذ
عهد الطاعون الكبير (١٦٣٢) • وتعد هذه الاجراءات الكنسية شهادة على
ما يأمه المسيحي ، وعلى التضامن بين جميع المؤمنين في الدراما الكبيرة
للخطيئة والخلص • ولكي يكتمل العرض ، قد يقوم أحد الاخوان المصلحين
باصدار تعليمات الى خلفائه بدفنه بجوار المنيوزين ، الذين رافقهم في
آخر رحلات عذابهم •• وهناك كتاب شهير صدر في عهد التنوير ضد
بشاعات قانون العقوبات وافقاره الى المنطق(**) (١٧٦٤) • وأحدث تأثيرا
عارما في فرنسا بعد ترجمته الى الفرنسية ١٧٦٦ ، كما أحدثت مقالات
سيرفان وفولتير اللذين أذاعا معتقدات كتاب بيكاريا على نطاق واسع آثارا
مماثلة ، وحدث نفس الأثر بعد انتشار الكتابات الراققة للمحلفين الذين
شجبوا قانون العقوبات • بيد أن المصلح الايطالي والمحامين الفرنسيين قد
قبلوا نفس المبدأ النقي الأساسي • فقد اعتقد بيكاريا أن الحجة المستندة
الى فكرة الردع تفي بالفرض ، وقبل الموت كعصير مناسب لمن يهدرون
الامن الداخلي أو الخارجي للدولة • ولكنه رأى فيما يتعلق بالجرائم الأخرى،
أن أشد الروادع فاعلية هو العبودية الدائمة • فالاعدام القاسي يثير الشعور
بالتعاطف على الضحية ، ثم ينسى كل شيء بعد ذلك • أما منظر المستعبد
المقيد بالأصفاد ، فيمثل درسا حافلا بالعبر • والواقع أن بيكاريا قد ساير
مبادئ المنهج النقي الى أبعد الحدود المنطقية ، فلم يتضمن منحه أي
اعتراف بقيمة «الاقرار بالذنب» (***) ، وكل ما يقال عن غاية الانتقام أو
التكفير • إذ اعتقد أن أهم ما يجب أن يراعى هو ما يحدثه المجرم من دمار
في المجتمع • ولم يكثر بما يصيب الشخص المضرر أو يلحق كرامة
المجرم من اساءة ، أو ما قد يحط من جلال الله • وعندما تجاهل بيكاريا
هذه الاعتبارات ، فانه يكون قد تصور المجتمع - ضمنا - قائما على
المساواة ، ودنيويا في طابعه ، وتجاهل المظاهر الغيبية القائمة التي قد
تتردى لنا عندما نتخيل ما يحدث في مراسم الاعدام الرسمية • ولقد
أثبت جان جاك روسو كيف استطاع نقل هذه المظاهر الغيبية من دساتير
البرلمانات الى المدينة الجديدة (التي كان يحلم بها) التي تسودها المساواة،

St Cessacteur كنيسة (*)

Beccaria كتاب (**) *Traffato dei delitti e delle Pene* في

Ameude honorable. (***)

والمثلة للإرادة العامة ، وحيث لا تستمد قوة الحياة والموت من أى تفويض الهى ، وانما يتم التفويض من كل من ينعم بمميزات النظام الاجتماعى . « وبذلك لا أتع ضحية لأى سفاح، ولكنى ساموت راضيا عندما يحم القضاء . » وفوق كل ذلك ، فان السلوك الاجرامى يحل فى ثناياه وصمة التمرد والخيانة . (وهناك امتداد أكثر اتساما بالروح الشريرة لهذه الفكرة سيحجى ذكره فى الفصل الذى يتحدث فيه روسو عن الدين المدنى) . ويرفض بيكاريا كل هذه الخواطر . فلا أحد قد تعاقد على التنازل للآخرين عن حق التسلط على روحه . فالموت عبارة عن شر يضاف الى باقى الشرور ، ولربما حقق اعدام شخص ما نفعاً ضروريا ، ولكنه ليس مستمداً من أى نوع من الرضاء والقبول . انه اجراء من اجراءات الحرب . ولا يدافع بيكاريا فى مثل هذا الرأى عن المبدأ المسيحى الذى يؤمن بقسسية الحياة الانسانية . انه يطالب من يدعون الى ازهاق الحياة أن لا يخذعوا أنفسهم ، ويتناسون مغبة فعلتهم . وهناك اختبار بسيط بالاستطاعة اجراؤه لتقدير مدى الاخلاص فى هذا الشأن : « هل تقبل الاعتراف بالجلاد العام كموطن خير يشارك فى الصالح العام ؟ أم أنك تقشعر من مجرد وجوده ! » .

وقبل المحامون الفرنسيون بالفعل مبادئ بيكاريا الشهيرة فى العقوبة التى تنص على وجوب اتصافها أولا - بالعلنية - ثانيا - تنفيذ بأقل مظهرات ممكنة - ثالثا - أن تنفذ فوراً - رابعا - أن يكون هناك تناسب بينها وبين الجريمة - خامسا - أن تتحدد بمعرفة القانون . ويرجع الاختلاف الى البون السامع فى تعريف ما تعنيه الكلمات الآتية : « ضرورة » و « اذنى » و « تناسب » و « تحديد » . وكان مونتسكيو قد امتدح بالفعل اتباع شرط ما يقضى بأن لا يوقع حكم الاعدام فى المسائل التى تمس الدين والأخلاق (فى البلدان الميسورة الحال ، حيث لا تتفاوت كثيرا ثروات الأفراد) . حتى لا يحدث أى اعتداء على الممتلكات ، واتبع روسو معيارا مختلفا : من الخطأ الحكم باعدام شخص ما اذا أمكن ابقاؤه على قيد الحياة ودون تعريض أحد للخطر . ولو طبقت هذه الشروط لما كان من المستبعد أن تحدث تحولا فى تشريعات العالم القديم . وشجب فولتير الاجراءات القاسية بلا مبرر ، وسمى لاعادة النظر فى جميع أحكام الاعدام بحيث يترك أمرها لحكمة الحاكم نفسه . وفى ١٧٦٢ ، بدأ حملته ضد مظالم الاجراءات الجنائية الفرنسية ، وتحقق اول انتصاراته فى مارس ١٧٦٥ ، عندما نجح فى رد اعتبار ذكرى كلاس (*) .

(*) Jean Calas (١٦٩٨ - ١٧٦٥) ، انهم زورا وبهتانا بأنه تسبب فى مصرع ابنه لامتلاك البروتستانتية . وكان بالنوبة اعدامه ١٧٦٢ ، لولا تدخل فولتير لدى مجلس مدينة تولوز ، وانقائهم برأيه .

« الحد الأدنى المناسب للحال » لقد كان من السهل الاصرار على القول بوجود حالات تستوجب اصدار احكام بالاعدام ، ولكن ما اصعب الدفاع عن بعض الاجراءات الفظة كالتمزيق بوساطة العجلة او الاحراق . وازدادت الاحتجاجات الحاحا بفضل الدعوة الى اتباع العقل (*) في الادب ، الذى امد الانسانيين فى مباحثهم بالكشيهات اكثروا من ترديدها مثل الاحتجاج على السلوك الوحشى ، ففي ١٧٧٠ ، كان فولتير على استعداد للبقاء على الوسائل الموجهة فى الاعدام . عندما تتبع فى حالات مثل جنائية قتل الاقربين والحيانة واشعال الحرائق . وبعد سبع سنوات ، اكتفى بالمطالبة بالاعدام . وقال بوشيه ارجيز (١٧٨١) ساخرا مما يقال عن وجوب مراعاة التدرج فى الحالات التى تستحق التعذيب عند توقيع عقوبة الاعدام . لا شئ يمكن أن يضاف الى عقوبة الاعدام . وقارن بريسو وسائل تنفيذ الاعدام المتحضرة بالوسائل التى كانت تتبع فى مصر قديما عندما كان المجرم يخدر باستعمال البخور ، والعقوبة الحديثة بفرمه باستعمال العجلة الوحشية ، أى الاختراع الوافد من شمال اوربا ، ونقل بطريق مصطنع الى الجنوب الاكثر ارتقاء وتحضرا . واعتقد أن علينا أن نراعى بقدر الامكان تيسير ميتة الشخص المدان ، وان وجب علينا أيضا جعل الاعدام ييسو أمرا مفرزا فى نظر المشاهدين (**). تمشيا مع ما قاله «مارا» بعد تبنيه نفس المبدأ . وبدأت هذه الدعاية الانسانية الطابع تحدث اثرها . فقبل الثورة، الذى التعذيب ، والذى تبعها لذلك « الاستجواب التحضيرى » (١٧٨١) والاستجواب الاستهلالى ١٧٨٨ (ومما يدلنا على طابع العصر تغلى القضاة عن الاستجواب التحضيرى ، قبل أن يرخص به فى منشور ١٧٨١ ، ولكنهم لم يتنازلوا عنه تماما بعد ذلك) .

ومن بين الوسائل العملية لتطبيق المبدأ النفعى عند بيكاريا النظر الى كل جريمة كبرى على حدة - يعنى الى رذائلها ان صح القول - لتقرير هل يعد الحكم بالاعدام رادعا فعلا حقا . واتبع ميرليه هذا الاتجاه فى نظريته الى حالات الفرار من الجيش . وميرليه ضابط محترف محتك . وقد ذكر ذلك فى مبحث نشر ١٧٧٠ ، وانتهاز فرصة ازدياد اهتمام عامة الناس بالموضوع بعد ظهور اوبرا لسيدان (***) ، لاقت نجاحا ١٧٦٩ ، وقام مرسييه بتأليف دراما نثرية تدور حول الموضوع نفسه ووصف ميرليه كيف يفرض الجيش عقوباته : فعندما يلجأ الهاربون الى العدو يشنقون .

Sensibilité.

(*)

Rendez affreux l'appareil du supplice mais que la mort soit douce.

Monsigny وضع موسيقاها Sedaine (★★★) مؤلف نص اوبرا كوميك فرنسية .

Le Deserteur.

(١٧٦٩) واسمها

أما الهاربون العاديون فيقتلون رميا بالرصاص بوساطة فصيلة الاعدام المؤلفة من أقرانهم الجنود . بيد أن الجريمة في الحالتين واحدة . ولقد تظلم بعض الهاربين من الوسيلة التي اتبعت في تجنيدهم كالتعرض للضغوط ، وتقديم الرشاوى لهم حتى يوقعوا على طلبات التطوع ، وكان أغلبهم من الفلاحين الذين لا يؤمنون بشرف الانضمام لصفوف المقاتلين . وكان صفار الجنود هم الذين يفرون دائما ، أى من لم يعرفوا طريق التنظيم أو يترسوا على الضبط والربط ، والذين ربما حققوا نغما أكبر اذا اعتقوا وتركوا أحرارا . ويقترح ميرليه عدم اعفاء الفارين من الخدمة بعد انتهاء عقوبتهم ، وأن يرسلوا الى بعض الاصلاحيات بعد اطلاق سراحهم ، حيث يقسمون الولاة مرة أخرى ، لبدء عهد جديد في الخدمة العسكرية . وبعد ذلك بست سنوات ، طرح الأب جوير (*) ميرراته لما يعود به الصبح من نفع اجتماعى فى معرض تأييده للافراج عن فتيات متهمات بواد أطفالهن ، وأيد استحقاق هؤلاء الفتيات للموت ، ولكن القضاء عليهن يعنى تدمير حياة أشخاص مكتملات النمو تكبد المجتمع نفقات رعايتهن ونضجهن ، ويقدموهن خلسة هذا المجتمع للتكفير عن جريمة قتلهم أطفال لم يكتمل نضجهم . وقال جوير : ان ما يتماثل مع هذه الحالة فى التبدد والفظاظة الحكم باعدام المهربين ، لأن حياة الرجال أثن من حياة أفعالهم النكراء . غير أن المبدأ الرائع للنفعية له مخاطره ، فقد لا يحقق دوما نتائج انسانية ، فكما قال مؤلف سويسرى فى كتابه عن شريعة السعادة : « ان ما تلحقه الامراض الجيئة من ضرر للدولة فى سنة واحدة يفوق الضرر الذى يلحقها من وراء الجرائم الجسيمة التى تقع فى قرن ناكمه » ، ولما كان ذلك كذلك ، فقد نصح بإرسال الشخصيات اللااخلاقية التى تسبب فى تفشى هذه الأمراض الى المشنقة .

ومن بين الوسائل الأخرى لتطبيق مبادئ المذهب النفى ، والربط بينها وبين التأثير المتصاعد لاتباع مسلك عقلانى فحص تأثير طقوس الشنق على المجتمع بصفة عامة . فلربما كان هناك نفر من الناس فسدت عقولهم ، وانجذبوا الى الاهتمام غير السليم بالعنف بعد تأثرهم بالوسائل القمعية الوحشية التى يتبعها المجتمع ذاته . ان هذا هو رأى لاندرى دمين أوبيك . فقد حامت زوبعة شريرة من الفرائز الوحشية حول الجلادين العموميين ، مست أحوالهم الخاصة وأحوال أسرهم . فالطلبة الذين يدرسون علم التشريع قد تجردوا من المشاعر الانسانية من اثر تمنعهم فى التحديق فى جثث المجرمين ، وما يظهر عليها من امارات الشر والذعر التى تطفى على مظهر السكينة الذى يصحب الموت . وتزداد الفظاظة عند السواد الأعظم

من الناس من تأثير مشاهدة المقصلة وهي تصف الرقاب ، وسماع صوتها • ويقول لاندرو ان هذا يفسر سر ما تلقاه شرطتنا من عون من عامة الناس • ولو أننا جعلنا القانون الجنائي واضحا وبسطنا صيغته ، وراعينا الاعتدال في عقوباته ، لما كان من المستبعد تعاون الكافة معنا في فرض احترامه • وعندما بدأت أول مذابح الثورة ، تناول أحد كتاب النشرات القانونية فكرة لاندرو بالتعقيب وقال : « لقد رأينا الجماهير وهي تسيح في بحار من الدماء البشرية ، فمن أين اكتسبت فكرة هذا الحق المزعوم بالذبح ، اللهم الا اذا كان هذا الحق هو نفسه الذي ينسب للمجتمع ؟ »

لقد كان بيرو مؤلف هذه النشرات يرمي بأرائه الى الالغاء التام لعقوبة الاعدام ، لاعتقاده أنه من الخطأ بناء على أية ذريعة قتل أحد رفاقه الانتماء الى الجنس البشرى • ولم تتوافر لاي كاتب قبله الشجاعة التي تدفعه الى مثل هذا الحد من التطرف المنطقي • وقد عبر عن هذا المعنى من قبيل الزهو ، ولعله أصاب في رأيه اذا أمكننا استثناء لاندرو أو « مين أوبيك » (*) ، واعتقد حتى أبعد أصحاب النظريات الانسانية تطرفا ان هناك جرائم شائعة للغاية تثبت عدم انتماء مقترفها الى الآدميين • فهم وحوش « ماتت ضمائرهم تماما » ، وبلاستطاعة الخلاص منهم ، وانبتت الفكرة الاساسية للاصلاح المنهج ذاته على وجه التقريب ، الذي نهجه بيكاريا ، يعنى اقرار استمرار اتباع نظام الحكم بالاعدام ، ونوجب عدم تنفيذه الا في الحالات النادرة ، ويمكن الاستعاضة عنه بالسجن مدى الحياة ، وخطرت ببال بعض الفرنسيين قبل أن ينشر بيكاريا مؤلفه فكرة انقاذ الأفاقين الأشداء من المقصلة ، ودفعهم للعمل المنتج الذي يعود بالنفع على الاقتصاد • ودافع بعض الفرنسيين(**) عن فكرة انشاء ثكنات للمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، والأشغال الذين أعفوا من حكم الاعدام ، والذين يحملون وصمات في وجوههم تحول دون عودتهم للحياة الطبيعية في المجتمع ، فالأصلح هو أن نساعدهم على استثمار جهودهم في اصلاح الطرقات أو العمل في المناجم • ووضع بيكاريا بعض اللمسات على هذا المشروع الاقتصادي لكي يتخذ مظهرا محترما ، وتحمس له ولأدركه الانسانية ، وحسب أثره الرادع على طريقة المحامين • وتبنى فولير الفكرة بحماسة ، وامتند الى جميع المبررات ، وبخاصة الاقتصادية :

« ان الرجل المشنوق لن يصلح لاي شيء » (*) . وابتداء من ١٧٧٧ ، عمد فولتير الى المطالبة بانهاء الحكم باعدام القتلة . فبالقدور الانتفاع بجهودهم ، كما اثبتت انجلترا عندما أرسلت المحكوم عليهم بالشنق الى المستعمرات ، وكما فعلت روسيا عندما أرسلت مجرميها الى سيبيريا . أما « ديدرو » ، وهو من المساندين الواقعيين للحكم بالاعدام ، فقد اقترح اعفاء الجميع من هذا الحكم ، والاستعانة بهم في المشروعات العامة ، باستثناء السفاحين المينوس من اصلاحيهم « لأن قتل شخص لا يعد مبررا لقتل شخص آخر » وأجرى حسابا دقيقا لقيمة الكائن البشرى في تلك الأيام ، التي اشتهرت بسمو اخلاقها : « اننا عندما نحكم بالاعدام على انسان في الثلاثين من عمره ، فاننا لا نتمتع فيما أقدمنا على فعله . فدادا أجرينا حسابا لما حدث سيئضح لنا أن هذا الرجل هو الوحيد الذي سيبقى على قيد الحياة من بين عشرين شخصا ، ان شرائعنا الجنائية لا تعرف أى شيء عن قيمة حياة أبناء الثلاثين من عمرهم » ، وقبل المصلحون الفرنسيون - بوجه عام - فكرة الاستعاضة عن حكم الاعدام بالسجن مدى الحياة ، ومن ثم رأينا نفرا منهم (**) يحثون على اتباع هذا الرأي (وأضاف « موهو » فكرة شريرة) ، هي اجراء التجارب الجراحية على المجرمين الذين قد يفضلون تشريحهم - وهم أحياء - مع احتمال الافراج عنهم ، على السجن مدى الحياة ، وأوصى « لاندرودى مين أوبيك » بالسجن بدلا من الاعدام ، واشترط ، بدافع غلبة مشاعر الشفقة المسيحية ، المعاملة الرحيمة والافراج عند بلوغ سن السبعين . ولاحظ بسذاجة ان هؤلاء الشيوخ البطركة عندما يخرجون من السجن سيكونون أفضل من يقدم نصائح مخصصة للشباب (!) ولت المحامي فازلان (***) (١٦٧٠) انتباه الجمعية الوطنية « الى جحافل العمال أصحاب النوايا الطيبة الذين سيتوافرون في حالة الغاء الحكم بالاعدام » « وبذلك يتيسر تحويل أشنع الاساءات الصارخة للنظام الاستبدادى الى مفاخر شرائعنا الجديدة » . وربما بدا من الغريب ان يفتخروا بمفكرى القرن الثامن عشر انفسهم - بكل سهولة - بالقيمة الاحتمالية للعاملة عند نزلاء السجون . غير أن نظام العبيد المتبع في المستعمرات قد عاد بالكثير من النفع ، وبذلك ارتقى مذهب العمل في مواجهة التبرع بالصدقة ، واعتبر علماء علم السكان تضاعف الأيدي العاملة في الدولة مقياسا للحكومة الناجحة . فكلما ازدادت فاعلية الوسائل التهذيبية المتبعة في المعسكرات الحربية والمدارس والمصانع والاصلاحيات ، ازداد الأمل - كما يبدو - في احتمالات اعادة التنظيم العقلانى للمجتمع

Un homme pendu n'est bon à rien.

(*)

Pas'oret, Mirabeau, Boucher d'Agris, Moheau,
Brisot.

(**) من أمثال

(***)

Vaselin.

وبغض النظر عن تأييد الحكم بالاعدام ، أو الاعتراض عليه ، فقد حدث اتفاق على جعل مصير المجرم من المشاهد التي تعرض على الكافة . ويرجع ذلك الى النظرة التي اشترك فيها الرجعيون والمصلحون معا ، التي نرى العقوبة بمثابة رادع . فما دمننا قد سلمنا بحرية البشر في افعالهم ، فلا بد اذن من تقييد نظرة الردع بشروط اخلاقية ، لان اللوم سينصب على دوافع السلوك الاجرامى ، وليس على نتائجه . ولما كان بناء النظام يتصف بالهشاشة ، ولذا فهناك مبرر قوى لاعطاء الاولوية للنتائج ، ولقمع العواقب الخطيرة . وقد شجع المصلحون هذا الاتجاه اعتمادا على تيار فكرى شائع كان يرتاب فى الحرية الانسانية . فلدينا مثلا ديدرو ، الذى اهتم فى مذهبه اهتماما اساسيا بالعوامل الوراثية التي رآها متشابكة الى حد التعقيد هى والمشكلات المتعلقة بحرية الارادة . وهناك ايضا هلفسيوس الذى تركز اهتمامه على التأثير التكييفى للتربية والتعليم والوسط الاجتماعى ، اما لامتريه (*) فقد تصور مصير البشر على غرار تصوره لمصير الخضروات ، أى اعتبره حصيدا بذرة وتربة ، وحسب . ومن ثم بدا له اللص والقاتل الشهير كارتوش « قد خلق لى يكون كارتوشا » ، وما كان بوسعنا ان يغفلوا شخصا آخر ، وهناك مفكرون من أمثال فولتير وآخرين كهولباخ (**) ، الذى قبل بفتور انهاء المسؤولية الاخلاقية بصفة مطلقة . وبقدر قبول هؤلاء المفكرين لآى نوع من الختمية ، كان من الضرورى ان تجيء تصوراتهم للعقوبة كشيء مصطنع . وقد طرح دالمبير (***) القضية بوضوح فقال : « لو كان الناس أحرارا ، فان العقوبة ستجمع بين ضرورتها واصحابها بالانصاف ، ولو كانوا غير أحرار ستكون العقوبة ضرورية فحسب » . وفى نهاية المطاف ، وربما فى حالة عدم الادانة الاخلاقية ، لابد من الالتجاء الى استئصال شيء ما ، لان الحاجة ستدعو الى استبعاد بعض الافراد الناشزين من المجتمع، واذ كان البشر قد أصبحوا على ما هم عليه من تأثير محتتمات خفية ، سيحق لنا أن نند أن نقول لهم عندما لا نرضى عن مسلكهم بأن العقوبة أمر مقدر لهم . واذ قلنا أنهم نتاج لعوامل تكييفية قابلة للتعامل معها – وهذا هو الاحتمال الأكبر – سيتعين حينذاك ضبط دوافع العقوبة ، لانتاج النموذج الاجتماعى الأنفع لاحتياجات حياتنا المشتركة . وهكذا نعود مرة أخرى الى حساب الألم

(*) Julien Offroy de La Mettrie (١٧٠٩ - ١٧٥١) عالم

الغزبية والفيلسوف المادى مؤلف كتاب Histoire Naturelle de l'âme (١٧٤٥)

(**) Paul Thiry, Baron d'Holbach (١٧٢٢ - ١٧٨٩) من اقطاب المذهب

المادى فى عصر التنوير بفرنسا .

(***) Jean le Rond d'Alembert (١٧١٧ - ١٧٨٢) من فلاسفة التنوير وأحد

من اشتركوا فى تأليف الموسوعة الشهيرة .

كما فعل محامو « العهد القديم » ممن اعتقدوا أنهم يتعاملون مع أشخاص يتمتعون بحرية العمل ، وأن كنا سنعود بعد ازدياد اتصافنا بالإنسانية ، وازدياد مخيلتنا تنورا . وسواء كان الإنسان حرا ، أو خاضعا سيكلوجيا للحتمية فإن هناك حججا يمكن أن تساق لتبرير مسلك خشود الدهماء ، في ميدان دى جريف ، كما يبين عند التحديق فى صندوق الدنيا فى اليوتوبيا التى ألغت الرق وحققت المساواة (*) وأعطت المشتغلات بالتريكو حق تقرير المصير بالمصلحة ...

ولقد أشار كتاب « التراجيم » الى التباين بين معارضة رويسير لحكم الاعدام قبل الثورة ، ودفاعه عن « الرعب » ، وان كان لا وجود لآى تعارض بين موقفه . فقد رأينا كيف اعترف بيكاريا بالموت كعقوبة مناسبة لمن يهددون أمن العولة ، واتبه فى هذا الرأى جميع العقيبين(**) الفرنسيين ، وتماتلوا هم والمحلطون فى النظام القديم الذين اعتقدوا أن العقوبة مسألة وادعة أساسا ، ومن ثم فمن البديهي - على ما يبدو - القول بوجود حرمان المتمردين من كل أمل فى النجاة بمساعدة أقرانهم من المتأمرين . فالخيانة لن تنجح أبدا ، ويرجع ذلك لأسباب كامنة فى معناها ، ولأن الخونة لن يظلوا على قيد الحياة ليروا نتيجة ما فعلوا وجنوا . وقال سيرفان فى هذا الشأن : « ان المشنقة هى سلاحنا الأخير لتخليصنا من المجرمين الأفاذ الذين لن نستطيع إبقاهم أحياء وسطنا ، دون تعريض أنفسنا للخطر . ولربما رضى فولتير عن استعمال المشنقة لو أنه أدرك عدم وجود وسيلة أخرى لانتفاذ أرواح الأغلبية الساحقة ، وما أشبه هذه الحالة يقتل مسعور . ولقد أباح بريسو وباستوربه الحكم بالاعدام فى حالات ارتكاب جريمة الخيانة : « كالتأمر سرا ، والانتفاضات الصاخبة التى تهدد أمن الوطن ، لو ألغى اعلام مثيرى الشغب » ، ولقد قيل هذا الكلام فى مناسف عصر جديد ، وكان « المعتقيون » من أوائل من تطلخوا لاحداث الإصلاح على نطاق واسع ، وعندما كتبوا عن الخيانة لم يكن ما جال بخاطرهم الأتوال الماثورة فى تاريخ الرومان(***)التي كان لها الصدارة فى دراستهم لمطليا ، أو حتى شيئا أقل من ذلك ، أى الترجية الخبيثة ليدبروا لهذا القول الماثور ، والتي جاء فيها « أن القانون الأسمى هو القانون الذى

(*) لها Le Peletier

إشارة الى بعض النسوة اللاتي كن يشتركن النساء الثورة الفرنسية فى اعداد قوائم اعدام للثورة ، ولعلنا نذكر مدام ديفارج فى قصة مينيئين ليكنز .

Abolitionist.

(***)

(***) Salus populi suprema lex: (القانون الأسمى هو الذى يحل

صالح الشعب.)

يحقق مصلحة من يحكمون الشعب ، ان ما كانوا يحومونه ليس بلادهم كما هي كذلك ، ولكنها بلادهم كما ينبغي أن تكون ، وهذا ما زاد من بغضهم للتأمير . وذهب مارا (أحد زعماء الثورة الفرنسية) في سبيل الدعوة ليوثوبيته ، وحلمه بانشاء أمة حرة تسودها المساواة الى حد المطالبة باستيقاف بشاعات المشنقة التي تنسب اليها ظلمات تشريعات « النظام القديم » وطالب بالحكم بالاعدام على من يشرع في اشعال النيران بالسفن أو الترسانات ودور المحفوظات والأبنية العامة (*) ، ان هذه الأقوال البليغة القاتمة ، التي لم يدرك أحد حينذاك دلالتها قد استطاعت بعد ذلك العثور على من تنطبق عليه هذه الكلمات . ولقد كان هذا الشخص هو الملك بالذات . ولقد انتقلت فكرة قداصة شخص الملوك والتي استند اليها في تبرير حالات التعذيب التي أودها دامينس الى الثورة في التصور الدستوري « لانتهاكية » (**) . وتزعم مارا المطالبة باعادة تعريفها على ضوء المحاكمات وأحكام الاعدام : « كيف يتعين أن يحاكم الملك السابق ؟ أما الرد فهو ضرورة مراعاة احاطة هذه المحاكمة بمظاهر الأبهة ، مع معاملته بعنف ، والابتعاد عن الأفكار الزائفة الطنانة التي تدعو الى التسامح والكرم ، والتي يعبر عنها بعبارات ترضى الغرور القومي وتخدعه » ! وأنه من المؤسف أن نرى كيف اعتمد على الجانب القائم من فكر بيكاريا وبريسو عن فكرة المثل الأعلى للعبودية ، بدلا من الحكم بالاعدام فيما دار من حوار حول خيانة لويس في عبارات مغلقة بالكراهية في خطب أصحاب السراويل الفضفاضة (***) عن الطفاسة المرؤضين في أقطاص ، حتى تكون عبرة لشعوب أوروبا .

وتزايد كشف كتاب عصر التنوير عن درايتهم بالحاجة الى الاصلاح الاجتماعي للخلاص من أسباب الجريمة ، ووجه بيكاريا اللوم الى المغالاة في فرض الضرائب وخضوع الأسرة الزائد عن الحد لسيطرة الأب ، وانحياز القوانين . ونسب العنف في المجتمع لجميع هذه الأسباب ، وقال هولباخ : ان الحكومة التي تساعد شعبها على تحقيق السعادة والرخاء لن تحتاج لابتكار عقوبات قاسية للمجرمين . وقال فولتير : « على الأغنياء الذين يستنون القوانين دراسة ما يتعين قيامهم به لمساعدة الفقراء قبل سوتهم للجلاد . فاذا فطنوا الى حاجة الساقطات الى عمل شريف والى مؤسسات ، مثلا ، فان هذا سيحول دون اذهاقهم لأرواح ما ينبجن من أطفال » . وأشار بوشيه دارجيه الى ما هناك من ابتعاد عن الانصاف

«que l'appareil de son supplice soit effrayant, et qu'il en soit (*)
témoin lui-même.

Inviolibility.

(*) (*)

Sansculotte.

(*) (*) (*)

فى وصف سرقات الخدم من المنازل بالجنايات الجسيمة ، لأن مثل هذه المخالفات غالبا ما ترجع الى التباين بين ما ينعم به الأسياد من ترف والأجور الهزيلة التى يتقاضاها من يعملون فى خدمتهم ، وطالب مارا بآجراء اصلاح يحقق المساواة للمجتمع ، ويظهره من أوصابه ، يعنى باستحداث نظام يحقق المشاركة فى احتلال الأراضى ، وييسر التعليم للجميع ، ويعنى بالمسنين . أنثذ سيتسنى للمشرع الاستشهاد بروائع مآثورات العهد الكلاسيكى القديم ، وتطبيق القوانين التى تشيب الفضيلة بدلا من قمع الرذيلة . وكتب بريسو : « لم يولد الانسان عدوا للمجتمع . ان الظروف هى التى دفعته ، من آجراء الفقر والشعور بالاحباط » نعم عليكم بتحقيق المساواة بين البشر فى الثراء والتزام الاعتدال عند فرض الضرائب ، وتعليم الناس الأخلاق ، وتبسيط القوانين بحيث يتسنى تجسيها فى مجلد صغير الحجم ورخيص ، يمكن بيعه للكافة كما تباع ، العظات الدينية . وسترون أثر ذلك على السواد الأعظم من المواطنين ، الذين سيرتفع شأنهم ، وسيلتزمون بالقانون . واقتربت بعض صفحات كتاب بريسو فى تحويل مسائل الاجرام الى مسائل تتبع علم الاجتماع ، وعلى الأخص عندما اكتشف حاجة كثير من المجرمين الى اعادة تعليمهم او العون الطبى ، وقال لامترية : ان بعض الجرائم الفظة لا يستبعد أن ترد لخلل عقلى (وكان يقصد بذلك المثل الخاص بالمرأة التى قتلت ابنهاها والتهمتهم !) ولا يجب أن يتحول القضاة الى محامين ، بل أطباء ممارسين ذوى خبرة (أى مثل لامترية بالذات) ويعد لامترية فى هذه الناحية ، وفى النواحي الأخرى أيضا ، أكرم المصلحين الانسانيين ، لأنه رأى جميع المجرمين أشخاصا يعانون من اضطراب عقلى : « الحق أن جميع المجرمين مخبولون . وتتوجب معاملتهم بناء على هذه الصفة من قبل من يتمتعون بالصحة العقلية » ، وبصرف النظر عن جميع هذه الآراء ، فان الردع قد يدا لجميع هؤلاء الكتاب هو الغاية الأولى من العقوبة ، واستمر الحكم بالاعدام فى نظرهم جميعا - ما عدا لاندرو - سلاحا لا غنى عنه للتعامل مع حالات لتآمر ضد الدولة .

قالى أى حد تأثرت سياسة أحكام القضاة فى البرلمانات والمحاكم بمعتقدات المصلحين فى عصر التنوير ؟ وتمشيا وما ذكره أحد الشهود والتبصرين من شهود العيان (٤) ، فان المحاكم ازدادت نزوعا الى الرحمة فى العقد الأخير قبل ١٧٨٩ . ولعله أصاب فى هذا الرأى ، وان كان من

(٤) Pierre-Louis Roederer. (١٧٥٤ - ١٨٢٥) السياسى والاقتصادى والمؤرخ والأديب . يقال عنه انه رسم أروع صورة أدبية لهروب العائلة الملكية الفرنسية من باريس ، وما تبع ذلك من قبض عليهم واهانتهم الى مقر دارهم .

الصعب تأييد هذا الانطباع بالاحصاءات الدقيقة المقتنة . فليس بالمقدور تحليل سياسات القضاة بمعزل عن باقي المؤثرات ، لأن السلوك الاجرامى كان يتطور ، ويعرض مشكلات وأخطارا جديدة . ففي آخر سنوات « النظام القديم » قسم للمحاكمة عدد أكبر من المعتدين على القانون ، وتضاعف عدد من دخلوا السجن ، كما يبين من المتوسطات التى تضمنها سجل سجن آكس فى بواكير السبعينيات عن عددهم (١٧٥٠) فى نورمانديا ولانجدوك . وفى نطاق السلطة القضائية لبرلمانان ليل وفالنسين والفلاندرز ، هناك دليل واضح على حدوث تحول من غلبة جرائم العنف فى بدايات القرن الى جرائم الاعتداء على الملكية فيما بعد . وهناك ما ثبت أيضا ارتقاء حرفة السرقة وزيادة تنظيمها وتنوع أساليبها . فلقد ارتقى المجتمع ، وانضباطه ، وبفضل تقدم أعمال الشرطة ، وازدياد الوعي بقيمة الملكية . وفى المقابل ، ارتقت الفئات الاجرامية وازدادت كفاية . ولربما حدثت ضغوط ساعدت على الابتعاد عن الأمانة بعد حدوث تفاوت بين العدد المتزايد للسكان وموارد بعض البقاع ، ومن المؤكد أن التشرذم قد ازداد ، وتفاقم القلق عند الطبقات المالكة . وفى مواجهة تصاعد الروح الاجرامية وظهور أنواع مستحدثة منها ، اضطر برلمان تولوز الى النزوح الى اتباع الاساليب الصارمة ، بينما جنحت برلمانان شمال فرنسا نحو اللين والترفق . وحكم برلمان الفلاندرز بالاعدام على تسعة وثلاثين من مائة وستين شخصا من المدانين بين ١٧٢١ و ١٧٣٠ . ولكن فى الحقبة الواقعة بين ١٧٨١ و ١٧٩٠ ، لم يوقع حكم الاعدام على أكثر من ستة وعشرين شخصا من بين خمسمائة . وزاد برلمان باريس من أحكام الاعدام بين ١٧٦٠ و ١٧٦٢ ، ولكنه نزع بعد ذلك من تأثير تقدم الوعي الاجتماعى فى أغلب الظن الى خفض هذه الأعداد بقدر كبير (فلم يتجاوز من صدر حكم باعدامهم ١٧٨٧ سبعة أشخاص) . ومن جهة أخرى ، فقد زج برلمان باريس بعدد كبير من مرتكبي الجرائم الى السجون . هنا يوسعنا أن نفترض وجود نية لمحاولة تطوير الأشغال الشاقة ، بدلا من توقيع حكم الاعدام . وان كان تنفيذ الأشغال الشاقة قد اتصف بالجهامة ، حتى بدأ أقرب الى وسيلة بديلة للحكم بالاعدام . فما لم يتمتع الشخص ببنیان متين ، فانه لن يعمر طويلا اذا حكم عليه بالسجن مدى الحياة . فمن بين أربعة آلاف من الجناة فى قاعدة مارسيليا ١٧٤٨ ، صدرت أحكام على مائتين تقريبا قبل ١٧٢٠ ، وعلى ما ينوف على ألفين وخمسمائة ، قيدت أقدامهم بالأصفاد الحديدية فى السنوات الثماني الأخيرة (ولم يكونوا جميعا ممن يعضون السجن مدى الحياة ، ولكن أغلبهم كان من المحكوم عليهم بالسجن مدة طويلة . ولا يعنى انتهاء مدة السجن الافراج الفورى عن

السجين) وليس من شك أن منظر نزلاء اللومان (*) وهم يجرون بسلاسلهم وسط التلال والوديان ، وقصص « الأحياء الأموات » الذين ينتظروهم الموت كل لحظة تحت شمس البحر المتوسط ، كان من الروادع التي لا تتجاوب مع ما قاله بيكاريا وأتباعه ، وتوحى بعدم وجود أى شيء دنس فى بالهم . ففى الحق لم يكن « النظام القديم » قد بلغ درجة من الاقتناع الفكرى تؤهله لتحمل انشاء نظام للعقوبات يجمع بين المظهر الانسانى والفاعلية ، أو للاقدام على مثل هذه الخطوة . ولعل الامور كانت ستتجه اتجاهها آخر لو أن استراليا وقع بين ايدى الفرنسيين ، ودعا كل من بريسو ولافايت لانشاء شبكة من خطوط السكك الحديدية . فلقد كانت فرنسا عامرة بالسجون ، وكان بعضها أشبه باللوحات الخيالية المخيفة التى رسمها مصور ايطالى شهير (**). فهناك الزنازن السفلية فى قلعة كان حيث تصاب الأقدام الفارقة فى المياه حتى الكاحل والمقيدة بالأصفاذ بالغنغرينا ، ولا ننسى الأقفاس الحديدية فى برلمان باريس التى يعجز أى شخص عن الوقوف فيها منتصب القوام . وربما أمضى سنوات طويلة دون أن يرى الشمس ولو مرة واحدة ، أو دون أن يشاهد نارا أو قسا يعترف له . أما الإصلاحيات (***) حيث تودع النساء مقترفات بعض الجرائم والأطفال المشبهون ، لانقاذهم وانقاذهم من مصير أسوأ قد يحل بهم لو أنهم استمروا فى العيش وسط عائلاتهم ، فكانت أبشع حالا . ومن طواهر هذه الحبلة الأمر «بالقبض العشوائى» (****) الذى يلقى بموجبه بالشخص وسط الأفاقين الميئوس من اصلاحهم والفاستقين . وثمة سجون أخرى اتخذت مظهر الاطال الرمزية . فهى مزودة بأبواب مفاصلها مكسورة ونوافذها خالية من القضبان . ويديرها سجانون سفلة معدومو الكفاية ، ولكن اذا تجاوزنا عن اللومان الذى اقتضت الضرورات التقنية تسخير نزلائه لبعض الأشغال الشاقة ، فاننا نستطيع القول بأن « النظام القديم » لم يعرف نظاما للسجون يسعى لتحقيق اية غاية غير الاحتجاز لفترة زمنية ما ، ولم تتوافر له اية دراية بالوسائل التى يمكن استعمالها كبديل للمشقة .

لقد رأينا نوع الحياة وقيمها عند مصلحي عصر التنوير فى فرنسا . فالى أى حد حاولت تشريعات الثورة وضع معتقداتها موضع التنفيذ ؟ لعل كرامات ١٧٨٩ تزودنا بانطباع يبين لنا الى أى حد انتشرت هذه المعتقدات ، بين الطبقات المثقفة على أقل تقدير ، فلقد طالبت بعض

Galériens.

(*)

(١٧٧٨ - ١٧٢٠) Jean Baptiste Piranesi. (**)

Maisons de force.

(***)

Lettre de cachet.

(****)

الكراسات بانها العقوبات القاسية « التي تدفع البشر الى التقزز » ،
وبالاقبال من الجرائم الكبرى ، والمساواة بين النبلاء والعوام امام المشتقة ،
ولم تطالب أية كراسة واحدة بالغاء الحكم بالاعدام ، والاقبال من الالتجاء
اليه بقدر المستطاع . وتجاوز قانون ١٧٩١ ما جاء « بالكراسات » ، وبدا
وكانه انعكاس معقول للحد الأدنى من القاسم المشترك عند المتحسين.
للاصلاح . فلقد اقترح اتباع وسيلة واحدة في تنفيذ حكم الاعدام تطبيق
على جميع الطبقات والفئات ، وهي أقل الطرائق قسوة التي عرفها العلم .
(ولم يخترع «طبيب الذكر» الدكتور جيلوتين آلة التهلكة التي اشتهرت
باسمه . ولكنه اشرف على التجارب الشاقة لدحض الظن بأن الرؤوس بعد
بترها تشعر بأى ألم) . ورئى أن اتباع اجراءات أقرب الى الانصاف
ستوفر اطمئنانا أكبر للأبرياء ، وان كان الأمل في المسامحة والغفران
ميثوسا منه ، وهذه مفارقة ! ولم تعد العقوبة تمتد بحيث تشمل أسرة
المدان وتطبق في ناحية التجريد من الممتلكات أو التشهير والحرمان من
الحقوق المدنية . ولم يعد الحكم بالاعدام يصدر في جرائم الاعتداء على
الملكية ، أو الأخلاق أو الدين . وظل الحكم بالاعدام ساريا في جرائم
القتل والعنف . واستمرت عمليات تنفيذ الأحكام تجرى علنا ، ويشاهدها
المتفرجون . وفوق كل ذلك ، فقد تماثل النظامان القديم والجديد في
اصرارهما على الإشادة بضرورة حماية الدولة ، التي ازدادت قدسيتهما الآن ،
بعد افتراض رضاه الشعب عنها . واستبقى الحكم بالاعدام في حالات
الخيانة والاعتداء على حياة الرأس الحاكمة ، وأيضا في محاولات الاعتداء
على أعضاء الجمعية التشريعية ، ونزوع أى وزير من الوزراء الى نشر
قانون لم يجر التصويت عليه ، وجباية الضرائب بطريق غير مشروع ،
والاتجار بأصوات الناخبين للبرلمان ، وسمح القانون بعدم اغلاق نائب
العرب . . .

المراجع

- D. Bien, *The Calas Affair : Persecution, Toleration and Heresy in Eighteenth-Century Toulouse* (1960).
- J. A. Cary, *Judicial Reform in France before the Revolution of 1789* (1981).
- D. D. Cooper, *The Lesson of the Scaffold : The Public Execution Controversy in Victorian England* (1974).
- W. R. Cornish et al, *Crime and Law in Nineteenth Century Britain* (1978).
- R. Forster and O Ranum eds, *Deviants and the Abandoned in French Society* (1978).
- D. Hay ed., *Albion's Fatal Tree : Crime and Society in Eighteenth-Century England* (1975).
- M. Ignatiff, *A Just Measure of Pain : The Penitentiary in the Industrial Revolution (1750-1650)* 1978.
- J. H. Langbrien, *Torture and the Law of Proof : Europe and England in the « Ancien Regime »* (1977).
- P. B. Munscey, *Gentlemen and Poachers : The English Game Laws*
- L. Radzinowiz, *A History of English Criminal Law and Its Administration from 1750 (4 vol) 1671-1831.* 1968.
- R. Smith. *Trial by Medicine : Insanity and Responsibility in Victorian Trials* (1981).
- E. P. Thompson, *Whigs and Hunters : The Origin of the Black Act* 1976.
- G. Wright, *Between the Guillotine and Liberty : Two Centuries of the Crime Problem in France* 1983.
- H. Zehr, *Crime and the Development of Modern Society : Patterns of Criminality in Nineteenth-Century Germany and France* (1976).

وسائل التسويق في السوق الدولية المحركات البخارية - قضية بولتون ووات

جينيفر تان

يحتفل ان تكون المحركات البخارية اهم اختراع ظهر في الحقبة
الباكرة من الثورة الصناعية . فلقد أنتجت مصدرا للطاقة القابلة للتحويل
من موضع لآخر ، مما ساعد على انشاء المصانع في مواقع قريبة من المصادر
اللازمة للصناعة والعمالة ، بدلا من نقلها مسافات طويلة . وتيسر أيضا
استعمال المحرك البخارى لخدمة مهام شاقة ، متعددة ومتنوعة .

بيد ان اختراع المحرك البخارى وصنعه لا يمثل الا جانبا واحدا من
العملية التي اصبحنا نسميها عملية التصنيع . اذ كان من الضروري
اكتشاف سوق لهذا الاختراع الجديد ، او خلقها ، فلا بد من اكتشاف
مشتريين له ، ولا بد ان تباع المحركات وفقا لشروط توفر الحماية لمصلحة
المخترع والمصالح الاقتصادية ، وعندما حاولت الشركة التي ألفها جيمس
وات وماثيو بولتون تسويق منتجاتهما في الأسواق الخارجية بنفس
الطريقة المتبعة في إنجلترا ، تمثل الخطر الأعظم في احتمال تقليد المهندسين
الأجانب للمحركات ، واقدامهم على انتاجها بمعرفتهم ، ولذا سعت الشركة
لضمان الحفاظ على حقوق امتيازها في شتى أنحاء أوروبا . وبينما سعى
وات وبولتون لتأمين حقوقهما على هذا الوجه ، قاما أيضا في ذات الوقت
بالبحث عن زبائن مشهورين ، أو يحتلون مراكز مرموقة ، حتى يساعد
شراؤهم للمحركات على اقتناع الآخرين بالافتداء بهم .

واكتشف وات وبولتون - مثلما اكتشفت شركات كثيرة تعمل في
المنتجات الثقيلة بعد ذلك بقرنين - علم قدرة المحركات البخارية على بيع

Marketing Methods in the International Steam Engine Market : The Case of Boulton and Watt, كتاب

تأليف Jennifer Tann في مجلة Journal of Economic-History.
الجزء ٢٨ (١٩٧٨) ص ٢٦٢ - ٢٨١ .

نفسها بنفسها • ومن باب الإغراء بالشراء ، أوفد الشريك خبراء ميكانيكيين لإنشاء محطات في الخارج لغلمة المحركات ، وصيانتها • واتخذت الضرورة الارتقاء بتقنية أخرى هي عملية حزم ورزم المحركات ، واستلزم هذا الإجراء ، الى جانب بيع المحرك ، التعريف بطريقة صنعه ، وعقد اتفاقية لتشغيله وختمته لمدة زمنية معينة • وحاولوا أيضا بيع مصانع كاملة للخارج ، وعلى الأخص طواحين الحبوب ، وآلات صسك التتود والميلاليات •

وخلفت تقنيتهما المتنوعة سوقا عبر البحار اعتبرها وات وبولتون عظيمة الأهمية ، غير أن القارى قد يصاب بالذهول عندما يعرف مدى القصور النسبي لهذه السوق ، والنندرة الملحوظة للمهندسين الكبريين الذين كانت هناك حاجة ماسة اليهم لتركيب المحركات البخارية وتشغيلها ، ويتعين مراعاة العاملين معا عند ادراك مدى ضآلة التوسع فى التقدم فى بداية الثورة الصناعية ، وبطئه الزمنى نسبيا •

سجل جيمس وات امتياز اختراعه المحسن للمحرك البخارى ١٧٦٩ • ولكن وكما هو معروف ، فانه قد افتقر الى رأس المال ، وباقى التسهيلات التى تساعد على استغلال هذا الامتياز • ولم يبدأ التقدم التقنى والاستغلال التجارى لمحركه يحقق غايته الا عندما اشترك معه فى المشروع ماتيو بولتون (١٧٧٥) ، بعد نجاحه فى الحصول على قرار من البرلمان بمد الامتياز حتى ١٨٠٠ • وكانت المحركات الأولى جميعا من المضخات الترددية التى تحرك عمليات الضخ وآلات وأدوات النفع فيما بعد • غير أن وات اخترع محركا دوارا ، وحصل على امتياز اختراعه ١٧٨٢ بناء على اصرار بولتون حتى يتسنى له تصعيد انتاج محركات المصانع •

واستمر زهاء عشرين سنة من انشاء شركتهما صنع بعض أجزاء من المحركات الأصغر فى مصنع بولتون فى سوهو ، الذى انشئ فى ستينيات القرن الثامن عشر ، لانتاج لمب أطفال من الصلب ، وغيرها من المصنوعات المعدنية • أما عمليات السباكة والحداة الأكبر ، فكانت تتم بناء على تعاقدات فرعية فى مصانع الحديد فى الميدلاند أو فى أماكن نائية فى العراء ، ولم يتمكن بولتون ووات من صنع محركات كاملة الا بعد ان افتتحا مسبكا للمحركات (١٧٩٥ - ١٧٩٦) وعلى الرغم من أن نظام العقود الفرعية كان له بعض النفع ، لأنه سمح للشريكين بالعمل اعتمادا على رأس مال صغير ، الا أنه قد حد بشدة من كفاية الناتج • فلم يتسن الا لقلائل من السباكين والحداين بلوغ المستوى الاسمى من الانتاج الذى يطالب به بولتون ووات • أما من كانوا قادرين على ذلك ، فكانوا منشغلين

بأعمال أخرى تدور عليهم ويحاوون من الربح الذين يحصلون عليه مقابل صناعة أجزاء من المحركات . وهكذا فلم يكن من المستبعد أن يؤدي أي ارتفاع بسيط في الطلب إلى الانتظار مدة زمنية طويلة ، وإلى تأخر الإنتاج ثمانية عشر شهرا ، وفي السنوات العشر الأولى لإنشاء المصنع تم تصنيع ثمانية عشر محركا ، من بينها ٢١ محركا لكورنول وأربعة لخارج إنجلترا . وتم إنشاء ١٨٧ محركا بين ١٧٨٦ و ١٧٩٥ ، من بينها ١٢ لزيائن أو عملاء من خارج إنجلترا ، وتزايد الطلب الخارجى ابتداء من العقد الأخير في القرن الثامن عشر . وفي ١٨٢٥ ، بلغ عدد الطلبات ١١٠ محركات ، الفى منها ثمانية طلبات .

وقبل ١٨٠٠ ، كان بولتون ووات يحصلان على أرباحهما المحلية من استحقاقاتهما مقابل بيع حق تشغيل المحرك ، ومن التزويد بالرسومات ، وبيع قطع الغيار ومن المصاريف الإضافية التي كانوا يفرضونها على القطع التي يسمحن للمتعاقدين الفرعيين بصنعها . وفي السوق الخارجية ، كانت الزيادات في الشحن تضاف إلى مجموع أثمان السلع والخدمات بعد إضافة الاستحقاقات البريطانية . وفي معظم الحالات ، كانوا يحتاجون إلى ضمان من لندن ، وابتداء من حوالي ١٨٨٠ ، كانت معظم الطلبات الآتية من خارج إنجلترا لمحركات بولتون ووات تقدم ويلفج ثمنها لمكاتب بعض التجار في لندن وليفربول وبريستول ، وعندما انتهى امتياز وات (وكانت المحركات تنتج آنئذ بالكامل بمعرفة بولتون ووات) ، لم يحدث هبوط في الأسعار داخل أسواق إنجلترا ، كما كان متوقعا ، وتزايد ، بصفة استثنائية إقبال المصانع الكبرى ، أو المصانع التي سبق لها شراء محركات وات قبل ١٨٠٠ ، والتي كانت تسعى لإحلال محركات جديدة محل القديمة أو الإضافة إليها إلى جانب المبيعات الأخرى غير الحكومية . واستمرت الأسعار خارج إنجلترا مرتفعة أيضا ، أى في نفس مستواها في سنوات ما قبل ١٨٠٠ . وفي ١٨٢٥ اتخذت صناعة محركات وات ومحركات الضغط العالي أسعارا تنافسية لمواجهة إنتاج فرنسا وبلجيكا وروسيا والمانييا والولايات المتحدة . وابتداء من هذا التاريخ ، انخفض طلب محركات وات .

وعندما ألف بولتون ووات شركتهما ، كان بولتون قد وطد مركزه بالفعل في تجارة اللعب ببرمنجهام زهاء أكثر من عشر سنوات ، وإبان هذه الحقبة ، استطاع إنشاء شبكة تسويقية قوامها بعض العملاء الذين يتقاضون اجرا نظير العمل طول الوقت ، وبعض العملاء المستغلين الذين يحاسبون بالقطعة ، وكانت سلع بولتون تباع في مختلف أنحاء أوروبا . ويزوده الوكلاء بمعلومات تفضيلية عن أحوال السوق ، والاتجاهات التي

يُحْتَمَلُ أَنْ تَنَالِ التَّكَلُّفَ ، وَالْتِقُونَ فِي « الْمُهَيَّجَةِ » ، وَمَا تَلْقَاهُ مُنْعَمَةٌ هَذَا
 مُنَافَسَةً مِنَ الْمَصْنَعِ الْبَرِيطَانِيَّةِ ، وَفِي مَصْنَعِ اللَّعِبِ خَارِجِ انْجَلْتْرَا ،
 وَتَمَازِلِ بُولْتُونِ هُوَ وَوُدْجُوودُ (*) فِي نَاحِيَةِ ادْرَاكِ أَهْمِيَةِ الْإِعْلَانِ وَسَبِيلِ
 اجْتِنَابِ الزِّيَافِئِ وَدَفْعِهِمْ إِلَى إِثَارِ مَنْتَجَاتِهِ . وَاسْتَفِيذِي فِي الدَّعَايَةِ بِتَأْثِيرِ
 مَخْتَلَفِ السَّلْعِ عَلَى أَفْرَادِ الْإِسْرَةِ الْمَالِكَةِ وَالنَّبْلَاءِ بِاعْتِبَارِهِمُ الْقُدُومَةَ الَّتِي
 اعْتَادَ الْمَجْتَمَعُ الْإِقْتِدَاءَ بِهَا . وَفِي عَالَمِ صِنَاعَاتِ السَّلْعِ الْإِسْتِهْلَاكِيَّةِ فِي
 الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ ، كَانَتِ الْمَصْنَعُ تَنْتَعِشُ وَتَرْتَقِي أَوْ تَسْتَمِرُّ فِي الْبِقَاءِ
 أَوْ تَنْهَارُ تَبَعًا لِاسْلُوبِهَا التَّسْوِيقِي . وَكَمَا بَيْنَ مَاكْكَندْرِيكِ وَرُوبِنْسُونِ ،
 فَانْ وَدْجُوودُ وَرُوبِنْسُونُ قَدْ أَدْرَكَ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ تَعْقِيدَاتِ أُسَالِيبِ تَسْوِيقِ
 السَّلْعِ ، وَرَفَعَا مِنْ مَسْتَوَى أُسَالِيبِ الْبَيْعِ بِالتَّبَعِيَّةِ ، وَمِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى ،
 لَمْ تَتَوَافَرِ لَوَاتُ أَيْةِ خَبْرَةٍ بِالتَّسْوِيقِ لَا دَاخِلَ انْجَلْتْرَا وَلَا خَارِجَهَا ، وَلَكِنْ
 بَيْنَمَا سَاهَمَ بُولْتُونُ إِسْهَامًا هَامًا فِي تِكْنُولُوجِيَةِ صِنَاعَةِ اللَّعِبِ ، فَانْ
 أَثْبَتَ مَهَارَتَهُ كَمِهْنَسِ انْتَاجِ ، عِنْدَمَا وَضَعَ مَخْطَطَ مَصْنَعِ سُوهُو بِلْ
 وَأَبْدَى اِهْتِمَامَهُ بِالْمَحْرُوكِ الْبِخَارِيِّ ، قَبْلَ أَنْ يَتَبَاخَثَ هُوَ وَوَاتُ فِي فِكْرَةِ
 الْإِشْتِرَاكِ مَعَهُ ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَمْلِكُ أَيْةَ خَبْرَةٍ فِي الصِّنَاعَةِ وَتَسْوِيقِ السَّلْعِ
 الْمَصْنُوعَةِ .

وَكَانَتِ اسْتِرَاطِيَّةُ التَّسْوِيقِ خَارِجَ انْجَلْتْرَا فِي بُوَاكِرِ عَهْدِهَا ،
 « لِبُولْتُونِ وَوَاتُ » مِنْ الْإِفْكَارِ الْمُهَيَّجَةِ لِبُولْتُونِ ، وَأُثْبِتَتْ بَعْضُ هَذِهِ
 الْإِسْتِرَاطِيَّجِيَّاتِ الْمُنْقُولَةَ عَنِ تَجَارِبِ تَسْوِيقِ اللَّعِبِ عِنَمَ مَنَاسِبَتِهَا ، إِذْ كَانَتِ
 فِرْصَةً خَلَقَ طَلِبَ لِلطَّاقَةِ الْبِخَارِيَّةِ أَقْلَ مِنْ فِرْصَةِ طَلِبِ السَّلْعِ الشَّامِعَةِ
 (كَاللَّعِبِ) . وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ ، فَانْ انْتَشَارَ سَلْعُ بُولْتُونِ وَوَاتُ فِي
 الدَّوَاثِرِ الْحُكُومِيَّةِ وَعِنْدَ النَّبْلَاءِ وَعَلِيَّةِ الْقَوْمِ دَاخِلَ انْجَلْتْرَا وَخَارِجَهَا ، قَدْ
 أَوْحَى بِاسْتِهْوَاءِ مَنْتَجَاتِهَا لِقَطَاعِ كَبِيرٍ مِنَ الزِّيَافِئِ مِمَّنْ يَتَأَثَّرُونَ بِنَاحِيَةِ
 الثَّمَنِ مَهْمَا ارْتَفَعَ ، وَيَضْمَعُونَ لَهُ أَوْلُويَةً مُتَأَخِّرَةً فِي مَشْتَرِيَاتِهِمْ ، وَفَضْلًا عَنِ
 ذَلِكَ ، فَقَدْ أَدْرَكَ بُولْتُونُ أَنَّ قِنَّةَ الزِّيَافِئِ الْمَشَارِ إِلَيْهَا أَنْفَا سَتَكُونُ أَكْثَرَ
 تَقْبَلًا لِلطَّلِبَاتِ الَّتِي تَرَاعَى فِيهَا نَاحِيَةُ حِمَايَةِ الْاِقْتِصَادِ الْقَوْمِي ، وَالتَّجَاوُبِ
 مَعَهَا .

(١)

أَنْشِئَتْ شَرِكَةُ بُولْتُونِ وَوَاتُ الْإِسْتِمَاوِيَّةَ بِأَمْتِيَاظِ بَرِيطَانِي . وَلَقَدْ
 صِيغَتْ حَقُوقُ « وَاتُ » بِمَنْتَهَى الدَّقَّةِ ، وَبِإِشْرَافِ السُّلْطَمَاتِ الْقَانُونِيَّةِ

(*) Josiah-Wedgewood (١٧٢٠ - ١٧٩٥) خَزَافِ بَرِيطَانِي مَشْهُورٌ وَصَاحِبُ
 مَخْتَلَعٍ مَا وَآلَتْ تَنْتِجُ الْفِضْلِ أَنْوَاعَ الْخَزَفِ فِي الْعَالَمِ حَتَّى الْآنَ .

الانجليزية . وبذلك اتخذت الصدارة في سياسة الشركة الداخلية ،
مسألة حماية منتجاتها . ولم تقدم أية مبررات لتعديل هذه السياسة في
عمليات التسويق خارج انجلترا ، وكانت المطالبة بشكل ما من حماية
الامتياز هي الرد الثابت في معظم الحالات على استفسارات العملاء المتوقعين
من خارج انجلترا ، لشراء المحركات خلال الحقبة بين سبعينيات القرن
الثامن عشر وثمانينياته .

وجرت أول مباحثات جادة لبيع المحركات في الخارج مع عملاء من
فرنسا . وأصر الشريكان على الحصول على رأى الخبراء والاستشاريين (*)
قبل التصديق على موافقتها على الطلبات . واستعان بولتون بالتقنيات
البرلمانية البريطانية المؤثرة والمجربة ، فقام بجس نبض المسئولين في
الحكومة ، وأحد الكونتات الفرنسيين وصاحب أحد المصارف الباريسية
وغيرهم . وساعدت على تدعيم القضية طبيعة الطلبات الفرنسية ، إذ كان
أحد العملاء من المنتمين للطبقة الارستقراطية ، وكان الآخر مفتشا في
المناجم . أما الطرف الثالث فكان شركة للانشاء مؤسسة حديثا لتزويد
باريس بالمياه . وصدر القرار الاستشاري في ابريل ١٧٧٨ . غير أن
تنفيذ الشروط تطلب اجراء تجربة لمحرك بولتون ووات على احدى المعدات
المستعملة في رصد احوال الجو ، اما في باريس أو في ضيعة الكونت في
تورمانديا . وعندما ألغى طلب الكونت دي هورنفليل ، حصل مفتش المناجم
جاري على تصريح باجراء التجربة في منجم الشمال(**) في بريثاني ، بدلا
من اجرائها في الضيعة . ووفق على القرار في أكتوبر ١٧٧٨ ، ومنح
جاري الحق الأوحد لبيع محركات وات وتركيبها ، بغير موافقة الشريك
(بولتون) في مقابل خدماته للحصول على حماية حقوق محركات وات في
فرنسا ، بعد الاتفاق على عدم تركيب أية محركات أخرى بغير موافقة
الشريك . غير أن اتفاق شركة بولتون ووات وجاري تعرض للانتهاك قبل
أن يحف مداده . . . عندما قبل الشريكان الانجليزيان طلبى توريد محركين
كبيرين للأشغال المائية في باريس ، وقيل في تبرير هذا العمل انه
سيساعد على الدعاية « للمحرك » .

وجاء الرد على القرار بالاستعداد لقبول أدنى عرض . وخلال السنوات
الثلاث التالية ، ظهرت بعض امارات الاهتمام . ولكن بولتون ووات لم
يتلقيا بعد ذلك أية طلبات من فرنسا ، وخشية احتمال حصول المهندسين
الفرنسيين على طلبات لاحقة للمحرك البخارى ، استشار الشريكان

Arrêt de conseil.
Minè du Nord.

(*)
(**)

جينييه (*) ، وعملا على تأكيد القرار استنادا الى براءة الامتياز . وارسلت مذكرة الى «جينييه» في فرساي ، تحمل تبرير بولتون ووات لمطلبيهما اعتمادا على خبرتهما كمهندسين ، لانهما يتصوران انهما اقدر على المساعدة في تحقيق ما تريده السلطات الفرنسية في مسعاها لتدعيم الصناعات والاشغال العامة . وجاء رد جينييه مشجعا في يوليو ١٧٨٣ ، وفيه يؤكد : انه قد فوض « للتأكيد لكم بالحصول على اكبر قدر من الحماية في وزارتنا عندما تحتاجون اليها » (**). ولكن بعد زيارة بولتون ووات لفرنسا ١٧٨٦ ، توقفت الاستجابة للمطالب مرة اخرى ولم يلتفت اليها .

ولم يحل سوء استجابة اسواق فرنسا ، دون قيام بولتون ووات بمحاولات اخرى للحصول على امتيازات في اسواق اخرى خارج انجلترا ، ولقد استحوذت فكرة وجوب الحصول على الحماية على امخاخم حتى تصورها الموظفون في سوهو (مقر الشركة) كسياسة لا تتزعزع . وعندما فعلوا ذلك كادوا يفقدون عميلا روسيا ذا مكانة مرموقة . وعندما أقدم فان ليندر من روتردام على محاولة للتعاقد مع بولتون ووات ١٧٨٣ ، استشار بولتون شريكه وات متناسيا روح الزمالة في المعاملات : « اعتقد ان افضل رد يمكن الاجابة به هو ان تخطره اننا غير متلهفين على شرف الحصول على ميداليات ذهبية او على ذبوع صيتنا في الجمعيات الفلسفية . اننا لن نكتفي بمجرد الدرشة ، ولكننا سنقدم على تنفيذ شيء فعلي . شريطة حصولنا على امتياز قاطع في طول البلاد وعرضها ، ، وبدأت المفاوضات في ١٧٨٥ مع فان ليندر للحصول على امتياز باسم الجمعية البافارية لصالح بولتون ووات . ومنح الامتياز لمدة خمس عشرة سنة في يناير ١٧٨٦ .

وكان ما ساعد على منح الشريكين امتياز الحماية خارج انجلترا هو اتصالات بولتون الدولية التي وثقت صلته بعملاء المصنوعات المعدنية والتجار ، واللقاءات الاجتماعية التي جرت أثناء زيارته لأوروبا . وساعد على ذلك ايضا وجود معجبين « بوات » من أعضاء الجمعيات العلمية الدولية والعلماء والفلاسفة ممن لم تفهم الحدود الدولية الى التعصب ضد أي شخص غريب عنهم ، فمثلا قام ماجيلان ، الى جانب نهوضه بدور الوسيط بين بولتون ووات من جهة ، وهرونفيل وجينييه من جهة اخرى في المباحثات الفرنسية بالدعاية لهما في البلدان الواطنة الخاضعة للحكم النمسوي . وحاول الحصول على طلب حكومي لتوريد محركات ، وسأل

Genet.

(*)

Je crois être autorisé à vous assurer que vous trouverez la (**) protection la plus signalée dans note Ministère lorsque vous en aurez besoin.

«الشريكتين» : « هل ما زلتما في حاجة الى امتياز احتكاري في هذا البلد ؟ » ،
 ولكن لا شيء قد تحقق من ناحية المطلب أو الامتياز . وبعد أربع سنوات ،
 بدأت المفاوضات للحصول على امتياز في اسبانيا . وكما حدث في فرنسا
 مع جارى ، فان مانح الامتياز والعميل الأول دون باسكوالى منسا اى
 مارش (*) قد كوفىء باعطائه امتياز احتكاريا لبيع محركات بولتون
 ووات . ولكن بينما ساد الكثير من الاهتمام بمحركات وات على المستوى
 الحكومى فى فرنسا ، فاننا نرى « منسا » يخشى من عدم الاكتراث فى
 اسبانيا : « لأنه فى الوقت الحاضر مازال لا يوجد أحد يعرف أهمية
 محركاتكما أو فائدتها ٠٠٠ » وفى التو ، أرسل بولتون مذكرة الى ملك
 اسبانيا شرح فيها موضوعه طالبا منح الامتياز لمدة عشرين سنة ١٧٩٠ .
 والزمتم شروط توريد المحركات لاسبانيا بولتون ووات بتوريد
 المحركات بأسعار محددة متفق عليها ، وتقديم النصيحة حول طريقة
 استعمال القوى البخارية ، والتزويد برسومات للتوربينات وتقديم عمال
 ميكانيكيين وشحن البضائع . ووافق الوكيل المعتمد على عدم صنع
 محركات أو شرائها من أى مورد آخر . ورئى أن يتحمل الوكيل ما تستطيع
 السوق الاسبانية تحمله ، ولكن قبل أن تتم الاتفاقية ، تلقى بولتون ووات
 طلبا مستقلا بتوريد محرك آلة نشر للخشب من اسبانيا . وثار جدل
 طويل لأن الحجم المطلوب يتجاوز بكثير الأحجام المنصوص عليها فى
 التعريف الاسبانية ، ولعدم التصديق على اتفاقية احتكار الوكالة لاستيراد
 المحركات ، ووافق بولتون ووات على هذا المحرك ، مثلما حدث فى حالة
 الأشغال المائية فى باريس .

ودارت المفاوضات أيضا فى النمسا مع صاحب الامتياز الاحتكاري
 لانشاء محركات بخارية فى الامبراطورية النمساوية (***) . وأشار بولتون
 ووات ببقاء الامتياز باسم كمبلين ، وبتزويدهما المحركات البخارية وفقا
 للتعريف الثابتة . وعلى الرغم من احتمال حصول بولتون ووات على بعض
 المميزات - وان كان هذا لم يكن مؤكدا بأى حال - الا أن الأرباح التى
 كان من المنتظر أن يحققها فون كمبلين كانت ضئيلة ، وكما حدث فى
 حالة الامتيازات التى اقترحت فى وقت أبكر فى بروسيا - وعلى ما يحتمل
 فى ايطاليا - فان الاتفاق لم يتم .

وحاول بعض الرواد الأوائل للقوى البخارية فى الولايات المتحدة
 الحصول على شكل ما من حماية الدولة ، أو الحماية القومية لمصالحهم .

Mensa y March.
 W. Von Kempelin.

(*)
 (**).

ففي ١٧٨٨ ، أجرى جيمس رامزاي مشاورات هو وبولتون ووات قبيل تقممه بطلب للحصول على امتياز في الولايات المتحدة . وتمركزت الشروط موضع البحث على عبارة تنص على الاقتصار على توريد بولتون ووات المحركات لرامزاي ، وأن يعمل على الجبلولة دون اقدم أى شخص آخر على صنع محركات في الولايات المتحدة ، وجرت محاولة للوصول على امتياز في الولايات المتحدة ، يشترك فيها بالاسم كل من بولتون ووات ورامزاي . على أن يدفع الطرف الأول ثلثي الثمن ، وتقسّم الأرباح بالتساوي ، ويحصل رامزاي على الثلث الى جانب جميع الأرباح المكتسبة من محركات السفن البحرية . غير أن رامزاي اعتبر الشروط المقترحة مقيدة الى أبعد حد ، واعتقد أن الأسعار التي يطالب بها بولتون ووات مبالغ فيها . ولم يتحقق أى اتفاق .

ولم يتصف أى امتياز أو اتفاق بالارغام ، من الناحية العملية ، كما كانت الشروط الأمريكية للاتفاق غير قابلة للتنفيذ . وكان بالمقدور للمحاجة بالقول بأن الحماية التي يطالب بها بولتون ووات بعيدة عن الواقع الى حد كبير ، ولن يستطيع اكسابها الفاعلية الا في جو تسوده الثقة المتبادلة ، وتعرضت هذه الحالة لصعوبات جمة داخل السوق الداخلية ناهيك عن امكان تقبلها خارج انجلترا ، وكما لاحظ بولتون فيما يتعلق بالاتفاقية النمسوية المقترحة : « عندما يتخذ شخص ما شريكا ، فانه يظن أن في مقدوره جره الى التهلكة ، ومن ثم فيالاستطاعة تشبيه مثل هذه الشركة بعملية الزواج ، من حيث تعرضها للخطر » .

ويكمن وراء المطالبة بالحماية في الأسواق الأجنبية افتراض احتمال أن لا تكون المبيعات خارج البلاد مجزية . وعقب بولتون فيما يتعلق بصفحة المحركات البخارية الأسبانية بأنه يحتاج الى امتياز أو مكافأة تقدر بزيادة ألف جنيه على كل محرك . ولا بد أن الشريكين كانا يأملان من وراء الامتياز الحصول على المزيد من الطلبات . غير أن هذا التصور قد اتضح أنه تفاؤل لا يستند الى أى أساس . فلم يتلق بولتون ووات الا القليل من الطلبات بعد الاتفاق الفرنسي . وسرعان ما قامت المصانع المحلية للمحركات بسرقة اسرار اختراعهما . ومع هذا فقد جدا في السعي للحصول على الحماية في الأسواق الأجنبية الأخرى حتى ١٧٩٠ . وقبما بعد تأكد عدم جدوى حماية محركهما في الخارج ، بعد الصعوبات التي تعرضوا لها في سبيل حماية اختراعهما حتى في انجلترا ، وهكذا سرعان ما وهن اهتمامهما بالامتياز الأجنبي .

ولقد حصل بولتون ووات على شكل ما من الحماية (*) في ثلاثة بلدان خارج إنجلترا (فرنسا وأسبانيا والبلدان الواطنة) ، ودارت مباحثات حول الشروط في أربعة بلدان أخرى (بروسيا والبلدان الواطنة الخاضعة للنمسا والولايات المتحدة وإيطاليا فيما يحتمل) ولم تكن الحماية ، حتى عندما تحققت ، جامعة مانعة ، وشرعت المصانع في إنتاج محركات عن طريق القرصنة في فرنسا دون أن يعترض أحد سبيلها .

وإذا رئي أن الهدف الأول كان ضمان التسويق خارج إنجلترا ، سيصح القول أنه قد تحقق باخفاق السياسة المتبعة ، لأن عائدها لم يزد عن طلبات قليلة أثناء فترة الامتياز . وحقق قبول بولتون لطلب كبير من كل من فرنسا وأسبانيا ، مع تخطي وكالات المبيعات التي حددتها سوهمو في هذه البلدان أرباحا في المدى القصير ، ولكنه لم يحقق أى ربح للوكلاء يدفعهم الى السعى للتقدم بطلبات أخرى ، ويتساوى هذا الفعل هو والاعتراف بعدم توقع أن يحقق احتكار حقوق البيع أى تعزيز لمصالح بولتون ووات خارج إنجلترا ، وأنه قد قدم كمجرد مكافأة على الامتياز . غير أن بولتون ووات لم يتكيدا أى نفقات لتحقيق الحماية خارج إنجلترا ، ومن ثم فإنهما لم يخسرا أى شيء في محاولتهما الحصول على احتكارات ، ومن المؤكد أن سعيهما للحصول على الامتياز قد ساعد على نشر الدعاية لمحركات وات ، وإذا نظر إليها على هذا الوجه سيكون من الميسور اعتبار مفاوضات الامتيازات شكلا ملهما من أعمال الدعاية والاعلان .

(٢)

زهاء عشر سنوات من المشاركة بين بولتون ووات ، كانت القوة الدافعة لوات وراء جانب كبير من السعى للبحث عن أسواق خارج إنجلترا ، وزيادة المبيعات ، وإن وجب علينا أيضا أن لا ننسى دور ممثلي المصالح الأخرى لبولتون . فلقد كلف القائمون بالأعمال الكتابية والوكلاء المتجولون من شركته الخاصة بالمصنوعات المعدنية والبيت التجارى ، بالنهوض بمهام خاصة بتسويق المحركات دون تقاضى أى أتعاب من شركة محركات « وات وبولتون » . فقام على سبيل المثال أحد الوكلاء أثناء زيارته لروسيا ١٧٧٧ بتوزيع بعض النشرات الدعائية لمحرك بولتون ووات فى البلاط الروسى . غير أنه أخطر « بعدم جدوى هذه الأشياء فى هذا البلد . . بالنظر الى أن أحد الأهداف وراء محرك توفير العمالة . . والعمال (فى روسيا) جميعا من العبيد ، ومن ثم تكون الميزة غير ذات موضوع . . وأعطيت لوكيل آخر كان يوشك على السفر الى ألمانيا والبلدان الواطنة

١٧٨٧ ، توجيهات مماثلة ، وقدم بعض المتصلين الآخرين بمالم التجارة
والسياسة خدماتهم لبولتون اعتمادا على دوافع وطنية ، فمثلا تطوع اللورد
ماكرتنى بالدعاية لمحركات بولتون في الصين ١٧٩٢ .

ومع هذا فقد استطاع بولتون ووات تحقيق أول مبيعات لهما خارج
انجلترا ١٧٨٦ ، ووجها جهودهما الى فرنسا ، باعتبارها سوقا واعمة
يافضل المغانم . وفي هذه المناسبة أيضا ، أدت المصالح التجارية الأخرى
لبولتون دورا هاما ، فعلى سبيل المثال فإنه كلف من قبل الحكومة الفرنسية
بالتوصية بإجراء تحسينات كبيرة في أحد مصانع اللعب الفرنسية (*) ،
وبذلك تحقق له الاتصال والاقتراب من الوزراء المهمين . ووفقا لما ذكره
وات ، فإن الوزارة الفرنسية « قد أبدت استعدادها لتكليفنا بمهام تتواءم
وما نهدف إليه هناك » . وبعد ذلك بقليل من الوقت بدأ بولتون محادثات
مقنعة مع وليم ولكنسون لانشاء مصنع للمحركات في فرنسا ، من خلال
تطوير إحدى منشآت المشغولات الحديدية ، واقترح جون باومجارتنر - وهو
تاجر من معارف بولتون - أن ينشئ الشركان وكالة للمحركات ببارسيليا ،
سيبتسنى لها تحقيق الأرباح .٠ الا أن الثورة الفرنسية اندلعت وعطلت
المشروع ، وبعد بضعة سنوات ، أعاد بولتون توجيه اهتمامه بروسيا .
عن طريق أحد ممثل بيته التجارى ، وكما حدث من قبل ، ولعل الدافع
الذى شجعه على اجراء هذه الصفقة الثانية من المبيعات الروسية هو
المبادرة المشجعة التى ظهرت فى طلب الحكومة الروسية آلات لصك
النقود ، بالإضافة الى « أنهم عندما يسمعون عن أى شيء جديد ولطيف
فأنهم يهللون له ، ويصرون على الحصول عليه » ، وهنا - كما يبدو -
ربما تماثلت اجراءات تسويق السلع الرأسمالية هى واحوال سوق السلع
الاستهلاكية ، التى يتمتع بولتون بخبرة كبيرة بها .

وكان وكر العميل المسئول لبولتون للبحث عن توكيلات فى روسيا
شديد الاعتقاد « بأن الافتقار الى الدراية بالمسائل الميكانيكية ، سيصعب
النجاح فى أية بقعة من بقاع العالم فى تعريف أى مستفسر سعر المحرك
البخارى وحجمه المناسب بالدقة المطلوبة ، حتى يتسنى له النهوض بمهمته
المكلف بها » . وأدرك أن مهمته تتلخص فيما يأتى : « تحديد أساس عام
دائم وثابت يعتمد عليه مستقبلا فى المعاملات ، بغض النظر عن التوكيلات
العرضية التى تحدث عن طريق المصادفة ، وبذلك تنهيا السبل السليمة
التى لا تخطئ » ، والتى يتيسر الباعها فى جميع الأوقات للحصول على
التوكيلات التى تستحق القبول دون تكبد أى مصروفات لانجازها .

والحروب النابوليونية وما جرته في ذيلها من أخطار : « ان القادرين على تركيب (المحركات) نأدرون ، حتى أصبحنا مرغبين على أن نكون خدما لهم بدلا من أن نكون أسبادا . وعلينا أن نساير نزواتهم ورغباتهم مهما بدا فيها من جوانب مستهجنة » . وعندما بحث بولتون ووات : « هل سيتحمل الرجل الذى ينون ايفاده الى اسبانيا (١٧٩١) مخاطر سوء المعاملة أثناء رحلته ، تلقيا تأكيدا بأن الأمر سيكون عكس ذلك ، لأنه سيتلقى رعاية كاملة » . ووصف وات أحد الميكانيكيين « بأنه خادم أمين » ولما وصل هذا الميكانيكى الى ايطاليا « عومل معاملة عظماء الرجال ، وكانوا يطمرونه بالعلوات لاغرائه على الاستمرار فى البقاء هناك » .

وحاول بولتون ووات الحيلولة دون قيام العملاء الانجليز بتقديم عطاءات للميكانيكيين التابعين لهم ، فأدخلوا نظام التعاقد لمدة ثلاث سنوات لمعظم من يتولون تركيب المحركات البخارية . غير أن السوق خارج انجلترا كشفت بعض مشكلات ذات طابع خاص . اذ ظهر أنه من المتعذر تتبع خطوات الميكانيكيين الهاربين ، ناهيك بإمكان استعادتهم . وربما دوع تركيب أى محرك بخارى فى مكان قصى الميكانيكى الى البقاء مدة أطول من ثلاث سنونات ، وكانت الأجور التى تقدم للميكانيكيين المصاحبين للمحركات البخارية فى الخارج تفوق بوجه عام أجورهم فى بريطانيا . وبالإضافة الى ذلك ، فقد جرت العادة على توقع اهداء الميكانيكى «هدية لطيفة» بعد اكتمال المهمة بنجاح ، وكان الأجر الأعلى هو الاغراء الأواحد للعمل فى الخارج عند بعض الفنيين المتخصصين فى الطواحين والميكانيكيين . وأدرك آخرون أن المدة التى يحصل فيها العامل على أجر مضمون بحكم العقد ستيسر له الاتفاق على جملة تعاقدات أجنبية تساعده اما على الاستقلال بعمله الفنى فى اصلاح المعدات ، أو على الإعتداء الى وظيفة دائمة مناسبة ، تبشر بتحقيق تطلعاته ، واستوطن أحد الميكانيكيين من سوهو ايطاليا ، وأنشأ عدة مصانع هناك ، واشغلا أخرى ، قبل وفاته فى ظروف غامضة قبل الغزو الفرنسى لايطاليا بقليل ، وتولى آخر عملية تركيب محرك بخارى فى البلدان الواطئة ١٧٩٣ ، ثم اختفى بعد ذلك . ولما أخفقت محاولات تتبع آثاره ، سلم وات باحتمال ذهابه لاسبانيا « لعل ما يؤيد هذا الراى اعرابه الدائم عن الرغبة فى العمل خارج انجلترا ، حتى يعيش بعيدا عن زوجته ، التى كانت تقدم أحيانا على بعض التصرفات العنيفة بحكم تعلقها الشديد به ! » . وذكر فيما بعد أنه شوهد فى أمستردام يعمل فى شركة يملكها أحد الأمريكان . وفى أواخر تسعينيات القرن الثامن عشر ، حل بالولايات المتحدة ، وعمل بمكتب نكولاس . أ ، روزفلت للأعمال الهندسية ، وفى ١٨٠٠ كان مقدور روزفلت الزعم « بأنه لا يفتقر الى الفنانين القادرين على تركيب المحركات طبقا لأفضل المخططات تصميما

التي وضعها السيدان بولتون ووات ، لأننا لسنا مدينين لكما فقط بقدرتنا على استخدام امتيازكما وفق مشيئتنا ، ولكننا مدينون بالفضل أيضا للمهندسين الذين قاموا بتنفيذها ، وأغلب الظن أنهم أدخلوا تحسينات على هذه المخططات » .

وبعد أن تكررت أحداث عدم رجوع الميكانيكيين الى سوهو ، نزع بولتون ووات الى الارتياح في ارتغاب قبول الطلبات من العملاء خارج انجلترا ممن يحتاجون الى ميكانيكيين لمرافقة المحرك ، اللهم الا اذا ظهرت بشائر تدل على اقتراب التعاقد على صفقات أخرى . ففي ١٧٩٣ ، مثلا ، رفض طلب اجنبي كان مقدما من قبيل اختبار النوايا : « لصعوبة توقع ايفاد عامل لتركيبه ، وغير ذلك من المشاق ذات الأهمية البسيطة » ، وليس من شك أن هذا السبب بالذات كان وراء الموافقة على تلبية ثلاثة طلبات بتوريد محركات للمجر والنمسا بعد أن أقر شرط عدم المطالبة بإيفاد ميكانيكيين لمرافقة المحركات ، فكما أوضح بولتون لأحد العملاء الفيناويين : « يسعدنا أن نزودكم بالمحركات .. أما فيما يتعلق بالتعهد بإيفاد أشخاص لتعريف الآخرين كيفية تركيب محرك واحد فقط في مثل هذه البقعة القصية ، فانه سيكون من ناحيتنا ضربا من الحماقة البالغة » .

وفيما بعد ، وكلما سمحت الظروف ، كان بولتون ووات يرشحان أحد الخبراء أو الميكانيكيين للعميل الاجنبي المميز في حالة تلقى أى مطلب جاد ، مع توقع احتمال استمرار بقاء الشخص في الخارج . وعندما قدم أحد العملاء خارج انجلترا طلبا لصفقة انجليزية تضم الى جانب المحرك مصنوعات من تشغيل دار أخرى للصناعة ، استطاع بولتون ووات أحيانا تحويل مسئولية العثور على الميكانيكي المناسب الى إحدى الشركات المشتغلة بتدريب العمال الميكانيكيين المهرة . فمثلا سافر صمويل جراي - وكان من العاملين الميكانيكيين السابقين للآلات عند « ريني » - الى البرازيل للإشراف على تركيب آلة صك نقود وآلات أخرى هناك .

ومن حيث المبدأ ، فهناك احتمال تأثر موقف أى ميكانيكي للآلات ينوى السفر للخارج بالتشريعات التي تحرم خروج العمال المهرة والأدوات والمعدات . وعلى الرغم من أن التشريع لم يحظر تصدير المحركات البخارية - بصفة خاصة - الا أن هذا اللبس في تفسير التشريع قد زاد من عدم اطمئنان صناع الآلات لموقفهم ، فمثلا سعى بنجامين هانتسان للحصول على تصيحة بولتون ١٧٨٩ : « أرجوك أن تفيدني هل يبإح تصدير المحركات البخارية ؟ أرجوك لأنني مطالب بتوريد أحد هذه المحركات » . وفي ١٧٩٢ ، عندما طلب منهما الرأي أجايا بأنهما يعتبران إيفاد أحد الميكانيكيين الى الخارج لتركيب آلة مصنوعة في انجلترا شيئا ، وإيفاد

ميكانيكى لتصنيع منتجات انجليزية فى الخارج شيئا آخر • ودار جدل بين الطرفين مؤداه أن أهمية الميكانيكى ترجع الى أنه اذا صدر أمر بتحريم مغادرة المشتغلين بتركيب الآلات فى انجلترا ، فإن هذا سيكون مساويا لحظر تصدير المحركات البخارية من صنع بولتون ووات ، وما يستخلص من رأى بولتون ووات هو وجوب ترك الامر لهما لاختيار القرار الأصوب ، بعد مراجعة مزايا كل حالة من الحالات ، ومن ثم ففى ذات السنة اعتذر بولتون ووات عن ايفاد أحد الميكانيكيين الى أسبانيا لتركيب آلة ذات محرك لنشر الخشب (وقاما بدلا من ذلك باقناع أحد العاملين الميكانيكيين السابقين - وكان آنئذ فى ايطاليا - بتركيبها) ، وصدرا مطحنة غلال وبعض الآلات الى نانت بفرنسا ، كما أوفدا العمال الميكانيكيين اللازمين لتركيب هذه الآلات •• وقدم العملاء الفرنسيون طلبسا لتوريد ثلاثة محركات أثناء بلوغ الحرب الأمريكية للاستقلال ذروتها ، غير أن بولتون بعد تقديمه جملة التماسات وقيامه ببعض الضغوط الشخصية على أعضاء المجلس الخاص ، استطاع الحصول على جوازات سفر لتصدير السلع ، وحصل أيضا على تصريح برفع الحظر المفروض على السفن التى ستقوم بشحن هذه السلع • ولاحظ جون ولكنسون - وهو صاحب مصنع للحديد : « ان بمقدور المستر بولتون الاضطلاع بمهام فى مثل هذه الحالات تفوق المهام التى ينهض بها فارسان فى الآيالة » (*) ، ورغم كل هذا فقد أمر مفتشو الجمارك ايقاف تصدير المحرك (**). وفى حوارهما أثناء هذه المداولات تدخلت قوة خفية من الدوافع الوطنية فحجبت الصالح الشخصى • وفى مثل آخر ، اشترت شركة المياه فى باريس محركا واحدا ، بالإضافة الى قطع غيار لمحرك آخر ، وبعض أدوات التركيب من الصلب ، بدلا من شراء محركين كاملين • وتبين مدى دراية بولتون ووات من عدم شرعية هذا الاجراء من تصميمهما على وصف الأدوات « بقطع غيار للمحرك » ، وأثناء تفاوض بولتون من أجل التعاقد لتوريد آلة لصك النقود الى سان بطرسبورج فى روسيا ، صدر اليها نموذجا لهذه الآلة ، وزيادة فى الاحتياط والحذر ، التمس من ايفان سمرنوف التأكد من عدم وجود عقبات تحول دون اتمام عملية الشحن ، وحذره من عدم التوجه الى الجمارك بشخصه حتى لا يثير الشبهات • وعندما قبلت الطلبات بصفة نهائية ، تم الحصول على قرارات شخصية لتصدير آلات صك النقود الروسية والداىمركية ، بالرغم من وجود معارضة شديدة لذلك ، وليس من شك

Shire.

(*)

"by a proper dose of the golden power the eye sight had been cleared. ✕✕".

« لو أمكن قطر العين القطرات المناسبة ذات المفعول الصحيح ، سينتسى لنا ازالة الغشاوة من العين » •

أنه من المتعذر وصف هذه الناحية من السياسة التسويقية لبولتون ووات بأنها خالية من التناقض ، فيما عدا عدم سماحها أطلاقاً بعملولة التشريعات دون اقدمهما على تصدير التماذج والمحركات (وفتينين لتركيبها) بل وادعموا في مناسبات خاصة على تصدير مصانع كاملة .

وبدت المفارقة أوضح في نظرة وات الى زوار سوهو من البلدان خارج إنجلترا . وربما رجعت حيرتهم الى ادراكهم قيمة الجانب الترفيهي في تقنية المبيعات . وربما رجعت أيضا الى حساسيتهم المفرطة من الاشتباه في عمليات التجسس الصناعي . ومن المحتمل أن لا تكون النية قد توافرت لبعض الزوار لشراء محرك بولتون ووات . وبينما اتخذت عملية التجسس الصناعي داخل إنجلترا بين الفينة والأخرى طابعا مثيرا للضحك والسخرية ، الا أن بعض المؤامرات المتعددة الألوان لجواسيس الصناعة من البلدان خارج إنجلترا قد اقترنت من الهزليات ، كتنكر الجواسيس في شخصيات أخرى أو تسميهم بأسماء مختلفة ، وحذر جورج ورنست وولف «بولتون ووات» ١٧٨٧ من دانوركي ذي ملامح شاحبة دائم النظر الى الأرض ، ويتمايل في مشيته ، ومن رفقاته بولاندي اتخذ اسما مستعارا (*) . وحتى بعد اقبال الورش الهندسية في سوهو ، فانه كان من المتعذر الجيلولة دون مشاهدة زوار البلدان الأجنبية محركات بولتون ووات أثناء تشغيلها في أماكن أخرى . وليس من شك أن الضرورة قد اقتضت تشجيع مثل هذه الأعمال . وحصل البارون شتاين على ما يريد من معلومات عن معمل للتخدير « بركلاي وبركينز » بعد أن دفع رشوة لأحد الميكانيكيين . وبعد وقوع هذا الحادث ، التمس الشريكان النصيح من السير جوزيف بانكس ، الذيلقى عظة جاء فيها : « عليكم أن لا تأتمنوا أجنبيا . فانا لا اعتقد أن احدا منهم سيعجز عن محاولة سرقة المخترعات » .

أما الى أي حد أثبتت الجاسوسية الصناعية فاعليتها عند البلدان التي قادت النهضة الصناعية فمسألة تستاهل النقاش ، فلقد حاول بالكلنج صنع محرك على غرار محرك بولتون ووات ، ولكنه لم يثبت فاعليته على النحو المرغوب . واضطر الى العودة الى إنجلترا حتى يزداد استنارة . وتزيد هذه الواقعة اصرار بولتون على ضرورة الاستعانة بالعمال الميكانيكيين الانجليز لاصلاح المحرك المصدر ، لاتساع الفجوة التقنية بين الصادرات الانجليزية وطريقة استعمال البلدان المستوردة لها . على أن الميكانيكيين أو المهندسين عندما اضطلموا بدور الجواسيس فان النتيجة جاءت غالبا مثمرة . وعلى الرغم من استبعاد احتمال السماح لهؤلاء الأغراب بزيارة

داري الشريكين ، وافتقارهم الى اتقان اللغة المعسولة او الالتاب الحقيقية أو المنتحلة ، الا أن ملاحظاتهم كانت فى أغلب الظن أشد فاعلية ونفاذاً ، وحاول أول عميلين لبولتون ووات الحصول على معلومات عن محركات وات عن طريق القرصنة . واشترى الاثنان فى نهاية المطاف محركات من سوهو بتسهيلات وتخفيضات كثيرة فاقت ما حدث فى صفقات العملاء الذين جاءوا فيما بعد ، ولم يوفق الميكانيكيون فى تركيب هذه المحركات . ولا يرجع ذلك الى اشتعال الحرب بين بريطانيا وفرنسا . فلقد أصر العميلان على عدم حاجتهما الى مساعدة أى ميكانيكيين . وعندما ظهرت بوادر سفر بعضهم الى باريس برفقة آلات الأشغال المائية ، اعترض المهندس المسئول برييه متذرعاً بأن هذا الاجراء سيسبب احراجاً له فى فرنسا ، وأرسلت لوحات التصميم والأدوات برفقة الآلات عوضاً عن ذلك ، وهكذا تيسر صنع محركات وات فى فرنسا ، وكانت هذه النتيجة هى الغاية التى سعى اليها بلا شك برييه .

(٤)

وهناك مؤثر هام له تأثير أبعد لآليات اجتذاب الزبائن فى الأسواق خارج انجلترا . انه جانب اسدءاء النصح فى مسائل هندسة الانتاج . واذا استثنينا بعض المرموقين مثل فان ليندن من البلدان الواطنة وروبرت فالتون فى الولايات المتحدة ، سنرى أن عملاء بولتون ووات خارج انجلترا كانوا أقل دراية بالمسائل الميكانيكية من أقرانهم البريطانيين . وحتى فى منشأة مثل مطحنة الغلال فى نانت حيث عهد بالمسئولية الى مهندس فرنسى قدير ، فان بولتون ووات كانا من الثقات التى يوثق برأيها فى الخدمات الهندسية الانتاجية ، وكثيراً ما أسديا النصح فى مرحلة وضع التصميمات . وفضلاً عن ذلك ، فان الاتصالات بين بولتون ووات وبين جون رينى (وهو من الموظفين السابقين) وأيضاً مسبك م . بولتون وشركاه قد يسرت للشريكين التزويد بشحنة كاملة للعملاء خارج انجلترا بالمعدات الموصى عليها والمجهزة تجهيزاً خاصاً ، بالإضافة الى بعض المصانع الصغيرة والآلات من حين لآخر .

وكانت المشورة فى المسائل الهندسية الانتاجية لبولتون ووات مطلوبة بقدر كبير فى مسائل تشغيل القوى البخارية فى صناعتين : طحن الغلال والسباكة ، وكان لكل من بولتون ووات خبرة عملية فى احدى الصناعتين ، وساعدت التجربة المكتسبة من المطاحن التجريبية فى مصنع سوهو ، وفيما بعد من مطحنة البيون التى تدار بالبخار بلندن على اعتبار بولتون ووات من الثقات فى مسائل تكنولوجيا المطاحن والادارة ، وان كانت مطحنة البيون قد طرحت مشكلات فى الناحية التقنية والناحية

الإدارية لم تصادف في التجربة الأضيق نطاقا التي تمت في سوهو •
 وطالب ما يقارب ثلثي العملاء المتوقعين للمحركات البخارية في صناعة
 المطاحن بمعلومات تفصيلية عن انتاجية محركات المطاحن وتصميمات
 المصانع ، ومخططات الأبنية ، وان كان لم يظهر في أية حالة من الحالات
 تمتع المدير المسئول بما هو أكثر من الخبرة الهينة بطحن الغلال ! ويصح
 القول بأن مطحنة اليون قد حققت نتيجة اعلامية قوية ، وعمل بولتون
 ووات في خمسة مشروعات من سبعة أجريت في ميدان طحن الغلال
 باستعمال المحركات البخارية كهندسين استشاريين للاتناج ، وفي حالتين
 (في طاحونتي نانت بفرنسا وقادس بأسبانيا) تضمنت الاستشارة
 مسائل الحزم والرزم وطريقة ادارة المصنع وتشغيل الآلات المستوردة
 من ريني • وعندما بحث فكرة انشاء مطحنة بخارية دانمركية ١٧٩٤ ،
 طلب من بولتون ووات النهوض بكل ما يتعلق بهذه المطحنة ماعدا مسئولية
 انشاء المبنى • وبعد ان التهمت النيران مطحنة البيون ودمرتها قدم وات
 النصح للمسئولين في نانت عن طريقة الوقاية من النيران •

وثناء الحقبة التي شعر فيها الشريكان بالغبطة لما أنجزاه في مطحنة
 البيون ، لم يقتصر الأمر على اسداء النصح للعملاء المتوقعين للآلات في
 مسائل الانتاج والهندسة الميكانيكية للطواحين المدارة بالبخار ، فقد سعى
 هؤلاء العملاء للتعرف على أسعار المستحدثات في طواحين الغلال . وقبل أن
 يشتهر بولتون ووات ، ويصابا بحالة انهيار ، بدت أسعارهما متواضعة ،
 وأرباحهما مشجعة • وفي ١٧٨٥ ، اشترك وات في مباحثات خاصة
 بمشروع لاستعمال القوة البخارية في طحن الغلال في ليون ، ووضع
 مخططا اشتمل على بيان تفصيلي بالتكاليف الثابتة والسنوية لطاحونة
 تضم ستة أزواج من حجر الرحي تعمل بلا انقطاع (يحتمل أن يكون
 مجموعها ثمانية أزواج) لطحن ٧٢٠ بوشيل من الدقيق يوميا ، ولم
 يرسل هذه المقايسة ، وقيل انها تحتوي على تفاصيل أكثر من اللازم ،
 وعدلت صورتها المختصرة فيما بعد لتخفيض تكاليف الفحم الى ٩٩٩ جنبها
 انجليزيا ، وبذلك انخفضت التكاليف السنوية الى ٣٨٧ جنبها وأربعة
 بنسات • وازدادت مزايا عملية الطحن بالقوة البخارية بعد أن بلغ ثمن
 الحوالة خمسة شلنات وخمسة بنسات •

وحوالى ١٧٨٩ أجريت مقايسة تفصيلية أخرى لتكاليف انشاء معدة
 لاطفاء الحرائق ، وتناظرها مطحنة لطحن الدقيق على أن تكون عمليات
 الانشاء والتشطيب والاقامة في مقاطعة أندلسيا في أسبانيا • وتجهز
 المطحنة بحيث تتمكن من طحن ١٢١٠ بوشيل يوميا • ولكي يتعرف
 الأسبان على مزايا المصنع الذي يدار بالبخار عقد بولتون ووات مقارنة بينه

وبين ما تتكبد المصانع المدارة بالبالغ (*) من نفقات لانتاج مقدار مماثل من الطحين ، ولكن وبعد أن تزايد وضوح الخسارة المترتبة على مخاطرة بولتون ووات فى عالم الطحن فى لندن أصيبا باجباط دفعهما الى عدم التحمس لتقديم النصح والمشورة فى المسائل الخاصة بانشاء المصانع .

وأثبتت دار سك النقود والميداليات التى أنشأها ماتيو بولتون فى سوهو بعد سنوات قليلة من تشغيلها كفاءتها ودقتها فى سك النقود والميداليات التذكارية . ولمس هذه القدرة الملوك واصحاب المقام الرفيع من الارستقراط وأيضا أعضاء الحكومة والتجار فى البلدان الأجنبية . وأدركت قيمتها فى الدعاية . وبعد أن ذاع صيت بولتون كمخترع لآلة السك ، الى جانب تصميماته المبتكرة فى نظام الانتاج المتدفق فى المسابك ، أدى ذلك الى سعى الآخرين لطلب مشورته فى شئون هندسة الانتاج والهندسة الميكانيكية ، وقرابة انتهاء حياة بولتون ، خصص بعض وقته للاهتمام المتزايد بأعمال السبائك . وهكذا أثبتت الناحية الاستشارية الهندسية عنده فى جملتها انها أكثر واقعية من المشورة التى كان يقدمها بالاشتراك مع وات فى مسائل الطحن . وكان يتجنب الانزلاق الى الحديث عن الجوانب المالية فى السبائك التى لم تكن ذات أولوية كبرى عند عملائه من الأجانب على أى نحو ، وكان العملاء المميزون المحتلمون والعملاء الفعليون فى البلدان الأجنبية - من حكومات وملوك وتبلاء - يتحرون تحريات عامة ويقدمون الطلبات للحصول على ما يجرى فى عمليات السبك من بولتون مباشرة خلال مباحثاتهم لانشاء مشروع متكامل للسبائك ، واضطلع ماتيو وبولتون - ثم بعد ذلك ابنه - بمسئولية انتاج الآلات الهندسية والسبك على نفس النحو الذى اتبعه عنلما اشترك مع وات فى صناعة المحركات .

وساعدت قدرة بولتون على التخطيط وتحمل المسئولية لانشاء مسابك كاملة فى نجاح التباحث لانشاء محركات للسبك فى روسيا والدانمرك والبرازيل والهند :

« لا أزعم اننى مهندس ، ولكن خبرتى قد مكنتنى من تنظيم وتنسيق مسبك امبريالى عظيم . (ومن الضرورى) أن تنظم غرف دار السك على نحو يساعد على تدفق النقود الى الامام من غرفة لأخرى الى أن تتم تعبئتها وتقديمها للتداول ، وأن لا يتجه خط الانتاج مرة الى الامام وأخرى للوراء ، ولا بد أن أتقدم بالرجاء بعدم احداث أى تغيير فى أية غرفة من الغرف

التي يتوقع أن توضع فيها الآلات لتشغيلها ٠٠٠ لأن هناك وحدة لا تنفصم
الى حد ما بين تصميم البناء والآتى ...

وأردف قائلا : « لعل ارتياحي في الأولويات التي يضمها بعض
المعملاء تدفعني الى تفضيل البناء المتواضع المريح المنظم والمزود بالآلات حسنة
على البناء الذي يجمع بين الفخامة وعدم الصلاحية » .

وأدى استعداد بولتون ووات الواضح لاسداء النصح للمعملاء في
المسائل الهندسية الكبرى والمشكلات المالية الى اعتبارها من المصادر المبشرة
لرؤوس المال القابلة للتصدير ، وسعى كثيرون من المسئولين عن الادارة
الى اشراك الشريكين ماليا في المشروعات الصناعية خارج انجلترا ، من
خلال عروض الاسهام في السندات أو الاشتراك في المشروع ، فلقد طلب
من بولتون الاسهام المالى في مشروعات تصنيع الاسطوانات المعدنية
والشرائح المعدنية في روسيا ، وفي أحد المناجم بألمانيا ومطحنة بباريس ،
والمفاتيح النحاسية وسك النقود في باريس والتنجيم في الولايات المتحدة
وفي مشروعات مختلفة في المقاطعة الكندية (نونفا سكوتيا) وششارك
الشريكان بادوار منفصلة في مباحثات المشاركة ماليا في مشروعات
صناعية اجنبية (بولتون في مشروع الأخوين مانيرونز في باريس لانجاج
المفاتيح النحاسية وسك النقود - ووات في مشروع المطحنة البخارية في
ليون) غير أن جميع هذه المشروعات لم تحقق النجاح المنشود . وبوصفهما
شريكين فانهما اشتركا كحملة للاسهم في المشروعات المائتة بباريس ،
بالرغم من أن هذه المشاركة لم تحدث الا بعد أن تزايد ادراكهما عدم
احتمال حصولهما على ثمن فوري لمحركاتهما ، ولم يبد قبول بولتون ووات
للاسهام في شركة الأعمال المائتة في باريس في نظرهما عملا بعيدا عن
الوطنية ، أو لا يتواءم هو والاتجاه العدواني نحو المصالح البريطانية في
المصانع الأجنبية للمصنوعات المعدنية واللعب . كما أن بولتون بعد أن
تقيد بالاتباط في مشروع معترب لصنع اللعب ، لم يبالي بما ظهر من
تعارض بين استشاراته الهندسية في أعمال المسابك الفرنسية ،
وما يتقاضاه من عائد مالى : « اعتقد اننى منحت فرنسا اختراعى ٠٠ والى
جانب ذلك ، ساقدم كل عون ميسور لى لهذا البلد (فرنسا) لصالح
المشروع » . لقد كان بولتون رجل أعمال في المقام الأول ، وانجليزيا
في المقام الثانى .

(٥)

ظلت اسعار المحركات البخارية لبولتون ووات ثابتة بدرجة ملحوظة
في السوق الانجليزية في الحقبة الواقعة بين منتصف عشرينات القرن

الثامن عشر وعشرينات القرن التاسع عشر ، واستوعب أصحاب المصانع التقلبات في أسعار العمولة الى حد كبير . وعلى الرغم من أن جداول الأسعار لم تنشر قط ، إلا أن الأرقام التي استشهد بها عند التعامل والعملاء المتوقفين قد كانت قريبة من الأسعار داخل انجلترا المتفق عليها التي وضعت بمعرفة الشركة . ولم تكن هناك قوائم عامة بالأسعار للسوق الأجنبية ، وكانت اسبانيا هي البلد الوحيد التي قدمت قائمة بالتعريفية الحجرية ، وتمثل هذه القائمة ارتفاعاً ملحوظاً عن الأسعار الانجليزية ، التي سمحت لأصحاب المصانع بالحصول على ربح اضافي يتراوح بين ٢٠٪ و ٣٠٪ بالرغم من انكارها وتصلها من فرض أى مكاسب أو تأمينات . ولم يحدث أى التزام دقيق بالقائمة حتى في اسبانيا ، وان كانت أغلبية الأسعار التي استشهد بها ، ودفعت للأسواق الخارجية بين ١٧٩٠ و ١٨١٠ قد سمحت لنفسها بنفس نسبة التعريفية الإسبانية ، على أن هذا التحميل بالزيادة لم يؤثر على مبيعات المحركات البخارية ، لأن أسعار المحركات لم تتخذ ذريعة للانخفاق في تلبية الطلبات ، أو رفض أى طلب .

ان النسبة العالية من مشروعات الأشغال العامة الى جانب العملاء المرموقين وأوائل من تبنيوا المحرك لمشروعاتهم الخاصة والتي تمثل ٤٢٧٪ من العملاء الأجانب لبولتون ووات قد تفسر جزئياً أسباب تساهل المشترين في مسألة السعر ، وعندما اكتشف الباعون مجالاً يسمح لهم بالمانورة ، تحولت أسعار المحركات البخارية الى مسألة مرتبطة بما يستطيع السوق تحمله . فمثلاً دفع فلك نابلي مبلغ ألف جنيه مقابل مكونات المحرك ، بالإضافة الى ألف جنيه أخرى مقابل الخدمات والرسومات والربح عندما كان سعر المحرك ٧٧٨ جنيهاً ، واعتبر وات ما حدث ربحاً ضخماً بدون وجه حق ، وحذر بولتون الذي كان حينذاك منشغلاً بالتفاوض مع الكونت الفرنسي « لعقد أفضل صفقة بالمقدور انجازها وقال له : عليك أن تراعى انك لا تباع الآن اختراعاً لأحد الملوك ولكنك تصنع محركاً لأحد التجار » . وكانت آلات السبك التي اشترتها الحكومة الدانمركية أغلى بمقدار ٥٠٪ من الأسعار المدرجة في قائمة بولتون ووات ، البريطانية ، وكان المسئولون المليون في سوهو يتمتعون - كما يبدو - بقدر ما من الحرية في تحديد أسعار العملاء الأجانب ! وعقب وات (الابن) على ذلك بالقول بأنه اكتشف ان تقدير المسئول المالى لشركة خليج هدسون (١٨١١) كان باهظاً للغاية ، ولكنه تجاوز عن هذه المسألة ، وحصلوا على الصفقة . وعندما تقدمت الحكومة الهولندية ١٨٢٥ بطلب محركات بحرية (قوة ٧٠ حصاناً) حدد وات الابن مبلغ تسعة آلاف جنيه ثمناً لها ، ولاحظ : « أنهم كانوا مستعدين تماماً لدفع هذا الثمن . . . بالرغم

من أنه يتجاوز بكثير السعر الذي تعاقدنا عليه مع مكتب البريد بمبلغ سبعين شلنا . وأردف قائلا ان فاوسيت من ليفربول قد تعاقد هو واحد العملاء على توريد محركين بحريين (قوة ٧٥ حصانا) بمبلغ ٨٨٠٠ جنيه ، وكان بولتون ووات يتوقعان تحقيق ربح يتراوح بين ٧١٪ و ١١١٪ من بيع المحركات في الخارج ، بالمقارنة بالربح الذي يحصلون عليه من المبيعات داخل إنجلترا ، والذي يتراوح بين ٥٢٪ و ٨٧٪ . وجرت محاولات لتوحيد المصاريف الاضافية بالنسبة للعملاء من خارج إنجلترا ١٨٢١ ، عندما اقترح وات (الابن) اضافة ٢ ١/٢٪ للأسعار البريطانية ، ولكن وحتى ١٨٢٥ لم يطبق الاقتراح تطبيقا كاملا . وكانت السوق الهولندية استثناه في الأسعار ، اذ طلب من البيت التجارى القائم بالتفاوض لجعل الأسعار تقترب كثيرا من أسعار المحركات البخارية في إنجلترا . غير أن هذا البيت التجارى قد عمل بصفة استثنائية في مقام آخر . اذ تخلى بولتون ووات عن مطلبهما المعتاد بضرورة وجود أحد الضامنين من لندن لاعتماد الطلبات .

والحالة الوحيدة التي يقر فيها الشريكان التنازل عن الحصول على ارباح طائلة من المحركات المباعة خارج إنجلترا هي الحالة التي تجرى فيها الصفقة مع بلد يتوقع عقد صفقات مبيعات لاحقة فيها . فلقد تباحت جارى (أول عميل لبولتون ووات في فرنسا) من أجل وضع سعر محدد مع الاعفاء من دفع التأمين ، « لأن الواجب يقضى ايثار فرنسا في المعاملة باعتبارها كانت أول زبون للمحرك » ، وباختصار وكما لاحظ ويلكنسون : « ان جارى من الشخصيات العارفة بالأمور . وهذه الميزة تزكيه لعقد اية صفقات أخرى » . وكان أول محرك بخارى تم توريده للبلدان الواطنة بسعر التكلفة المحرك الذي بيع الى الجمعية الباتافية . غير أنه عندما جرى بعد ذلك بحث من قبل الهولانديين عن محرك (١٧٩١) طلب بولتون ووات مبلغ ٣٠٠ جنيه انجليزي ، وبررا ذلك بقولهما : « نعم لقد وردنا محركا واحدا بلا ربح لاقتناع أهل هولاندة . ولكننا لن نستمر على هذا الحال . ان ما طالبنا به يمثل أدنى سعر يمكننا تقاضيه في مقابل مثل هذا المحرك . ومن جهة أخرى ، دفع عميل كندى مبلغ الف ومائة جنيه (١٧٨٩) مقابل توريد محرك قوة ١٦ حصانا وهو سعر يزيد عن السعر المثبت في التعريفة الأسبانية في نفس التاريخ ، وسمح بربح ١٣٩٪ بالرغم من مزاعم الصانع : « بأنه لم يربح الا أدنى ربح ، باعتبار هذه الصفقة هي الأولى مع هذا البلد » .

يتعذر تقدير الوقت والجهد الذي بذله بولتون ووات في متابعة عملهما في الخارج . وأيضا يتعذر - باستثناء حالات قليلة - تقدير المبالغ التي أنفقاها للترفيه عن العملاء الأجانب وتقديم الهدايا ، وبلغ مجموع

بايطاليا ابتداء من تاريخ الاتفاق على السلام بين نابلي وفرنسا ١٨٠٦ ونهاية الحرب . وبالاستطاعة ملاحظة وجود نمط مماثل في اسبانيا والبرتغال . وازدادت الطلبات الآتية من خارج انجلترا انتظاما وتوافقا ابتداء من ١٨١٦ . ولم يهبط هذا المستوى اطلاقا عن طلبين ، وارتفع من أربعة طلبات الى تسعة سنويا في بعض المناسبات .

ولقد لوحظ اخفاق آليات « الدفع » في الأسواق خارج انجلترا . وليس من شك ان هذا هو ما خطر ببال مستر ر . بولتون عندما عقب في سياق حديثه عن السوق الروسية ، فقال ان تبديد أى وقت آخر أو جهد آخر ، سيكون عملا بعيدا عن الحكمة ، اذا راعينا أن بولتون ووات كان بمقدورهما الحصول على طلبات أكثر من جيرانهما الأثرياء بأعداد تفوق القدرة على تنفيذها ، ولربما صحت هذه الملاحظة على المدى القصير ، ولكن بعد التزويد بالخدمات الفنية الإضافية المتخصصة التي أثرت في آليات الاجتذاب ، يصح القول بأن الزيادة التي حققها بولتون ووات من الأسواق خارج انجلترا قد برزت الجهود التي بذلت من أجل المبيعات ، وأثبت صحة ما قاله ماتيو بولتون عن نيته تقديم خدماته لجميع ربوع العالم بتزويده بمحركات من أصناف مختلفة الأحجام ، وذكر هذا القول قبل شروعه في انتاج المحرك بالاشتراك مع وات .

المراجع

- I. T. Berend and G. Ranki, *The European Periphery and Industrialization 1780-1914* (1982).
- F. Braudel, *Capitalism and Material Life 1400-1800* (1944).
- F. Braudel, *The Structure of Every Life* (1982).
- P. Deane, *The First Industrial Revolution* (1979).
- E. L. Jones, *Agriculture and Economic Growth in England (1500-1615)*, 1968.
- D. Landes, *The Unbound Prometheus : Technological Change and Industrial Development in Western Europe from 1750 to the Present* 1969.
- J. Lord, *Capital and Steam Power 1750-1800*. (1966).
- N. McKendrick, *The Birth of a Consumer Society*, (1982).
- P. Mathias, *The First Industrial Nation : An Economic History of Britain (1700-1914)*, 1969.
- A. Musson, and E. Robinson, *James Watt and the Steam Engine*, (1969).
- S. Pallard, *The Genesis of Modern Management*. (1965).
- S. Pollard, *Peaceful Conquest : The Industrialization of Europe*, (1981).
- R. E. Schofield, *The Lunar Society of Birmingham* (1965).

« حروب الموسوعة » في فرنسا ما قبل انشورة

روبرت دارنتون

ربما كان للكتب التي تصنع التاريخ تاريخ مهم هي نفسها . وهذا ما حدث في حالة « الانسكلوبيديا » أشهر ما نشر في عهد التنوير . وعندما أقدم ديبرو على تنفيذ هذا المشروع في خمسينات القرن الثامن عشر ، واجه الكثير من المعارضة من السلطات السياسية والدينية إبان حكم الملك لويس الخامس عشر ملك فرنسا . بيد أنه نجح في إخراج السفر العظيم المؤلف من عدة أجزاء . وانتهى العمل فيه ١٧٧٢ . ويحتوي السفر على مقالات في الأدب والفلسفة والدين ، أبدعه يراع عظاما ، كتاب عصر التنوير ، إلى جانب مقالات عن الحياة الاقتصادية المعاصرة ، ما برحت تعد المصدر الرئيسي لمعرفتنا بأحوال الزراعة والصناعة والأساليب المتبعة فيهما في منتصف القرن الثامن عشر .

لعل هذا الجانب من القصة معروف إلى حد ما . ولكن بعد أن انتهى تاليف الانسكلوبيديا (ولنستعمل من الآن فصاعدا كلمة موسوعة بدلا من انسكلوبيديا) وطبعها ، كيف أمكن توزيعها ؟ وما الذي تعرضت له بعد ظهور طبعتها الأولى ؟ ومن استفاد من هذه المخاطرة ؟ ومن اشترى المجموعة (أين يقطن المشترون ؟ ان الردود على هذه الأسئلة الخاصة بمسور « التنوير » تدفع المؤرخ إلى خوض أشد عسقة من التاريخ الاجتماعي « للنظام القديم » . أنها تكشف عن معاملات مالية امتدت إلى نطاق واسع ، وعن محاولات لكفش والابتزاز وتهريب الكتب خارج حدود فرنسا ، وعن جهود بدلت للتغلب على النقص في الورق والمواد وآلات الطباعة ، وعن صراع شرس في عالم المنافسة الفظة التي لا ترحم ، إذ يكمن وراء اشعاع

The Encyclopédie Wars of Prerevolutionary France

American Historical Review

في Robert Darnton

بم

الجزء ٧٨ (١٩٧٢) من ١٣٢١ - ١٣٥٢ .

نور العقل الذى اشعته الموسوعة عاملان متضاربان ! الجرأة الفكرية ،
والممارسات العملية المشبوهة . غير أن المؤرخ عندما يتابع تاريخ نشر
الموسوعة ، فإنه يلاحظ تعبرا مهما في توجهات الحكومة الفرنسية نحو
المشروع ، ويدرك أيضا صورة واضحة رائعة لنوعية الأشخاص الذين اقتنوا
الموسوعة ، ولا يستبعد أن يكون بينهم من قراها .

نظر الى نشر الموسوعة فترة طويلة من الزمان على أنه نقطة تحول
في حركة التنوير . فمتنما سمح لسفر ديدرو بالظهور في صورة مطبوعة ،
فإن النولة بغض النظر عن ابتعادها عن الكمال ، وعدم رضاها عن الفكر
الحري ، قد أتاحت الفرصة للفلاسفة لاختبار سلطتهم في ميدان الافكار .
ولكن ماذا كانت عواقب هذا الاختراق للحواجز التقليدية للكلمة المطبوعة
في فرنسا ؟ عندما ركز العلماء الباحثون على المباشرة بين الموسوعيين
والسلطات الفرنسية ، فانهم لم يذكروا أكثر من نصف القصة . أما النصف
الآخر فيخص المسائل الأساسية في التاريخ الاجتماعى للأفكار ، فكيف
كان الناشرون يخططون وينفذون عملية الطبع والنشر في القرن الثامن
عشر ؟ وكيف كان مدى الاقبال على أعمال مثل الموسوعة ؟ . ومن كان
المشتررون ؟ هذا المقال يعنى بهذه المسائل . فنحن عندما نعيد رواية قصة
دورة الحياة لكتاب من الكتب ، فاننا نقصد بذلك الاشارة الى جانب من
الامكانيات في تاريخ النشر . وهو ميدان ظل دون أى التفات اليه رغم ما فيه
من جاذبية في مقترق طرق التساريخ الفكرى والاجتماعى والاقتصادى
والسياسى .

وعندما أخرج ديدرو وناشره المجلد الأخير من الموسوعة ١٧٧٢ ،
فانهم ظفروا بما هو أكثر من الانتصار المعنوى على نظام السيطرة على
النشر في فرنسا . ومن المحتمل أن تكون الطبعة الأولى قد ضمت مليوناً
ونصف المليون من الكتب التى حققت ربحاً هائلاً . غير أن الدولة منعت
تداول الكتاب علناً وصدرت معظم المجموعات (٤٢٢٥ مجموعة) الى عملاء
خارج فرنسا . والظاهر أيضاً أن الطبعة الثانية قد اعتمدت الى حد كبير
على اعداد غير فرنسى ، إذ كانت اعادة طبع على صفحات فوليو (١) للنص

(١) تشير مصطلحات فوليو وكوارتو وأكتافو الى حجم صفحات الكتاب . وترجع
التسمية الى عدد الصفحات التى تطبع على فرخ ورق الطباعة الجاير . ففي حالة العوليو
(١/٢ جاير) تطبع صفحاتتان في كل وجه ، وبذلك يصل عدد الصفحات المطبوعة الى أربع
صفحات . أما الأوكتافو فيضم ثمانى صفحات تطبع على كل وجه ، وبذلك يصل مجموع
الصفحات الى ١٦ صفحة . ويطوى الفرخ المطبوع ، ويؤلف ملزمة من الكتاب . وكلما
زاد عدد الصفحات المطبوعة على الفرخ صغر حجم الصفحة المطبوعة وصغرت حروف
الطباعة .

الأصل ، وقام بطبعها في جنيف اتحاد من الناشرين بالاشتراك مع شارل جوزيف بانكوك في باريس . ولم يكتب البقاء لسجلات المبيعات ، ولكن ناشريها كانوا يأملون في الأصل تسويق نصف مجموعاتهم (٢٢٠٠ نسخة) في فرنسا ، وباعوا ١٣٣٠ مجموعة في شتى أنحاء أوروبا كما ظهر عند تصنيفهم لحساباتهم النهائية في يونيو ١٧٧٥ ، وبذلك يكون عدد النسخ التي بقيت في فرنسا في هذا التاريخ ٣٠٠٠ نسخة فقط من الطبعتين الأوليين ، على أكثر تقدير . وبذلك لا تكون الموسوعة قد غمرت البلاد رغم الاعتراف شبه القانوني بها .

بيد أن نشر الطبعتين التاليتين (طبعة ١/٤ كوارتو و ٢ أوكتافو) للنص الأصلي له قصة جد مختلفة ، عن نشر الطبعتين الأوليين ، وبالمقدور روايتها بالتفصيل بفضل البحوث التي جرت في سويسرا (*) . وتبدأ القصة بالاداري الغد بانكوك المعروف « باطلس تجارة الكتب » ، وأسلوبه المشهور في عقد التحالفات واثارة الخصومات في عالم النشر والسياسة .

ففي ١٧٦٨ ، اشترى بانكوك من الناشرين الأصليين الأصول الزنك للموسوعة ، وحقوق نشرها . أما ماهية هذه الحقوق ، فمن المتعذر معرفتها على وجه الدقة . واستعمل بانكوك في مراسلاته بعض المصطلحات (**). ولكن الحكومة تنكرت للامتياز الذي سبق أن منحتة للموسوعة ١٧٥٩ ، ولم يوضع مسجلو الامتيازات في المكتبة الوطنية بباريس حدوث أي استرداد لهذا الامتياز ، وبيّنوا أن بانكوك قد منح امتيازاً عاماً لمدة ١٢ سنة في ٢٩ مارس ١٧٧٦ « لتجميع لوحات خاصة بالعلوم والفنون والحرف » ، مما يؤيد زعمه الحصول على نوع ما من حق النشر . وعلى العموم ، فلقد أكد بانكوك هذا الزعم بمغفلة شديدة . فلم يكتب باظهار العقد الذي اشترى بموجبه حقوق الناشرين الأصليين ، ولكنه أبرز أيضاً ترخيص الحكومة الفرنسية ، وباع حصته كاملة من امتيازها لحنف من الشركاء ، لمدة محدودة ، إذ كان يعيد البيع والشراء ، لشركاء جدد ولاصدار طبعات جديدة .

وأول موسوعة يصدرها بانكوك هي الطبعة الثانية (وكانت إعادة طبع في حجم الفوليو ١٧٧١ - ١٧٧٢) . وتمتد هذه السنوات من السنوات العصبية في تاريخ تجارة الكتب من تأثير الإجراءات القمعية التي اتخذتها حكومة الثالث (ميرابو - تيراي وأجيلون) ، ومن ثم رأى بانكوك طباعتها

Société Typographique de Neuchâtel.

Recueil des planches sur les sciences, arts et métiers.

(*)

(***) استخدام مصطلحي « droit و Privilège »

في جنيف بمعرفة شركائه السويسريين ، ومن بينهم ناشر فولتير (الملك جبريل) كرامر . وكانت عملية الطباعة عاصفة حفلت بالمشاجرات مع الشركاء ، وبالصراع مع موسوعة « بروتستانتية » منافسة ، ونخلتها معركة خاسرة مع الحكومة الفرنسية التي صادرت ستة آلاف مجلد كان بانكوك قد طبعها في باريس أصلا . وأما هل ساعده النجاح في إصدار هذه الطبعة على أحداث « فرقة » في السوق الفرنسية فأمر غير معروف ، إلا أن الصعوبات التي واجهته لم تثبط عزيمته . وكانت الأبواب تفتح على مصراعها عندما يدخل بوابة دار الحكومة بفرساي « وكأنه أحد كبار الوزراء » ، أما رسائله فكانت مرصعة بعبارات الحساية من كبار رجال الشرطة ، والمختصين بنشر الكتب والوزراء .

وفي ٣ يوليو ١٧٧٦ ، باع بانكوك نصف أرباحه من ملكيته لامتياز إصدار الموسوعة مقابل ١٤٣٠٠٠ لآحدى دور النشر (*) ، التي تعد من أهم دور النشر الفرنسية خلال العشرين سنة السابقة للثورة . وبعد أن أضاع الوقت في التخطيط لنشر إعادة طبع أخرى ، قرر هذا الاتحاد الجديد إصدار طبعة مزينة منقحة ، ورثى أن يتولى إعادة كتابة النص نخبة من الفلاسفة الجهابذة من بينهم مارمونتيل وموريليه ولاهارب وداننو وسانت لامبير وتوماس وتحت إشراف سويار ، ويساعده دالمبير وكوندورسيه ، ولم يضم بانكوك اليهم ديندو « لأنه عنيد (**) » ويطلب مبلغا خرافيا ، وربما أشعرنا بالأحباط ، ولكنه اعتمد اعتمادا كبيرا على دالمبير بحكم قدرته على التأثير على الملك فردريك الثاني ملك بروسيا . ولعاه يقنعه بقبول اهدائه العمل الجديد . وبحث دالمبير أيضا فكرة كتابة تاريخ للموسوعة في الطبعة الجديدة . غير أن هذا المقال مات قبل أن يرى النور ، مثل الكثير من الكلاسيكيات الأخرى التي لاقت نفس المصير كتاريخ الحركة البروتستانتية الفرنسية لراينال وتاريخ وزارة تيرجو لفولتير . ظلم تتجاوز هذه الأعمال مرحلة المشروعات التي تلقت ضربة قاضية عند عرضها على بساط البحث على الكتاب والناشرين . وفي آخر الأمر أحبط مشروع إنتاج هذه الموسوعة رغم المخطط الهائلة التي أعدها مساندوها ، بعد أن ظهرت طبعة منافسة برخص ثمنها . إنها الطبعة الكوارتو ، التي أصدرها جوزيف دوبلان من ليون ١٧٧٦ ، والذي قام بدور الخصم في هذه الرواية ، وبعد واحدا من أجرياء القراصنة في عصر « الأسلاب الرأسمالية » .

Yverdon في Barthelemy de Félice

Société Typographique de Neuchâtel.

Une mauvaise tête.

(*) أصدرها

(**)

وخصص دوبلان دار نشره على غرار كثيرين من المشتغلين ببيع الكتب ونشرها في الاقاليم لنشر الكتب الرخيصة أو المنقولة عن طبعات أخرى من انتاج دور النشر التي انتشرت خارج حدود فرنسا ، هربا من قيود « الامتياز » والرقابة على الفكر التي خنقت دور النشر المستحدثة داخل فرنسا . واشتمت دوبلان رائحة الكسب من امكانية اصدار طبعة من الحجم الكبير للموسوعة ، وأعلن افتتاح باب الاشتراك في الطبعة الكوارتو الرخيصة التي تتألف من خمسة أجزاء من الأجزاء التي ظهرت في النص الأصلي . ولجأ في سبيل حماية نفسه الى نسبة الطبعة لجان ليونارد بيليت ، وهو من اصحاب المطابع في جنيف ، وكافأه بثلاثة آلاف نسخة نظير قيامه بدور خيال المآته . وعندما اطمأن الى زيادة الاقبال على حجز نسخ من الموسوعة ، تعاقد دوبلان على الطباعة هو والعديد من المحلات في جنيف محتفظا بالأعمال المالية والادارية لنفسه ، وعول على امكانية نقل الكتب الى فرنسا اما بالتهريب - اذ كان يتمتع بنفوذ كبير عند نقابة بانمي الكتب في ليون ، بالرغم من قوة أعدائه في نقابة باريس - أو بالحصول على التزام السلطات الفرنسية للحياد ، ولكنه لم يعمل حسابا لبانكوك .

وكان أمام بانكوك احتمالان : اما أن يصرع دوبلان ، أو ينضم اليه واستهوى الحل الأول بانكوك ، لاقتناعه بإمكان الاستناد الى الحماية بطريقة فعالة تمكنه من سد قنوات التجارة في الكتب في السوق السوداء . غير ان نجاح « الاشتراك » في الحجز ، زاد من اغرائه . وكان بانكوك يعرف كل خطوة يخطوها دوبلان بفضل التقارير السرية التي كان يتلقاها من أحد باعة الكتب(*) . وكان رجولت يعرف أن الاشتراك يعنى البيع عن طريق المضاربة ، وأثبتت المعلومات المتلقاة « من شتى الأنحاء » ، بأن الطبعة الكوارتو من الموسوعة ستحقق أعظم ربح حدث خلال القرن . ومن ثم طرح رجولت جانبا مشروع اصدار طبعة منقحة ، وتباحث هو ودوبلان في وسيلة أخرى ، فباع احتكاره للامتياز القانوني الذي يبيح له النشر مقابل وقف الاشتراكات . وفي ١٤ يناير ١٧٧٧ ، وقع الاثنان (بانكوك ودوبلان) ، ما أصبح يعرف فيما بعد « بمعاهدة ديجون » واتفق الاثنان على أن يتقاضى كل منهما نصف الربح في مشروع الكوارتو الذي قسماه فيما بعد على شركائهما (وانتهى الأمر بحصول الجمعية الطباعية(**) على خمس المشروع الكلي لصالحها) ، والتزم دوبلان بادارة الانتاج والتوزيع والتمويل للطبعة تبعا لشروط حددت تفصيليا في العقد ، وتمهد بانكوك بالتزويد بنصف رأس المال ، وبثلاثة أخماس الزنك وبتغطية المشروع بحماية امتيازه . ولم يكن البند الأخير ميزة هينة ، ففي أغسطس ١٧٧٧ ، كتب بانكوك

« سيحصى مدير المكتبة (*) مشروعنا » ، بل ومنح بانكوك بصريحا بتوريد الكتب الى مخازنه في باريس مباشرة ، متخطيا الجمارك ورقابة بائعي الكتب والرقابة . وفي ذات الوقت ، كتب توجيهها للمستول عن رقابة الكتب الصادرة في ليون بالتصريح بمرور الصناديق المشحونة من سويسرا ، وكأنه وزير من الوزراء ! . والواقع أن بانكوك قد أحكم تمثيل دوره حتى انخدع أصحاب المطابع السويسرية ، وأقدموا على تعبئة شحناتهم من كتب الموسوعة المحظورة ، وبدلا من أن تضطر السلطات المستولة الى استخدام قوتها ، كما فعلت في خمسينات القرن الثامن عشر ، فقد وزعت الموسوعة تحت اشراف المسئولين وحمايتهم . وساعدت هذه الحماية على التنويه ، وتوزيع الكتب التي أرادت الدولة مصادرتها .

ولم يخطر ببال بانكوك ودوبلان أن مثل هذه العملية التهريبية البسيطة ستجر في ذيلها ابتزازا . فقد وجها كل عنايتهما للحصول على الحد الأقصى للربح ، وأثبتت الطبعة الكوارتو أنها عمل مربح الى درجة غير مألوفة . فلقد تدفقت الطلبات من كل حلب وصوب ، وجنى البائعون ثمارا لم يسمع عنها من قبل ، ودعش البائعون لما حدث من نهم لاقتناء الموسوعة ، فقبل ذلك ، كان الاقبال خامدا عند الزبائن الذين عجزوا عن شراء الطبوعات القليلة . وكتب أحد الزبائن من مستريخت (**): « لم يسبق ظهور كتاب انتشر مثل هذا الانتشار » وكتب رسيلاندى من تولوز « لقد ملأت الموسوعة شوارعنا » مرددا نفس الملاحظة التي رددتها أحد باعة الكتب في ليون « كان مدينتنا قد أصبحت مرصوفة بالموسوعة » . وقال بانكوك مبتهجا : « تجاوز نجاح الطبعة الكوارتو كل توقع » . وعند فتح باب الاشتراك ، كان دوبلان يحلم أحلاما بعيدة المنال ، إذ كان يأمل في بيع أربعين ألف نسخة . وامتلا باب الاشتراك حتى فاض بسرعة مذهلة . ومن ثم فتح دوبلان بابا آخر للاشتراك ، بلغ عدد ما حجز فيه ثمانين ألف مجموعة (تحتوى كل مجموعة على ٣٩ مجلدا) وهذا عدد غير عادي في عصر كانت فيه طباعة المؤلفات المكونة من مجلد واحد لا تباع أكثر من ألف نسخة .

ويفسر ما حدث من تعاقب للاشتراكات سر اختفاء الطبعة الثانية الكوارتو ، وبذل كتاب البليوجرافيا جهودا مضمينة بحثا عن هذه الطبعة

Le Camus de Neveille.

(*)

(★) Dufour - ويمستريخت Maestricht وهو اسم البلدة التي وقع فيها الاتفاق الشهير لتوقيع الاتحاد الدولي الأوربي والذي ما زال يشغل بال الأوساط العالمية، وتجري الاستفتاءات الشعبية للاطمئنان الى حسن تقبل مختلف الاقطار الأوربية له قبل وضعه موضع التنفيذ .

الثانية، ولكنهم لم يهتدوا الا للطبعة الأولى أو طبعة بيليه (*)، أو الطبعة الثالثة للموسوعة الكوارنو . والتزم دوبلان بطباعة النسخ المطلوبه للاشتراك الثاني، الى أن وصل عمال الطباعة الى الفرخ 1 من المجلد السادس ، وجري ذلك باستخدام آلة طباعة طاقتها الانتاجية أربعة آلاف نسخة . وأصدر دوبلان توجيهات باعادة طبع ألفى نسخة من كل ما أتوا من طباعة ، على أن يواصلوا العمل بعد مراعاة زيادة طاقة الانتاج الى ستة آلاف نسخة . وهكذا لا يصح القول بوجود طبعة ثانية قائمة بذاتها . وتوافق فتح باب الاشتراك للمرة الثالثة هو والطبعة الثالثة المنفصلة ، بعد اعادة صف كل فرخ، وانتاج ألفى نسخة . ويتم المظهر العام لكل صفحة ، وطريقة توضيبيها على ان هذه الطبعة هي بعينها الطبعة الثالثة الصادرة في نويشاتل بمعرفة « الجمعية الطباعية » . وليس من شك أن هذه الطبعة كانت مجرد حيلة ابتكرها دوبلان لتضليل المشتركين الذين شعروا بالامتعاض من الطبعة الرديئة التى أصدرها بيليه . والواقع أن الجمعية الطباعية لم تتول طبع أكثر من مجلد واحد في طبعتهما ، وأنتجت أربعة مجلدات من تلك التى ظهرت باسم بيليه . وفي كل حالة ، كان دوبلان يجرى تعاقدًا فرعيًا للطبع، ويتخفى وراء اسم الجمعية الطباعية الزائفة .

واستعان دوبلان بعمال طباعة من نويشاتل وجنيف وليون وتريغو وجرينوبل ، وشغل أكثر من أربعين مطبعة لاجراء حوالى ربعائة ألف مجلد . وتطلب انتاج مثل هذا القدر من الكتب ، وتوزيعها ، حشد أكبر عدد من عمال الطباعة لانجاز أضخم عملية طباعة في العهد السابق للعصر الحديث . وتكبد النشر تكاليف باهظة . فقد احتكرت الموسوعة زهاء سنتين ونصف عمليات الطباعة في جميع المنطقة المحيطة بليون ، واقتصر الأمر على طبعها هي وحدها باستثناء بعض المؤلفات الكنسية . هكذا ذكر أحد العملاء ١٧٧٨ ، واستفرقت جمعية الطباعين خمسة شهور لطباعة ستة آلاف نسخة من أحد الأجزاء الضخمة التى تحتوى كل صفحة من صفحاتها على عمودين . واحتاج تمويل ثمانمائة نسخة من كل مجلد من المجلدات الى رأس مال ضخم ساق بانكوك ودوبلان الى الالتجاء الى اتحاد البنوك الفرنسية والسويسرية . ولاحظ العميل ذاته في ليون : ان كل من امتلك قليلا من المال ، واستطاع تخصيص جانب منه لشراء الكتب كل شهر أو كل سنة قد استثمره في مشروع اجراء الموسوعة الكوارنو . واستهلكت الموسوعة مقدارا كبيرا من الورق مما أدى الى تعذر العثور أحد البائعين على فرخ واحد يبيعه « للجمعية » مواصلة الطباعة مما دفع هذه الجمعية الى ايفاد مبعوثين لها في شتى أنحاء فرنسا وغرب سويسرا بحثا عن كل رزمة ورق من القطع المرعب مقاس ٥٠ في ٦٤ المعنّب . ولم يتمكن عمال الزنكوجراف من ملاحظة

المطابع وتزويدها بما يكفي من الحروف (وكانت أنسب حروف وامعت الورق الكوارتو هي الحروف السماء حروف الفلسفة) . وهكذا أخفق بعض العاملين بالطباعة في جنيف في بدء العمل وفقا للخطة الموضوعية . ١٧٧٧ ، واضطر العاملون بمطابع نويشاتل الى التوقف عن الطباعة في أخرج اللحظات بعد استلامهم برميلا من المعدن الرديء ، بينما قام صانع الأحبار - وهو من البارسيسين ويدعى لانجلوا - بنذب حظه لارتفاع التكاليف ، ولم يحصل على الأرباح التي كان سينفقها كاجور لعمال جنى محصول الزيتون المهزبل في ميلى . واستغل « العرجية » الموقف بعد تلاحق الطلبات ، وطلبوا بزيادة أجورهم . وأحدثت الموسوعة حالة من الفوضى في سوق الطباعة . ولم يقتصر الأمر على اضطراب المشتغلين بالطباعة الى السير مئات الأميال بحثا عن العمال ، ودفعهم شح الموارد الى شن الحملات للبحث عنها في مختلف المحلات ، مع الاستمانة بجواسيس متخصصين في الصناعة من أمثال أحد « الساعاتية » المعلمين في جنيف (لويس مارسينيئش) الذي كتب لجمعية الطباعين في يوليو ١٧٧٧ :

« لقد أفسد بيليه وباسومير بوعودهم المبالغ فيها الكثير من العمال، واستنفقوا كل ماعثر عليه في محلات الطباعة القريبة، ولكنهما لم يرغبوا دفع ما هو أكثر من ١٥ فلورين و ١٥ سول من استحقاقاتنا عن كل فرخ ورق . ومن هنا صمم عدد لا بأس به من العمال على تركنا لأنهم يطالبون بببلغ ١٧ فلورين عن كل فرخ . والرجل الذي ستركنا هذا الأسبوع قاصدا نويشاتل واحد من هؤلاء ، واسمه كايزل . وهناك اثنان من المشتغلين بالطباعة وعداني بالحضور للباحث ، وفي نيتهم الرجيل أيضا . ولن أتردد عندما تسنح الفرصة في موافاتك بأسماء الساخطين من محلات بيليه وباسومير ونوفر » .

وباختصار ، لقد أحدثت الموسوعة الكوارتو ردود فعل حتى في القطاعات الاقتصادية البعيدة عن الطباعة . فلقد استدعى الموقف شغل عالم بأسره من جامعي « الخرق » وزادعي الزيتون والمولين والفلاسفة الذين تعاونوا لخلق عمل مكافئ للجهود المادية التي بذلت فيه ورسائله الفكرية . فبوصفها شيئا ماديا ، فلقد اشترك في انشاء الموسوعة استجابة لمتطلباتها المادية وكأداة للفكر ألف من العلوم والفنون والحرف ، ولعلمها مثلت عصر التنوير روحا وجسدا .

ولا يستبعد أن يكون ناشرو الموسوعة قد أمضوا وقتا طويلا ، وأجروا عمليات حسابية عديدة لتقدير التكاليف والأرباح لتحقيق مثل هذه الفكرة السامية . وقدرت جمعية الطباعين الأيراد الكلى للمشروع بمليونين وربعمئة وخمسين ألفا واثنين وتسعين جنيفيا، أما التكاليف فكانت مليوناً ومائة وسبعة

عشر الفا وثلاثمائة وأربعة وخمسين جنيها . وبذلك يكون الربح الصافي قد ناهز مبلغ مليون وثلاثمائة وستة وثلاثين الفا وسبعمائة وثمانية وثلاثين جنيها . وبعبارة أخرى فقد حقق المشروع عائدا يقدر بمائة وعشرين في المائة من التكاليف الفعلية . فلا غرو اذا اعتبروا هذه العملية أروع عمل يمكن أن يجرى في عالم النشر ، أو اذا اشتعلت بسببها نيران مريضة من الحروب التجارية .

ولم يبق أمام دوبلان الذي قدم الطبعة الكوارتو كمغامرة شخصية . وبعد أن اعترف - شرعيا - بمغامرته غير دفن ما اقتني من ثروات . وظهر قراصنة آخرون سايروا الربح السائدة ، وتسابقوا في هذا المضمار . فأولا حملت الأنباء خبر ظهور طبعات مزيفة منافسة من جنيف وأقينيون . وبعد أن اطلع بانكوك على هذه الأنباء ، اعتقد أنها مجرد خدع ، واستشار رفاقه في طريقة الخروج من المازق ، وأخطرهم انه رتب الأمور للحيلولة دون دخول أى كتاب من هذه الطبعات الى فرنسا : « وهل يتحقق أى نجاح بغير نساء » ؟ ولقد أصاب القول . وجاء اعلانه كوسيلة لايقاف ناشرى الكوارتو عند حلمهم وارغامهم على دفع فدية ، وهدد باضطراره الى المضاربة وبيع الموسوعة بالخسارة ما لم يدفعوا مبلغا من المال من قبيل التويض وحماية حقوق النشر . ويمكن الخطر في الحكم على هذه المباراة في تعذر التفرقة بين الهجوم المخادع والهجوم الحق ، حتى يتضح موقف من هاجهم . وبعد أن اختفت من الأفق طبعات الكوارتو في جنيف وأقينيون ، أعلن « جرابيت » و « باريت » من ليون خططا لنشر موسوعة أخرى في حجم الكوارتو ، وأثبتا أنهما لم يقصدا أى استفلال بدليل طبعهم مجلدات قليلة . ورأى دوبلان وبانكوك ان الأحكم في هذه الحالة هو الاستسلام . وقررا تعويض جرابيت وباريت بمبلغ ٢٧٠٠٠ جنيه لتسوية هذه الأزمة ، وهو مبلغ يتساوى تقريبا مع أجر العاملين معهم في الطباعة طيلة حياتهم ، وتلقيا في المقابل وعدا موثقا بالامتناع عن أية أعمال تزيفية أخرى ، ثم عرفا اعتزام اتحاد الناشرين في لوزان وبرن اخراج طبعة ربما كانت أصغر وأرخص من الموسوعة (الحجم الاوكتافو) يمكن أن تباع بحوالى مائتى جنيه ، وصمم دوبلان وبانكوك هذه المرة على الصمود والقتال .

وفي البداية كان ناشرا الطبعة الكوارتو يأملان في تعرض مغامرة الاوكتافو للخسارة ، وتندرا على ما سيحدث لقراء هذه « الطبعة المنمنمة » ، وتنبأ بتعرضهم لفقدان الابصار ، وأعلن بانكوك : « ان هذه الطبعة الاوكتافو قد تحدث بمض الفزع ، ولكنها لن تضرنا . فمن الحماسة طبع الموسوعة في مثل هذا القطع الصغير . وفضلا عن ذلك ، فاننا سنهتدى الى من يدافع عنا هنا . وأنا في انتظار عودة الحاكم(*) حتى أوضح له كل شيء . »

وأعدكم بأغلب الإيمان بعدم دخول هذه الموسوعة الى فرنسا قط ، وأجابته الجمعية الطبائية : « انك تحمل مفاتيح المملكة » ، ولكن التقارير التي جاءت من يانفي الكتب في الاقاليم أفادت بأن اشتراكات الاوكتافو تباع على نحو مذهل يتماثل وما حدث في حالة الكوارتو ، ومن ثم بدأت جماعة الكوارتو في التشاور ، لا يفرض المصالحة ، وانما لتأخير تنفيذ الاوكتافو الى أن يكتمل « الكوارتو » ، ويعلمن عن ظهور الطبعة الجديدة المنقحة ، وبذلك يقطعون الطريق أمام سوق الاوكتافو ، وأدرك ناشرو لوزان وبرن هذه الخطة ، وكانوا من المحنكين في النشر على طريقة القراصنة - بعد قليبي من المفاوضات ، وصمموا على المضي قدما في طباعة الاوكتافو ، وحاول دوبلان اكتساحهم بعملية هجوم بالمواجهة ، فنشر اعلانا يفيد احتمال اصدار جماعة الكوارتو طبعة جديدة بسعر أرخص من طبعة الاوكتافو في لوزان وبرن ، وفي أول نوفمبر ١٧٧٧ ، حددت لوزان وبرن بالتار : اسحبوا تصريحكم في غضون خمسة عشر يوما، والا سنضطر لتخفيض السعر الخاص بالاوكتافو الى مستوى سعركما ، وسننقى على طبعتكما الكوارتو باصدار طبعتنا بسعر أرخص :

« عليكم أن تقبلوا عرضنا ، وأن تخفضوا سعركم ، فبهذه الطريقة سيذبح كل منا الآخر ، ولكنكم كنتم البادئين ، (والبادى اظلم) ، وقد فرضتم علينا هذه الضرورة ولا تظنوا أن هذا التهديد تهديد أجوف ، فالبرامج جاهزة ، ولدينا نفس الحروف وآلات الطبع الضرورية تحت امرتنا في ايفردون » .

وارغمت هذه المناورة دوبلان على التراجع ، ولكنها اسفرت أيضا عن اشتعال الحرب سافرة ، فعلى الرغم من استمرار المفاوضات بلا توقف - وهذا أمر مألوف في حروب القرن الثامن عشر - فان كل طرف قد استمر في حملته بلا هوادة ، محاولا تحطيم سوق الطرف الآخر .

واعتملت جماعة الاوكتافو على استراتيجية التهريب ، وجمعوا الاشتراكات المطلوبة ، وارتكنوا على امكان الاتصال بزبائنهم من خلال السوق التحتية لتجارة الكتب في الخفاء (السوق السوداء) ، ورسمت جماعة الكوارتو خطتها على أساس اقامة تحصينات ضد هذه السوق ، فوعد بانكوك شركاءه : « أؤكد أنهم لن يحاولوا اقتحام فرنسا ، ولقد وعدني الحاكم بذلك ، ولعلكم تعرفون أيها السادة أن التسلح بالامتياز يساعدكم على عدم التنازل عن حقوقكم مثلما فعلت ، فدوبلان مضطر الى الاتفاق معنا ، لان لدينا عقودا وامتيازاً ، وسيسعى فريق لوزان للقيام بنفس الشيء » ، ان امتلاك الامتياز والحماية ، الذي كاد يقضى على الطبعة

الأولى من الموسوعة قد استغل كخط دفاع أساسي في محاولة انقاذ الطبعة التالية . فلقد حدثت عدة ظروف غيرت الحال عما كانت عليه في عهد لويس الخامس عشر ، وظهرت أوضاع جديدة في عهد لويس السادس عشر ، دعت الحكومة الى اعتبار الموسوعة صفقة تجارية أكثر من كونها مسألة أيديولوجية . ويوحى بهذا التوجه الجديد بتغلغل معتقدات التنوير في الحكومة ذاتها ، ولكنها لا تدل - حتما - على حدوث وهن في المهمة . والواقع أن الصراع بين استراتيجية التهريب والاستراتيجية البوليسية قد جاء بمثابة اختبار لقدرة الحكومة على السيطرة على الكلمة المطبوعة .

وفي منتصف ١٧٧٨ ، أوفدت جمعية المشتغلين بالطباعة في نويشاتل مبعوثا(*) في جولة في جنوب فرنسا ووسطها . وكلف المبعوث بادى دى بده بالتحقق من خطوط الامداد على الحدود الفرنسية السويسرية . وعرف عندما وصل الى سانت سولبيس (وهي آخر مدينة على الطرف السويسرى من الحدود) أن أدوات التهريب ليرون وشركائه قد تحفظت على خمسمائة قفص يتسع كل منها لحمولة قدرها خمسمائة رطل انجليزي (تحتهوى المجلد الأول من الموسوعة الاوكتافو . ولقد أبلغه الاخوان ميرون ذلك بأنفسهم ، وهم يشعرون بما هو أكثر من الزهو بهنتهم ، لا لأنهم أسلموا المجتمع ما هرب ، وإنما كتعويض وقتى لبيون من بونتارلييه أول خطوط التهريب الذين يرغبون في الحلول محله . وعلى الطرف الآخر من الحدود في بونتارلييه ، أبلغ بيون « فافارجار » أنه شاهد خمس شهادات للاعفاء من الجمارك - أى من الضريبة الجمركية التي تستعين بها الدولة الفرنسية للتحكم في الواردات من الكتب الأجنبية - حررت بمعرفة كاييل عن طريق المغش . وكاييل هو نقيب باعة الكتب في ديجون . ولما كان كاييل مطلوباً للمساءلة بعد مصادرة الكتب التي صدرها ، فقد وعدت ديجون الآن بتخطي بيزانسون بوصفها المستودع الرئيسى لهذا الطريق التحتى ، كما أفصح فافارجار بلهجة المنتصرين عندما أخطر موظفيه بنقل « الاوكتافو » من برن الى سان سولبيس الى ديجون ، وأنها في طريقها الآن الى باريس رأساً . وأخفت جمعية المشتغلين بالطباعة اسم كاييل آمله « أن يقم لنا خدمة مماثلة مقابل مبلغ من المال » وروى باقى ما عنده من معلومات لبانكوك الذى نبه السلطات الفرنسية ، التى انتهت بها الأمر الى مصادرة الأقفاس ، ووضعت السلطات خطة أخرى لعملية مصادرة أخرى فى تولوز على سبيل المثال حيث ألحقت احدى المشاجرات الكبرى خسائر ضخمة بجماعة الاوكتافو . ولما جاء شهر أغسطس ، أووت التقارير الميدانية لفافارجار بتخلى المشتركين عن الاوكتافو ، واندفاعهم نحو ميدي . وفى بواكير

١٧٧٩ ، تقدم ناشرو الاوكتافو بطلب للمصالحة مقابل دفع التمييز المناسب .

واستمرت المفاوضات طوال العام ، بينما أنهت جماعة الكوارتو نسوية اوضاعها في فرنسا ، وحاولت جماعة الاوكتافو تمويض خسائرها عن طريق تسويق الموسوعة وسط أوروبا ، وشرقها . وأخيرا في فبراير ١٧٨٠ ، باع بانكوك ترخيصه للنشر في فرنسا الى اتحاد لوزان - برن لقاء ٢٤٠٠٠ جنيه انجليزي ، واعتبرت هذه الصفقة عملية بخسة ، لأنها تعادل ٨٪ من سعر الانتاج الجارى تقريبا . وهذا يثبت الى أى حد استمرت قوة الطلب على الموسوعة ، في حسابات الناشرين ، على أقل تقدير ، الذين اكتشفوا جماهير جديدة من القراء لم تبلغ حالة التشبع . وفي آخر المطاف ، وبعد أن شعرت جماعة الاوكتافو بالامان ، زادت مطبوعاتها الى ستة آلاف نسخة . وهذا يفسر سر فقدان الطبعة الأخرى . وبذلك وقعت في التو في فخ آخر من فخاخ بانكوك . ولما كانوا عاجزين عن الدفع الفوري له ، لذا ألقنوه بقبول فدية نوعية ، يعنى ما قيمته أربعة وعشرون جنيها انجليزيا من الموسوعة الاوكتافو . وأغرق بانكوك السوق الفرنسية بالنسخ الاوكتافو ، بسعر مخفض ، ثم ربط الخسارة بمبيعات جماعة الاوكتافو مستقبلا ، بأن أشاع قرب اصداره موسوعة أخرى تجب جميع الموسوعات . ولن تكون هذه الموسوعة الجديدة مجرد طبعة منقحة - كان قد خطط لها بالاشتراك مع جمعية المشتغلين بالطباعة - ولكنها ستكون موسوعة منظمة بطريقة علمية . وكان عاكفا آتئذ على ترتيبها بمعاونة اتحاد من لياج . ولم تكن هذه الضربة هي الضربة القاضية في المعركة (تحت الحزام) . فبعد ذلك بأربع سنوات ، اجتمع الأعضاء القداماء في جمعية الاوكتافو . ومن الغريب أن ينضم اليهم حليف بانكوك السابق ، يعنى جمعية المشتغلين بالطباعة ، التي أعلنت عن خطة لسلب الموسوعة التي وعد بها . ولم تذهب هذه الخطة الى ما هو أبعد من مرحلة التخطيط . ومع هذا فيمكن القول بأن حرب الكوارتو والاوكتافو قد انتهت بهزيمة لوزان وبرن .

لم تتسبب معارك النشر في انقطاع تزود فرنسا بالموسوعات الرخيصة نسبيا . والأمر عكس ذلك . فقد أثبتت مدى شراسة كفاح الناشرين لاشباع حاجة السوق الفرنسية ، ومدى أهمية هذه السوق، وصورته أيضا الطابع العدواني للمسئولين الإداريين عن النشر في عهد التنوير بالمقارنة بصناعة النشر ذات الاتجاه المحافظ التي كانت خاضعة للروح النقابية داخل فرنسا . وأخيرا فانها كشفت عن عدم كفاية النظرة العامة ، التي اعتقدت أن التنوير و « الرجم » كانا محصورين في قتال حتى الموت ، لأن جماعة الكوارتو قد استطاعت السيطرة على السوق ، عندما تبنت الدولة استراتيجية تجمع بين

الحماية والامتياز ، وتمثل أساليب «النظام القديم» ، وتوحى بحدوث تحول في اتجاه الحكومة في منتصف سبعينات القرن الثامن عشر . فالكتاب الذي يصعب القول باستطاعته النجاة من الاضطهاد على عهد لويس الخامس عشر ، قد أصبح الأفضل مبيعا ابان حكم لويس السادس عشر ، بعد رضا الحكومة عنه .

ودارت آخر معارك الموسوعة داخل فرنسا . انها معركة أهلية بين دوبلان ورفاقه . ففي فبراير ١٧٧٩ ، تقابلوا في ليون لتقييم موقفهم . وعلى نقيض كل التوقعات ، ذكر دوبلان أرقاما متشائمة عن حركة البيع ، وأوضح رأيه بالقول بأن أوائل المشتركين قد « أحسنوا التعامل معنا » . ولعل هذا النجاح هو الذي أغرى الرابطة بالتوسع ، وربما تعد الطبعة الثالثة للموسوعة كارثة . وقد يستطاع انقاذها لو أمكن توزيع الألف مجموعة التي لم تباع ، على أن تتولى كل رابطة تسويقها في الأماكن التي ارتفعت فيها المبيعات الى ذروتها ، وأيد بانكوك هذا الاقتراح ، لأن منطقة باريس كانت محجوزة له ، وكان بمقدوره توزيع حوالي نصف المجموعات الخمسمائة على « جمعية المشتغلين بالطباعة » . وبعد ذلك بستة شهور ، وفي تقرير اتسم بشدة الجهامة ، حذر دوبلان من عدم كفاية هذه المناورة ، لانقاذ الطبعة الثالثة . وأخبرهم أن مئات المجلدات ستصاب بالمطب بالمخازن ما لم تتخذ اجراءات حاسمة ، وأنه اكتشف لحسن الطالع تاجرا يدعى بيران . وهو من مجانيين الموسوعات ، ومن ثم بات بمقدوره اغراقه بالنسخ غير الماعة . على أن بيران طالب بشروط غير مألوفة كتخفيض يبلغ خمسين في المائة . ولكن الحظ سيكون بجانبهم اذا نجحوا في التخلص من فائض المخزون لديهم بأى سعر . وقد أبدى بيران استعداده للحصول على عدد ضخم ، يقدر بربعائة واثنين وعشرين مجموعة ، بالإضافة الى ١٦٠ مجموعة من نصيب بانكوك (ألف مجموعة) التي تقاسمها هو ودوبلان في فبراير . وأقر بانكوك الاقتراح . ولكنه فور توقيع عقد بيران ، شرع في الكشف عن ارتيابه . فلقد سمع أن دوبلان قد حاول توريث صديق مشترك في مؤامرة سرية لاغراق سوق باريس بنسخه من الكوارتو . واكتشف ما يكتنف رسائل دوبلان من غموض يدعو الى القلق ، فيما يتعلق ببيران الذي وصف بأنه « عميل تجارى من ستراسبورج ، ولديه أعمال في ليون - أو ربما في باريس بمعنى أصح - وأنه شديد الثراء ، مما يعنى إمكان التجاوب معه » . وفي سبتمبر ١٧٧٩ ، أسر بانكوك الى جمعية المشتغلين بالطباعة ! « انى جد مقتنع بأن هذا (البيران) لا يزيد عن مخلوق من صنع الخيال ، أو على أقصى تقدير انسان هس ، والعبوة . فهو بخيل ، واصطناعه الرقة لا يخفى على أحد » . فقد أصبح مقتنعا بأن دوبلان « شخصية شريرة » ، وشره ويعبد المال الى درجة شعوره بالفضب من كل

ما يمس هذه الناحية ، • وليست هناك أية حدود لضراره ومطامعه • ونصح «جمعية المشتغلين بالطباعة» بإيفاد جاسوس الى دكان دوبلان ، وان كانوا لم يشعروا بأية حاجة الى التشجيع على القيام بذلك لانهم كانوا قد أقدموا على هذه الخطوة منذ امد بعيد • والواقع أن جميع أعضاء الرابطة كانوا يتبادلون التجسس • فخصص بانكوك رجلا لمراقبة دوبلان ، وتلقى مواطنو نويشاتل تقارير سرية عن بانكوك ، وخصصوا عميلا لهم فى جنيف ، ونصب عميلهم فى ليون فحاز من الجواسيس المنتمين فى المصانع ، وتسنى لهم ايقاع دوبلان فيه فى فبراير ١٧٨٠ •

وجدت شبكة ليون لاقتفاء اثر المراوغ بيران ، الذى اتضح أنه العوبة وعميل أجبر لدوبلان • ثم أوقعت الشبكة فى فخ أكبر ، بعد أن عثرت على نسخة من قائمة سرية بأسماء المشتركين ، وتتضمن أيضا مقادير المبيعات الفعلية للموسوعة • ولم تشر القائمة الى مبيعات بيران ، ولكنها احتوت - بدلا من ذلك - على عدد من الاشتراكات يزيد بمقدار ٩٧٨ عن العدد الذى ابلغ عنه دوبلان فى آخر تسوية للحسابات فى فبراير ١٧٨٠ • وكانت جمعية المشتغلين بالطباعة قد ارتابت فى حلوث غش ، قبل هذا الاجتماع ، وتحققت من وقوعه ، بمجرد تقديم دوبلان لتقديره ، وكتبت الى بائعى الكتب الذين زيف عدد ما لديهم من مشتركين ، بعد مقارنة الاشتراكات المبلغ عنها ، بما جاء فى القائمة السرية • وبذلك اكتشفت عدم توقف سيل الطلبات قط ، كما زعم دوبلان • وعلى العكس ، فقد بيعت الطبعة الثالثة عن بكرة أبيها بالسعر العادى ، باستثناء خمسمائة مجموعة استودعها «دوبلان» بانكوك • وهكذا اتضح اخفاء دوبلان حقيقة المبيعات حتى يستولى عليها بأكملها ، دون أن يدفع مقابل لخمسمائة نسخة من الموسوعة ، اشتراها وباعها للباقيين بنصف السعر اعتمادا على الوسيط الزائف :: بيران •

وبدلا من أن يقنع دوبلان بهذه العملية المذهلة من الغش المزدوج ، التى تربح منها ما ينوف عن المائتى ألف جنيه ، تهادى فى عمليات الغش ، حتى أصبحت العملية حجة التعقيد ، بحيث يتعذر تفسيرها بالكامل • وأتاح له دوره كمدبر عام للمشروع فرصا عديدة للاختلاس ، لأن رابطة الكوارتو منحتة مبالغ طائلة لتغطية نفقاته • ، ومن ثم تعاقد على الطباعة هو والمتقدم بأدنى عطاء • ولهف « فى جيبه الفارق بين ما منح (بضم الميم) وما دفع • وغش أيضا فى تقدير أثمان الورق وتكاليف النقل ، بل واشترك فى تقنية تنسيق « الماكيت » والترقيم التى صممها احد المختصين فى الطباعة من جنيف • وكشف فى هذه النواحي عن مهارته فى حيل الغش والتدليس • وهذه ناحية ربما بدت تافهة فى نظر أى نصاب مبتدئ • ولكنها ساعدت على تضخيم الجزء التاسع عشر ، الذى أضيفت اليه ست وتسعون

صفحة بلا أدنى حاجة ، وقد ثمنها بسبعمائة وأربعة وأربعين جنيها ، وقد رباتوك وجمعية المشتغلين بالطباعة ما نال دويلان من ردود الفعل القوية والعمولة المحرمة بمقدار ١٢٧٠٠٠ جنيه ٠ وان كان هذا مجرد تقدير تقريبي ، لا أظنه يتوافق مع عبقرية دويلان ٠ ولربما تجاوزت أرباحه ثلاثة ملايين من الجنيهات بفضل حساباته الفاضلة - بقصد - والتي تخفت في ثنائياها اختلاساته ، التي اشتملت على بعض المصروفات الثرية والارادات المشبوهة ٠ ولعل دويلان قد احترف الغش في كل صغيرة وكبيرة ٠ فمثلا نسب ٤٩٤ اشتراكا لمصنع ليون : اودانبرون وجوسينيه بالسعر المنخفض (الذي يمنح عادة لباعة الكتب) بمقدار ٢٩٤ جنيها يضاف اليها مجموعة مجانية لكل ١٢ اشتراكا ، مما جعل المجموع الكلي يصل الى ٥٣٥ اشتراكا ٠ واكتشفت الشبكة المناهضة لنويلان أن « اودانبرون وجوسينيه » ما هما الا جهات زائفة نسبت اليها هذه القصص للتويه ، بينما قام دويلان في الحقيقة ببيع هذه المجموعات (٥٣٥) بالسعر الكامل للاشتراك (٣٨٤ جنيها) وبذلك سلب الرابطة ما قيمته ٥٦٠٢٠٤ جنيها !

ولما كان مشروع الكوارتو قد أدير بأسلوب المؤامرات من البداية ، لذا فقد انتهى بالتفجر وكانه احدى نهايات الدراما البورجوازية ، أو « صراع الديوك عند الانجليز » على حد قول جمعية المشتغلين بالطباعة ٠ ولقد أخفت القوى المعادية لنويلان شكوكها ، بينما كانت تجمع قدرا من المتفجرات يكفي لنسف دويلان في اللقاء الأخير لاجتماع الحسابات الختامية في ليون (فبراير ١٧٨٠) ٠ ولم تكن عملية مواجهة الموارد سهلة ، كما اعترفت جمعية المشتغلين بالطباعة لبانوك : « لقد كنت حكيما عندما استشرتنا ، وطلبت موافقتنا على مدهنته وعدم اظهارنا لاي ضيق من مسلكه حتى ينكشف امره ، غير أنه بعد أن تدخل الشيطان ، ازدادت صعوبة الموقف يوما بعد آخر » ٠ فعندما تكشفت الحقائق ، فاجأت الرابطة دويلان بوابل من الاتهامات التي أعدوها فيما يقرب من السنة ٠ وقدموا صورة صحيحة من الحسابات ، وكشفوا عن تسلسل مذهل لعمليات الاختلاس ، وأماطوا اللثام عن مسألة يران ، وانتزعوا علامات التمويه التي أحاطت « باودانبرون » و « جوسينيه » ، وعرضوا القائمة السرية للاشتراكات مصحوبة برسائل من باعة الكتب تشهد بوقرة احدات الغش في المبيعات ٠ ولكن رغم كل ذلك ، فقد رفض دويلان التذاعي والاعتراف ، ومن ثم شنوا حملة على مكتبه ، بمراقبة مندوب من الشرطة والمدعي العام وأحد المحضرين ، وطالبوا بجرد أوراقه ، وأثاروا أسرته وأصدقائه ضده ، وهددوا بتحطيم اسم الأسرة بالكشف عن المسألة برمته للكافة ٠ وأخيرا استسلم دويلان ووافق على تمويض شركائه بمبلغ مائتي ألف جنيه ، اذا واروا كل شيء عن الأنظار ، ومازالت المسألة مستترة حتى اليوم ٠

فأى نوع من الرجال كان هذا اللوبلان ؟ وللسؤال جاذبية خاصة
 تهم التاريخ الاقتصادى ، وتاريخ النفس الانسانية على السواء . لقد كان
 دوبلان من « شيوخ المنصر » فى تجارة الكتب ، ومقامزا يظامر بالترض
 لأخطار فادحة فى سبيل الحصول على أرباح عالية ، واستطاع أن يجعل من
 « التنوير » موردا للاستغلال . فلقد صمم على المجازفة بكل شىء فى سبيل
 الموسوعة الكوارتو . فباع محله ورصيده من الكتب وبيته ومفروشاتة ،
 وانتقل للإقامة فى غرفة مفروشة حتى يتفرغ لمهته الكبرى . ثم حالفه
 الحظ فى أوراق لمبته ، فقد نجحت هذه المقامرة فى اثرائه ، الذى لم يتأثر
 حتى بعد أن أجرى تسوية المائتى ألف جنيه . وبمجرد أن أدرك ما أصابه
 من ثراء ، بدأ فى تخطيط خطوات حياته . فحصل أولا على زوجة جميلة
 من ليون أسرت لب بانكوك ، ثم حصل على صنعة فى الريف ، وأخيرا حصل
 على وظيفة رئيس الحدم الخاص بالملك (*) ، وهو ما يعنى انضمامه الى
 طبقة الاشراف . وكان يخدم الملك فى أوقات العسل الرسمية فى فرساي ،
 ويهيش برفقة زوجته حياة مترفة بغيضة فى باريس ، قبل أن ينتقلا منها
 للإقامة فى قصره .

فما هى العبرة المستقاة من هذه القصة ؟ انها دراما تذكرنا ببلزاك .
 قصة رجل أعمال بورجوازي شق طريقه الى القمة ، ثم استهلك ثروته فى
 المظاهر ، وفى حياة ارستقراطية ، بعيدا عن الناس . انها قصة أسطورية
 للثروة المقتناة من عمليات النشر ، وما يصحبها من أهام ضائعة (**)
 ويصح أن توصف أيضا بقصة الرأسمالية الفرنسية . وأعظم ما فيها من
 سخرية أن تكون الوسيلة التى اعتمد عليها دوبلان فى تسلقه الى قمة النظام
 البالى للطبقات فى فرنسا قبل أن يقضى عليه بسنوات قليلة ، هى موسوعة
 ديدرو . ولعل باستطاعتنا الاستناد الى قصة دوبلان كتحذير ضد الافراط
 فى الوثوق فى التحليل الاجتماعية من النوع الذى سيجي ذكره . فحتى
 اذا أمكنك ادراج شخص ما ضمن فئة اجتماعية واقتصادية ما- فلربما يكون
 قلبه فى موضع آخر . نعم لقد اتضح أن الرأسمالى البورجوازي الكامل
 دوبلان من النبلاء الزائفين ، أو هل يصح القول بأن الطبعة الثالثة المنتحلة
 للموسوعة كانت هى جوهر البورجوازية الفرنسية ؟

وربما استطاع التاريخ « الجوانى » للحرب بين من أصدروا الموسوعة
 أن يكشف شيئا ما عن روح الرأسمالية وطبيعة رجال الأعمال فى بداية
 عهد فرنسا الحديثة . غير أن هذا التاريخ لن يجيب على التساؤل الأكبر
 حول ماهية ما دار من معارك . بطبيعة الحال ، لقد كانت رأسمالية الأسلاب

تخس من أجل الأسلاب . فقد أدرك بانكوك وغيره من القراصنة من أمثال دوبلان والسويسريين ، ومن سار على هديهم من مولين ومهريين وبائعين متجولين ، أن باستطاعتهم اقتناء ثروة ضخمة ان هم تجاوزوا والمطالبة الرهيبة للسوق في فرنسا بطبعة شعبية لهذا العمل الجبار الذي ظهر في عصر التنوير . وتوحى شراسة المنافسة لتحقيق هذا المطلب بشيوع الاهتمام بمعتقدات التنوير وذيوعها على نطاق واسع في فرنسا بين الجماهير العريضة ، ان لم يصح تسميتها بطبقة عامة الناس ، ولكن ما هو طابع هذه الجماهير ؟ يتماثل هذا السؤال هو والكثير من مشكلات سوسولوجية الأدب في صعوبة اجابته ، وان كان بمقدورنا تحديد المظاهر الخارجية لطبيعة قراء الموسوعة . فالولا لابد أن نستعرض الحقائق الأساسية المتعلقة بطبعات نص ديدرو . ولعل هذا الغرض سيساعدنا على التعرف على المستويات الاقتصادية لمختلف أنماط المستهلكين . وأخيرا فيمقدورنا أن نحاول بيان التوزيع الجغرافي والاجتماعي للطبعات الكوارتو ، والتي كانت الى أبعد حد الأكثر عددا في فرنسا ما قبل الثورة . واذا صرفنا النظر عن الطبعات الايطالية التي نشرت (بالفرنسية) في لوكا ولجهورن والموسوعة البروتستانتية المنقحة التي نشرت في ايفردون بوساطة بارتليمي دي فليس والموسوعة المنهجية - العمل الذي أعيد ترتيبه بالكامل ويقع في اثنتين وعشرين مجلدا ولم يكتمل حتى ١٨٣٢ - فاننا سنرى أن نص ديدرو قد مر بمراحل أربع أساسية :

١ - الطبعة الأولى (١٧٥١ - ١٧٥٢) وهي طبعة فوليو مكونة من سبعة عشر مجلدا ، وتحتوى على متن و١١ لوحة متبوعة بملحق(*) من خمسة أجزاء ، وبعض الجداول التحليلية في جزئين . وطبع منها ٤٢٢٥ مجموعة ، لم يبع منها أكثر من نصفها ، أو ربما ربعها في فرنسا . وكانت قيمة الاشتراك ٨٩٠ جنيها وتراوح سعرها في السوق في سبعينات القرن الثاني عشر بين ١٢٠٠ جنية و١٥٠٠ جنية .

٢ - الطبعة المعادة في جنيف (١٧٧١ - ١٧٧٦) وصدر منها نفس عدد مجلدات الطبعة الفوليو ، وطبع منها ٢٢٠ مجموعة . وكانت قيمة الاشتراك ٧٩٤ جنيها ، ولكنها كانت تباع سنة ١٧٧٧ بمبلغ سبعمائة جنية بعد منافسة الطبعات الكوارتو لها .

٣ - الطبعات الثلاث الكوارتو (١٧٧١ - ١٧٨١) وتناظر الاشتراكات الثلاثة لدوبلان . وظهرت بمعرفة بيليه وجمعية المشتغلين بالطباعة في نويشانتل ، كما ذكر أنفا . واشتملت الطبعات الكوارتو على ستة وثلاثين

مجلدا تحتوى على المتن ، وثلاثة أجزاء تضم اللوحات • وتشتمل هذه المجلدات فى جملتها على ٨٠١١ مجموعة • وقد بيعت بأكملها تقريبا بقيمة الاشتراك (٢٨٤ جنيها) • ثم خفضت قيمة الاشتراك للأفراد وبانعى الكتب الى ٢٩٤ جنيها ، مع اهداء نسخة مجانية لكل ١٢ طالبا •

٤ - الطبعتان الأوكتافو (١٧٧٨ - ١٧٨٢) • ويعدان بالفعل طبعة واحدة مزيدة مقابل اشتراكين ، ونشرت فى لوزان وبرن • وتضم الطبعة الأوكتافو ٣٦ جزءا من المتون وثلاثة أجزاء من اللوحات • وقد ظهر منها ستة آلاف مجموعة بيع كل منها بمبلغ ٢٣١ جنيها •

وتستخلص من هذه الوقائع والأرقام احدى النتائج المدهشة وهى وجود أعداد من الموسوعة فى فرنسا ما قبل الثورة الفرنسية تجاوز كل ما يخطر ببال البشر باستثناء الناشرين فى القرن الثامن عشر • وعلى الرغم من تعذر اجراء حسبة دقيقة لعدد ما بقى من نسخ اعتمادا على معرفة أعداد المشتركين التى وردت فى مستندات الناشرين ، الا أن هذا لن يحول دون اجراء مثل هذا التقدير على نحو بعيد عن الزلل • فقد وجد فى فرنسا ما بين اربعة عشر ألف مجموعة وستنة عشر ألف مجموعة من الموسوعة قبل ١٧٨٩ ، ولن يتعدّر تتبع آثار نصفها ، ومن ثم فبغير ادعاء معرفة كل من مجموعات الموسوعة قد قرىء ، أو على أى نحو استجاب القراء لها ، فان بوسعنا حقا أن نزعّم انتشار التعلق بالموسوعة فى المجتمع الفرنسى على نطاق أوسع مما يعتقد بوجه عام •

وبعد أن تطورت طباعة الموسوعة من طبعة لأخرى ، تناقص حجم صفحاتها ، وقل عدد اللوحات ، وانحط مستوى الورق ، وانخفض سعرها • وبعد أن تناوبت دور النشر اخراج الموسوعة ، فانها مدت شبكها لاجتذاب جماهير جديدة ، مما أدى الى وصول الطبعات الجديدة الى قطاعات قسبة من جماهير القراء • ويبين من تنوع أسعار الموسوعة ، على نحو دفع من يقتونها الى المفاضلة بين مختلف الطبعات ، الحدود التقريبية لما حدث من اتساع فى نمط المبيعات • اذ كانت الطبعة الكوارتو تتكلف أكثر من ربع سعر أول طبعة فوليو ظهرت فى سبعينات القرن الثامن عشر ، بينما لم تتكلف الطبعة الأوكتافو ما هو أكثر من الخمس • ولكن ما هى الحدود الاجتماعية « لاستهلاك » الموسوعة ؟ • ربما بدا هذه السؤال غير مناسب لأن علم الاقتصاد لا يقدم تفسيراً لما يعنيه مصطلح « استهلاك الكتاب » ، لأن عملية شراء الكتاب شيء ، وعملية قراءته شيء آخر • ومع هذا فان بيع الكتاب اجراء مهم اذا نظر اليه من الناحية الثقافية والناحية الاقتصادية معا ، لأن هذه الظاهرة تزودنا ببعض دلائل عن مدى انتشار الأفكار خارج الوسط الفكرى ، الذى جرت العادة على تركيز التاريخ الحضارى أو الثقافى.

عليه . ولما كان لم يسبق على الإطلاق اجراء دراسة لمبيعات أى كتاب فى القرن الثامن عشر ، لذا يعد تحليل مبيعات أهم سفر ظهر فى عصر التنوير مسألة فائقة الأهمية .

وبمقدورنا أن نقيم مدى اقتراب « الموسوعة » من الاحتكاك بالطبقات الدنيا ، اذا ترجمنا قيمتها الى خبز ، يعنى الى السلعة الرئيسية فى مائدة « النظام القديم » والعنصر الأساسى فى غذاء معظم الفرنسيين . وسنرى آنئذ أن أول موسوعة فوليو تعادل حوالى ٣٥٠٠ رغيف من الخبز . وتعادل الموسوعة الكوارتو ٩٦٠ رغيفا من خبز الشيلم على أساس ثمانية « سو » لكل اربعة اطلال فى خبز الشيلم فى باريس ما قبل الثورة . ولما كان العامل غير الماهر المتزوج ولديه ثلاثة اولاد يحتاج لشراء مالا يقل عن ثمانية أرغفة لتغذية أسرته ، وينفق فى أوقات اليسر نصف دخله على الخبز ، لذا تحتل الطبعة الرخيصة من الموسوعة الكوارتو ما ينوف عما يحتاجه اقتيات أسرة فى سنة على وجه التقريب . ويبدو بعيدا عن التصور احتمال شراء عاملا لموسوعة - بفرض تمكنه من قراءتها - فلعل هذه الصنفقة أقرب شيئا باحتمال شرائه لقصر من القصور ! وربما تكبدت أسرة العامل فى سبيل شراء نسخة من الفوليو اجر ٩٣ اسبوعا . وتعادل الطبعة الكوارتو اجر ٢٦ اسبوعا والاوكتافو اجر ١٥/٤ اسبوعا . ومن ثم كان من المستبعد أن تقدم الشريحة العليا من الطبقة العاملة والحرفيين أى أولئك الذين اشتركوا فى طبع الموسوعة ، على تحمل تكاليف شرائها .

أما من اشتركوا فى تحريرها من صغار الكتاب (*) المدوجة أسماؤهم فى صفحة العناوين ، فقد كان باستطاعتهم شراء الطبقات الأرخص . وحدد دييرو بالذات متوسط ٢٦٠٠ جنيه سنويا مقابل جهده لمدة ثلاثين سنة فى الموسوعة . ولعل الطبعة الكوارتو كانت سستكلفه ٧/٤٪ من أتعابه والاوكتافو ٤/٤٪ وهذا التقدير لا مغالاة فيه ، اذا راعينا اعتماده على مصادر دخل أخرى . وكان هناك كتاب كثيرون أغنى من دييرو يتقاضون ما يكفى لسد الرمق من أولياء نعمتهم ومعاشهم . ومن نماذج ميسورى الحال الجديريين بالتنويه ساورين (**). وقد نسى أمره الآن وكان دخله يناهز ٨٦٠٠ جنيه سنويا من معاشه وأتعابه . وقد أدرج اسمه ضمن فئة الكوارتو باعتبار ثمنها يعادل ٢/٤ دخله فى أسبوع . وعبر كاتب على قدر الحال (***) - وهو من الكتاب المغامرين الذين كانوا يقتاتون على فتات مائدة فولتر - عن شدة تحمسه لطبعة الاوكتافو فى رسالة الى جمةية المشتغلين بالطباعة فى نويشاتل بقوله :

Gens de lettres.

(*)

B. J. Saurin.

(**)

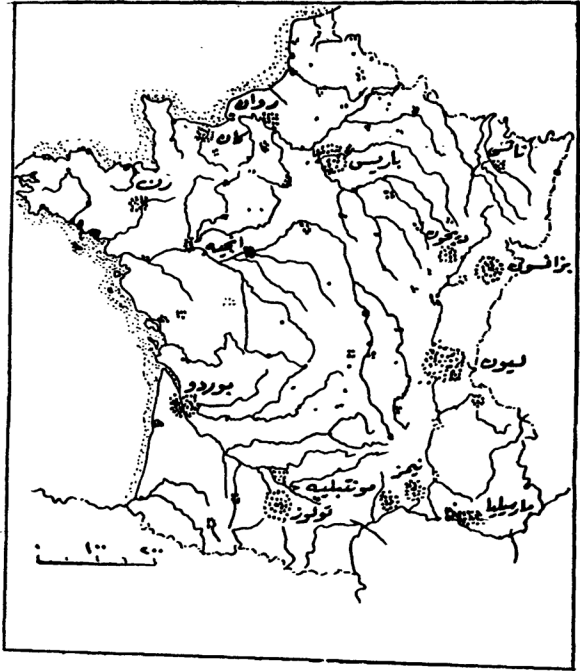
Durey de Morsan.

(***)

« ان عدد الأدباء المساكين يتجاوز كثيرا القراء الأثرياء . وكم أشعر
بالقنطة لأن سعر هذا السفر – الذى ما زال مرتفع الثمن حتى الآن –
مازال مناسباً لدخل الغلابة أمثال . وكم أتمنى أن يفتح باب العلوم والفنون
والحقائق النافعة على مصراعيه ليلا ونهارا لكل قادر على القراءة » .

ومن المتعذر ذكر أرقام دقيقة عن شتى الدخول المتفاوتة بين أبناء
الطبقة المتوسطة فى الأقاليم . وان كانت التقديرات تثبت لنا مدى ارتفاع
ثمن الموسوعة بالنسبة للأشخاص الذين تقل مرتباتهم عن دخل أى نبيل من
النبله أو ثرى من الأثرياء ممن يرتفع دخلهم عن دخل عامة الناس . وعلى
الرغم من أن القسس كانوا يتقاضون قرابة خمسمائة جنيه فقط ، وهو
راتب لا يقيم الأود بعد ١٧٦٨ . الا أن دخلهم السنوى كثيرا ما ارتفع فبلغ
ما يتراوح بين ألف وألفين من الجنيهات . ويحتل قضاة المحاكم الاقطاعية
قمة السلم الوظيفى بين رجال القانون من البورجوازيين فى الأقاليم .
وكثيرا ما كانوا يتقاضون ما بين ألفين وثلاثة آلاف جنيه سنويا . وبذلك
تمثل الموسوعة الكوارتو ما يعادل أجر من ستة الى سبعة أسابيع من دخلهم .
وكى يعيش البورجوازي فى مستوى النبله ، كان عليه أن يدبر أمورهِ
بحيث يحصل على ايراد يتراوح بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف جنيه سنويا ،
وبذلك يحتاج الى أجر خمسة أسابيع من دخله لشراء نسخة كوارتو من
الموسوعة .

وهكذا يتضح ، اذا سائرنا علماء الاقتصاد فى دقة استخدامهم
لمصطلحاتهم مدى ارتفاع ثمن الطبعة الأولى والطبعة الثانية من الموسوعة ،
مما جعلها صعبة المنال خارج دائرة رجال البلاط ونجوم الصالونات
والبرلمانيين التقدميين ، الذين كانوا يؤلفون كوكبة الطليعة الثقافية (الأفان
جارذ) . وتمتد الطبقات الأرخص من مواد الترف ، وان كان بمقدور كثيرين
من أبناء الطبقة المتوسطة – لو راعوا الكثير من التدبير – اقتناؤها، كما يحدث
فى عالم الموسوعات اليوم . ولقد تجاوب ثمن الموسوعة الكوارتو والموسوعة
الاوكتافو مع دخل نخبة متنوعة من صغار المرموقين من أهل المدن وأعيان
الأقاليم ، وتجاوب بالمثل مضمونها معهم . ولكن هاتين الموسوعتين كانتا
خارج حدود تطلعات من هم أدنى مرتبة من البورجوازيين . وكما لاحظ
الناشرون – وهم خير من يعرف زبائنهم – فان الحجم القوليو قد ناسب
عنية القوم والمكتبات ، بينما اعتبر الحجم الكوارتو فى متناول الأدباء
والشغوفين من القراء ، ممن يتمتعون بالستر فحسب ، . وأدرك الاداريون
من العاملين بالموسوعة ان بمقدورهم زيادة هامش أرباحهم اذا زادوا من
اتساع السوق . فلقد اكتشفوا منجما من الذهب لم يطرقة أحد من الأدباء ،
وبدل تهافتهم على استغلاله على مدى تقلم الثقافة ، وانتشارها بين عامة
القراء . ولكن أين كان يعيش هؤلاء القراء ، ومن هم ؟



توزيع الموسوعة في فرنسا

ان الخريطة (شكل ١) المنقولة عن قائمة دوبلان السرية للمشتركين تبين التوزيع الجغرافي لجميع نسخ الكوارتو على وجه التقريب ، يعنى ما يقرب من نصف الموسوعات التى كانت موجودة فى فرنسا قبل ثورتها . ومنها يبين أن الموسوعة ، قد وصلت الى كل شبر من أرض البلاد ، وتوافق توزيعها على خير وجه - بقدر ما نستطيع أن نعرف - هو وتوزيع السكان . وكانت الاشتراكات فى منطقة باريس والشمال الغربى شحيحة . ويرجع ذلك - فى أغلب الظن - الى اكتظاظ هذه الأسواق بطبعات أخرى . وإذا تجاوزنا مدينة ريم ، سنرى أن برينانى تكاد تشبه صحراء قفراء فكريا ، وربما صح هذا الحكم . ولكننا نشاهد منحنى أشبه بالهلال الخصيم لتوزيع الموسوعة عبر مبدى من ليون الى ميمس ومونبلييه وتولوز وبوردو . وحتى وسط فرنسا الكثيف السكان ، يبين وجود كثافة عالية نوعا للاشتراكات . ومن ثم يبين ضعف الدليل القائل بانقسام فرنسا الى جنوب متخلف ثقافيا وشمال متقدم ، ويفصل بينهما حد فاصل ، يجرى بين تلال سان ميشيل الى جنيف . والظاهر أن مبيعات الموسوعة كانت أفضل حالا فى المدن ، حيث توجد البرلمانات والأكاديميات ، ولكن مبيعاتها فى شتى الانحاء كانت لا بأس بها . ولعل هذه النتيجة يمكن استخلاصها من الخريطة . وبمجرد إعادة اصدار الموسوعة فى طبعة رخصه نسبيا ، انتقلت كتابات ديدرو الى أنحاء قصية فى جميع الجهات الأصلية ، أكثر مما توقع (لوحة ١) .

ولم تحدد القائمة السرية لاشتراكات دوبلان جميع المشترين . فهى لا تحتوى على غير أسماء باعة الكتب ، الذين كانوا يشترون عادة بضع عشرات أو يزيد من المجموعات ، ثم يقومون ببيعها « بالقطاع » بين الزبائن المحليين . ولكن هناك قائمة فريدة بالمشترين من الأفراد لطبعة الكوارتو (*) ولقد ترجمت الى رسم بياني (لوحة رقم ٢) يضم بيزانسون واحدى الوحدات الادارية والقضائية والكنسية وأحد المراكز الحربية ، حيث ارتفعت المبيعات الى درجة كبرى . ويبين الرسم البياني مدى ارتفاع نسبة المشترين للموسوعة بين العاملين بالشئون القانونية من محامين وأعضاء البرلمان بيزانسون . ولقد بيع من الموسوعة نسخ عديدة فى القطاعين الأولين ، وبخاصة بين كبار قادة الجيش . وهذا أمر متوقع فى مدينة تضم حامية عسكرية . واشترى الاداريون فى الخاصة الملكية - ويكاد أغلبهم ينتمى لطبقة النبلاء - الموسوعة بأعداد كبيرة . وفعل الشيء نفسه الوردوازيون من المهنيين ، خصوصا الأطباء . وان كان هذا بقدر محدود . واقتنى أربع عشرة مجموعة من المجموعات المائة سبعة وثلاثون من التجار

والمشتغلون بالصناعة - وهي نسبة عالية بالمقارنة باحصائيات دانييل روش للاكاديميين في الاقاليم ، وتحليل جاك بروسست للمساهمين في تحرير الموسوعة . واقنتني ما يقرب من نصف في المائة من أهل بيزانسون الموسوعة الكوارتو . وهي نسبة عالية لا تستبعد صحتها ، بعد الاطلاع على التحليل المذكور آنفا عن الحالة الاقتصادية للعملاء ، وتحليل تكاليف الموسوعة . ولم يتوقع البائعان الأساسيان في المدينة بيع أكثر من عشر نسخ أو يزيد من المجموعات ، وشعرا بالاندهاش لما صادفته الموسوعة من اقبال، خصوصا بعد أن تعرضت تجارتها للكساد بعد ١٧٧٧ وكتب أحدهم الى جمعية المشتغلين بالطباعة : « أرجو أن لا تعتقد اننى استطعت ترويج ما لدى من كتب كما آتمنى . وأقسم لك اننى بعد توزيع كتب التاريخ العالمى والتاريخ الكنسى (كنيسة الغال) وأحد الاناجيل والموسوعة وروسو . لم احصل على أى كسب آخر فى السنتين الماضيتين » .

وربما لا يصح اعتبار نمط المبيعات في بيزانسون ممثلا دقيقا لفرنسا فى جملتها ، وان كانت البيانات غير الاحصائية تبين وجود حماسة ماثلة للموسوعة فى مراكز أخرى . ففى تولوز ، فى الطرف الجنوبي من المملكة ، باع صاحب محل تجليد يدعى جاستون ١٨٢ نسخة من الموسوعة الكوارتو فى ثلاثة أسابيع ، وكان يتوقع تلقى ربحائة نسخة من حجم الأوكتانو . ويوجه عام عندما تحدث باعة الكتب الفرنسيون عن الزبائن الذين اشتروا الكوارتو ، فانهم ذكروا المحامين وموظفى الخاصة الملكية والنبلاء القيمين فى الاقاليم ، وبذلك اختلفوا عن أقرانهم فى شمال أوروبا ووسطها وشرقها ، الذين لم يشيروا الى غير رجال القصر والبلاط . وهكذا تشير جميع الدلائل الى الاتجاه نفسه . ففى فرنسا ما قبل الثورة استطاعت موسوعتها ، شق طريقها بين عالم الصفة فى الاقاليم ، الذين تزعموا الثورة الفرنسية ، وواصلوا الهيمنة على أهالى الاقاليم ابان القرن التاسع عشر .

فلا أحد يستطيع ادعاء معرفة الرسالة التى حققتها الموسوعة ، والأثر الذى تركته فى عقول هؤلاء القراء . ولا بد أن يكون كثيرون قد اشتروا الموسوعة تأثرا بما زعمته عن نفسها ، أى كخلاصة للمعرفة بأسرها ، أكثر من كونها دعاية فلسفية . وكما عبر عن ذلك بانكوك : « سوف تفتدو الموسوعة دوما الكتاب الأول فى كل مكتبة أو مكتب » . ولكن لم يخطر ببالهم احتمال تحول الموسوعة الى سفر استعراضى يودع رفوف المكتبات للزينة ، وليس للقراءة ! . فعلى ان لا ننسى أن بانكوك قد وصف بعض المشتركين فى ليون بأنهم كانوا عاجزين تماما عن القراءة . ولكن من الصعب الاعتقاد بعدم تجاوز بعض اصحاب الموسوعة ، قراءة بحثها التمهيدى ،

والذي تضمن مقعده صافية عن خصائص عصر التنوير . ولا بد أن يكون جمهور أوسع قد قرأ الموسوعة أكثر من كونه قد اقتناها . وهذا احتمال متوقع في عصر كان يبيع استعارة الكتب بلا قيد أو شرط . وكان هناك انتعاش للمكاتب الأدبية(*) ، ومن ثم يصح القول بأن المقومات الرئيسية لقصة سيرة هذا السفر هي الحماية التي وفرتها لها السلطات الفرنسية ، والصراع لاستقلالها بين عملاء الكتاب ، وانتشارها بين زبائن من المرموقين من متوسطى الحال في شتى أنحاء البلاد ، وتقول ان هذا النجاح منقطع النظير لهذه القصة قد كشف عن انتشار التنوير وبلوغه مجالات تتجاوز صفوة رجال البلاط والعاصمة ، وانها انتشرت بين أقطاب « النظام القديم » كما يبين من رسالة جمعية المشتغلين بالطباعة الى أحد العملاء في أغسطس ١٧٨٩ :

« لم يسبق أن حقق مشروع من هذا القبيل نجاحا أعظم ، او تم تنفيذه بمثل هذه السرعة . ففي أقل من سنتين ونصف السنة ، وبعد أن تجدد الاشتراك مرتين قمنا بطباعة ثمانين ألف نسخة من هذه الموسوعة ، والتي لم يبق لدينا منها غير عدد قليل من نسخها . والظاهر أن الجماهير قد انتظرت بصبر نافذ أن يظهر ناشرون أقل شراهة من مخرجي الطبعة الأولى (وهذا قول مشكوك فيه) . اننا نفخر نحن وشركاؤنا أننا وفقنا الى ارضاء الجماهير في هذا المضمار . وستلاحظ يا سيدي أن هذا العالم الذي يعتبر أفضل العوالم الممكنة لو افتقر الى التنوير (**) فان الخطأ لن يكون خطانا » .

Cabinets littéraires.

Lumières philosophique.

(*)

(**)

المراجع

- T. Besterman, Voltaire (1969).
- E. Cassirer, The Philosophy of the Enlightenment (1951).
- H. Chisick, The Limits of Reform in the Enlightenment. Attitudes toward the Education of the Lower Classes in the Eighteenth-Century France (1981).
- R. Darnton, The Business of Enlightenment : A Publishing History of the Encyclopedia 1775-1800 (1979).
- P. Gay, The Enlightenment : An Interpretation (2 Vol.) 1960-1969.
- N. Hampson. A Cultural History of the Enlightenment. (1969)
- M. C. Jacob, The Radical Enlightenment : Pantheisty, Free masons and Republicans (1981).
- J. Lough. The Contributors to the Encyclopedie (1973).
- F. Manuel, The Eighteenth Century Confronts the Gods 1959.
- A. M. Wilson, Diderot (1979).

الدستور المدني لرجال الدين في الثورة الفرنسية

ميكائيل كندى

ابتداءً من أواخر ربيع ١٧٨٩ ، تعرضت فرنسا لما يصح أن يوصف
بعهد اليزات الثورية السياسية والاجتماعية ، التي أسفرت عن قلب النظام
الملكى وإنشاء النظام الجمهورى . وعلى الرغم من أن الحكومة الثورية قد
أعدت انشاء جميع المؤسسات الفرنسية ، فانوا أقدمت أيضا على اجداث
اعظم تغير جدرى لها فى نطاق الدين .

ولقد مرت السياسة الدينية للحكومة الثورية فى عدة اطوار ، وعلى
الرغم من تايد القسس للكثير من اكبر منجزات الجمعية الوطنية ، الا أن
هذه الجمعية صادوت معظم ممتلكات الكنيسة فى خريف ١٧٨٩ .
وما لبث ان قهعت الأديرة ، واتجه مختلف رجال الدين وعامة الناس
من انحافطين ، فيما بعد ، الى معارضة الثورة باسم الدين ، وحدثت
مصادمات محلية عديدة بين أنصار الكنيسة والحكومة . وفى يونيو
١٧٩٠ ، أقرت الجمعية الدستورية أخطر التشريعات الدينية للثورة :
الدستور المدنى لرجال الدين . وحول هذا القانون الكنيسة - فى واقع
الأمر - الى سلاح الدولة . ومنذ ذلك الحين ، أصبح تعيين الأساقفة
والقسس فى مناه بهم يتم عن طريق الانتخابات العامة ، وطلب من جميع
القساوسة أن يقبلوا بالولا للدستور المدنى لرجال الدين ، ورفض
أساقفة وقسس عديدون هذا القسم ، وأصبحوا يعرفون باسم « رجال
الدين المشاكسين » ، اما من القسما هذا البدين ، فعرفوا برجال الدين
« الدستوريين » ، وكما حدث انقسام بين رجال الدين ، جرى انقسام

The Jacobin Clubs in — Michael. L. Kennedy.

(*) نلا عن

the French Revolution : The First Years.

(١٩٨٢)

مماثل بين عامة الناس ، الى فريقين ، وانحاز الملك الى جانب القسس
المشاكسين .

وبينما اقرت الحكومة التشريعات الخاصة بهذه المسائل ، نشطت
اندية اليقويين في الاقاليم ، واتخذت انديتها صورة مطابقة للنادي
الرئيسي في باريس ، وتمثل الحد القاطع للثورة . وفي البداية ، لم يتخذ
اليقويون (مثل باقى الجمعيات الثورية) ، موقفا عدوانيا صريحا من
الكنيسة ، ولكن اتجاههم تغير بعد ظهور المقاومة الكنسية والانتخابات
الكنسية ، وما اكتنفها من مشاجرات ، وما صحبها من عنف محلي متفاجم .
وفي اواخر ١٧٩١ ، وعلى مشارف حكم الرعب ، تصدر اليقويون حركة
المطالبة بتخل الدولة عن المسيحية بعد ان التزموا زها سنتين الاعتدال في
مسائل الدين .

وتدريه هذه المختارات من كتاب ميكايل كندى تحليلا مهمزا
للتفاعل بين سلطات اريس والثورين اليقويين في الاقاليم ، وكيف
تحولت الثورة بمرور الأيام تحولا متزايدا تجاه التطرف .

يصعب القول بشيوع الكفر والالحاد في صميم الأندية اليقوية ، فقد
لاحظنا استهلال كولمار الذي سجله بعبارة لاتينية « باسم المخلص يسوع
المسيح (*) » ، ونصادف في مذكرات مختلف الطوائف ورسائلها
استمارات ومقتبسات من الكتاب المقدس . وربما نند أعضاء « الأندية »
باستغراق الهيراشية الكنسية في الدينويات غير أنهم اجمعوا على الاعتراف
بدور الدين في خلق المواطن الصالح ، ووجوب الاستعانة به لخلق
فرنسا جديدة ، ومنذ البداية ، اتبعوا عادة طبع العظمت الدينية على
نفقتهم ، وكانوا يحيون ذكرى الانتصارات الثورية والمناسبات المأسوية
باقامة طقوس مسيحية ، وقال الاكليروس الكاثوليكي بدور مهم في هذه
الأندية ، وفي بعض أجزاء من فرنسا ، شارك الرعاة البروتستانت في
هذا الضمار أيضا . وساعد الاحترام الذى يلقاه رجال الكنيسة من
اليقويين على استمرار انتخابهم لشغل بعض المناصب بما يتجاوز العدد
التكافى مع أعدادهم .

ومع هنا فقد أثرت البذور التى بنرت داخل الأندية ثمرة وحشية
أدت الى الابتعاد عن المسيحية ابان عهد الرعب ، وبدأ عهد جديد من
الاضطراب الدينى في فرنسا في نوفمبر ١٧٨٩ عندما صودرت أراضى

الكنيسة لتسديد الديون • واقترن بهذا القرار اعلان « الجمعية الوطنية » تخصيص اعتماد لدفع نفقات الشمائر العامة ، ومرتببات الاكليروس وغوث الفقراء ، وادى المشروع وما تضمنه من خفض لدخل رجال الدين الى ايفار صدورهم • وزاد من حالة التبرم القرار الصادر فى ١٩ ديسمبر باعلان بيع ما قيمته ربعمائة مليون جنيهه من الممتلكات المنتزعة من الكنيسة ، وأحدث الاثر نفسه قانون ١٣ فبراير ١٧٩٠ ، الذى سمع التنظيمات الكهنوتية ، وما لبثت الصيحات أن تصاعدت من اليمين محذرة من مشروع الجمعية القضاء على الكنيسة •

ووقع أحد أعضاء المجلس الكنسى (الدوم جيرل) فى شبك هذا النقد ، وارتقى المنبر فى ١٢ ابريل مدافعا عن سياسة الجمعية • ودفعه الأمل الساذج فى ازالة التوتر الى دعوة زملائه الى اعلان « الدين الكاثوليكي والرسول هو دين الأمة ، وسيظل كذلك ، ولن يصرح بدين آخر غيره » ، وطالب المحافظون على الفور ، بقبول الحركة ، ولكن اليساريين عندما أدركوا تهديد هذا الاتجاه للحرية الدينية ، التى منحت يمتقتضى البند العاشر من اعلان حقوق الانسان ، نجحوا فى تأجيل هذا الاعلان ، وفى تلك الليلة ، حدث اجتماع صاحب فى نادى اليعقوبيين فى باريس وفيه اعتذر جيرل - العضو فى النادى - بطريقة خسيصة عن اندفاعه (رعونه) وفى اليوم التالى ، وبعد مشاحنة حادة ، أذاحت الجمعية المشكلة جانبا : باعراها عن تمسكها بالكاثوليكية ، ولكنها رفضت مراعاة لحرية الضمير اتباع حركة جيرل • ومن قبيل الاحتجاج ، التقت اقلية مؤلفة من ٢٩٧ من أنصار الملك بالمبعوثين الكاثوليك (الذين أطلق عليهم منذ ذلك الحين اسم السود) (*) فى دير الكابوشين ، وحرروا بيانا ينبه الى تعرض الدين للخطر •

وتعد الأسباب الستة التى أعقبت نشر احتجاج « الكابوشين » أسابيع مصيرية • فلأول مرة يتفق على رأى واحد فى مشكلة ذات طابع قومى ، ونشرت اللجنة المناظرة لليعقوبيين فى باريس نشرة خاصة عن حادث دوم جيرل كتبها البارون دى مينو (**) • بيد أن التراجع العاطفى ، للأندية لا يصح أن يرد الى تأثير المنشورات الصادرة من الجمعية الأصلية ، والأصح هو أنه كان دليلا على المشاعر الجياشة التى عانتها فرنسا من أهوال حكم « الطاغية لويس الرابع عشر » • ووثى أن من حق المروتستانت أن يتمتعوا بحرية العبادة ، ويسمح بقبولهم فى المدارس والكليات ، وبالمشاركة الكاملة فى الحياة المدنية ، كما يستأهل اليهود التسامح بالمثل •

Noirs. (x)
Menou (xx)

وعندما استمع الحاضرون في التنادى الوطني بجزدو الى قراءة احتجاج الأقلية في ٩ مايو ، تفجرت صيحاتهم الغورية (*) ، واقترح الحاضرون « طبع البحث المتهجم مصحوبا بالملاحظات الشائنة الموجهة ضد المبعوثين الذين وقعوا عليه » . وفي ١٠ مايو ، أحرق الأصل أمام المدخل الرئيسي للمقهى ، وشنت دمي تمثل المبعوثين المذنبين الخمسة من بوردو ، وعلقت في أعمدة النور في شارع القبة الحمراء (**) ، وكتب على ظهر الدمي « خانوا الوطن » .

ونشر النادى الوطنى بيانا عن هذه الأحداث ، وبذلك شجع الجمعيات الشقيقة ، على توجيه ضربات ضد عدم التسامح . وفى ١١ مايو ، رفضت جماعة أنصار دستور بوردو - فى غضب - احتجاج « المواطنين الأردية » ، وفى ٢٥ مايو ، أعدت خطابا تمحور حول شعار « الكنيسة فى الدولة ، وليست الدولة فى الكنيسة » . وفى الجلسة الافتتاحية فى ١٥ مايو . هاجم نادى بيرجراك الوفود المعارضة « لمحاولتها تعكير صفو السلام » . وفى اليوم التالى ، تمكنت من اقناع موظفى البلدية بإرسال خطاب لوم الى الجمعية الوطنية(***). وفى أول اجتماع معروف عقد فى ٢٠ مايو ، تمسك أنصار دستور تول تمسكا وقورا بجميع القوانين . وفى النسخة المقدمة الى باريس اتهموا « السود » بالرغبة فى « زج الامبراطورية الى الفوضى » ، وزعموا أن هذا الانحياز والملاحظ بدرجة كبيرة لدين من الأديان السماوية سيؤدى بالضرورة الى عدم التسامح ، وفى مدينة فوا (****) فى ٢٨ مايو عقد الرئيس جلسة خاصة لاستبعاد أحد الأعضاء المبعوثين ويدعى فونت وقال للحاضرين : « لقد سمعتم بالجريمة الخطيرة التى ارتكبها هذا المبعوث ، ورايتم توقيمه أسفل هذا التصريح ، وما ترتب على ذلك من تمصب ونفع شخصى » ، ولكن بالرغم من هذا الدليل الساطع ، فقد رأى أنصار الأندية صعوبة تصور ارتكاب هذا « الفونت » لمثل هذا الخروج عن القانون ، وأجروا عملية اقتراع عن احتمال تزوير ما نسب اليه ، أو احتمال أن يكون قد خدع فانضم « الى المحرضين من الاستقراط » ، الذين يتمنون أن نفرق فرنسا فى دماء أبنائها .

وخلال شهر يونيو ، صبت الأندية لعناتها على « السود » ، ونقشت مدينة مونبلييه أسماءهم « بحروف حمراء على سطح أسود »

à la lanterne et au feu. (x)
 Chapeau — Rouge. (xx)
 Tulle. (***)
 Foix. (****)

للتذكرة بمار ال ٢٩٧ الذين نقشت أسماؤهم باللون الأحمر على الصفحة السوداء ، وتماثلت هي ونادي مارفجول ، فتزلقت الى الجمعية المنتخبة ، ودعتهم الى التعهد بعبادة المتمردين على ألقوانين الى الأبد . ودعت مدينة اخرى (*) الى « وجوب تطهير الأسماء والأشخاص الذين وقعوا أو تمسكوا بهذه الاهانات المشاغبة ، وتنصلهم من هذه الحماقات والسفالات » . وقامت مدينة آراس أيضا « بتأييب المنافقين والحائثين في القسم » وأعلنت استحقاق الشعب المتدين الحر لفرمان ١٣ ابريل . أما مدينة أمير فقد سلمت بإتتماد القانون تماما عن الاساءة للدين ، لأنه يمثل « أجمل مظهر من مظاهر الخشوع بالمقدور التعبير عنها » . وأعربت مدن أخرى عن مشاعر مماثلة في رسائلها الى الجمعية الوطنية ، وطالبت بلورة هذه المشاعر في اقدم المجتمع على استصدار قانون يرغم المحتجين على الاعتذار ، او تحمل فقدانهم لحقوقهم كموطين عاملين .

وكان مازاد انزعاج الأندية الاضطرابات الدينية ، التي اثارها «السود» في الأقاليم ، ووقع حادث خطير في احدى المدن (**). ففي هذه البلدة التي يبلغ تعداد سكانها خمسة وعشرين ألف نسمة ، انقسم غلاة الحاقدين الى أغلبية كاثوليكية وأقلية بروتستانتية (تمثل سدس السكان) وسيطر الكاثوليك على بلدية المدينة على الرغم من عرقلة ضغوط الحرس الوطني لتطبيق القرارات الخاصة بمصادرة ممتلكات الكنيسة وحل التنظيمات الكهنوتية . وفي ١٠ مايو ، أى اليوم الذى حدد فى نهايه المطاف لجرد الكنائس والاديرة وانتزاع ممتلكاتها . اندلع القتل المسلح ، وقتل العديد من المواطنين ، وأسر آخرون . وبعد هذه التطورات . حث فريقا بورديو جميع اصحاب النوايا الطيبة على التطوع للحملة العسكرية التي ستشن ضد « مون أوبان » . وبعد ذلك بفترة وجيزة ، شن رجال الحرس الوطني حملة انقاذ . ولم تنجح الدعوة الى الكف عن سفك الدماء ، الا بعد أن عرف الجنود غير النظاميين المهلهلين (***) باطلاق سراح الوطنيين فى مون أوبان . فعادوا الى قواعدهم ظافرين .

واشتعلت مدينة نيم (تضم أربعين ألفا من الكاثوليك و١٣ ألفا من البروتستانت) بنيران الكراهية الدينية أيضا . وتجمعت فى أحد المسكرين زمرة من رجال الدين والأرستقراط ، تساندها قواتها المسلحة ، وتعمل مستقلة عن الحرس الوطني . وفى المسكر الآخر ، جناح وطني مناهض للقسس ، يقوده جمعية انصار الدستور :لتي أنشئت فى

Charolles.
Montauban
rag-fag.

(*)
(**)
(***)

١٦ ابريل ٠ وفى ٢٠ ابريل ، وبعد أن شعر المناضلون الكاثوليك بوجود تهديد للدين والنظام الملكى ، قدموا التماسا الى الجمعية الوطنية يحمل توحيات ٣١٧٢ من المواطنين ، ويدعو الى الاعتراف بالكاثوليكية دينسا للدولة ، وعدم اجراء أى تعديل فى الهيرارشية الكنسية ، ويسمح للملك بالقضاء نظرة على القرارات التى صدرت من الجمعية الوطنية منذ ١٩ سبتمبر ٠

وأغضب هذا الالتماس أندية « ميسى » ، وعلى الفور أعد الأعضاء المائة والاثنتان والستون لجمعية نيم بياناً مضاداً ، وأصدرت أيضاً مدن أخرى (*) بيانات تستنكر فيها ابتعاد المتعصبين عن الدين ، وتساءل : هل يصح القول بأن روح عدم التسامح « التى ألحقت ألعار والتعاسة بأبائنا ، مازالت قائمة فى القرن الثامن عشر ، أى فى عصر بزوغ الحرية ؟ » .

وسمى نادى نيم للتحالف فى وقت الشدة هو وشقيقته فى مارسلية ومونبلييه ، ونشرت مارسلية رسالة تتعهد فيها بالدفاع عن « نيم » حتى الموت ، وأوفدت اليها مبعوثين فى ١٠ مايو للتعهد بالمساعدة العسكرية - لو اقتضت الحاجة - لتوطيد سلطانها ، استنادا الى تصريح بلديتها بإقامة نظام كوندارلى من وحدات الحرس الوطنى فى يروفانس ، غير أن هذه التدابير لم تحل دون نشوب العنف ، وفى ١٣ يونيو ، شن الأريستقراط هجوما مسلحا على الوطنيين ٠ وبعد يومين من القتال ، هزم الوطنيون أعداءهم بمساعدة متطوعين من المدن المجاورة ، ولكنهم شوهوا انتصارهم عندما أعدموا عدة أشخاص من « أعداء الثورة » ، وأرجفت الأحداث المأسوية فى نيم ، ونشرت الفزع فى مختلف أرجاء الشبكة ، ودعت مونبلييه الى عقد اجتماع غير عادى فى ١٤ يونيو ، وأوفدت مبعوثين الى قادة الحرس الوطنى ، وفتحت باب التبرع للمساعدة فى تمويل الحملة ، وأرسلت مارسلية خمسين عربة محملة بالذوق الى «نيم» لاطعام عائلات المواطنين الجائعين ، وأقامت فالينس قداسا تذكاريا فى ٢ يوليو ٠ وفى ١٠ يوليو ، طبعت ستراسبورج أربعة آلاف نسخة فى بيان يروى ما حدث من قلاقل (كتب بالألمانية) كتحذير لمن تسول له نفسه اشغال نار التعصب فى الأزمات ٠

وقبل انتفاضة نيم بيوم واحد (١٢ يونيو) أقرت الجمعية الوطنية الدستور المدنى لرجال الدين ، وألغى هذا الاجراء الشهير ميثاق المصالحة

(*) مثل Marvelols Pontoise, Valence, Grenoble, Crest, Vienne, Montpellier.

(١٥١٦) فتح البابوية ، واعاد تنظيم الكنيستة الفرنسية ، ووثق أن يكون تعيين الأساقفة والكنس من الآن فصاعدا بالانتخاب ، وتدفع الدولة رواتبهم ، وتعرضت للقمع جميع المجالس الأسقفية بالمعاهد الدينية والكاتدرائيات ، وخفض عدد الأسقفيات من ١٣٩ أسقفية الى ٨٢ ، كما استبعد ما لا حصر له من الإبرشيات الصغيرة .

ولقد سبق أن تمتعت الكاثوليكية الفرنسية بالاستقلال الوطني ، وكان مبعوثو الكنيسة يتفادون بكل دقة أي إخلال بأعبدة . غير أن المعارضة بزغت على الفور . فقد رفض عدة مبعوثين للكنيسة الاقتراح في ١٢ يونيو ، وازداد تصلب المشاركين في الحركة ، عندما أصدر ثلاثون من الأساقفة في الجمعية الوطنية النشرة الشهيرة (*) التي تضمنت مبادئ الدستور المدني لرجال الدين ، وتحدثت عن الدولة في الأفراد بالرأى في مسألة تغيير تشكيل الكنيسة ، واعترضت على اشتراك البروتستانت في اختيار الأساقفة ، ورفضت رفضا باتا أن يكون تعيين القسس بالانتخاب ، وتساءلت لماذا لم يؤخذ رأى البابا ، الذي كان يعين الأساقفة زهاء قرنين من الزمان ؟ . فلقد التمس لويس السادس عشر موافقة البابا ليوس السادس ، عندما أقر مرسوم ٢٤ أغسطس ، ولكن هذا البابا بالذات قد شجب بالفعل السياسة الدينية للثورة في حديث إلى مجمع الكرادلة في ٢٩ مارس (وعقد هذا الاجتماع بصفة سرية) . وعلى الرغم من احتجاجه عن التصريح بذلك علنا حتى ربيع ١٧٩١ ، إلا أنه أكد من جانبته قراره بالاعتراض .

وأعلن اليقوييون في الأقاليم عن تأييدهم الذي لا يتزعزع للدستور المدني لرجال الدين . والحق ، وكما يبين واضحا من المذكرات المعبرة عن آراء مختلف الأندية ، فلم يحدث من قبل أن ثارت ثائرتهم بمثل هذه الشدة ، وبدأ تدخل الأندية في الخلاف في سبتمبر - أكتوبر ١٧٩٠ عندما نشر القانون في الدوائر الحكومية ، وأعلن بعض الأساقفة والشمامسين عن شكائاتهم . وفي ستراسبورج ، وبعد أن كانت موضوعات النقاش تتركز فيما سبق على الاقتصاد والسياسة ، بفتة رأينا الدين يتخذ الصلابة ، ويشد انتباههم ، وفي ٥ أكتوبر ، استهجن أحد الأعضاء قسا من القسس الكابوشين ، لأنه دعا إلى الفسق في كنيسة القديس بطرس المعجوز ، وفي جلسة ٩ أكتوبر ، استدعى راهب كنيستة القديس بطرس المعجوز للدلاء بأقواله عن أسباب عدم تلاوته لقوارات

Exposition des principes sur la constitution civile du Clergé. (★)

الجمعية الوطنية ، واستمعت الجمعية الى تقرير عن أحد القسوس في سان ليونار بالقرب من اوربرناى الذى بيانا شديد الحماسة ، وفى ١٥ أكتوبر ١٧٦٠ ، تناول النادى مسألة تنظيم الاكليروس البروتستانتى ، ونوقست فى اليوم التالى مسألة رواتب رجال الكنيسة .

وكشف على التو السماح للقسوس الوطنيين بالانضمام عن اهميته الخاصة . وشاع نزوع الكهنة المشاكسين الى سلاطة اللسان فى احاديثهم ، وتزايدت الشكايات المرسلة الى لجنة التحريات (*) ، وبلغ عددها رقما خرافيا . ولامت بعض المدن (**) رسائل القيسس التى يشكون فيها من أساقفتهم (٢٢ أكتوبر و ١٢ نوفمبر) وأدانت تولوز وفردون انفقار الهرارشية بوجه عام الى الولا (نوفمبر ١٠ - ١٣) وإبان الحقبة نفسها ، أرسلت تورز ستين مستندا يثبت تورط اذكليروس الكاتدرائية فى اثاره الفتن .

وفى ٣ نوفمبر ، نشرت مدينة اكس رسالة مهمة تعلن تحديد الجمعية الوطنية موعدا يقسم فيه رجال الكنيسة اليمين للدستور ، ويحرم المعتنقون من جميع وظائفهم الدينية ورواتبهم ومقار اقامتهم ، وتلقت تولوز وبوفيه (***) نسخا من هذه الرسالة ، والتزمتا بما جاء فيها التزاما حماسيا ، وانضمت رينيه أيضا ، وحررت التماسا حارا تبناه بعض الأعضاء (****) ، ممن أعربوا عن توددهم للجمعية الوطنية ، وتمهدهم باهدار دم المشاغيب من رجال الكنيسة : « لقد أدت المؤامرة الخطيرة الى ظهور تيار متعصب ، أشبه بالوحش الضارى فى نهمه وتمطشه للدماء ، وما أشبهه بابن شائن للدين ، وهو يلوح بيديه بشعلة الانشقاق . ان كلمات الله على شفاههم فحسب ، بينما يكمن الغضب والياس فى سخائم أفئدتهم » .

وعززت هذه الصيحات من قبضة المبعوثين الوطنيين بين الناخبين . واستتارت مشاعرهم المعارضة للكنيسة ، فأقرروا قرارا فى ٢٧ نوفمبر زاد الهوة اتساعا بين الكنيسة والدولة . وفيه يطالب جميع الأساقفة والقسوس والشماسين والاكليروس بممارسة وظائفهم العامة ، والتعهد بالولاء للدستور فى حضرة المحلفين المستولين الرسميين فى دوائرهم ، أما من يرفض ذلك ، فيعتبر تلقائيا متخليا عن وظيفته . ولا يستمد حرمان

Comité de recherches .

(*)

Béziers (**) أمين و

Beauvalx

(***)

Quimper , Guingamp تيناه (****)

رافضى قسم الولاء ممن يحاولون ممارسة وظائفهم على الطريقة القديمة - وهو ما يعد انتهاكا للقانون - لا يستبعد حرمانهم من حقوقهم كمواطنين صميمين . أما اذا أقدموا على أى فعل تضليلى صريح ، فانهم سيكونون عرضة لتوجيه الاتهام الجنائى اليهم .

وفى ٢٧ ديسمبر ، وبعد أن وقع لويس السادس عشر هذا المرسوم . ظهر جريجوار على منصة الجمعية الوطنية ، والقى خطبا دافع فيه عن الدستور المدنى لرجال الدين ، وأقسم يمين الولاء للدستور ، واعتدى به مائة وثمانية من المبعوثين فى الأسبوع التالى . وعلى الرغم من تعرضهم لتهديد الحشود فى مقصورات الجمعية الوطنية ، فان ٤٢ من ٤٤ من الأساقفة ، وآخرين من مراتب أدنى فى هيرارشية الكليروس رفضوا الاشتراك فى القسم . وأثناء تطبيق القرار فى باريس فى ٩ يناير ، ثار الشعب (*) . وطبقا للمعلومات التى جمعتها الجهات الادارية ، والمشكوك فى صحتها ، فان عدد المؤيدين لم يتجاوز ٦٠٪ من رجال الدين فى العاصمة .

وتحدثت اميين نيابة عن أغلبية أندية الأقاليم عندما عبرت عن اغتباطها بمرسوم ٢٧ نوفمبر، وحظى اقتراح تورز بالتأييد من «الشبكة» لالتحاشا فى بواكير ديسمبر الاصرار على اعتماد الملك لويس السادس عشر للقرار على الفور ، وقبل أن يضع الملك ختمه بالموافقة اقترعت إحدى المدن(**) فى ١٢ ديسمبر على ايفاد مبعوثين الى كل الابريشيات للتحقق من قيام رجال الكنيسة بالتمهد المطلوب ، وطالبت مدينة أخرى فى يناير أبناءها بحضور حفلات حلف اليمين ، « وهم مسلحون بالرمح والسيوف » ، وتمثلت مع باقى الجهات ، فائنت - تارة - على الادارين المحليين ، ولعنت سنسفيل جبودهم - تارة أخرى - على الاجراءات التى اتخذوها لتطبيق الطقوس وحماية السلام .

وهبت الحملات الاستنكارية لمؤامرات الأساقفة الداعية لافساد مظاهر الابتهاج لحلف اليمين فى شتى أنحاء الشبكة فى شهر ديسمبر ونداية شهر يناير ، بل وذهبت مدينة أوتون بعيدا الى حد اتهامها قس كاتدرائتها بدفع رشوة لرجال الدين لتشجيعهم على الرفض . وردت الجموع على الدعاية الأسقفية باطلاق منشورات فى الهواء تحمل عبارات التهجم على القسوس ، ومن يناصرونهم . ووزعت مئز ألف نسخة من الدفوع التى أعدها أحد

المبعوثين (*) عن الدوائس الزائفة لاسقف تريف ، وطبعت « كان » خمس نسخ تضمنت تأييدا أعده من يسى كولوبيه فى سان ماسيلان ، وأذيع فى ٣ ديسمبر . وانتشر المديع الأريب للقوانين الدينية فى شتى نوادى وسط فرنسا . وأصدرت مدينة جرينوبل كتابا دحض فيه الاعتراضات الأخيرة لأعضاء كثيرين من الأكليروس (**). وأعدت مدينة بوم ، وبيزاتسون طبعه ، وكلفت ليموج أستاذ اللاهوت فى كلية سانت ماريا تأليف بحث عن الدستور المدني ، وبلغ حدا كبيرا تقدير « أوش » وبوردو وكاستر للمعطات التى وضعها القس بول بنوا بارت من نادى تولوز ، مما دفعها الى إصدار أمر بإعداد ألفى نسخة منها .

وركزت منشورات الأندية فى هذا العهد على المحنة الموحشة لصغر رجال الدين ، والتفاوت الكبير فى الدخل والثروة فى ظل « النظام القديم » ، وبورك القسس الطبيون . وبدلا من أن ينظر الى الأعضاء غير المتجاوبين فى الهيرارشية على أنهم مدافعون عن العقيدة وصموا بالانانية ، لعدم اهتمامهم بأى شىء سوى صالحهم الشخصى ، ولأنهم لا يأسفون لأى شىء غير فقدانهم للدخول الكبيرة التى ليس لهم حق فيها بوصفهم آخر القسس ، وترتكز الإلحاح على الزعم بعدم حدوث مساس بالعقيدة والقيم الأخلاقية والسلطة الروحية للكنيسة . وكما قال أحد المشايخ للأندية : « لقد التزمت الجمعية الوطنية بالروح الدينية الصحيحة ، فحصرت نشاطها فيما يملكه قيصر وأعطت الله كل ما ينتمى لله » .

وبدأت اجراءات قسم اليمين فى المقار الرسمية من ٩ الى ١٦ يناير ، واستمرت عدة أسابيع ، ولم يتجاوب معها غير سبعة أساقفة من مجموعهم الإجمالى (١٣٩ أسقفا) . وقدرت أفضل الإحصائيات النسبة المبدئية بعدد يتراوح بين ٥٠٪ و ٦٠٪ من جميع أعضاء الأكليروس ، وقامت بعض الأندية بجدوة النتائج ، وأخطرت بها اليعقوبيين فى باريس وأيضا الجمعية الوطنية . وأعلنت بعض المدن ، مزهوة ، بانصياغ جسمه القسس فى مقاطعاتها للقرار ، أما بعض المدن الأخرى فنددت حظها لقصالة غنذ من أيدوا القرار . وأعلنت بوزج عن استجابة مؤسستين كنسستن منها للقرار ، ونسب اقبال الأغلبية فى المناطق الرهبة لاقليم الشر الى النداء الذى وجهته المدينة اليهم .

Francis-Xavier Laurent. (٢)
Réfutation des principes contenus dans les dernières protes- (٢.٢)
tations de plusieurs membres du clergé.

Joseph-Vincent Dumolard كتبه

والتزم قسس عديون التحفظ في خطوعهم ، كما أن سلطات البلديات تحدوها الرغبة في السلام كثيرا ما اعربت عن استعنادها قبول قسم اليمين ، ولكن بشروط • بيد أن الأندية بلابيت بالانصياغ بكل دقة ، وتافقت تول (٢) من باريس لأنها لم تتخذ أى اجراء ضد قسين استهلا القسم بالكلمات الآتية : « بعد أن أكدت الجمعية الوطنية بقرارها احترام الديانة المسيحية والحفاظ عليها فاننى أقسم • • » • فقد أدت مثل هذه المراوغة الى اشاعة الحيرة ، وعندما راوغ أحد القسس(**) على هذا النحو فى ٢ فبراير فسر مسلكه بالقول بأن الدستور المدني يهدد السلطان الروحي للكنيسة ، فردت عليه جماعة من نادى كويمبر بازدراء : « لعلك ترغب فى تهذيبننا ! ليس أمامك غير طريق واحد : طاعة القانون ، الذى كان عيسى عليه السلام نفسه سيتبعه » •

واعناد القسس اليعقوبيون لقاء عظمات وطنية أثناء القانهم للقسم • وما من شك فى وجود مبادئ سامية ألهمت اتجاههم • وكان من بين المنتمين للنادى سان سارديس ، وكان الأواحد بين ١٧ قسا فى مدن أوبان الذى ارتضى القسم ، واشتهر منذ أمد بعيد بالتواضع ، وبأنه وهب الفقراء الجانب الأكبر من دخله • وزعم الأب كيريه (***) بأن ما فعله كان « واجبا مقلما ليس مستلهما من الطموح والصالح الذاتى أو الخوف ، ولكنه أقدم عليه طوعا ، وباملاء من العقل » • غير أن الأوغاد يميلون الى الزعم بأن الكثير من القسس كانوا ينشدون اجتذاب الانتباه ، ويأملون من وراء المسابرة الحصول على المناصب التى خلقت بعد أن استتعد رؤساؤها • وكما أشار أحد النقاد (****) : لا جدال أن الكسب المادى كان من بين عوامل تقييم القسس للدستور الكنسى الجديد ا •

ونشرت الأندية ووزعت وفرة من المظلات التى ألغاهما من أقسوما اليمين ، فجلبت لهم الشهرة على الفور ، وطبع فى روان وكان بحث لأحد قسس الابرشية (****) وتلى تلاوة حماسية فى أماكن قصية كتولوز ، وطبعت جرينوبل حديثا لقس آخر (*****) ، وأخطر ببرجروك حميم البلديات عن تعاطفه على قس من سانت فوا ، وعلا صوت كلود دوبرتبيه

Tulle	(٢)
Loberhet	(★★)
Quéré	(★★★)
Timothy Tackett	(★★★★)
Le Verdier	(★★★★★)
Meaux	بالقرب من Congts
	قس (★★★★★)

أسقف أفيرون ، وبلغ مكانة مرموقة عندما أرسل عدة تعقيبات على القسم
الى جمعية أنصار المبتور في روديه .

وإنبحثت أبعاد المظان قبولاً للاستحسان من شسفاه قس نويزي
لى سك (*) ، ونشرت في باريس وشارلفيل ومونيليه وايروميتر .
واستشهد تيوريه باباء الكنيسة وبالاسماء المسيحية الشهيرة من امثال
صمويل وأرميا وجريجورى الأكبر والقديس أغسطين وفنون كصادر
مونوا ، وقال : « لو كذنت هناك حقيقة كاثوليكية معترف بها عالميا من
الكنيسة ، ومدونة فى الأسفار المقدسة . ولو كان هناك شعار تتبناه جميع
المذاهب ، وتردده جميع المناير المسيحية ، فانه سيكون القول بأنه ليس
بمقدور قسس الكنيسة التراجع عن ممارسة سلطة من التشريعات على
الأرض دون أن يهتموا بالفتنة » . وبعد أن أضفى على قسه صفة
القداسة ، أعاد احياء الحجج التى استعان بها أنصار التشريع فى الجمعية
انوطنية فى يونيو السابق : ان التقسيم الادارى الجديد لا يمثل ما هو
أكثر من الرجوع الى الأيام الباكورة للمسيحية ، عندما كان هناك تعايش
بين الأسقفيات وولايات الامبراطورية الرومانية ، وإبان هذه الحقبة
البدائية ، انتخب المؤمنون الأساقفة والقسس . وترجع القيود المؤقتة
التي فرضت على سلطات البايوات الى فسوقهم وجشعهم فى حقب مغايرة ،
فهل بمقدور أحد فى قرن التنوير المناداة باعادة احياء هذيان العائشين
فى تيه الجبال ؟

وبدا بشهر يناير ١٧٧١ ، سادت حالة أشبه بالحرب الدينية فى
الأقاليم الفرنسية ، ففى يروفانس ولانجدوك والازراس ، حدثت مواجحات
عنيفة بين أنصار الكنيسة الجديدة والكنيسة القدية ، ولأول مرة
انقلب نفر كبير من صفار الكهان والقسس على الثورة الفرنسية . وأصدر
الأساقفة الذين لم يهاجروا فرنسا بيانات ملتعبة ، ومنعوا المحلفين من
الإشراف على المقدسات . أما من هاجروا فانهم تركوا تعليمات « للقسس
المساكسين » بالتزام البغاء فى أبرشسياتهم - ان أمكن - وأن يؤدوا
واجباتهم الدينية فى العلن والسر وأن يعاملوا القسس الدستوريين
كدخلاء .

ونزع المحلفون الى الاعتماد على البعقوبيين لحمايتهم من الاضطهاد .
وعامل نادى أنصار الدستور - من ناحيتهم - من أقسموا اليمين معاملة
الملك ، وأغدقوا عليهم المناخ والهدايا . وكانوا يحفونهم بمظاهر الجلال
فى الطرقات ، وينظرون اليهم بعين المطف عندما يرون قسس الأبرشسية
يتقربون منهم سعيا وراء بركتهم ، ويركعون لتقبيل أطراف ثيابهم ،

ونادرا ما سمعت كلمة تنضح بالمرارة ، وإذا اعترفنا بصحة هذه الرسالة (*) ، سنرى أن مونتارجيه كان يطالب بما هو أكثر من القسم . فلو جاء اليوم الذى يتعاقب فيه القسس هم والمهراطة ، ونقشت حقوق الانسان على جدران المعابد ، آتئذ فقط سيعترف بهم كمواطنين حقا .

وتكاد جميع النوادى أن تكون قد تعرضت لفقدان أحد المواطنين والقسس الكاثوليك فى بدايات ١٧٩١ ، كنتيجة للعصيان وحركات التطهير . ولكن على أية حال ، فيصح تشبيه الإنشقاق الدينى برصاصه أصابت ذراع الحركة اليقوبية . فالجمعيات الأقدم التى أصيبت بالعرج (**) ١٧٩٠ ، بدأت تلتقى الآن بانتظام أكبر ، وتعقد جلسات علنية وتضم أعضاء جندا . وتفرغت بعض الدوائر الوطنية المتنافسة لعمليات الدفاع عن النفس . وارتفع معدل انشاء الأندية وبلغ رقما قياسيا ، وشارك اليقوبيون فى باريس (بهذا المعنى الجديد لرسالتهم) بإصدار منشور دورى فى ٩ يناير طالبا من المنضمين اليهم استعمال جميع السبل ما عدا العنف لتهديد الكنسين الذين يدعون الى « الحرب باسم اله السلام » . وطبعت فرساي ألفى نسخة من هذه الرسالة ، واستجابت جمعيات كثيرة بإرسال نشرات الى المواطنين تدعو الى تحقيق السلام والوثام وسط نيران التصب . وتحلت تول فى ٢ يناير أسقفها المنشق ، ودعته الى الاشتراك فى مناظرة رسمية حول مزايا الدستور المدنى لرجال الدين ، وتجسمت جمعيات الحراسة (***) فى عملة تنظيمات ، واتخذت عملة أندية شعار « العين الساهرة » وأعلنت جمعية ليموكس قيام ثلاثين من أعضائها بالتجوال كل يوم أحد فى الأقاليم للدعوة الى اتباع القانون ، وأنشأ الوطنيون فى فنديه ، جمعية (****) متنقلة ، من مدينة أخرى لمحاربة التصب .

وتولد عن الرقابة المزيد من الشكايات ، وفى الشهور الأولى (١٧٩١) قلما مر يوم بغير ظهور اتهامات جديدة بالتعصب ، وفى احدى المناسبات ، قدمت تورز لمجلس مدينتها نشرات ملتهبة كانت منتشرة فى حوض نهر الاندار واللوار ، وأخطرت مدينة برست لجنة التحريات (****) فى الجمعية الوطنية بأن القسس المتزدين قد هددوا بشطب أسماء الشماسين غير

(*) نشرت فى Patriote française فى ٢٢ فبراير

(**) جمعيات Artonne, Angoulême. Rodez, Le Mans

Surveillance (***)

Société ambulante (****)

Comité des recherches (*****)

المتعاونين من سجلات المبعدين ، وأبليت مدينة زانيت عن حدوث ضغوط سرية في أحد الأديرة ، وشعرت مدينة أخرى (*) بإزدراء لرجال الكنيسة الذين استشاروا الشعب واعتبروا « القسس المحلفين غير جديرين بالقدسية » وندبت مدينة اميين تمرد كليتها . وكشفت أوتون عن شروع نائبها الأسقى (**). في جمع تبرعات مالية لمعارنة من امتنعوا عن حلف اليمين ، وشرى لانجروبورج بالفضب لاختفاق مقاطعتين من مقاطعاتها في اسكات غير المحلفين ، وشكت مونفور من « القسس المشاكسين » الذين استمروا في حرق البخور . وشجبت كليرمون فيران الرهبان الذين يرتدون رداءهم الرسمي من أثر الجهل أو ازدراء للقانون .

ومن الموضوعات المتكررة في وسائل النادى في بواكير ١٧٩١ ، التأثير المزوج للقسس غير المحلفين على النساء ، ففي ستراسبورج ، دفع تمرد النساء المجتمع الى اغلاق المعهد اللاهوتى ، واقتحم حشد من الأمهات والأطفال فندق المدينة (***) لمنسح عمدتها من تطبيق قانون ٢٧ نوفمبر ، واضطر نادى بورج الى اتخاذ اجراءات ملحة لتهدئة مخاوف الريفيات . وفي سانت فوى ، تجمهرت شرذمة من المتعصبات دفاعا عن قس رفض تلاوة أوامر صادرة من الجمعية الوطنية ، وشعرت مدينة أخرى (****) بالازدراء لاشتغالها عجز نساها الطبيبات عن الكتابة ، وان كن تعرفن كيفية صب الشتائم على الكاهن الدستورى . وشعرت لى مانس بالأسى ، لأن النسوة « كن تحرمن من الاعتراف ، وتتلقين تهديدات بالحرمان من رعاية الكنيسة ما لم تبعدن أزواجهن عن « مدرسة ابليس » ، يعنى جماعتنا » .

وفي المدن التي امتنع فيها رجال الدين عن التعهد بالولاء للدستور ، عكفت الأندية بكل جد وعزم على الاطمئنان الى أداء شعائر العبادة دون مقاطعة . وتطرح محلفان ببله المحلات الشاغرة في كنائس الابرشبة بالمدينة الى أن يعين قسس جدد ، وعهدت تورز للكنسيين المواليين في مقاطعتها بمهمة تلقي الاعترافات والاشراف على القسس في ثلاثين أبرشية خالية من القسس . غير ان هذه الاجراءات لم تزد عن اجراءات وقتية ، اذ كان الحل الدائم الأوحده والمشروع - كما أدرك أنصار الأندية - هو دعوة من يحق لهم الانتخاب بالمجالس الدينية الى جلسة لاختبار من

Aiues - Vives

Vicaires-généraux

M'llau

Yessengeaux

مدينة

(*)

(**)

(***)

(****)

يحلون محل الإيسيين ، وحسب إتجاه إلى الضغط لارغام الموظفين في المقابلة والإدارات على استثناء الناخبين على الفور ، وتعالص صيحات الاحتجاج عند حدوث أى تأخير .

وبدأت الانتخابات فى أواخر يناير ، وسارت فى طريقها زهاء أربعة شهور . وكما لاحظ أحد كتآب النشرات من أخصاص الملكية : « لم يسبق قط أن بدأ تأثير الأندية ملحوظا الى هذا الحد » ، وبدى بالاقتراع على وظائف الأسقفية . وفى ليلة الإءلاء بالأصوات ، اشتبكت الجمعيات فى كفاح مرير ضد القسس والشماسين السابقين(*) . ونشرت بوجر دفوعا بليغة (**) لمؤازرة أسقف بوسيميه ، وذكر أن محله ليس شافرا وعندما أعلن رئيس الجلسة (***) أن الكنيسة قد تعتبر كل من يدلى بصوته من الهراطقة ، هدد أوش بنشر أسماء جميع الخونة ، الذين غابوا عن عملية الانتخاب .

وخشى بيروجيه (****) من حلولة المشكلات المالية دون استطاعة الناخبين السفر الى مقار الانتخابات ، ومن ثم وزعت قائمة بأسماء الأعضاء الذين أبدوا استعدادهم لتدبير أماكن إيواء مجانية ، وفتح برجرآك اعتمادا لدفع نفقات السفر ، واشترك هو وسان بريك فى كتابة التماس للجمعية الوطنية بتحمل جميع النفقات ، وكان من واجب الجمعية التشريعية الانصاف بالحكمة والموافقة على هذا الطلب ، لأن عدد الحاضرين كان ضئيلا الى درجة مخيبة للأمال . ففى بوجر لم يلب النداء سوى ١٩٨ ناخبا بالمقارنة بثلاثمائة وخمسة وعشرين فى السنة الفائتة ، وفى قنديه ، لم يظهر من الناخبين المستوفين للشروط أكثر من ١٧٣ ، من عددهم القانونى (٤٧٦) ، وامتنع ٢٨ منهم عن التصويت . وانتخب كلود فوشيه أسقفا لكالفادوس بعد حصوله على ٣٥% من أصوات المجلس الدينى .

واشتبكت الأندية فى حملة إنتقامية مع المجتمعين عن التصويت ، وسعت من وراءها الى إعادة تجديد شاملة للناخبين . ولكن من سخريات القدر أن يؤدى تقلص جماعات المنتمين الى تضخيم التأثير « البيقوبى » ، وتراس الجمعية المنتخبة رئيس نادى آراس ، وافتتح أعماله باقامة قداس حضره أعضاء النادى كتلة واحدة . وفى بوجر ، انتخب أعضاء

(*) على تراس الجلسات

Perigieux (**) للإسقف

La Tour du Pin Montauban

(*** ***)

Perigieux

(**** ***)

الجمعية كسكرتيرين ومستولين عن عد الأصوات ، وأوفدت بعض المدن (*) بعض المبعوثين لتسليم التعليمات ، وعقدت الأندية القائمة في مواقع الكليات المنتخبة اجتماعات عامة يومياً وتولى تطبيق خاطر المنتخبين المدعويين لجمعية كاستر (من ١٣ - ١٦ مارس) متحدون من المدايعين عن الدستور المدني لرجال الدين . وطبقا للبيانات التي وردت في الجرائد اليومية ، فان « كان » استطاعت جمع ألف ومائتي عضو وزوار من الناخبين في قاعة اجتماعها في ١٤ مارس ، وهو اليوم المحدد لاختيار الأسقف الجديد ، وورد في أحد المجلات (**) أن عددا يناهز ٢٣٠ من الناخبين قد هرع الى اجتماع النادي في نانسي في ١٣ - ١٤ مارس ، وأدرجت ستراسبورج ١٣٣ ناخبا كأعضاء في الجلسة المنعقدة من ٢٦ فبراير الى أول مارس . ويقال لنا ان كثيرين من الناخبين قد جاؤوا لجمع المعلومات التي سيكون بوسعهم الاستعانة بها في اختيار الموظفين المسئولين ، وقامت مدن أخرى (***) بتعريف من يحق لهم الانتخاب الصفات التي يراد تحلي الأساقفة الممولين بها .

ووجه المعاصرون الانهزام لتدخل النادي لصالح بعض مرشحين بالذات ، واعترفوا بوجود أدلة مؤيدة لهذا الادعاء ، ويبدو أن هناك مدنا معينة قد خضعت للايحاء بانتخاب جريجوار . وشنت بورج في البداية حملة لانتخاب لويس شاربيه من لاروش ، ولكنه عندما رفض المنصب اختارت بيير أناستاس تورنيه ، وهو قس بالغ اليقويين في الاشادة بمناقبه في باريس . وعندما طلب يوم ترشيح بعض من يستأهلون الارتقاء الى منصب الأسقفية رشحت مدينة أرتون أربعة أسماء (لم ينتخب أحد منهم) . وأعدت الجمعيات الشعبية في ليون وسمان اثبتين قوائم بأسماء بعض رجال الكنيسة التي تزكي للقبول ، وادعت الفضل في ترشيح اسم الأب أنطوان لاموريت أسقفا للرون والوار .

وكوفي ١٩ من المبعوثين بمنصب الأسقفية ، وزكى الناخبون أيضا بعض أعضاء الأندية ، واختار الدروم (****) زعيما لجمعية أنصار الدستور في فالينسي ، وزكت تولوز ترشيح أساقفة اللجاريون الأعلى (*****) . وأعلن بعض الفائزين الآخرين عن ترشيحهم للأندية ، بنشر مقالات تدافع

(*) مدن مثل Gueret, Foix, Coutances ونانسي

Journal de Meurthe.

(**)

Le Mans, Cherbourg, Soissons.

(***)

Drôme تنظيم اداري قديم في فرنسا كان يجمع بعض المدن المهمة وقلعة

الكاتب المنظمة المحيطة بمدينة Valence

(****)

Haute-Garonne.

عن الدستور المدني ، أما بارت الذي انتخب أسقفا لجيرس ، فقد اكتسب شهرة في الجنوب بفضل عدة مؤتمرات عقدها ، وأرسل لي فيدييه (*) مبحنا لنادي روان قبل أيام قليلة من انتخابه أسقفا . وهكذا دواليك .

وبغض النظر عن صل كان الأساقفة مدينين بمناصبهم للناخبين اليقويين ، أم غير ذلك ، فانهم حظوا بالمساندة من الأندية بعد توليهم أعمالهم . وفي الحالات التي كان الزعماء الجدد يقيمون على مقربة ، كانت الجمعيات تبلغهم بحظهم الموفق وتصحبهم في موكب طائر الى الكنيسة الكاتدرائية ، أما القيمين في باريس أو في مناطق نائية ، فقد أرسلت لهم رسائل التهئة على جناح الأثير . وأثناء رحلات الأساقفة الى مقار عملهم ، تقيم الأندية مظاهرات حافلة للترحيب بهم ، وتدعو لهم بالتوفيق في نشرات مطبوعة أو تهديهم بعض الأسفار أو القطع الفنية المقدسة ، وتنصب للأساقفة عروشا ومنصات ، ويحیی مبعوثو الأندية عربة الأسقفية خارج البوابة ، ويقدمون شعائر التقدير والتأمين ، ولا ينسون القاء بعض الخطب المعسولة ، ثم يصحبون الموكب الرسمي في طريقه الى المدينة ، وبعد التسبيحة أو القداس المختصر (***) يزور ضيف الشرف الجمعية ، حيث يعانقه الرئيس ويمتدح فضائله ، وغالبا ما تقام ولمة على شرفه ، ثم يرافق أعضاء النادي الكاهن وسط مظاهر الحفاوة بعض الطريق الى الوقفة التالية .

وأتيمت احتفالات مهيبة لدى وصول الأساقفة الى مقار عملهم ، ودعا الیبي كل جماعة في اقليم التارون لارسال ممثلين لها في حفل تنصيب الأسقف . وحتى تثبت بعض البلدان المنافسة ، عدم وجود من يبرها في هذا المضمار ، أثبتت كاستريز(****) وجودها باقامة عرض حافل ، وأثناء الحفل الديني الذي أقيم لأسقف ماين ، احتشد ألفان من المواطنين في نادي لافال واجتمع قرابة ألفين وخمسمائة في جمعية مارسيليا لاستقبال أسقف حلق حوض الرون . وأمرت بلدية بوج المواطنين ، بناء على طلب النادي بانارة بيوتهم . على أنه في بعض الأحيان حدث عدم تعاون من السلطات كما رأينا أميين تتخل عن بعض الإداريين ممن تخلفوا عن الحضور في حفل تنصيب أسقفها . واشتكت جمعية لانجريبه لأن موظفي الاقليم بذلوا قصارى جهدهم لافساد الحفلات البهيجة التي أقيمت هناك ، الى حد اقدمها على تنفيذ حكم بالاعدام العلني في نفس اليوم .

Le Verde Choi y Le Roi
Missa breva
Castres

(*)
(***)
(****)

وجمعت مظاهرات ربيع ١٧٩١ بين مظاهر التعبير عن الإبتهاج والجهود المحسوبة للدعاية . وفى كالفادوس حيث هدد فوشيه (*) بالحرمان الكنسى من قبل الأسقف السابق ، عانت الجمعيات الأمريز لاتبات التأييد الشعبى . وأعدت مدينة أخرى (**) المدة لقدم الأسقف ، وطبعت بعض أحاديثه التى سبق أن ألقاها ، وعندما وصل عوامل كانه « ملاك هبط من السماء » ، وفى « كان » منح عضوية مجلس المدينة ، وبالغ رئيس الجمعية فى امتداحه ، وقاد أنصار الدستور عرضا اتجه الى الكنيسة الرئيسية حيث أقيم احتفال لشكر الاله ، وفى هونفلور بارك فوشيه العلم ، وألقى خطابا طبعته الجمعية ، وقدم للصحفيين البارسيين ، وقرىء فى حضرة أعضاء جمعية فى مقالته عن النظام الاجتماعى ، ولقى إعجابا شديدا ، ثم حضر بعد ذلك وليمة حضرها مايتوف عن المائة شخص .

وبرز الأساقفة فى شتى الأنحاء كزعماء للجمعيات . ويصح هذا القول بوجه خاص عن الأسقفيات التى استمرت فيها أغلبية الكليروس والشعب تدين بالإخلاص للنظام الأقدم ، ومثل اليعقوبيون العملاء الوحيدين الذين يمكن أن يعتمد عليهم الأساقفة المجدد ، وفى كالفادوس احتل فوشيه الصدارة شهورا قليلة ، فكان يحرر رسائل الأندية ، ويصدر تعليمات باسمها ، ونشر توريه الثورة من خلال جمعية بوج ، وأشمل الحماسة عند الكليروس شير . وارتقى بالمثل الأسقف بوفيه الى أعلى المراتب ، وان كان ذلك لم يدم طويلا ، وسعى النادي تحت قيادته لشن حملة لاستبعاد « المشاكسين » الذين أثاروا الشغب أثناء جناز ميرابو فى شهر ابريل .

وسخط سلف ماسيو على الانتخابات ، وفى أواخر ابريل اقترعت بوفيه على طبع ألف ومائتى نسخة من الرد ، وعكفت الجمعيات الشقيقة على اعداد دفع لصالح الأساقفة السابقين أيضا ، وكان أكثر اللامع الجديدة ادعاشا المقالات المناهضة للهرارشية فى ربيع ١٧٩١ عنف لهجتها ، وشبهت بلوا أسقفها السابق بوحش ينث سمومه ، وفى إحدى نشرات دويه (***) قورن بريامات الأسقف للمستورى للشمال بالأديب الحكيم

Fauchet

(*)

Cheyjug

(**)

Douai

(***)

فخلون ، وما عرف عنه من فضل * ومقابل ذلك ، صور الأسقف السابق لاراس كؤنزيه (*) كداعر كرس حياته للمتح الشهوانية .

وتعزُّد موقف الهيرارشية الفرنسية المنشقة في مارس ١٧٩١ ، عندما عاقب البابا لوفيه دي برين أسقف سنس ، لانة أقسم اليمين للبرلمان المدني ، وأثارت رسالة البابا الى نوميانية زوبمة عاتية في النادي ، ورفع سنس شكايته الى الجمعية الوطنية ، وأبلغ سانت مارسلان اليقويين غاضبا عن وجود أفراد من أصحاب النوايا الخبيثة قد أرسلوا بعض النشرات الى القسس الدستوريين في دائرته وأحرق جيون ديمتين في الميدان الرئيسي : تمثل احدهما البابا ممسكا بمنشوره البابوي ، وتبين الدمية الأخرى الأب موري السيء السمعة جالسا تحت قدميه . غير أن هذه الأفعال بدت هيئة الشان بالمقارنة بالانفعالات التي ثارت عندما وزع أحد الصحفيين من أنصار الملك بعض الرسائل البابوية في شتى أنحاء فرنسا في أوائل شهر مايو ، وأعلنت الرسائل المشار إليها ، والمؤرحة في ١ مارس و ١٣ مارس أن الاصلاحات الدينية للجمعية الوطنية خرق لتعاليم الكنيسة ، وتعنى إلغاء الانتخادات الأسقفية ، وأنذر من أقسموا اليمين بوجود سحب قسمهم في بحر أربعين يوما ، والا واجهوا الايقاف عن أداء عملهم .

ولم يعترف أنصار النادي في سيزان وبيتون (***) وجرأى بمسئولية البابا عن هذه البيانات ، وعللوا ذلك في البداية بتلفيق رويو لهذه الرسائل ، التي لا أصل لها ، على أنه بوجه عام يستطاع القول بقبول الجمعيات للمنشورات البابوية في ظاهرها ، وأدانت الجمعيات البابا بيوس السادس ، وتسائل الأب فياردي من لينيه في معرض حديثه عن بابوات روما : « عن مدى ما أثارتته نزواتهم وكراهياتهم النابذة من الأناحية من اراقة لدماء آلاف البشرية ؟ » وأعدت جمعيات عديدة ردودا مطبوعة ، واكفهر جو فرنسا من غبار حرائق الاحتفالات المقدسة وتلقى جنجنام (***) الرسائل في ١٧ مايو ، وعكف على الفور في البحث عن وسيلة « لجلب الاحتقار والسخرية من هذه الأعمال المظلمة التي اضطغنت لبث الرعب في النفوس الحائرة ولشن حرب دينية في المملكة » . وانهى الأمر الى اتخاذ القرار باتباع الأني : يقوم ٤١ من الأعضاء حاملي الوثائق بالتقدم في خطوات وقور صوب الميدان الرئيسي ، حيث ينتظرهم موظفو البلدية

Conzie
Béthune, Sezanne
Guignamp

(*)
(***)
(****)

بصحبة حشد من المواطنين • وبلغ غضب الجنود ذروته الى حد تمزيقهم
للمنشورات البابوية ، اثناء سيرهم ، وتسلم العمدة الأجزاء المتناثرة من
احدى الرسائل ، وتلقى رئيس النادى الرسالة الثانية ، وانتقلت أعداد
نشرة رويو(*) من يد لأخرى ، وعند تلقي الاشارة أقيمت هذه النشرات فى
النيران •

وجرت عمليات الانتخاب لاجلال قسس من غير المحلفين فى جمعيات
الأقاليم ، لاسيما فى مارس وابريل ومايو ، وحاولت الأندية مرة أخرى
تشجيع الحضور ، وأشارت فى تعليمات مطبوعة الى أن اختيار القسس
حق للشعب منذ أوائل عهد الكنيسة ، وأرغم بيمبوف(**) جميع من يحق
لهم التصويت على التعهد بالحضور ، ونظرت « برجراك » فى مسألة
تدبير أماكن للاقامة المجانية للناخبين فى مقاطعتها ، واقترعت على حصر
أسماء المتخلفين عن الحضور ، ويصح القول بأن كل جماعة فى عواصم
المقاطعات كانت تمعد اجتماعات يومية يحضرها العديد من الناخبين •

وفى اليوم الأخير لعقد الجمعية الانتخابية فى سيزان ، أعلن
مبعوثون من النادى « كم هو رائع أن نرى بين الكنسيين الجدد مواطنين
اشتركتنا معهم فى عقد أقدس تحالف » • وفى مواضع أخرى أيضاً ،
اتضح أن العديد من حلوا محل القدامى كانوا أعضاء فى الجمعيات ،
أو معينين من قبلها ، وفى « فير » حيث وزع النادى قائمة باتباع
المحلفين ، وبين هم ليسوا أتباعا لهم ، للاسترشاد بها ، كان القسس
الجدد وجميع الشماسين التابعين لهم من اليمقوبيين ، وقسم رئيس
أساقفة برجراك شكره لأعضاء الجمعيات : « لما أبدىتموه من اهتمام
بانتخابى » ولما سمع لاروشيل عن وجود زيادة فى رجال الدين من
المحلفين (***) ، وطلب من ليموج ارسال قسس لشغل الأماكن الشاغرة فى
الأبرشيات ، وكتب سان باولو الى جنجام طالبا ارسال قوائم بأسماء
بعض الأساقفة الطيبين ممن هم على استعداد للانتقال الى أماكن أخرى ،
وزكت تورز لستراسبورج أسمائه اثنين من الرهبان من القادرين على
التحدث بالألمانية ، ومن يرغبون انشاء أبرشيات فى الألزاس ، وأشارت
ستراسبورج على كولمار باسم أحد الصالحين الأطهار من القسس فى
ياتنهايم • ممن كانوا ينوون الحط من مكانة الأبرشية (****) .

Gazette.

Palmboeuf

Haute-Vienne.

(*)

(**)

(***)

(****) جعلها مجرد مكان صغير لا يضم احدا غير الخورى •

وفي الأبرشيات التي حل فيها القسس المنتخبون محل غير المحلفين، ثارت المتاعب عادة ، وغالبا ما كان الخوري القديم يبقى قريبا من موقع الأحداث ، وكان الآباء والأمهات يصحبون أطفالهم اليه للمصاحبة والتعميد ، ويسعى اليه أقرباء المحتضرين للاشراف على الطقوس الأخيرة ويطلب منه الشباب ترأس احتفالات زفافهم ، وفي المصليات الخاصة والبيوت والحقول وفي أى مكان متاح ، كان المؤمنون يلتقون للاستماع الى « المشاكسين » وهم يتلون القساس والعشاء الرباني . ووصف بيري دى لاجورس موقف القسس الدستوري على هذا النحو :

« في الأبرشية التي ستؤول اليه ، لا أحد يرشده الى الطريق . ففي نظره ، لا حاجة لوجود من يدق ناقوس الكنيسة ، ويتحمل عبء وضع الكسوة للمذبح ، وتترك الأبرشية خاوية كأنها مكان جرد من محتوياته قبل تركه للوقوع في أيدي الأعداء ، وفي المساء ، يجرد من كانوا رجال أبرشيته يوما ما الكنيسة من محتوياتها ، ويلقون القش في البئر ويلطخون الأبواب بالأوساخ ، ويسدون الأقفال بالرمال . وعندما ييسر المكان القسس المحلفون يتبعمهم الأطفال مقلدين صيحات الديكة ، كتلميح للخيانة التي تعرض لها القديس بطرس ، وعندما يمر في الطريق ، يطلق الفلاحون كلابهم لاعتراض سبيله » .

وعندما تقع مثل هذه الأحداث ، كان القسس الدستوريون ينزعون لطلب المساعدة من الأندية التي تعهدت بمسئوليتها عن حمايتهم ، والتي ممثلو جمع الجمعيات (*) في مؤتمر بكليرمون - فيراند لبحث مشكلة المقاومة الشعبية للدستور المدني ، وسبل العلاج الميسورة . وأصبح من بين الأمور المألوفة في الأندية أيضا إيفاد مبعوثين لحضور حفلات تنصيب الخوريين الجدد ، وتطوع احد القسس المنتخبين من فير باختيار طفل من أبنائه ليكون أول من يعمد القسس المنتخب . واقترح سان برييه تأليف جيش من المتطوعين في بريتانى للانتقال الى أى مكان يتعرض فيه القسس « الصالحون » للاضطهاد ، وأنشأ القسس المحلفون جمعيات أبرشية كوسيلة دفاعية اضافية ضد المتعصبين ، وأنشأ الأب ماسموريه(**) القسس الدستوري ، وبالمقدور ذكر عشرات الأمثلة الماثلة .

وبمرور الأيام ، طالبت الجمعيات الجمعية الوطنية باستصدار قوانين جديدة صارمة ، وسعت جمعيتان لكى يشمل القسم جميع العاملين

(*) في Puy de Dôme

(**) Masmoret . كما انشأ أيضا Lemembre خورى Chavennes
جميعه Chateaufeuf sur-Cher

بالكنائس سواء أكانوا من المولفين المؤمنين أم لا ، وألغت جمعيات أخرى على تخفيض مرتبات غير المحلفين أو وقفها ، أما جمعية بريود وبعض جمعيات غيرها فقد طالبت باستبعاد القسس السابقين من أبرشياتهم .
بينما طالبت جمعيات أخرى بنقيهم إلى مكان يبعد ثلاث أميال أو أربع .
واقترحت مدينة كونلديو حشدهم في الميادين الرئيسية للمقاطعات ، أما ستراسبورج فرأت أفضأهم خارج الحدود ، بينما ارتأت مدينة بلوا تكليف جمعية ناشئة لتجميع جميع المشاكسين في بعض السفن ثم شحنهم إلى احراج افريقيا وأمريكا !

واقترحت فير في سبتمبر ١٧٩٠ السماح لرجال الدين بالزواج ، حتى يصبحوا مواطنين بالمعنى الصحيح للكلمة ، واستفسرت ستراسبورج في أغسطس من الجمعية الوطنية عن هل يحق للكنيسة الانفراد بالسيطرة على سجلات الزواج والتعميد . وعندما زادت سفاقة « المتعصبين » عن حدها ، تورطت بعض الجمعيات في عمليات العنف .
ففي حادثتين منفصلتين في ليورن في مايو ، قبض على بعض القسس وهم يجوبون المدينة على ظهور الحمير ، ويرشقون الجماهير بالحجارة ، أما الأدهى من ذلك فهو البيان الحافل بالزهو الذي أرسله نادى لسورن إلى اليعقوبيين في باريس . وعلى الرغم من أن أحداث الصدوان والقتل ظلت نادرة ١٧٩١ ، إلا أن الوقت كان قد حان لكي يصبح الرعب مبدأ الممارسة المقبولة للتعامل مع القسس الأوغاد !

المراجع

- A. Cobban, *Aspects of the French Revolution* 1970.
- W. Doyle, *Origins of the French Revolution* (1980).
- J. Egret, *The French Pre Revolution 1787-88.* (1978).
- A. Forrest, *The French Revolution and the Poor* (1981).
- I. Godechot, *The Counter-Revolution : Doctrine and Action 1789-1809* (1971).
- L. Hunt, *Politics, Culture, and Class in the French Revolution*
- D. Johnson, ed. *French Society and the Revolution* (1976).
- G. Lefevre, *The Coming of the French Revolution* (1947).
- M. Lyons, *France under the Directory* (1975).
- R. R. Palmer, *Twelve Who Ruled : The Committee of Public Safety during the Terror* (1941).
- A. Saboul, *The French Revolution* (trans. 1975).
- I. Tackett, *Religion, Revolution and Regional Culture in Eighteenth-Century France : The Ecclesiastical Oath of 1681* (1986).
- C. Tilly. *The Vendée* (1964).

أصل الاتجاه المحافظ في ألمانيا

كلوس ابشتين

من سفرات التاريخ ، ومفارقاته ، أن يكون الاتجاه المحافظ ، يعنى الأيديولوجية التى تسعى للحفاظ على حكمة الماضى ، ظاهرة فكرية عصرية . وما كان بالاستطاعة بزوغ هذا الاتجاه الا بعد أن تعرضت المعتقدات الأوربية التقليدية فى الدين والسياسة للتحدى الشديد والانتقاد العدوانى من قبل كتاب عصر التنوير ، وبعد أن اعتنقت الحكومات جانبا من هذه الأفكار النقدية .

ولقد جرت العادة على الربط بين الاتجاه المحافظ ورد الفصل ضد الثورة الفرنسية، غير أن العديد من معتقدات هذا الاتجاه ونظراته الأساسية تمت ابان العشرين سنة التى سبقت ١٧٨٩ كاعتراض على التزعزعة التنويرية المطلقة لحكام وسط أوروبا ، وشرقها ، خصوصا فردريك الأكبر ملك بروسيا وجوزيف الثانى ملك النمسا . إذ أحاط المعاهلان نفسيهما باتناس من أرباب النظرة المتنورة ، واتبعوا سياسات اصلاح عقلانية لى شتى الموضوعات وفى جباية الضرائب ، وكان الود مفقودا بينهما ومن المؤسسات الدينية فى بلديهما . وجرى جوزيف الثانى الكنيسة مما تمتلك من أرض .

وزعم أسان حال الموقف المحافظ ، الصاعد آنئذ ، أن المعتقدات العقلانية للتنوير قد أدت الى الشك والانحلال الأخلاقى ، فبغير ايمان دينى تقليدى ، سيجنح السواد الأعظم من البشر الى العيش حياة فوضوية بعيدة عن الانضباط ، فألحق وحده عاجز عن التزويد بأسس للسلوك الذى يتيم فى الحياة اليومية . واستعان « المحافظون » بهذه الحجة فى معرض الدفاع عن العادات الاجتماعية التقليدية ، والدور السائد للدين

The Genesis of German Conservatism

(*) نقلا عن كتاب

تأليف Klaus Epstein (١٩٦٦) ص ٦٥ - ٨٢ .

والكنيسة في الحياة الاجتماعية والسياسية ، وانكروا - بوجه خاص - مقدره البشر على تحقيق أى نوع من التقدم الأخلاقى المهم . وكان المقصود من جميع هذه الحجج الدفاع عن الوضع الراهن (٢) فى الناحية الاجتماعية والناحية السياسية .

ولجا المحافظون الجدد الى انواع شتى من التكتيكات فى حربهم الصليبية ضد التنوير ، وحرضوا الحكومات على الالتجاء للرقابة ، ما أمكن ، او اقامة العقبان امام الصحف الانتقادية ، وهاجموا شتى اشكال التعليم التقدمى التى يقصد بها - على ما يبدو - اثبات امكان رفع المستوى الاخلاقى ، او مرغوبة الصعود الاجتماعى . وعلى الرغم من كراهيتهم لعالم الصحافة ، الا أنهم اقتحموه ، فانشأوا جرائد لمنصرة قضيتهم . وحتى اندلاع الثورة فى فرنسا ، لم تحقق هذه الاتجاهات المحافظة ، وعائلتها الا نجاحا متراجعا . ولكن فيما بعد ، عمدت الحكومات والارستقراط عبر أوروبا الى تبني نظرتها ، ونشرها زهاء نصف قرن من الزمان .

ظهرت الاتجاهات المحافظة طيلة عصور التاريخ المكتوب . ويعنى بهذا المصطلح الاتجاه الذى يشعر فيه الناس بمعادة التغيرات التى تطرأ على ما اعتادوا من حياة ، وما تعلقوا به من معتقدات ، فثمة ارتباطا . وتداخل بين هذه الاتجاهات ومعنى التغير ذاته ، وتمتد جذور هذه الاتجاهات الى الخوف الأدمى من المجهول ، والرغبة فى الحياة فى بيئة بالاستطاعة التنبؤ بكل ما يجرى فيها ، ولقد حدثت جملة تغيرات طوال التاريخ لم يقتصر أثرها على تحفيز الشعور سيكولوجيا بعدم الارتياح . وانما ترنّب عليها أيضا التعبير الصريح عن الدفاع عن الاتجاه المحافظ . فمثلا اعتقد المتآمرون الذين اغتالوا القيصر أنهم يدافعون عن الدستور البرلماني القديم ضد نوع جديد من الطغيان ، ودافع الفيوكنج السكسون عن آلهة جدودهم ضد الدين المستحدث لشرلمان ، ودافعت محاكم التفتيش الدومنيكية عن اتجاه الكاثوليكية المحافظة ضد الهرطقة (**) . كما دافع اليسوعيون المناهضون للإصلاح الدينى عن وحدة العالم المسيحي ضد غزو المصلحين البروتستانت ، ودافع جون هاميدن عن الحق الانجليزى العتيق فى عدم فرض أية ضرائب عليه دون موافقته فى معرض الاعراض على المطالب الجديدة للامتيازات الملكية ، وفى ذات الوقت ، دافع النبيل الألماني كالك شتاين عن الحقوق التقليدية للولايات البروسية الشقية ضد الحكم المطلق للوالى الأكبر وما فيه من اجحاف .

Status quo.
Albigensian

(*)
(**)

وتعد جميع هذه الحالات ، التي اخترناها بطريقة عفوية أمثلة للدفاع عن وضع راهن خاص في زمن خاص ضد زمان معين ، أما ماله أهميصة ومغزى في القرن الثامن عشر - في ألمانيا حوالي ١٧٧٠ - فهو أنه بالرغم من أن الاتجاه المحافظ قد طُسل في جوهره دفاعا عن المؤسسات المئنة للأوضاع الراهنة (*) ، إلا أنه تبنى للمرة الأولى نظرة عامة (**) لها شخصية مميزة .

فلم يخطر ببال بروتس وفيدوكنج وهاميدن انهم يدافعون عن نظام اجتماعي وسياسي وثقافي جامع ضد هجوم عام يتغذى من رؤيا تصورية جديدة تماما للمجتمع ، وكيف يتعين أن يكون . ولا ريب أنهم شعروا ان ما يدافعون عنه له أهمية تتجاوز الوضع المباشر وما يترتب عن هريبتهم في هذه الناحية من ردود فعل بعيدة الأثر ، وانطلاقا من هذا الشعور ، بانث الخطوة قصيرة للغاية للاقتراب من المنظور المحافظ السافر ، ويالها من خطوة قصيرة حقا ، وان كانت حاسمة ، ولم يفم بخطوها أعد في ألمانيا قبل يوستوس موزر (***) ولقد اتخذت أنثذ كرد فعل لا مناص منه لتحدى التنوير (****) ببرنامج العام الذي يدعو الى احداث تحول في كل قطاع من قطاعات الحياة ، وأرغم « التنوير » أصحاب الميول المحافظة على التخل عن تقليديتهم التي تولدت عن عدم استبطانهم لذاتهم ، يعنى قبولهم الفريزي المدعم للوضع الراهن ، ايثارا للدفاع على نحو سافر عن المجتمع في جملته ، والوعى الذاتي به ، ولعل ما هو أقدح من ذلك ارغام هذه النزعة التقليدية أنصار الاتجاه المحافظ على انتقاد ممارسة نقد عصر التنوير لذاته . غير أن الرد الجزأ الذي يتناول كل قضية من قضايا البحث على حدة بالتحليل والفحص لم يحقق أكثر من انتصارات مؤقتة أو عابرة ، وقدر للاتجاه المحافظ من بدايته أن يضطر رغم شجبه للنقد والمحاكاة الى عدم الالتجاء الى السبيلين . والواقع أن بزوغ الفكر المحافظ والمحاكاة المحافظة قد ساهما في ائستئال المعركة الدائمة للأفكار التي اعتبرها المحافظون - في أغلب الظن - أكثر مظاهر روح العصر الحديث اثارة للأسف .

ولابد أن نكرر القول بأن التورط المؤسف للاتجاه المحافظ قد ظهر منذ اللحظة الأولى من مولده . فالمحافظون يقدرون أى مجتمع بقدر فنه الكافة النظام الوطيد بلا اعتراض ، وحيث يكون النشاط الفكرى

Status quo

(x)

Weltanschauung

(x x)

Justus Moeser

(x x x)

Aufklaerung

(x x x x)

أما في أدنى مستوياته ، أو يكون مكرسا لتهديب النمط القائم للحياة ، بدلا من تقدمه ، وهم يمتقنون ويستامون من عادة النقد - والتي اتخذت صورة منهجية إبان عصر التنوير - والتشكك في كل شيء ، والسخط على كل شيء ، ومع هذا فقد شعروا أنهم مرغون بتأثير الروح النقدية الجديدة التي يتندر كتبها على الدفاع عن المؤسسات التقليدية من كنائس وحكومات وأنظمة اجتماعية ، عند ما يواجه إليها أي هجوم ، ويشعرون غريزيا أن المعركة قد تعرضت لنصف خسارة ، بعد إرغامهم على خوضها . فلا بد في رأيهم ، رغم بغضهم للمحاجة والمجادلة ، أن يدافعوا ، رغم شعورهم بأن الاكتفاء بالقبول بلا تساؤل أقدر على تحقيق الرضا الشعوري ، وإرغامهم على الاقتناع ، رغم كون الاقتناع بلا ضرورة ، ولا يحتمل أن يعود بأي نفع . ان من يضع شروط المجادلة هو الفريق المؤمن بالحركة . ولقد كتب على الاتجاه المحافظ أن يحارب - بالضرورة - حربا دفاعية الى الأبد ، والانتصارات التي تتحقق عن طريق الجدل هي في أفضل الأحوال من الانتصارات المثيرة للتشكك (*) ، لأنه حتى المؤسسة التي تنجح في الدفاع عن نفسها ستتحوّل الى شيء مختلف تماما عن تلك التي لم تتعرض لأي تحديات تدفعها الى التزام الدفاع ، فالفضيلة النضالية لا تزيد عن عوض هزيل لسحر البراعة ، وإذا تعرضت البراعة للضياع ، فلن يكون بالإمكان استردادها البتة . ان هذا هو المعنى الأساسي للقول الذي ينسب الى تالران : « ان من لم يعيش قبا ١٧٨٩ لن يكون بمقدوره ادراك ما هي حلوة الحياة » ، وتبدو ضرورة انماء اتجاه محافظ صرعه عند المحافظين الصميين علامة لا تخطئ في دلالتها على اختفاء العصر الذهبي الى الأبد .

نقد النزعة النقدية للتنوير

كان من الطبيعي أن ينطلق المحافظون من حصونهم الدفاعية لشن هجوم مضاد قوى ضد روح التنوير وأساليبه . وبالإستطاعة تحليل هجومهم المضاد تحليلا نافعا بعد إدراجه تحت عنوانين : أولا - نقد نتائج « التنوير » ، تمشيا مع النظرة التي ترى ان علينا أن نحكم على الشجرة من ثمارها . ثانيا - الهجوم على دوافع التنوير وشروطه المزعومة .

ويؤكد المحافظون أن التنوير قد أدى - على نحو ملحوظ وملمس لا مفر منه - الى وقوع شرور ثلاثة : الشك ، واللا أخلاق واضعاف جميع

(*) Pyrrhic نسبة الى الفيلسوف اليوناني بيرو المؤمن بمذهب الشك المطلق .

السلطات القائمة ، فلقد أسدت نظرة العقلايين الى الدين الايمان بالحقائق الأساسية للدين التقليدي ، وفي نظر المحافظين ، ليست هذه الحقائق متعارضة هي والعقل ، ولكنها - يقينا - لا ترتكن الى العقل وحده ، ولقد ضل أنصار التنوير السبيل أساسا عندما اعتبروا العقل المقياس الأوحده للصدقية ، والواقع أن أنصار التنوير كانوا معادين لدرجة كبيرة للمعجزات والغيبيات والقدرة الالهية . وكانت النظرة التي ترتبت على رفض هذه العناصر الثلاثة الأساسية للمسيحية التاريخية هي احتمال نشوء دين « طبيعي » يحافظ على جوهر المسيحية (المتمثل في تصورات الله الخالق ، والقانون الأخلاقي ، والخلود) مع التخلي عن كل ما يسمى بالعوارض التاريخية ، على أن هذا الموقف لم يكن ملزما من الناحية المنطقية للمفكرين . كما أنه لم يجتنب السواد الأعظم من الشعب . فغالبا ما بنا هذا الحل مجرد توقف عند منتصف الطريق بين الشك الكامل والمذهب المادى الكامل .

وكان الشاعر والعالم السويسرى البرخت فون هالزر (١٧٠٨ - ١٧٧٧) من أوائل منتقدى تيار الشك ، وتكتسب حججه أهميتها من كونها قد تركزت على أسس نفعية بحتة بدلا من استنادها على العقيدة الدينية ، فلقد ذكر هالزر أن الشك يضعف - بالضرورة - الايمان بأسس الأخلاق التي تساعد على بزوغ نوع جديد من الانسان : الانسان الذى يهب حياته للحرى وراء المتع الحسية غير المقيدة بتصور وجود اله منتقم فى الحياة الآتية . فمثل هذا الانسان لن يعترف بأى قيود أخلاقية اطلاقا ، وهذا الاتجاه يؤدى فى الحياة الخاصة الى العواقب الآتية :

- ١ - إحلال الصلات المؤقتة محل الزواج ٢ - إهمال الأبناء . أو ربما النظر اليهم كمصدر قلق وأذى ، ٣ - قتل الوالدين المسنين ، لأن بقاءهما على قيد الحياة لن يكون مناسبا ، ٤ - ولما كانت الصداقة تحتاج الى شيء ما من التضحية ، فإن أمرها سينسى بالفعل ، وستكون العواقب العامة جائحة بالمثل ، إذ سيختفى الشرف فى المعاملات التجارية ، وسيتوقف الخدم عن الولاء لأسيادهم ، وستنعدم قيمة التعهدات ، وسيصبح الخوف من العقوبة الوقتية الكابح الوحيد للجريمة ، وحتى هذا الكابح فإنه سيتعرض للوهن من اثر فساد ذمة القضاة . ومن الآن فصاعدا ، لن يطمن أى حاكم لمن يعملون تحت امرته ، ولن يثق حتى فى ايكال المحافظلة على سلامته لمرسه الخاص . ان هذا الموقف سيكون حتما الموقف الذى تحلت عنه هوبز ، عندما وصفه وصفا دقيقا بحرب الكل ضد الكل ، وقدم هالزر الصورة الآتية للانسان انشاك الجديد :

« ان الشاك الذى ينكر وجود اله منتقم ، وينكر الحياة الأبدية الآتية يحصر سعادتنا فى الفترة الوجيزة لحياتنا فوق سطح الأرض من حيث الديومة ، ويحصر متعتنا فى الاستمتاع - من حيث الجوهر - بالمتع الحسية ، انه يؤكد أن لكل انسان الحق فى السعادة ، وان عليه أن يهتدى إليها حيثما تكون ، ويتساوى المجرم هو والقديس فى استحقاقهما لهذه السعادة ، وينظر الى متعة الحب - وعلى الأخص الجانب الحيوانى من الحب - والى أكثر الأشياء اثاره لحواسنا على أنها أسهى خير يصيب الانسان . فهى وحدها التى تحقق لنا السعادة ، حتى اذا تحققت عن طريق غير شريف ، ولم يرض عنها أقراننا من البشر ، فلا يجب على الاطلاق أن تنقيد هذه السعادة بالكلمة المتعالة البالية المسماة بالفضيلة ، ان هذا المعنى بالذات من اوهام الخيال ومن العيل التى اخترعها البشر ، انه حقاً نبت غريب لا ينمو على نحو طبيعى فى قلوبنا . ان ما نشعر به من تائب للضمير أو احساس بالذنب يطاردنا بلا هوادة ، يجب أن يستبعد ، وينظر اليه على أنه مجرد فكرة مستحوزة علينا من تأثير الضربات واللطمات التى وجهتها الحياة الينا فى الطفولة ، نعم علينا أن لا نفكر فى الله قط . وقد ثبت أنه لا وجود لآخرة ، ومن ثم فلا شيء يستحق أن يخشى سوى المخلوق الوحيد الذى يشوه سعادتنا ، يعنى الجلاد العام ، فحتى الفلاسفة الذين يخشون شيئاً آخر ، أى لا شيء ، أعلى فى السماء أو تحتها ، فان عليهم أن يحترسوا منه ، ومنه فقط ، .

ثم قارن بعد ذلك هالكر الفوضى الأخلاقية التى تنجم عن الشك ، وما يترتب عليها من حدوث حرب لكل ضد الكل ، بصورة حياة المسيحى التقليدى المتناغمة :

« تترتب على الايمان المسيحى نتائج متعارضة على طول الخط هى والنتائج الناجمة عن الكفر ، فالذين يوحد الجهود والارادات المتنافسة ، ويضمها فى جهد واحد وارادة واحدة تتركز حول الله ، فقانونه يطالبنا بحبه وبحب جيراننا أكثر من أى شيء آخر ، مثلما نحب أنفسنا ، فكم هناك من حكمة لا نهاية لها . وكم هناك من قدرة لا متناهية على فعل الخير تكمن فى هذا الايمان البسيط ! . ان الوحي يعلمنا أن مصيرنا لا يتبع هذا العالم وحده ، ومن ثم فلا بد من الاستمتاع بخيرات الدنيا بتحفظ ، وأن لا تتعلق قلوبنا بها . فنحن نعرف أن اقامتنا فى هذا العالم مؤقتة ، وأن الموت سيقبل علينا ، عندها ننتقل الى عالم روحانى تختفى منه متع الجسد ، ويفقد كل طموح معناه ، والحق أننا بحكم الطبيعة كائنات متدنية ، تحتاج الى اعادة تشكيل عن طريق العناية الالهية ، قبل أن

تستحق عن جدارة الامتثال الى حضرته برفقة آلاف المخلوقات ذات الطبيعة التي تسمو على طبيعتنا (الملائكة) .

ففي هذا العالم الراهن ، نحن جميعا اخوة مكلفون بالالتزام بأن نعمل للآخرين كل ما يتعين أن نقوم به من أجل اله يثيب بلا حدود ، اذا ظهر وسطنا متخفيا في مظهر انساني وطلب منا العون ، ان هذا المعنى ابعد الزاما من اية شريعة اخلاقية تذاع اعتمادا على البلاغة الانسانية فحسب ، فمن هذه القوانين الأساسية القليلة تتدفق جميع الفضائل المدنية ، واذا اطيعت فانها ستثمر - قطعاً - سعادة البشر على الفور .

ولكى يوازن بين صورته الأولى لرذائل الشاك ، خصص هالزر باقى مقاله للدلام عن فضائل المسيحي ، فباين بين الحياة الاسرية المسيحية ، وما يكتنفها من شعور بالارتياح ، والقلق المترتب على الصلات الجنسية المؤقتة ، وقارن بين تربية الاطفال على الطريقة المسيحية ، بما يحدث عندما يكون الابوان مهملين لا يسعيان لغير البحث عن المتعة ، وقارن بين رضاه المسيحي عن كل موقع في الحياة والواجب الاخلاقي الذي يدعو الى الالتزام بما يفرضه هذا الموقع . وبوسعك أن تقارنه بسمى الشاك وراء الطموح والاشباع الحسى بلا حدود ، وأن تقارن بين التزام المسيحي بالقانون الاخلاقي المفروض بحكم الوعي بوجود اله حاضر في كل شيء ، وعدم التقيد بأية قاعدة أو أى قانون عند الشاك الذى لا يخشى غير اكتشاف الشرطة له . وهناك اختلاف بين التصور المسيحي للحكومة ، حيث تعد طاعة السلطة المكتسبة عن جدارة واجبا مقدسا ، وطرح هالزر الرأى المحافظ الكلاسيكى ، والقائل بعدم وجود مجتمع متحضر بمقدوره الاستغناء عن الأسس الدينية . وأضاف أن هذه الأسس لا يمكن أن تكون غير مسيحية ، على الأقل فيما يخص المجتمع الأوربي . فممازأ بالاستطاعة الحيولة دون تفكك الحضارة الأوربية بفضل التأثير الباقي للمسيحية . وصور هالزر المجتمع الأوربي على أنه يحيا منزلا عن الرصيد (الروحي) الذى تراكم عبر القرون التى سبقت « التنوير » ، وليس هناك سوى الرؤى القاتمة لما قد يحدث اذا لم يشرع فى التوفى تعزيز رصيد أوروبا من المسيحية .

وانضم كتاب محافظون آخرون الى هالزر فى تصوره عدم قدرة العقل وحده الاتيان باساس لآخلاقيات تفى باحتياجات المجتمع ، وأكد بافارى محافظ مرموق : كارل فون اكارتسهاوزن (١٧٣٢ - ١٨٠٣) فى محاجاته على اعتبار الدين التقليدي دعامة ما استمر فى البقاء من اخلاق فى أوروبا ، كما أكد على عدم استطاعة الاخلاق الاستناد على غير

العادات الدينية والتقاليد ، وليس على المعتقدات العقلانية لأى أفراد مهما كانت هويتهم .

ويسأل هالزر المتنور ، الذى لا يكف عن نقد الصادات التقليدية ، الا تدرى ان القانون الأخلاقى يفقد قدرا كبيرا من فاعليته اذا لم يتوقف عن الطنين فى أذناننا أثناء طفولتنا ، أى قبل مدة طويلة من بلوغ عقولنا مكانة تؤهلها للحكم على المصائب التى تلحق بالإنسان من وراء الرذيلة ، ويتهم ايكارتسهاوزن « المتنور » بالقضاء على الاحساس بالخزى : ان الشعور بالخزى الذى نشعر به عندما نعاقب عقوبة منصفة من بين النعم النفيسة التى وهبتها لنا الطبيعة ، فلا وجود لبديل لخشية العقوبة الالهية لدفع الأخلاق ، ولاسيما عند أنصار المذهب المادى الذين يجنحون الى الظن بأن العقوبة الدنيوية التى تنفذ بوساطة « المجلة » أو « ربا بوساطة أدوات تعذيب أقسى ، لا تختلف من حيث المبدأ عن نزلة قمرس ثقيلة أو مفص كلوى موجه » ان هذه الأسباب النفسية جعلت من المحتوم على أوروبا مواصلة التعلق بالتقاليد المسيحية ، حتى بغض النظر عن حقيقتها اللوجماتيقية ، وذهب ايكارتسهاوزن الى ما هو أبعد الى حد اصراره على القول « بأنه اذا ظهر عرضا علم صحة المسيحية – وان كان هو بالذات من المؤمنين المتحمسين – فانها ستحتاج رغم ذلك للحفاظ عليها ، لأنها تمثل الأساس الممكن الوحيد للأخلاقيات الأوروبية » ، وتوسل الى « المتنور » ان يلتفت الى المثل الذى ضربه سقراط الذى كثيرا ما هملوا له كرفيق روحانى . فلقد كان سقراط حريصا على مراعاة العادات الدينية الأثينية ، التى لم يتظاهر باحترامها بناء على أسس دينية ، لأنه أدرك أنها الأساس الممكن للأخلاق الأثينية .

ومن بين النتائج الأبعد « للتنوير » القضاء على كل احترام للسلطة القائمة . فلا وجود لأية مؤسسة مهما كانت درجة احترامها محصنة من النقد . ولم يكتف « المتنور » بتحويل النقد الهدام الى عادة شخصية ، ولكنه عمد الى استحثاث الكافة – مهما كانت هويتهم ، أى كانوا من انمواع أو من غير المتعلمين – الى مشاركته فى هذه العادة . وكان الكاهن اللوترى المدعو دانييل يواقيم كوبرن (*) – من بوميرانيا – واحدا من العديد من الكتاب المحافظين ، الذين دافعوا عن الحاجة الى السلطة الدينية والسلطة الدينية على أسس عامة ، وكتب ١٧٨٩ – دون تأثر بالثورة الفرنسية – بأن أحدا لم يبرهن حتى الآن :

« على أن عامة الناس - في حالتهم الراهنة ، أو فيما يحتمل أن يصبحوا - قادرون على أن يكتشفوا بأنفسهم الحق والخير ، ومن السانح أن عامة الناس - يعنى السواد الأعظم من البشر - يعنى الخدم وعمال الميومة والكادحين والحرفيين الدارجين ، وغيرهم ، الذين قد يكونون أصحاب مرتبة أسمى من الناحية الرسمية - وإن كان مسلكهم ماثلا فى بداوته - عاجزون عن القيام بذلك ، نظرا لغبايهم الفطرى (البيولوجى) واحوالهم الخارجية فى الحياة ، انهم يحتاجون قطعا الى الارشاد من عل ، وستظل هذه الحقيقة محتفظة بصحتها مادام عامة الناس يرزحون فى أوصاب حالتهم الدارجة . فما دام الناس قد ولدوا ولديهم طباع وحشية يرتعون فى الجهالة - وستظل هذه الحقيقة سائدة الى أن تختفى البشرية من فوق البسيطة - ويحصلون على التعليم الأخلاقى عن طريق التعليم والتوجيه من مصدر خارجى ما . ومادام مضمون هذا التعليم ليس بالشوء المحايد ، ولكنه يشكل المسلك البالغ برمته للشعب . لجميع هذه الاعتبارات ، فلا مفر من وجود اشرف ما على المبادئ الدينية والأخلاقية التى تفرض على عامة الناس من خارج صفوفهم . ولكن من هو الذى يتولى هذا الاشرف الضرورى ؟ لا يخفى أن هذا الواجب من اختصاص السلطة القائمة .

ولقد استعان المحافظون فى القرن الثامن عشر وحتى يومنا هذا المرة تلو الأخرى بالحجج التى تنسب الى أهل الصفوة والمسئولين .

ولا يقنع المحافظون بالإشارة الى العواقب الوخيمة التى ترتبت على « التنوير » ، عندما قضى على الدين والأخلاق والسلطة ، ولكنهم يلحاون الى المحاجة (*) ضد الرذائل الشخصية « للمتور » . ومن غير الانصاف اتهام المحافظين بأنهم أول من لجأ للتجريح الشخصى ، لأن مروجى الأفكار من الراديكاليين قد دأبوا على وصم أعدائهم بأنهم عصبية من الأغبياء والانانيين من أرباب العقول المستفلة والأقفاظ المقتقرين الى الخبال ، ورد المحافظون على هذه الألفاظ المكررة ، التى تردد نغما واحدا بعيدا عن الاطراد ، بفضح المتورين ، ووصفهم بأنهم عصبية من المتصبيين والمتحمسين الجائرين الذين كرسوا أنفسهم للنقد السلبى المحض لأنهم لايصلحون لاداء أى دور بناء ، وهو جموا أيضا باعتبارهم شخصيات تفتقر الى الاتزان، وينقصها الاحساس بأهمية الشاعر والروحانيات والتقاليد ودورها فى شئنا الانسان ، ولأنهم أصيبوا بغشاوة فى أبصارهم حالت دون رؤيهم مطالب المشاعر القومية .

(*) غير المنزعة من الصالح الذاتى ad dominem

ولا يولع المحافظون بشيء مثل ميلهم لجزر التعصب وعدم التسامح عند المتنور . وهذه اتجاهات تشهد بما لديهم من روح عدوانية ، لأن المتنورين يزعمون ، زعما صائبا بأنهم يسعون لازهاق روح عدم التسامح والتعصب باعتبارها رذائل . وخصص ايكارتسهاوزن جل أحد أحاديثه العامة (٥ ابريل ١٧٨٥) للتحدث عن عدم التسامح الأدبي في عصرنا وقال متمجبا :

« أيها التسامح ! أيها التسامح ! يا لها من كلمة رائعة ! كثيرا ما تتردد على الألسنة ، وإن كانت قلما تمارس في قرننا المتنور ! فنحن نسمع الفلاسفة الزائفين يصيحون في صلف : عليكم أن تفكروا مثلما تفكر ، والا فاننا سننتعتمكم في كتاباتنا بالمعتين أو المضللين ، وسنلهب ظهورك بالسياط ، وننكل بكم في نصف العالم . هذه هي الصيحات التي تنطق من أفواه من أزهقوا روح الأدب . انهم لن يترددوا عن التشهير بالشرفاء الأمناء الى حد القضاء عليهم » .

وذهب ايكارتسهاوزن الى وصف التعصب للخرافات عند « التنوير » في هذا النداء البليغ ، الذي وجهه لأعدائه :

« خيروني ، متى كانت الخزعبلات ماثلة في اثارها للسخرية لفلسفاتكم ؟ ومتى كشفت عن مثل هذه الحمية الانفعالية لكسب المشربس لدعوة خاصة ؟ ومتى غمرت الخزعبلات العالم بالكثير من النشرات الغاضبة المتناقضة والمثيرة للسخرية ؟ ومتى سعت الى تحيز العالم ضد من يناصبها العداة اعتمادا على العديد من الأباطيل والموسوعات والأشعار والحواديت ؟ » .

ونسب ايكارتسهاوزن الشهرة التي تمتع بها دعاة « التنوير » الى شين مسلهم وأهوائهم وللمهم بالثار والتنكيل بالأشخاص .

ووجه المحافظون قدرا كبيرا من النقد الى الوسائل البشعة الجائرة التي لجأ اليها « المستبدون المتنورون » - وبخاصة امبراطور الهابسبورج جوزيف الثاني - لدى عرضهم لقضية التنوير . ولتكف بمثل واحد : المؤلف المحافظ ابن هانوفر : ارنست برانديس ، الذي شن في كتابانه هجوما شرسا ضد الطريقة التي اتبعها جوزيف في اصلاح الكنيسة ، ولا بد من ملاحظة عدم شعور برانديس بأى تعاطف نحو الرهبانية بحكم كونه بروتستانتيا ، ولقد أدرك ادراكا كاملا الحاجات المالية للدولة النمساوية التي دفعها اضطرارا الى مصادرة بعض الأديرة ، ولكنه احتج على الطابع المشهور لأفعال الامبراطور والقسوة بلا مبرر التي عمل بها الرهبان والتنكيل بشخصهم ، والتدمير الهجى للفنائس الفنية التي

لا تقدر بثمن ، والافتقار انتام لتبجيل مؤسسات يزيد عمرها عادة عن مئات السنين ، والاختفاق في اعداد الراى العام بتؤدة لمواجهة خطوات تبدو الحاجة ماسة اليها ، وهاجم برانديس الامبراطور « المصلح » لعنم اكثراته الذى اتصف به ، بمشاعر الآخرين ، مما ادى الى اتسام نظراته حتى لاكثر الأفعال اتساما بالروح الخيرة ، بالحق ، ووصفت بالنظرة المستبدة ، وبخاصة عندما اصطدمت بالحياة التى اعتادها عامة الناس ، ومن أمثلة ذلك ، الغاؤه للعطلات الرسمية الزائدة عن الحاجة ، وحمته ضد مراسم الدفن فى توابيت خشبية غير صحية وغير اقتصادية ، ومثل جوزيف اعظم تمثيل « المتنور » بحكم اعتقاده المتفطرس أنه يعرف على خير وجه ما الذى يعود بالخير على الآخرين ، ووجوب اعادة بناء المجتمع على أسس عقلانية ، وطلنه أن كل عدو للاصلاح اما يتصف بالغباء ، أو من الحقودين الأراذل ، ولا يستبعد جمعه بين الصفتين ، واعتقاده بوجوب الاسراع بتطبيق برنامج التنوير دون مراعاة لاية عقبات تعترض طريقه .

وكثيرا ما هجا المحافظون أصحاب النشرات من أنصار « التنوير » ، ووصفوهم بزمرة من العاطلين المأجورين العاجزين عن الاشتغال بأى عمل محترم ، ورسم ايكارتسهاوزن هذه الصورة البعيدة عن المداينة لمرجى معتقدات « التنوير » بلغة قوية ، اشتهرت بها مجادلات العصر :

« انهم اناس يفتقرون الى اية فلسفة حقة ، أدمغتهم مشحونة بما يدعى بالتصورات (المتنورة) التى بنت فيهم على نحو مهوش . تاما ، ثم تقيثوها لعجزهم عن هضمها ، انهم يفتقرون الى اية معرفة بالطبيعة البشرية ، لأن حياتهم اقتصرت على الدراسة - أو ارتياد المقاهى فى أكثر تقدير . انهم فى واقع الأمر عباقرة مزعمون ، بسر اويل مثقوبة (*) أو اوباش ، أو أعضاء فى جمعيات سرية ، أو من تقال الظل الذين يتصورون أنفسهم ندماء طرفاء (**) ، ومن ينفسون عن حقدهم وضغينتهم ، وينفتونها فى وجه كل من يفتقر الى تصورات مهوشة مثل تصوراتهم ، ان اعوانهم وأتباعهم منتشرون فى طول ألمانيا وعرضها وتضم طوائفهم فى كل مكان الساخطين الدائمين ، والكثير من المخدوعين فى أنفسهم ممن يتوهمون أنهم الحكماء الوحيدون ، بينما الحقيقة هى أن كل ما يسعون اليه هو العثور على وعاء يصبون فيه غائظهم الفكرى (***) . فهم يظنون ان لديهم القدرة على تسيير دفة الحكم ، بينما والحق يقال ، هم يتسمون

Meistenheils Genies in Terri senen Hosen.

(*)

Witzlinge

(***)

die dann froh sind, wenn sie einen Topf aben, wo sie ihren (****) Urath ausleeren Koennen.

بالمعجز حتى عن تدبير شئونهم الخاصة ، وغارقون حتى آذانهم فى ديون لا يستطيعون الوفاء بها ؟ .

واكد المحافظون أن « المتنورين » اناسي يعوزهم الاتزان ، ويففلون جوانب عديدة مهمة فى حياة البشر ، وادى تشبيهم بمعتقداتهم وعقلايهم الى ضمور ملكاتهم الشعورية (*) ، ويتفق على هذا الراى رواد الاتجاه المحافظ وشعراء حركة « الانتفاضة الماصفة » (***) مسحرة الشمال . لقد روجوا الزعم بأن التنوير ينزع الى تناسى مطالب المشاعر وانتوير والتبجيل والعاطفه ، لأنهم يرون الحياة بمنظور نفعى متمصب ضيق ، وجنحت عقلايتهم – فوق ذلك – الى ابعاد نظرهم للعالم عن الاحساس التاريخي بشكل خطير ، فهم لا يبالون كثيرا بدور الفرد ، الذى يعد من أهم سمات التطور التاريخي . اما ما شغل آذانهم فكان البحث عن مبادئ تصلح للتطبيق فى جميع المواضع والاقوات ، وتطبيقها على نحو يناسب هذا التصور ، وهكذا عدت الحركة التاريخانية التى وصفها المؤرخ الألماني فردريش ماينكه « بأنها واحدة من أعظم الثورات الفكرية التى أقسم عليها العقل الغربى » حليفا قويا للنزعة المحافظة ، وان كان روادها وكثيرون من أوائل أنصارها ، خصوصا يوهان جوتفريد هردز (١٧٤٤ – ١٨٠٣) قد تعاطفوا بشخصهم مع الكثير مما جاء فى برنامج « التنوير » .

واعترض المحافظون على الايمان « بالقبليات » عند المتنورين كيمانهم بأن الكون لا يتصف بخفاياه الروحية المستفلة – كما اعتقد طويلا – لانه ميسور الفهم ، وكان ايكارتسهاوزن من بين الكتاب المحافظين العديدين ، الذين لم يكتفوا باثبات اعتقادهم بتعذر فهم الكثير من جوانب العالم ، ولكنه طرب لهذا الاعتقاد . فلا أحد غير الله بمعدوره فهم خفايا الكون الذى خلقه ، فانى للعقل المتناهى للانسان الاهتداء الى فهم كامل للكون اللامتناهى ، والذى لايتطابق – كما لا يخفى – هو والطابع المحدود للنتماهى ؟ . ولقد اكمل الله بحكم رحمته أوجه النقص التى لا مفر منها للفهم الانسانى بالوحى ، وان كان حتى الوحى نفسه يحتوى على عناصر خفية عديدة ، ولو كان ذلك ليس كذلك – كما يجادل ايكارتسهاوزن – فان الايمان لن يزيد عن حالة من الرضوخ الآلى ، ويتوقف عن الاتصاف بالفضيلة المسيحية ، فلا بد لكل ناضج أن يتعلم التعايش مع الأسرار الخفية وأن يتشبه بها . وعليه أن يتفادى الخطا الساذج الذى وقع فيه

«المتنورون» عندما اعتقدوا تشابه كل حقيقة نافعة وضرورية بالبلور في الصفاة والشفافية ، لأن العقيدة « قد تحتوى على الكثير مما يصعب فهمه دون أن توهم لهذا السبب بأنها غير ضرورية أو من الحقائق التي لانفع لها » .

نقد استند اعتقاد مفكرى التنوير بالتقدم الانساني أساسا على ايمانهم بالنتائج النافعة للمعرفة العلمية التي تحقق الارتفاع الرفاهية المدنية والسعادة الانسانية ، ولكن ما القول اذا كانت المعرفة فى المجالات الأساسية الحقيقية للحياة (الدين والأخلاق .. الخ) ثابتة فى الواقع ، لعدم صلاحية المنهج العلمى للتطبيق عليها ، وأنها من الناحية العملية ربما تعرضت للنكوص بعد ارتفاع تيار الشك ؟ وكان برانديس من بين من رفضوا الظن بحدوث تقدم حقيقى فعل فى القرون القريبة العهد ، وليس هناك من ينكر حدوث بعض التقدم فى مستوى المعيشة ، وان كان هذا التقدم لم يؤد الى ما هو أكثر من زيادة الترف والإسراف والابتعاد عن الأخلاق ، نعم لقد حدث بعض التقدم فى التعليم ، وان كان أثر ذلك قد أدى فقط الى تعريض العقليات اللانقدية لاصابة المذاهب المسمرة « للتنوير » ، ومن ثم فقد انتهى بهم الأمر الى وقوعهم فرائس للاغراءات التي كن الأفضل تجنبهم لها . ان التقدم الحق لن يعنى الا التقدم الأخلاقى للفرد وحسب ، وزيادة عمق ادراك حقائق الديانة المسيحية . ومن أسف لا يوجد ، ولو أوهى دليل ، على أن شيئا ما من هذا القبيل قد حدث . وعلى العكس ، فان ما بات واضحا للعيان هو انتشار الابتعاد عن الأخلاق ، والوقوع فى برائن الشك ، ان أصحاب العقول المتعصبة الضحلة هم الوحيدون الذين يمتقدون فى حدوث تقدم ثقافى منذ عهد الاغريق القدامى ، فهل استطاع « التنوير » انجاب فيلسوف أعظم من افلاطون ، أو مؤرخ أعظم من توكوديد أو كاتب سير أعظم من بلوتازك ، أو رسام يتسائل فى عظمته هو ورافايلو ؟ ان أسوأ أثر ترتب على منهب « التنوير » - فى اعتقاد برانديس - تزويد - البشر ببديل سيكلوجى للاعتقاد فى الخلود الشخصى ، مما ساعد على اضعاف المذهب المسيحى الضرورى للأخلاق الشخصية والاستقرار الاجتماعى ، لقد زود البشر أيضا برؤيا يوتوبية للمستقبل ، يبدو فيها كل شيء ممكنا ، وأدى أيضا الى شل المحافظين وما يلازمهم من ايمان واه بالقسرية نابع من اعتقادهم أنهم يحاربون حربا ميثوسا منها فى نهاية الأمر ضد عجلة التاريخ التي لا مناص من دورانها .

أما آخر اتهام وجه « للمتنورين » فهو افتقارهم الى الشعور الجرمانى القومى ، فانكارهم كلية (عالية) فى مضمونها ، ويرجع أصلها الى أوديا

الفريية ، مما يوحي بوجود تعرضها لهجوم مضاد ذي طابع قومي ،
 الا يجب على الألمان أن يؤمنوا ويتشبهوا بالمعتقدات والمؤسسات الألمانية
 التي نبتت من الموروثات الجرمانية المميزة ؟ ولم تستطع هذه الفكرة
 أداء أكثر من دور صغير نسبيا في القرن الثامن عشر ، لقلبة الروح للعالية
 (الكوزموبوليتانية) على هذا القرن ، ولكنها بشرت ومهدت لما اتضح أنه
 أعظم الحجج المؤيدة للاتجاه المحافظ في القرن التاسع عشر .

يكفى القول في هذه النقطة بأن الاتجاه الجرمانى المحافظ لم يكن
 بمقدوره الاكتفاء بالاعتماد - سوسيولوجيا - على مقومات المجتمع الجرمانى ،
 كما أجملناها في القسم السابق ، ولكنه كان قادرا على الاستناد أيضا
 فكريا على الكثير من أقوى نيارات الحياة الثقافية في ألمانيا . إذ كان
 باستطاعة الاتجاه الفكرى المحافظ فى هجومه على « المتنورين » و « التنور »
 الارتكان الى أفكار مثل التعلق بالعاطفة (*) فى حركة الانتفاضة العاصفة ،
 وعلى النزعة الغيبية لهامان ، والتاريخانية (**) لهردر ، والتبرم من
 الحضارة ، كما عبر عنه برانديس .

منهج الدفاع عن الاتجاه المحافظ

اعتمد الدفاع العام عن المجتمع الألمانى فى سبعينيات القرن الثامن
 عشر ، وثمانيناته - أساسا - على قمع أصوات النقد الراديكالى . وزاد من
 صعوبة هذه التعددية فى نظام الدولة بألمانيا . بيد انه حدثت عدة محاولات
 لفرض الرقابة بررتها تبريرا راسخا حجة ترى عدم أهلية الأشخاص
 العاديين للتصدى بالنقاش فى المسائل العامة على نحو ناضج . واتكأت
 أحيانا حتى الحكومة البروسية - رغم ما عرف عنها بوجه عام من نزوع
 نحو الليبرالية - على هذه الحجة لآخراس السنة رؤساء التحرير الذين
 سموا لمهاجمتها . ولنكتف بمثل واحد للتليل على ذلك : انه جريدة
 جوكنج (***) الجريدة التى يكتبها الألمان للألمان) والتى تسببت فى شكاية
 بعض الدول المجاورة من بروسيا ، لما وجه فى هذه الجريدة من نقد
 لحكامها . وقام فى التو وزيران بروسيا (****) بإرسال توبيخ شديد
 للهجة لحكومة هالبرشتات (المقاطعة التى تصدر فيها هذه الجريدة)
 فى ١٣ ديسمبر (١٧٨٤) جاء فيه ما يأتى :

Gefuehl (×)

Historicism (××)

Journal von und fuer Deutschland : الجريدة التى كان يصدرها (***××)
 Goking

Finkenstien الكونت والثانى الكونت Hertzberg (وكان معروفا

بإيمانه بالتنوير)

« ليس من حق أحد إصدار أحكام عامة على الأفعال والاجراءات والقوانين والتصريحات ، والقرارات الصادرة من الحكام أو وزراءهم ، أو من المكاتب الادارية أو المحاكم ، بما فى ذلك - بوجه خاص - الأحكام غير المستحبة . ويصح هذا القول أيضا - بطبيعة الحال - فيما يتعلق بنشر الاخبار المتلقاة بصفة شخصية عن أمثال هؤلاء الحكام وأفراد حاشيتهم »
 « لا يخفى أن أى شخص بمفرده يفتقر - بالضرورة - الى المعرفة الوثيقة بالسياق العام للأحداث ودوافع الشخصيات العامة ، سيعجز عن إصدار أحكام تخص هذه المسائل ، وتستحق الالتفات إليها . . . »

لن تستتير الأمة فكريا ولن ترتقى أخلاقها ، اذا دار نقاش متهور حول شئونها ، ولكنها ستزداد تعرضا للفساد . لقد انزلق الدافع الأرعن للتنوير - سمة عصرنا - الى حالة من التطرف والخلاعة البعيدة عن اللياقة . لقد داس المتنورون جميع الأشياء التى تنصف بالقداسة بالأقدام ، وجعلوا كل القيم الراسخة موضع ازدراء فى نظر الشعب ، وأحدثوا بلبلة فى تصوراتهم ، وأشاعوا الشغب والفتنة والعصيان والضجر والتمرد ، دون أن يساعدوا على تهذيب الشعب أو النهوض بمستواه . .

كانت هذه الحججة العامة هى التى يتذرعون بها فى الأغلب عندما يطالبون بقمع جرائم بالذات قد أقدمت على أحداث أية اساءة . ولم يتردد المحافظون عند شعورهم بالغضب عن التوصية بالاتجاه الى الضغوط الاقتصادية وغيرها من السبل لحث الراضين من أهل الحكم على اسكات المحررين « الداعين الى الفتنة » . ومن الأمثلة التى كثر الحديث عنها الكونت أوجست فون ليمبورج - شتيروم الأسقف الجسور لشباير ، الذى اتسمت عظاته بشدة النزوع نحو الاتجاه السياسى المحافظ ، وسخر منها شلوتسر (*) على نحو اساء للأسقف بالخ الاساءة ، وكتب شلوتسر بوصفه أحد رعايا هانوفر ، مما جعل حكومتها مسئولة - على الأقل فى نظر شتيروم ، عن الآراء التى نشرت . ولما لم تسفر الشكوى الموجهة لحكومة هانوفر - بطريقة مباشرة - عن أية نتيجة ، لجأ الأسقف الى « الدايت » أو برلمان المقاطعة فى ريجنسبورج لتوقيع عقوبة على هانوفر . وعندما رفض البرلمان اتخاذ أى اجراء ، دعا أقرانه لشن الحرب على مصالح هانوفر (كأن يقاطعون جامعة جوتنجن التى ينتمى شلوتسر إليها) ولكن زملاء الحاكم رفضوا هذا الاقتراح غير العملى ، وبدلنا هذا المثال على مدى استعداد المحافظين للتماهى فى معارضة « التنوير »

وأسف المحافظون في أغلب الأحيان لما كان ينشر ويذاع في الجرائد اليومية (*) . وفي كثير من الحالات لم يبتعدوا عن النظرة الدارجة التي أسفت لاختراع الطباعة الذي طالما هللت له حركة التنوير ، واعتبرته من آيات العصر التي ستساعد على تحقيق التقدم الانساني ، ولكن المحافظين اعتبروه مصدر متاعب للبشرية ، وتبعاً لذلك ، ساد الأسف أيضاً لما حدث من تقدم في انتشار التعليم بين الكافة الذي بدأ يزحف حينئذٍ لمحو أمية الكتل البشرية . وتساءلوا ألم يؤد هذا الاجراء الى اتاحة الفرصة لاصابة عامة الناس بالتسمم الفكري ، والشعور - تبعاً لذلك - بالتبرم من نصيبهم التقليدي في الحياة ؟ وعبر الفيلسوف الشعبي (***) جارفه في كتاب تحدث فيه عن حالة الزراعة في موطنه شيليزيا ، وعما شعرت به طبقة الأعيان بخصوص هذه المشكلة ، عبارات مؤداها :

« لم تسنح الفرصة قط لجدودنا للعراك هم وعبيدهم الأميين . على أن مثل هذه الأمية لم تمنعهم من زرع الأرض على نحو مماثل لما يحدث الآن في أقل تقدير . وكانت الآداب المرعية حينئذٍ أفضل بما لا يحتمل الشك . واليوم لم يعد الأمر يقتصر على اتقان الفلاحين القراءة والكتابة ، ولكنهم شرعوا أيضاً في الالمام بالحساب ، بل ونزع بعضهم الى تثقيف نفسه بالاطلاع على الكتب ، فهل سيساعد هذا حقاً على ارتقائهم ؟ هل ستصبح حياتهم أقل انحلالاً ؟ وهل سيصبحون رعايا أكثر انصياعاً وولاءً ؟ أو مزارعين أفضل للأرض ؟ ان ما حدث كان عكس ذلك . الا يصح القول بأن آداب السلوك قد تدهورت بدرجة ملحوظة ؟ وأن الأعيان قد أصبحوا يعانون الأمرين في سبيل الحفاظ على تحكمهم في عبيدهم أكثر مما كان الحال عندما كانوا أميين ؟ ولو أحصينا من كانوا مصدرنا للمتاعب في القرية (فلقد شهدت شيليزيا بعض اضطرابات بسيطة) ، ومن جنحوا الى تضليل الشعب ، فاننا سنكتشف دوماً أن هذه الفئة قد انحدرت من صفوف من أمضوا وقتاً أطول في المدارس ، ومن انههروا بادعائهم الحكمة ... ومن القواعد العامة حالياً ان أكثر الفلاحين اتصافاً بالأمانة هم الأغني والأجهل ، ويصادف ضابط الجيش في أرض الطابور نفس تجربة المالك على أرضه . ولن يختلف اثنان على القول بأن أجمل الفلاحين وأخشنهم طباعاً هم الذين يشكلون أفضل الجنود . فبالاستطاعة معاملةهم كأنهم آلات . واذا عاملناهم على هذا النحو سيتسنى لنا الاعتماد عليهم بصفة مطلقة » .

Publizist

Fouularphilosoph Christian Garve.

(*)

(***)

وهاجم المحافظون هجوما ضاريا التعليم التقدمي الذي أدخله بازيدو (*) وأتباعه ، ووصفوا أنصار النزعة الانسانية (***) بأنهم مفسدون للشباب ، نعم لقد جاءوا باناس أفضل تنورا ، ولكنهم عديمو الفائدة في أى نوع من الأعمال البينة في المجتمع . وأثار المثل الأعلى لبازيدو الذي سعى لخلق الانسان « الشامل » ، بدلا من التشجيع على التخصص ، وتعليم الأطفال بروح تشعروهم بعدم وجود فارق بين ما يشعرون من لعب ، وبين التعليم ، وأنهم لن يتعلموا الا ما يحبون تعلمه عندما يجدون أنفسهم على استعداد لذلك ، شعورا امتزج فيه العدا بالسخرية . وطرح شلوسر (***) قضية التخصص المبكر في العبارات الآتية :

« في أغلب الأحيان ، لا تكون مهنة الشخص متوافقة هي وما يجري للمكاته الذهنية من تطور شامل (تحسس بازيدو لهذه الفكرة) مما يدفعني الى القول بأنه في غير مقدور المرء البدء منذ وقت مبكر كاف لتنشيط ضمور ثلثي هذه الملكات ، لأن الأغلبية تهيأ للنهوض بمهام لا يتوقع استفادتهم منها في مستقبل أيامهم ، فلماذا يخصى الثور والمهر حتى نؤهلها لتحمل مشاق جر العربات . ومع هذا فاننا نعمل على انماء القوى الانسانية في شمولها مع علمنا بالمثل بأنها قد حكم عليها تحمل مشاق النير وجر العربات ؟ . انهم سيسقطون في الأخاديد ، اذا لم يعدوا اعدادا صحيحا ، أو يرفسون بحافزهم علامات الارشاد حتى يصابوا بالتهلكة ، .

واعتقد شلوسر ان مهمة التعليم ليست تخريج أشخاص شاملين متعددى المهارات ، وانما بالأحرى هي اعداد أفراد قادرين على أداء دور اجتماعي (مهما كانت درجة تواضعه) لم يتعرض للمسوخ من جراء التوقعات المغالى فيها . « فمن اليسير صيغ أسمى درجات الكمال بالروح المثالية ، ولكن ما أصعب تحديد الدرجة المناسبة من الخير » . وأدان شلوسر ولع بازيدو بالالمساب الرياضية كمثل لخطورة الاسراف في السعى وراء الكمال . فهل هناك هدف وراء تحويل الأطفال الى أبطال رياضيين ، بينما سيرغم معظمهم بعد البلوغ على ملازمة مكاتبهم ، وقد لا يحتاجون لتحريك أظرافهم ؟ ان مكن أكبر خطر هو ما يتصف به الانسان الشامل من حياة متنوعة تجمع بين اللعب والمتعة (ألم يعتقد بازيدو في وجوب تنوع أنشطة الأطفال بحيث لا يستمر أى نشاط أكثر من نصف ساعة) . ان مثل هذا

(Johann Bernard) Bassedou, (1790 - 1723)

Philanthropine.

(*)

(***)

J. G. Schlosser (★ ★ ★) (١٧٢٩ - ١٧٩٩) وهو من الموظفين البارزين في

باندن والذ اختير من الكتب السياسية والاقتصادية والترفيهية .

الاسلوب هو أسوأ اعداد للحياة الحقّة . « ألم يخطىء أنصار الدعوة لخلق الانسان الشامل عندما أخفقوا فى توحيد سجنائهم منذ وقت مبكر على الالتزام بعمل مستقر ثابت ، خصوصا العمل الذهني المتواصل الشاق الذى يستغرق مدة طويلة ؟ » نعم ان الحياة تتطلب الانتهاء من انجاز الحصة المخصصة من العمل للشخص ، قبل أن يفكر فى الترويح عن نفسه ، غير أننا نرى بازيدو على عكس ذلك ، يعلم تلامذته خليطا مؤسفا من العمل والترريح عن النفس . ومن أمثلة ذلك طريقته فى تعليم اللغات الأجنبية التى يتبع فيها أسلوبا شبيها بأسلوب المباريات الرياضية ، بدلا من اتباع الطريقة التقليدية التى تعتمد على تحفيظ الكلمات عن ظهر قلب . وارتاب شلوسر فى النتائج الجوهرية للطريقة الجديدة ، وكان على يقين من تمتع الطريقة التقليدية « بقيمة أكبر فى بناء الشخصية ، وتشجيعها على الجهد والاجتهاد والجلد والانتباه : « ان من أمضى طفولته فى الملاعب لا يد - من ناحية أخرى - أن يظل ولدا (لمبيا) طيلة حياته ، »

وانتقد أرنست برانديس مبدأ الاكتفاء بتعليم الأطفال المواد القابلة للفهم ، عندما يكونون مهينين لذلك ، لان هذا المبدأ يتجاهل حقيقة مهمة وهى ان بعض الأشياء المهمة لا تتبع الفهم على الاطلاق ، ولكنها بالأحرى تتبع الوجدان والاعتقاد ، كالدين مثلا ، الذى استخف به بازيدو ، لأن مبادئه تعلق على مستوى الفهم عند الأطفال ، واستغف بزاييدو شعور الغضب عند برانديس برفضه تعليم النشء الذى كان مسئولاً عن رعايتهم أى درس فى الصلاة قبل بلوغهم سن العاشرة على أساس أن صلواتهم الباكرة لن تزيد عن تمتع بكلمات غير مفهومة لهم .

وأصدر ايكارتسهاوزن هذا الحكم النهائى على مماوسات المصالحين التربويين الذين يسيرون على نهج بازيدو :

« انهم يفتقرون الى صبر الانتظار حتى يحل الخريف ، فهم يرغبون فى ازدهار الأشجار واثمارها فى نفس الوقت ! انهم يدعون امكانهم ادراك صورة الرجل الناضج من خلال مظهر الطفل ، ولكنهم فى الحق يحولون البالغ الى طفل دائم . انهم قد زودونا بنباتات أرغمت على الاخضرار فى بيوتهم الزجاجية ، وتحمل نكهة المستنبتات (*) طيلة ما بقى لها من حياة ، وتحدث ضررا بالغا للثة أى انسان سليم البنية . انهم يتوقعون تعلم اطفالنا كل شىء بأسلوب المباريات الرياضية ، ومن يتخرج على أيديهم من شباب يظل طول عمره (لمبيا) يعتقد أن كل نشاط جاد وشاق مجرد مظهر من مظاهر الهمجية ، »

وعلى الرغم من أن المحافظين كثيرا ما أسفوا لانتشار التعليم بين الكافة (وبخاصة التعليم التقدمي) وانتشار محو الأمية ، وغلبة جمهور قراء الصحف ، إلا أنهم أدركوا بالرغم منهم ، أن كل خطوة من هذه الخطوات التطورية لها طابعها الذي لا يقبل الإرتداد ، فلن يؤمل أى خير إذا نحن اكتفينا بالأسف والحنين للماضى ، واستنكرنا الحاضر استنكارا عقيما ، إذ انصبحت مهمة المحافظين على نشر رسالة المحافظين وتعاليمهم فى شتى الأنحاء ، ، لكى تنافس مؤلفات أدباء حركة التنوير . وعكف المحافظون على نشر كميات هائلة من الكتب التى تعرض المبادئ الدينية والسياسية المحافظة فى ثمانينيات القرن الثامن عشر ، ونشر على سبيل المثال أحد وعاط الكاتدرائيات (*) كتابا بعنوان : « كتاب مسيحي عن التعاليم الأخلاقية لأهل المدينة والريف » . وطبعت منه عشرات آلاف النسخ بناء على طلب الملك كريستيان السابع ملك الدانمرك . واستخدمت فى الكتاب عبارات سهلة مفعمة بالأمثلة المألوفة المنقولة عن الحياة اليومية الدارجة فى وصف واجبات المسيحي فى الزواج وتربية أولاده ، وكسب العيش والمواظبة على الذهاب الى الكنيسة والولاء السياسى الخ . وحث « فيدرزين » قراءه من أبناء الطبقة الدنيا على الالتزام بفضايا المسيحية التقليدية ، وأثبت أن هذا النهج سيعود بالخير على مصالحهم الدنيوى الأبدى ...

وحوالى ١٧٨٠ ، بدأت فى الظهور طائفة من الجرائد المحافظة ، كانت تهدف الى الحد من تأثير « التنوير » على عقول الطبقات المثقفة فى ألمانيا . واقتصرت فى البداية على اختيار الموضوعات الدينية اللاهوتية .

وسعى أستاذ للاهوت يدعى كوستر (**) وهو من الشخصيات التى لم يصعب على المتنورين التندر عليها والسخرية منها ، بعد أن كتب دفاعا عن وجود الشيطان ، لعله ساعد على رواجه وسرعة ظهور طبعته الثالثة ! وعمد كوستر الى الهزء من جميع البروتستانت أعداء التنوير فى كتاب أحدث الأحداث الدينية (***) (١٧٧٧ - ١٧٩٦) ، واقتدى به جولهاجن (١٧١٨ - ١٧٩٤) ، ولكنه وجه سخريته الى دور الكاثوليك فى ألمانيا فى مجلة الدين (****) ، وكان جولهاجن من الأعداء الأشداء لأنصار الامبراطور جوزيف امبراطور النمسا ، وساندته جماعة من اليسوعيين فى أوجسبورج

Jacob Friederich Fæddersen (x)

Giesser H. Koester (x x) أستاذ اللاهوت بجامعة

Die Neuesten Religions begebenheiten. (***)

Religionsjournal فى مجلة Hernann Goldhagen اليسومى (***x)

تحت زعامة يوزيف أنطون فايسنباخ (١٧٣٤ - ١٨٠١) وهو كاتب
مخزير الانتاج ، عرف بوجه خاص من كتاب « نذر الوثنية الجديدة » (*)
ونشر اليسوعيون في أوجسبورج عددا خاصا من احدى المجلات عن « نقد
بعض النقاد والصحفيين واصحاب النشرات (**) (١٧٨٧ - ١٧٩٦) .
وهدف هذا العدد الى دحض جميع الكتابات والنشرات التي اصدرها كتاب
التنوير في ألمانيا ، واكد اليسوعيون ايضا الحاجة لمحاربة النشرات عن
طريق انتقادها واصدارها نشرات يعاد طبعها أكثر من مرة وتكتب
باسلوب شعبي بسيط ، وتوزع على نطاق مماثل لما تفعله دنابة حركة
التنوير ، وألقوا هم بالذات جملة نشرات ، واعادوا طبع العديد من غيرها ،
وبخاصة الأبحاث المناهضة للإمبراطور جوزيف في سلسلة بدأ ظهورها
• ١٧٨٣

وشعر المحافظون بشيء أشبه بالمعجز في مواجهة نزوع أشخاص مثل
جوزيف الثاني نحو « الاتجاه المتنور المطلق » . ولم يكن بمقدورهم الدعوة
بسهولة الى العصيان ضد الملك الشرعي (رغم ما في سياسته من انحراف
عن الطريق السوي) ، بينما أصبح نسيا نسيا المذهب اليسوعي الذي
كان يحض على اباحة دم الطفلة ، والذي ظل أمدا طويلا يتخذ كذريعة لقمع
اليسوعيين . وتركز الأمل الأواحد للمحافظين في قوة المعارضة الجماهيرية
العامة كرد فعل ضد المبادئ النظرية الصارمة لجوزيف وعدم الحرص على
الاعتراف بحقوق رجل الشارع . وكان من الطبيعي أن يبذل المحافظون
قصارى جهدهم لاثارة هذه المعارضة الموجهة ضد اصلاحات جوزيف .
وفي البلدان والمقاطعات التي استمر فيها بقاء الاقطاعيات (***) ، وعلى
الأخص في المجر وبلجيكا ، حاول المحافظون تعبئة المواطنين ضد تهديد
الأوضاع الراهنة ، أما في الحالات التي اختفت فيها الاقطاعيات أو أصبح
أصحابها بلا حول ولا قوة ، فلم يكن أمام المحافظين فيها أى خيار غير
المعاناة والاستسلام ، الى أن يتخلل الملوك عن برامجهم الإصلاحية ،
متأثرين بما ساد من دعر في اعقاب الثورة الفرنسية .

Die Vorboten des neuen Heldenthums. (x)
Kritik ueber gewisse Kritiker, Rezensenten und Bros- (x,x)
chuerenmacher.

Staende

(***)

المراجع

- P. P. Bernard, *The Limits of Enlightenment : Joseph II and Enlightened Despotism* (1979).
- M. Butler ed. *Burke, Paine, Godwin and the Revolution Controversy*. (1984)
- T.C.W. Blanney, *Joseph II and Enlightened Despotism* (1970).
- D. Cameron, *The Social Thought of Rousseau and Burke* 1973.
- O. Chadwick, *The Popes and European Revolution*, (1981).
- J. C. D. Clark, *English Society 1688-1832* (1985).
- R. Cobb, *Reactions to the French Revolution* (1972).
- A. Cobban, *Edmund Burke and the Revolt against the Eighteenth Century* (2ed) 1960.
- M. Freeman, *Edmund Burke and the Critique of Political Radicalism* (1980).
- G. B. P. Gooch, *Germany and the French Revolution* (1923).
- I. Kramnick, *The Rage of Edmund Burke Portrait of an Ambivalent Conservative* (1977).
- F. O'Gorman, *Edmund Burke. His Political Philosophy* (1973).
- R. Pauslon, *Representations of Revolution 1789-1820* (1963).
- J. D. Popkin, *The Right-wing Press in France 1792-1800* (1980).
- E. Wangermann, *From Joseph II to the Jacobin Trials Government Policy and Public Option in the Hapsburg Dominions in the Period of the French Revolution* 2ed (1969).

القرن التاسع عشر

شهد القرن التاسع عشر تغيرات ملحوظة في الحياة الأوربية والمجتمع الأوربي ، فلقد تزعمت القوة الصناعية لأوربا الغربية باقى العالم ، ونزح الأوربيون في عملية هجرة واسعة من الريف الى المدينة . وفى أواخر القرن ، هاجروا من أوربا الى شمال أمريكا وجنوبها . وساعد المد الجارف للروح القومية وجيوش بيبمونت وبروسيا على خلق دولة ايطاليا ودولة ألمانيا الحديثتين . وساعدت مثل القومية وضرورة انشاء دولة قوية على زيادة الوعي الذاتى عند « الأمم - الدول » القائمة بالفعل ، وعلى تعزيز مبدأ القومية .

وإزداد الفكر الأوربي فى القرن التاسع عشر تعقدا فى أعقاب ربع القرن الذى شهد الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية . ويكشف بحث فرنكلين جاومر عن كيف اتخذت الاهتمامات اللاعقلانية الصدارة فى هذا القرن . ويتحدث أيضا عن الوعي الجديد بالتاريخ ، الذى سيلعب دورا مهما فى نزوع أوربا فى القرن التاسع عشر نحو الاتجاهات القومية ، ويبحث كيف اتجه الكتاب الرومانتيكيون الى الحث على ضرورة تصور المجتمع كأنه كائن حى يواجه مواجهة متزايدة عملية تفسخ اجتماعى .

وحدثت النهضة الصناعية والهجرة تغيرا فى الأوضاع الاجتماعية فى أوربا ، وظهرت أدوار جديدة وأشكال جديدة للعمل ، استلزمت مشاركة المرأة فى هذا المضمار . وتحلل جوان سكوت ولويزا تيللى كيف اختارت بعض الفتيات القادمات من الريف أسلوب حياتهن ، وما صادفهن لدى قدومهن للعيش فى بيئة مدنية . وتوضحان كيف نقلن عاداتهن القروية التقليدية وتطلعاتهن الى حياتهن فى المدينة . ويتحدثن أيضا عن وول بدقة وحيوية عن الأمراض التى توطنت فى المدن ، وجهود الحكومة والمهن الطبية للتغلب على المشكلات الفتاكة المترتبة عليها .

وتعززت مكانة الدول المستندة على فكرة القومية على أنحاء شتى في منتصف القرن . ولم تكن حروب « الوحدة » الا وسيلة من جملة وسائل ، ويكشف فيبر النقاب عن بعض السبل التي كانت تتبع في تعليم النشء القيم التي تتركز حول دور المواطن في الدولة العلمانية والحضارة العلمانية عوضا عن القيم الدينية . ويرى أن أساتذة المدارس كانوا من جملة نواح اعظم من شارك في بناء الأمم . وكانت أقوى دولة جديدة هي ألمانيا الامبريالية ، التي اشترك في توحيدها الجيش المحافظ والنظام الملكي البروسي . ويحلل جوردون كريج دستور هذه الأمة الجديدة ، ويوضح كيف استطاعت المؤسسات المحافظة الامساك بزمام الأمور ، وتحديد اتجاه التاريخ الألماني مستقبلا الى حد كبير ، حتى في ظل الحكومة الدستورية ، التي طالما طالب بها الليبراليون في القرن التاسع عشر .

العالم الرومانتيكي

فرانكلين • ل • باومر

لم يختلف المؤرخون بشأن القليل من حركات الفكر بقدر اختلافهم حول تقييم الحركة الرومانتيكية. فثمة اتفاق عام على أنه في الحقبة الواقعة بين ١٧٧٥ و ١٨٥٠ ، احتلت الصدارة معتقدات معينة عن الطبيعة البشرية والمعرفة والدين والمجتمع والتاريخ في أوروبا ، وأثبتت هذه المعتقدات اختلافها عن المعتقدات التي تميز بها منتصف القرن الثامن عشر إبان حركة التنوير . بيد أن هناك اختلافاً بين المؤرخين حول : هل كانت هناك حركة رومانتيكية واحدة ضمت جميع هذه الأفكار المتنوعة ، أم أن كل إلهة أوروبية مرت بتجربة رومانتيكية مختلفة عن تجربة الأمم الأخرى ؟ وفصلاً عن ذلك ، ولما كان الكتاب الرومانتيكيون كثيراً (وأن لم يكن دائماً) ما ينتقون مقدرة العقل على تفسير الموقف الإنساني ، ويمجدون الملامح غير العقلانية في الطبيعة البشرية ، إلا أن هناك قدراً من الاختلاف بينهم حول هل عاد تراث الرومانتيكية على الحياة الأوروبية والحضارة الأوروبية بالخير أم بالشر ؟ .

ومن بين وسائل التحليل التي تسعى لتوضيح العديد من المشكلات المتصلة بالرومانتيكية ، النظر إليها كرد فعل رحيب متعدد الوجوه ضد كثرة من الأفكار الرائدة في عصر التنوير . هنا تصادفنا مجموعة من المتباينات المهمة . فبعد أن اثني كتاب التنوير على انتشار نور العقل ، جنح الكتاب الرومانتيكيون إلى الانبهار بالموضوعات القائمة بعالم الأحلام ، وبينما أعجب فلاسفة القرن الثامن عشر بتصورات نيوتن الميكانيكية للطبيعة ، فإننا نرى الرومانتيكيين كثيراً ما ينتقدون نيوتن ، وتصوروا الطبيعة كائناً عضوياً حياً . ولقد أرتبط عصر التنوير بتقد الدين ، وبالنظر

(*) نقلاً عن كتاب Modern European : Franklin L. Baumer
Thought : Continuity and Change of Ideas 1600-1950 (1977).

وقد ترجمت هذا الكتاب للهيئة العامة للكتاب كاملاً وصدر في أربعة أجزاء .

الى الله على أنه بعيد عن الحياة اليومية • أما الرومانتيكية فتبنت حركة تسمى
لاعادة احياء الدين وتصور الله مصدر الالهيات حاضرا في الطبيعة •
وبقدورنا الاقتراب منه من خلال المشاعر الانسانية اللاتية • واعجب
كتاب القرن الثامن عشر « بالعالم القديم » ، بينما كشف الرومانتيكون
عن تحسهم من جميع النواحي للقرون الوسطى •

ولقد استند على جملة عوامل في تفسير ما حدث من تحول في اللوق
والفكر • ولكن كان أحد هذه العوامل المهمة - يقينا - الاضطراب الذي
صاحب الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية ، واقتت هذه الأحداث
ظلال الشك على اعتقاد القرن الثامن عشر الذي ذاع على نطاق واسع
باحتمال الاعتراف بكفاية العقل الانساني كمرشد أولى للشئون الانسانية •
في هذا الجو من البلبلة والمعاناة والتحولات الجذرية ، اتجه مفكرون كثيرون
الى اعادة توكيد القيمة الموجبة للمشاعر والدين والتكوين الاجتماعى
العضوى ، وتبجيل الماضى •

تمتد جنور العالم الرومانتيكى امتدادا عميقا في القرن الثامن عشر •
بل ربما في القرن السابع عشر أيضا • وجرت العادة على تمثيل العالم
الرومانتيكى كحركة مضادة للتنوير ، مثلما يقال ان التنوير منهب معارضى
للمسيحية وايمانها بالخوارق • وعلى الرغم مما يبدو في هذا النظرة من
صديق ، الا أنه يتعين ادراك تعذر اتخاذ الحركة الرومانتيكية هذه الصورة
بغير «التنوير» ، ويصح القول بأنها نبعت - من جانب - من التنوير ،
• وأنها لا تمثل بأى حال مجرد ارتداد لعالم تجاوزه التنوير •

والحق ان الحركة الرومانتيكية كانت ثورة بقدر كونها ثورة مضادة
أيضا • وليس من شك أنه ربما صح النظر إليها على أنها أول احتجاج كبير
على «العالم الحديث» ، يعنى الحضارة العقلانية العلمية التى بدأت تتشكل
في القرن السابع عشر ، وامتدت أبعادها في القرن الثامن عشر • غير أن
احتجاجها قد جاء باسم الروح العصرية الجديدة ، اذ اعتقد بعض
الرومانتيكين أنهم محدثون أو عصريون ، بمعنى أنهم مسسيحيون ،
ومناهضون للكلاسيكية في ذوقهم الفنى • ولكن بمعنى آخر ، بوصفنا
القول بأنهم كانوا عصريين أو محدثين ، أو أكثر حداثة مما ظنوا ، وبخاصة
عندما اكتشفوا جانب الليل في الحياة والأحلام واللاوعى ، ولأنهم جاؤوا
بالأساس النظرى للنزعة القومية الحديثة • وفى هذه الجوانب من بين
مجالات أخرى ، لا يخفى أن الرومانتيكين قد أثاروا موجات من الفكر ،
لم يبين أفرها كاملا الى أن جاء القرن المشرون •

على أن هناك صعوبة ستعترضنا اذا حاولنا تعريف الرومانتكية .
ولا يرجع ذلك الى « تعدد الرومانديات » التي نبهنا اليها أرتر لوفجوى ،
والدى دان باستطاعته اكتشاف عدم وجود « فكرة رومانتيكية أساسية
واحدة » فى الخليط المضطرب من الحركات القومية التي تعرف اليها
الآخرون ، ووصفوها وصفا بعيدا عن الدقة بالرومانتيكية ، ولاحظ لوفجوى
أيضا انشقاقا بين « ألمانيا والغرب » ، ثار حول الجدل ابان الحرب العالمية
الاولى ، واستمر على هذا الحال خلال الحرب العالمية الثانية ، ورثى رد
هذا الانشقاق الى الحركة الرومانتيكية ، التي زعم ارنست ترولتش (*)
وآخرون أنها تتميز بجرمانيتها ، او على أقل تقدير قد اختلفت فى الدنيا
اختلافا جنديا عن صورتها فى البلدان الأخرى . غير أن تعدد تصور ايه
حركة ، ونسبة الاختلاف الى النواحي الاسمية بقدر ما ، مسألة تشترك
فيها جميع الحركات الفكرية . وربما أخفقنا فى ادراك كيف تنطبق هذه
الحالة على الرومانتيكية ، أكثر مما تنطبق على عصر النهضة أو عصر
الاصلاح الدينى - مثلا . ان صعوبة تعريف الرومانتيكية ترجع أساسا
وبالأحرى الى طبيعة الحركة ذاتها ، اذ كان لدى الرومانتيكيين ايا كان البلد
الذى ينتمون اليه ، ولح بالجوانب الخفية ، واعطاء الصدارة للمشاعر
الفردية والتعبير الفردية . كما نجحوا فى خوض غمار عالم المفارقات .
ومن ثم فليس من الميسور دائما معرفة ما الذى كان الرومانتيكيون يتحدثون
عنه ؟ وما الذى عناه شلايرماخر بالضبط عندما قال هذه العبارة
الغامضة : « التحليق المتمد فى الكل وفيما لا يستنفد ؟ » . أو ماذا قصد
الفيلسوف فردريش فون شلنجر بمصطلح « المثالية الواقعية » ؟! وتزداد
المشكلة تعقدا اذا تعمنا فى كلمة « رومانتيكية » ذاتها ، فقد اتصفت هذه
الكلمة بموضوعها الى حد غير مألوف فى نظر الجميع ماعدا الألمان . ولم تقبل
بالاجماع حتى بين الرومانتيكيين أنفسهم ، وفهمت وفسرت على أنحاء شتى .
وفضلا عن ذلك ، فلم يكن « للرومانتيكية » منظمة أو مؤسسة أو مشروع
جسور يعبر عن غايتها ، كالموسوعة الشهيرة فى القرن الثامن عشر ، ولم
يكن لديها مذهب محورى ، أو حتى مرجع موثوق به ، مثلما بدا الكتاب
القدس فى الحركة البروتستانتية والاصلاح الدينى .

فما هى الرومانتيكية أساسا ؟ لعل الأسهل هو القول ما الذى لم
يتصف بالرومانتيكية ، أو ما الذى اعترض عليه الرومانتيكيون الأوربيون ،
لقد وضع الفيلسوف الانجليزى جون ستيفورات ميل - الذى لم يكن هو
بالذات رومانتيكيا ، ولكنه كان ملاحظا متعاطفا عليما بالأمور - اصبعه
دون خطأ على مواضع كراهية الرومانتيكيين ، وقال عندما كتب عن آرمان

كارليل (١٨٢٧) : ان الرومانتيكية تمثل رد فعل « ضد ضيق أفق القرن الثامن عشر » . وعلى الرغم من أن ميل كان يتحدث في هذه الكلمات أساسا عن الأدب ، الا أنه من الواضح مما جاء فيما بعد في مقالات أخرى ، وعلى نحو جلي في مقاله الشهير عن كولريديج ، انه قد تصور الرومانتيكية كتمرد ضد الضيق في عدة جهات : في الفلسفة والعلم والفكر التاريخي والسياسي ، وأيضاً في الشعر والدراما . اذ كان من بين الصفات التي استعملها توماس كارلايل في معرض حديثه عن أحد أقطاب حركة التنوير : « ديدرو » (١٨٢٣) : « انه لا يدرك غير الجزئيات » ، و « هامشي » و « تافه » و « هزيل » . ورفض كارلايل العالم المألوف لديدرو ، ووصفه بأنه « نصف عالم قام ديدرو ببطه حتى يبدو كأنه عالم كامل » . بطبيعة الحال ، كانت الإشارة في الحالتين الى التنوير الأوربي ، الذي اتخذ حينذاك مظهراً متجمداً ، وأصيب من ناحية أخرى بالهزال . واعتقد الرومانتيكيون أن عالم التنوير ضيق الأفق ، لأنه أولع الى حد الادمان بالتفكير الهندسي ، وبالمذهب الكلاسيكي الجديد المحالف له ، وبالمذهب التجريبي للوك . فالروح الهندسية رغم جرأتها الميتافيزيقية قد حاولت إخضاع الحياة بأسرها للعقل ، وبذلك « ميكنتها » ، وحطت من شأنها تبعاً لذلك . ونزع المذهب الكلاسيكي الجديد بحكم طموحه المائل وسعيه للبحث عن أنماط مثالية للطبيعة الى فرض قواعد كلية على الفن والفنان ، بدت أشبه بالأصفاة الحديدية . وهوجم المذهب التجريبي لسبب مقابل ، يعنى لأنه يبالغ في الشك ، ولأنه قصر المعرفة الانسانية – بصرامة – على عالم الحس والمظاهر ، ونظر الى نيوتن على أنه الممثل الرمزي لهذا الضيق .

وكان عالم الرومانتيكيين على عكس عالم نيوتن المخضب بالضوء عالماً ليلياً ، وبدل الليل بتباينه هو والنهار والضوء على « القدرة على التحليق والارتفاع بالأجنحة الثقيلة للروح الى آفاق لا متناهية تتجاوز عالم المكان – الزمان » . وقال الشاعر الفيلسوف الألماني نوقاليس (فردريش فون هاردنبرج) : « كم يبدو لي النور الآن تافها وصيبانيا » . وفضل نوقاليس على « النجوم المتوهجة التي ترى في السماء » « العيون اللامتناهية التي فتحها الليل لي » . ان هذه الظاهرة واحدة من أعظم السمات الموجبة للعقل الرومانتيكي وميوله : التعلق باللامتناهي الذي يتمثل على أنحاء شتى ، دنوبيا ودينيا . وعلى الرغم من وجود أوجه قرابة بين جوته وبعض ملامح من الرومانتيكية (وان كان هذا الشاعر العظيم لم يعترف بها دائماً) ، فإنا رأيناه يقول في بعض الأحيان ، « ان أعظم سعادة للانسان بوصفه كائننا مفكراً هي قيامه بسبرغور ما هو معروف ، وتقديره الرصين لما هو غير معروف » . ولعل هذه القاعدة أقرب الى الروح الكلاسيكية منها الى

الروح الرومانتيكية ، لأنها وضعت حدودا لما بمقدور العقل الانساني معرفته والتطلع اليه ، مثلما سبق أن فعل كانط ، غير أننا نرى جوته في « فاوست » يتطلع الى اللامتناهي بطريقته الخاصة ، مثلما فعل بعض الرومانتيكيين الآخرين ، الذين لم يتماثل سمو علو احساسهم الميتافيزيقي بالعلو الذي سما اليه نوفاليس

وأقدمت الرومانتيكية على محاولة لاعادة احياء الدين . واتخذت هذه الحركة جملة مظاهر ، لم يكن أقلها شائنا النزعة الصوفية لاضفاء الروحانية على الطبيعة . وكما لمح كارلايل ، لم تكن جميع هذه المظاهر مستلهمة من الاحساس العميق بالضياح الميتافيزيقي نتيجة لحركة التنوير ، وما أحدثته من تأثيرات ثورية . وشاع الاعتقاد بفقدان العالم لركيزته الميتافيزيكية والدينية في القرن الثامن عشر ، وبأن البشر في حاجة الى استعادة ذاتيتهم ، لو أريد مرة أخرى ظهور أبطال وأعمال فنية عظيمة . ووصف كارلايل بطريقة شائقة هذا الشعور بالضياح في فصل سماه « لا الباقية » في كتاب سارتور ريزارتوس (١٨٣٣ - ١٨٣٤) بقوله : « في القرن الذي اختفى منه الايمان ، لم يعد لله وجود ، بل أصبح على هامش العالم ، ومقيدا بقوانينه العقلانية ، وفي هذا الكتاب الذي يعد من أعظم مصادر نظرة كارلايل الى الله والدين ، يتحدث على لسان الأستاذ توفيلسدريخ (*) عن الازمة الروحية التي مر بها (من تأثير الأثر الأكل لشك عصر التنوير) ، وكيف بعد أن هيمنت عليه روح البحث ، انتقل من الشك الى المروق ، وانفلق في وجهه باب الأمل تبعا لذلك ، واعتقد أن الله في أفضل الأحوال « ربما كان غائبا عن الوجود » جالسا بلا عمل منذ أول سبت ، مكتفيا بالتفرج على الكون من خارجه لكي يدرك ما بداخله .

ولكن كيف يسترد الايمان الحيوي ؟ ان بعض الرومانتيكيين لم ينجحوا قط في تحقيق هذه الغاية ، وكان اخفاقهم سببا في اصابتهم بالاكتئاب . ومن ناحية ثانية رأينا كثيرين يمتنعون الكاثوليكية ، أو يرتدون اليها ، وان كانوا قد برروا فعلتهم بمبررات جديدة ، اتسمت بروحها الرومانتيكية أيضا . وظل آخرون يتبعون البروتستانتية ، ولكنهم نظروا الى الدين نظرة رومانتيكية . غير أن هناك آخرين أيضا - لم يكن عددهم قليلا - خلعوا رداء الكنيسة ، واخترعوا آلهة جديدة وأساطير جديدة ، وأحد هؤلاء ولیم بليك الذي ارتضى في قصيدته الملحمية « أورشلیم » الايمان بخلط مبالغ فيه من المسحة والاساطير الشخصية ، ولعل نوفاليس كان من أتباع هذا الاتجاه . فرغم استمراره في اعتناق المسيحية ، الا أنه أثر الباس دينه زيا غيميا وخرافيا ، فرأينا « صوفيا »

« التي ترمز للحكمة » في إحدى حكاياته الخرافية (*) تقول : « لقد انكشف السر الأعظم للكافة ، وإن ظل خافيا إلى الأبد » . بيد أن علينا أن لا ننسى أن مثل هذه النزعات كانت تمثل المؤمنين بالخوارق الطبيعية ، يعنى من تماثلوا هم وكارلايل نفسه ، الذى اكتشف نوعا جديدا من الآله يعمل فى العالم والطبيعة . والحق أن هذا الآله لم يوصف بمجاورته للعالم فحسب ، لأنه يظهر فى شكل ما أو هيئة ما ، فيما يقارب جميع التجارب الرومانتيكية على اختلاف صورها .

ويعد الفيكونت دى شاتوبريان مؤلف كتاب عبقرية المسيحية (١٨٠٢) الذى يوصف بانجيل الرومانتيكية مثلا حسنا للنوع الجديد من الدفاع عن الكاثوليكية . واقترح شاتوبريان لاعادة الحياة لعقيدة يفترض أنها ووريت التراب النزوع إلى استهواء الوجدان الانسانى عوضا عن البراهين العقلانية لاثبات وجود الله ، أو إعادة طرح العقيدة وقد : « ان الديانة المسيحية ذاتها نوع من المشاعر لها نغمة الفرحاها وأشواقها وتنهدياتها وأتراحها ودعوعها وولمها بالمجتمع والوحدة » . وأوضح شاتوبريان معنى تمتع المسيحية بالشاعرية ، والروحانية ، ومدى اشباعها للاحساس الفنى - وبخاصة عن طريق كنائسها - التى يظهر التباين بينها وبين المعابد الاغريقية (مهما كانت درجة أناقتها) مما تحدثه من اثاره لمشاعر التهييب والتذكرة بالالمتناهى . وكم فى منجزاتها التاريخية من آثار غلابة ، فلم تكن المسيحية معادية للحضارة مثلما ظن المؤرخ الانجليزى جيبون (وكم حفل كلامه بالتناقض) ، ولكنها زودتها بأخلاقيات سامية وفن عظيم وأدب رائع ، وبكل سبيل الارتقاء بدءا بالزراعة حتى أبعد العلوم تجريدا ، وقال شاتوبريان فيما بعد فى مذكراته : لو أنه أعاد تأليف كتابه ، فإنه سيبين فيه كيف أرسست المسيحية أسس التماسك الاجتماعى الحق والمساواة والعدالة . وهذا تضرع محسوب لاجتذاب أفئدة الكافة بما فى ذلك السباب فى حقبة انهيار ذهنى أخلاقى (كما تصور شاتوبريان) .

وفى ذات الوقت تقريبا ، حاول قس شاب من أبناء برلين ، ممن تعلموا عند التقويين المورافيين إعادة احياء البروتستانتية اعتمادا على مخاطبة الناس بصفتهم الفردية ، بدلا من الاستناد على النفع الاجتماعى . وظهرت جميع أسس البروتستانتية الرومانتيكية فى تصور شلايرماخر لللاهوت المشاعر ، خصوصا فى كتابه الباكر « رسائل عن الدين إلى محترقيه من المثقفين » ، الذى ألفه ١٧٩٩ ببناء على اصرار أصدقائه الرومانتكين فى العاصمة البروسية . ودافع شلايرماخر عن الابتعاد عن الثقافة الفرنسية ، التى لم تعد تكثر بالدين ، والابتعاد أيضا عن المذهب

المؤله للطبيعة (*) واللاهوت القلاني يوجه هشام ، ويعد أن تمارك هو
 وكانط منذ أيام دراسه ، رفض ما قاله كانط عن « الدين في حدود العقل
 وحده » ، وتصوره اعتماد وجود الله والأخلاق على الوعي الأخلاقي عند
 الانسان . ففي اعتقاد شلايرماخر : الدين شيء ، والأخلاق أو الفلسفة
 شيء آخر ، وتماثل هو والكثير من معاصريه في شوقه للامتناهي . وهذا
 اتجاه بعيد الاختلاف عن محاولة التوفيق بين الدين والعقل ، أو رد الدين
 الى الأخلاق . وقال في تعريفه المشهور : « الدين الحق يعني الاحساس
 بالامتناهي وتذوقه » ، ولكن أين يستطيع الاهتداء الى اللامتناهي ؟ ،
 ورد على ذلك : في صميم روح الانسان ، يعني في المشاعر . ورغم
 اعتراضه على كانط ، الا انه تعلم من الفلسفة النقدية عدم الوثوق في
 البراهين العقلانية لاثبات وجود الله ، وبذلك رجع بالدين الى حالة ما قبل
 الادراك والمعرفة . . . فالشعور شيء فردي ، حتى وان كان ملكة من ملكات
 الروح الانسانية . ويناطر على نحو ما الواقع الموضوعي ، وان كانت هذه
 الفكرة لا تبدو واضحة . . . وأعرب شلايرماخر عن عدم ثقته في نظرة عصر
 التنوير الى الدين التي جنحت الى صبغه بصيغة كلية تعميمية ، وقال انه
 ظل أمدا طويلا قانصا بما اكتشفه « العقل الكلي » . ولكن شلايرماخر
 ارتأى فيما بعد وجوب « ارتقاء الانسان الى المستوى الأعلى للفردية » فلم
 أعد أقتنع بالنظر الى الانسانية على أنها كتل وحشية هلامية ، متماثلة
 في داخلها تماثلا كاملا . . . وهكذا يكون قد أضفى على الدين الطابع الفردي،
 ونظر اليه نظرة سيكولوجية شعورية . فكل فرد عبارة عن تجسيم متفرد
 لكل ، ويجرب الكل بطريقته المتفردة . واذا كان اله شلايرماخر ليس
 اله أنصار مذهب وحدة الوجود ، الا أنه - يقينا - اله كامن يمكن الاهتداء
 اليه في العالم ، وبخاصة داخل روح الانسان ، وبوصفه عيبا فيما بعد
 لكلية اللاهوت في جامعة برلين الجديدة ، استطاع التأثير بعمق في
 اللاهوت البروتستانتى ، ودفعه الى هذا الاتجاه « الرومانتيكى » الجديد .

واهتمدى الرومانتيكون الى الله في الطبيعة ، في صورة احتسبت من
 مميزاتهم ، ولم يهتموا اليه جميعا بطبيعة الحال . فلم يكن بين هؤلاء
 المهتمين الفرد دى فينيه(**) أو اللورد بايرون . وانما كان هناك بالتأكيد
 نفر ملت . ولقد سعى هؤلاء الفلاسفة المؤمنون بخوارق الطبيعة ممن
 تمردوا ضد الآلية النيوتينية لجعل الطبيعة مكانا يستطيع الانسان معاودة
 العيش فيه والشعور بالاقتراب من الله ، وبذلك يحل مشكلة الثنائية التي
 نكب بها المفكرون منذ عهد ديكارت . وجاء دافع هذه الطريقة في التفكير
 في الطبيعة من روسو وأمثاله كثيرون ممن ساقهم تأمل الطبيعة الى الشعور

Delain

• (١٨١٢-١٧٩٧)

Alfred de Vigny

(*)
 (***) الشاعر الفرنسى

بالانتشاء الصوفي (*) . ولقد حاول جوته دائما في دراساته المورفولوجية اكتشاف المبدأ الجواني الأصلي للأشياء ، أى الأبدى فى المتناهى عند (اسبينوزا المقدس) الذى أعيد احياءه فى ألمانيا على أواخر القرن الثامن عشر ، وكان قد دعا الى اله كامن ، بينه وبين الكون هوية على نحو ما ، وازدهرت هذه الصوفية الطبيعية فى مذهب شلنج (**) الذى أعجب به ايما اعجاب صمويل تيلور كولريديج ، مثلما أعجب به الألمان ، وتمثل هذا الاعجاب فى شعر وردزورث عن الطبيعة ، وعند مصورى المناظر الطبيعية من أمثال جون كونستابل فى انجلترا ودافيد كاسبار فردريش فى ألمانيا .

فالانسان فى نظر الرومانتيكين ليس مقياس كل شيء ، كما هو الحال فى الفكر الكلاسيكى . واشتركوا فى رؤية الانسان فى سياق قوى كونية عظمى يختلط به فى « كل » أو « لامتناه » أعظم منه هو ذاته ، فقال الدكتور كاروس فى كتاب بعنوان « تسع رسائل عن تصور المناظر الطبيعية (١٨٣١) » : « عندما يتأمل الانسان الوحدة الرائعة للمنظر الطبيعى ، فانه يعى تفاهته ، ويشعر ان كل شيء عبارة عن جزء من الله ، وبذلك يشعر باستيعاب الله له ، وينبذ وجوده الفردى » ، ولا يتعارض مثل هذا التشديد على « الكل الأعظم » على أى وجه وأى توكيد مماثل للفردية ، يلاحظ بالفعل عند شلايرماخر ، أو فى عمليات الخلق الانسانى ، ولكنه يوضح الطبيعة الميتافيزيقية - بالضرورة - للانسان الرومانتيكى ، ففي الأنثروبولوجيا الرومانتيكية ، ليس الانسان مجرد « كائن منح ناحية الأرض » كما تصوره فيكتور هيغو ، « ولكنه مقنوف متجه نحو السماء ، أى الى الأصل الذى بعث منه » .

ان هذا يفسر لماذا قام الرومانتيكيون بثورتهم الكوبرنيقية فى الاستمولوجيا . فلابد أن يتزود الانسان بالمكاتب العرفانية المكافئة لاحتياجاته الميتافيزيقية ، وتطلعاته ، ولا تخفى عدم كفاية استمولوجية لوك للنهوض بهذا الدور ، لأنها خصت انطباعات الحس بأكبر دور فى المعرفة . وحتى كانت ، فرغم أنه زاد من فاعلية العقل اعتمادا على مقولاته الشهيرة ، الا أنه جعل المعرفة قاصرة على الظواهر فى عالم الظواهر . ومن هنا وضع كولريديج ، الذى كان شديد الاعتراض على لوك ، وان كان شديد الامتنان « لحكيم كوتنجربرج » (يقصد كانت) - ولعله لم يفهمه على خير وجه ! - ملكة خاصة للذهن سماها على نحو مثير للدهشة « بالعقل » للترفة بينها وبين « الفهم » . وكانت هذه التفرقة المشهورة

Réveries du Promeneur Solitaire

(*) كما حدث فى كتابه

(١٧٧٨ - ١٧٧٦)

Naturphilosophie.

(***)

التي عبر عنها جميع الرومانتيكين تقريبا ، على نحو أو آخر ، معروفة بالفعل في ألمانيا بفضل الفيلسوف جاكوبى وكانط بالذات ، فليس بمقدور الفهم (*) معرفة أى شيء خلاف الظاهرات ، وتبعاً لتشبيهه ينسب لشوبنهاور : يتشابه الفهم هو وانسان يدور ويحوم حول قلعة لرسم واجبتها ، ولكنه لا يهتدى قط الى أى مدخل . أما العقل (**) فياستطاعته اختراق حوائط القلعة ، يعنى النفاذ الى ما وراء الظاهرات ، الى الشيء فى ذاته ، وعلى حد قول كولريديج : « فانه يختار الحقائق الخفية والموضوعات الرومانتيكية العامة التى هدفت الى تحويل العقل من مرآة (***) الى مصباح قادر على تسليط أشعته للكشف « عن ارض جديدة وسماء جديدة ، لم يحلم بها الحسيون والفخورون بأنفسهم » .

وقارن كولريديج أيضا بالاستعانة بذخيره التى لا تستنفد من التشبيهات ، العقل بنبات يمتص العناصر الخارجية ، ولكنه عندما يتنفس تساهم أنفاسه فى انعاش البيئة . وبعبارة أخرى ، فان العقل يتميز بالقدرة الخلاقة ، لانه ليس قادرا فقط على النفاذ فى الغيبيات ، وانما لديه أيضا القدرة على تحويلها وبث الحياة فيها بخلق أعمال دالة على العبقرية الأصيلة . وبمقدور الانسان استحضار عوالم جديدة للحياة بالخلق والاختراع اعتمادا على الخيال شقيق العقل . وقد نسب اليه كولريديج القدرة التشكيلية (****) . ويصح هنا القول بقدر كبير عن الفنان ، الذى استحق عن جدارة فى العالم الرومانتيكى صفة المثل الأعلى للانسان ، وحل محل فلاسفة (*****) الموسوعة المشهورين . فرأى شيللى ، مثلا ، الشاعر شيئا أكثر من انسان ، لانه صاحب رؤيا يشارك فى العملية الأبدية لاماطة اللثام عن « الجمال الخفى للعالم » وبالمثل رأينا شلنج يؤلف فلسفة كاملة النضج للفن يرى فيها الفنان وحده متفردا بين بني البشر بفضل قدرته على حسن « المطلق » ، ومن ثم استطاع فى عمله أن يعرض « لا متناهيا ليس بمقدور أى فهم متناه الاحاطة به » .

على أن هذه النظرة الرومانتيكية للعبقرية لا يمكن أن تفهم فهما كاملا بغير رجوع الى اللاوعى ، فليس من شك أن الانثروبولوجيا الرومانتيكية - بوجه عام - قد افترضت وجود عقل لا عقلانى أو لا واع أو لا شعورى .

Verstand.

(٤)

· Vernunft وسماء Jacobi : "Glaube" أو الايمان ·

tabula rasa أو

(٥٥٥)

esemplastic.

(٥٥٥٥)

.. les philosophes

(٥٥٥٥٥)

وربما صح القول بأن الرومانتيكين ليسوا أول من اخترع اللاشعور ،
 إلا أنهم كانوا أول من تحدثت عنه بحرية واقاضة ، وامتنعوا باللاشعور
 لتفسير عملية الابداع الفني ، وأيضا للتحدث عن « الجانب الليلي » لحياة
 الانسان ، يعنى عالم الأحلام والوحوش والأشباح والألياف ، فهو تصور
 هيتافريقي أكثر منه تصورا علميا . وتصوروا الفنان - بوجه عام - كأنه
 نبات ينمو لا شعوريا ، أو كوعاء يستعين به « الأبدى » فى فعله وتعبيره
 عن نفسه . واعتقد بعضهم كما فعل الشاعر الفغان ولينم بليك فى الآلية
 الشعاعية (*) . وكتب عن كتابه « ميلتون » : لقد نظمت هذه القصيدة
 بفضل ما أمل على اهلاء مباشر ٠٠ « دون تأمل مسبق ، بل وربما ضد
 ارادتي » وبطبيعة الحال ، يعبر اللاشعور عن نفسه على أفضل وجه فى
 الأحلام ٠٠٠ وهنا يتكشف جليا الفارق بين الفكر الرومانتيكى وفكر عصر
 التنوير . فلقد حاول مفكرو « التنوير » رد الحلم الى ظاهرة طبيعية ترد
 الى التجربة الحسية ، ويستطاع تفسيرها عن طريق القوانين الأولية .
 وتعد حالة اليقظة الحالة الأسمى ، لأن الروح أو النفس تنقد أثناء الحلم
 اتصالها بعالم الواقع . وقلب علماء النفس الرومانتيكون مثل الدكتور
 كاروس وفون شوبرت (مؤلف كتاب رائج عن رمزية الأحلام ١٨١٤)
 هذا الحكم رأسا على عقب . ففى الأحلام ، يتحدث الانسان لغة أسمى
 تمكنه من التنقل بنظره من الوداء الى الأمام بغير التقيد بالمعهود بالزمان ،
 ومن لم تتسن له القدرة على التنبؤ فى الأحلام ، وعندما تنقطع الروح عن
 عالم الانطباعات الحسية ، تتصل بالواقع الروحى ، وبذلك تساعد على
 انطلاق الشاعر المختبىء داخل الانسان . وتوضح العبارات الاستهلالية
 من قصة هينريش فون أوفتردينجن لنوقاليس (١٧٩٩) النظرة الرومانتيكية
 الجديدة - فيها يتحدث هينريش وأبوه عن الأحلام . ويقول الأب الشاب :
 « الأحلام يابنى كلام فارغ . ولقد ولت الأيام التى كانت الرؤى تصادف
 فيها فى الأحلام » . ويعترض هينريش : « لعل الأحلام لم ترسل إلينا
 من السماء مباشرة ، ولكن ألا يتعين علينا أن نتصورها رغم ذلك كنعم
 من السماء تزيح الحجب التى تخفى طبائنا الداخلية عن الأبصار .
 وتطلق عنان الخيلة المقيدة بالأصفاة وترشدنا فى حجبتنا الى القبر
 المقدس » .

وكما بينا آنفا فان اللاشعور أشبه بمفتوق طرق . فبمقدوره
 هدايتنا الى عالم أسمى ، ولكن بمقدوره أيضا اطلاق سراح القوى الغيظانية
 الكامنة بداخلنا . وكان الرومانتيكيون علميا بينة بما تتصف به الطبيعة
 البحرية من تشتيت واضطراب ، وبالتقوى الكامنة بالانسان التى قد تفصل

بينه وبين عالمه . وألقى فون شوبرت بنفسه محاضرات عن الجانب الليلي في العلم ، ومحددا من المظاهر الشريرة للاشعور ، ومن مظاهره الخيرة أيضا . وحشد هينريش فون كلايست ، متأثرا بنظريات فون شوبرت ، دراماته في نفس الحقبة (١٨٠٦ - ١٨٠٨) بشخصيات مثل كيتش فون هايلبرون التي صور فيها الحب قوة بدائية لا شعورية . وعلى الرغم من أن كولريديج قد أثنى على عقل الانسان وخياله الالهي ، الا أنه في أعظم أشعاره دفع بطله لاقرار جريمة لاعقلانية أساسا (لاشعورية) وهي قتل « القطرس » الطائر البحري ، مما سيؤدى الى وجوب معاناته حتى يصبح على وعى بما اقترف ...

أما أرتور شوبنهاور فهو فيلسوف هذا الجانب الليلي من الانثروبولوجيا الرومانتيكية ، واكتشف شلنج أيضا نوازع قاتمة - لاشعورية الى حد كبير - في النفس ، ولكنه التزم جانب التفاؤل فيما يخص حرية الانسان ، وقدرته على التغلب عليها وتغيير طابعها . بيد أن شوبنهاور لم يؤمن بالحرية ، أو لعله آمن بها بقدر محدود . ففي كتاب « العالم ارادة وتمتلا » (١٨١٨) عرف الشيء في ذاته (يعنى الحقيقة) « بأنها ارادة العيش أو الحياة » . وهذه الارادة عمياء ، لا مخطط لها ، وبلا أساس ، وتمثل سيطرة القطيع على الانسان ، وتورطه - تبعا لذلك - فيما لا نهاية له من الصراعات والمعاناة والتصدعات : « يتميز الكشف عن الطبيعة الباطنية للارادة بالصرورة الأبدية والتغير بلا حدود » . وليس باستطاعة الانسان تحقيق أى نوع من السلام الا اذا أوقف رغباته تماما ، أو عكف على التأمل الاستاطيقي . وتذكرنا ارادة شوبنهاور « بالهو » عند فرويد . فضلا عن ذلك ، فقد استمر فرويد يردد القول « بأن البشر ليسوا في حقيقتهم كما يتظاهرون » . انهم مجرد أقنعة : « اخلع النقاب ! » . وانظر داخل اللاشعور (وان كان شوبنهاور لم يستخدم هذه الكلمة بالفعل) فما الذى ستراه ؟ انك سترى أنانية وغلا وحقدا بلا حدود ، مصدر شقاء النفس والنفوس الأخرى، من تأثير سيطرة ارادة الحياة ، وكتب شوبنهاور في مقال متأخر عن الطبيعة البشرية :

« من الحق اذن القول بوجود وحش قابح في قلب كل انسان يتحين الفرصة للاندفاع كالعاصفة ، والغضب ، كما يبين من اشتهاه الحاق الألم بالآخرين . أما اذا اعترض أحد سبيله فانه يقتله ... وعندما يحاول العقل ترويضه وتلجيمه الى حد ما ، فإن حارس هذا الوحش يعانى الأمرين . ولربما نزع الناس الى تعليل ذلك بالشر المتطرف الكامن في الطبيعة البشرية . . الا اننى أنسب ذلك الى ارادة الحياة ، التي تزداد شعورا بالتنقيص والتكد من أثر المعاناة المستمرة للوجود ، ومن ثم فانها تسعى لتخفيف عذابها بتعذيب الآخرين » .

وليس بالمقدور فهم المعتقدات الرومانتكية عن التنظيم الاجتماعى والسياسى الا على ضوء هذه الانثروبولوجيا . وبالإضافة الى التاريخ العام للعصر ، فقد اهتمت الرومانتكية بجميع الخطايا السياسية تقريبا فى الكتاب ، يعنى بالثورة ، وأيضاً بالرجعية ، وبتبنى النزعات الفاشية ، بل وحتى بالافتقار الى الاهتمام بالمشكلات الاجتماعية (*) . ويصح القول بمرور الرومانتكية خلال عدة أجيال بجميع ألوان العقائد السياسية المعاصرة على وجه التقريب بدءاً من الاتجاه المحافظ ، الى الليبرالية والاشتراكية ، بل والفضوية ، ومع هذا ، وكما يفهم ضمناً من هذا الرأى ، فإن الرومانتكين قد انحازوا الى مختلف المعسكرات فى الصراعات السياسية للعصر . ولا يجوز القول بأنهم كانوا ينفرون من السياسة ، أو يرفضون التفكير فيها ، وان كان قلائل من الرومانتكين قد شغلوا وظائف عامة بالفعل . وما من شك أن العالم الرومانتكى قد أخرج عدداً من الأفكار الأخاذة الجديدة والبعيدة الأثر عن تنظيم المجتمعات .

ومن بين هذه الأفكار تبرز واحدة منها فوق باقى الأفكار . انها فكرة الكيان العضوى الاجتماعى ، ولم تكن هذه الفكرة - بطبيعة الحال - شيئاً مستحدثاً . وبالرغم من ذلك ، فإنها أصبحت تعنى الآن شيئاً جديداً ، أو حرفت تحريفاً جديداً . وليس من العسير فهم سر استهوائها المعاصر لنا ، فهى تعكس الخوف من الغوضى والعار فى عصر الثورة ، والضيق الذى تشعر به الكثرة ، وليس مجرد الاستقراط ، بعد انهيار المؤسسات وتفكك الروابط القديمة ، غير أنها حدثت قبل أوانها ، وبشرت بالثورة الفرنسية ، التى نستطيع اكتشاف ارهاصات فكرية مهدت لها عند روسو وبيرك (ولا تعارض بين الاثنى كما حاول بيرك الإيحاء) وعند هرردر أيضاً . وهكذا مثلت فكرة الكيان الاجتماعى العضوى نفورا لا من التجاوزات التى حدثت فى باريس أثناء الثورة فقط ، ولكنها مثلت أيضاً نفورا من اسلوب التنوير بأسره فى التفكير فى المشكلات الاجتماعية .

وضرب كولريديج على الوتر الحساس فى احدى عظامه السياسية (**) ١٨١٦ ، والتى لحص فيها الى جانب أشياء أخرى ، نظرتة الى أسباب الثورة ، وما أعقب ذلك من اقتصاص . ونسب التفجر الى حد كبير الى الأفكار الزائفة التى لم يكن أقلها خطورة :

« التصور القائم على الانخداع العام بإمكان تشييد الدول والحكومات على النحو المتبع فى صنع الآلات ، وأنه من الواجب مراعاة ذلك . وأيضاً

(*) بل وحتى بالـ *Weltpflucht*

(**) *Stamman's Manual* (١٨١٦)

تصور امكان التكهن بأية حركة واحتسابها مسبقا . ان الثمن الذى دفع فى مقابل ذلك على حساب ما لحق بالحقوق الوطنية للبشر ، وربما بأرواحهم هو ما ترتب على ذلك من ظهور عدد كبير من المخططات والرسائير والمخططات ومشرعى الرسائير ، والفطرسة الفظة التى أبدى كل داعية أو مبشر باقتراح جديد استعداده للتعبير عنه

ووضع كولريديج فى مقابل هذه «الآلة» المخدوعة فى نفسها ما اعتبره الفكرة الصائبة عن الدولة التى تراها أخلاقية ، أو «كل عضوى» ولقد اعتقد كولريديج أن الدولة - أو المجتمع - أقرب الى الكائن العضوى أكثر من قرابتها للآلة ، فمثلا لم يصنع الدستور الانجليزى على غرار الآلة . لقد « نما » كائى كائن حى عضوى فى حقة من الزمان . وتمائل الدولة - بعد ذلك - هى والكائن الحى فى كونها تتألف لا من ذرات مفردة تسمى كل منها لصالحها الأنانى ، وانما من أجزاء عضوية ، يعنى من أعضاء لها تاريخ كالمملك والكنيسة والملكيات . ويساهم كل طرف من هذه الأطراف بطريقه الخاصة لصالح الكل .

ولم تتصف النظرية العضوية التى جاء بها كولريديج بالأصالة ، كما أنها لم تكن قاصرة على انجلترا ، والحق أنها مثلت نظرة اشترك فيها رومانتيكيو جميع البلدان ، وتمائل أكثرهم مع كولريديج ، أى ابتدعوا متحمسين للثورة ، ثم أصيبوا بالاحباط بعد ذلك . ولقد ورث كولريديج ذاته الفكرة عن ادموند بيرك ، الذى سبق له زجر الثوريين - قبل ذلك بسنوات - لأنهم نظروا الى السياسة كأنها تمرين هندسى . فلم يرجعوا الى الطبيعة البشرية أو التاريخ . وتغلغل تأثير بيرك فى ألمانيا ، مثلما فعل فى انجلترا ، وان كان الألمان لم يحتاجوا لبيرك لتعريفهم أن الزمان يدعو الى التشديد على دور المشاعر العامة (*) . فلقد هاجم الرومانتيكيون الألمان علم السياسة الذى يستند الى نموذج هندسى مجرد ، واستعاضوا عنه بشئ أشبه بالبيولوجيا السياسية التى أكدت دور النمو «الطبيعى» ، باعتباره معارضا للتخطيط الواعى ، وأكدوا أيضا دور المشاعر الجماعية بوصفها مقابلة للحقوق الفردية فحسب ، ويبدو شلايرماخر ، وكأنه اقترب من بيرك عندما نبذ فى بحث تلى على الأكاديمية الملكية للعلوم فى برلين ١٨١٤ المهندسين المعاصرين للسياسة ، لأنهم عاملوا الدول دائما كأنها أشياء ، « يستطيع الانسان اختبار براعته فيها ، ولم يعاملوها اطلاقا كتشكيلات تاريخية للطبيعة ، ولم ينتبهوا الى عدم ظهور أية دولة عن طريق الصناعة ، حتى ما لا يتمتع منها بالكمال » .

ورأى معظم الرومانتيكيين ، خصوصا بعد الثورة الفرنسية ، الدولة - أو « الدولة - الأمة » أسما صورة للكائن العضوى الاجتماعى ، وهكذا لا يعد تصور « الدولة - الأمة » بالضرورة تصورا رجحيا ، ويصح القول بأن الرومانتكية ساهمت بدور أكبر من دور اليقويين أو نابوليون فى بزوغ الحركة القومية التى ما لبثت أن أصبحت واحدة من أكبر الأساطير الحديثة . ولابد أن ندرك عدم وجود تعارض بين هذه القومية الرومانتكية والنزعة الفردية الرومانتكية . فالواقع أن أحداث الثورة ، والحركة الامبريالية الفرنسية التى جاءت فى أعقابها قد ولت شعورا أقوى بالهوية بين « الفرد » و « الدولة » ، وعلى الأخص فى ألمانيا ، ولكن ورغم ذلك ، فلقد حرص الرومانتيكيون ، حتى فى ذروة حرب التحرير الجرمانية على الحفاظ على كرامة الفرد ، وعلى الأخص من يتمتع منهم بالعبرية . وتمثلت الفكرة الجديدة فى أن الفرد سيتمكن من النهوض بقدراته فى ظل المجتمع المتحد على نحو أفضل وبمعاونة الدولة التى أصبح ينظر إليها الآن على أنها تقوم بدور ريادةى فى خلق الحضارة . غير أن أهم نقطة هى اتجاه الفكر الرومانتيكى الى تصوير الأمة فى شكل فرد كبير ، يتمتع بشخصية مختلفة عن شخصية الأمم الأخرى ، وان كان لا يلزم أن يكون معاديا لها ، يعنى لقد عبرت الفردية الرومانتكية عن نفسها سياسيا أساسا فى فكرة الأمة . وتمثل هذه الفكرة مثلا آخر للتمرد الرومانتيكى ضد الاتجاهات التعميمية والنازعة الى « الكلية » فى فكر القرن الثامن عشر . ويتحدث الفيلسوف الألماني فيشته فى رسائل الى الأمة الألمانية (١٨٠٨) عن الشخصية الفردية للأمة ، وكان فيشته قد عدل عن نظريته العقلانية الباكرة واتبع نظرة رومانتيكية الى المجتمع .

ولقد قام هرردر بانماء هذه الفكرة قبل ذلك بسنوات ، عندما اشترك فى شبابه فى رحلة بحرية من ريجا الى فرنسا . ولمح أثناء هذه الرحلة الخصائص المميزة لكل بلد ، واختمرت فى ذهنه فكرة الجماعة أو روح الجماعة (*) .

غير أن فكرة القومية تعرضت لتغير ملحوظ عند المفكرين الرومانتيكيين المتعاقبين . فبعد أن كانت فى البداية فكرة حضارية الى حد كبير ، اتخذت طابعا أكثر تاثيرا بالسياسة - وبخاصة فى ألمانيا من تاثير الامبريالية الفرنسية ، وبذلك بالاستطاعة وصف النزعة القومية عند هرردر - مثلا - بأنها حضارية انسانية بحتة ، بينما اتصفت قومية فيشته التى ظهرت فى ظل اذلال فرنسا لبروسيا ، بأنها سياسية وحضارية معا ، وكان

(*) الجماعة Volk . روح الجماعة Volksgeist .

أعظم اسهام قامه هررد لفكرة القومية هو تصور « الفولك » ، الذى كان مبنيا بدوره على فكرة الطبيعة . وكما يتعين أن نتذكر ، لم يكن ما تأثر به هررد فى الطبيعة هو انتظامها الآلى ، ولكنه تنوعها وثرؤها . وكتب يقول : « لقد وزعت الطبيعة خيراتها على أوجه شتى ، مرتبطة بالجو والثقافة . وعلينا أن نشعر بالرضا لأن الزمان ينبوع جميع الأشياء قد فاض الآن ببعض هباته ، ثم فاض بهبات أخرى من مكوناته البشرية - على مهل - بكل مقوماتها وخصائصها العضوية » . ويمتد هذا التنوع فى اعتقاده - الى تاريخ الشعوب . فى مجرى التاريخ ، اكتسبت كل « جماعة » طابعا فريدا أو روحا فريدة (*) ، تمثلت بصفة أساسية فى دينها ولغتها وأدبها . ولم تتألف الجماعة بناء على تعاقد ، أو تبعا لمشيئة انسان أو ارادته . لقد نمت كما ينمو الكائن العضوى ، وكما يتحول فى نهاية المطاف الى كيان حى مكتمل أعظم من الأعضاء التى يتألف منها . وعلى الرغم من تأييد هررد لمبدأ منح الحقوق الثقافية لجميع الشعوب - بما فى ذلك اليهود والسلاف - الا أنه وجه رسالته أساسا للجرمان ، فذكرهم بترانهم الأدبى العظيم ، وضرب مثلا بذلك بما جمعه من أغنيات شعبية (**) ، وحث على التحرر من محاكاة النماذج الكلاسيكية والفرنسية ، وأكد فتوة الحضارة الجرمانية ، وما ينتظرها من مستقبل باهر ، وباختصار لقد دعا الألمان لكى يعوا أنفسهم ويدركوا أنهم شعب فريد خلاق ، له دور مهم يشارك به فى صنع الحضارة .

تزدونا هذه الأفكار الاجتماعية والسياسية بمعبرة طبيعية الى التصور الرومانتيكى للتاريخ . ولم تبرز التاريخانية الى الوجود متآنية مع الحركة الرومانتيكية ، وان كانت هذه الحركة قد هيات المناخ الصالح الذى تحتاجه لكي تنمو وتنتشر . ويصح القول بأن التاريخانية مظهر آخر للتمرد الرومانتيكى ضد النزعات التعميمية للتنوير .

وترجع كلمة تاريخانية (***) الى أواخر القرن التاسع عشر . فهى ليست كلمة رومانتيكية ، ولكنها من قطافها ، ومنذ ظهورها ، اكتسبت العديد من مختلف المعانى ، بل المتناقضة . بيد أننا إذا أحسنا استعمالها ، سنرى أنها تعنى التفعل المتعاطف الحق فى الماضى الى جانب الفكرتين التوميين : التفرد فى الزمن والنمو . وفى أواخر القرن الثامن عشر ومشارف القرن التاسع عشر ، بست هذه المعانى جديدة بالمقارنة بتصور التنوير للتاريخ .

Gelst

Volklieder

. historicism

وتترجم الى الإنجليزية Historismus

(*)

(**)

(***)

ولا يخفى أن فكرة التفلفل الوجداني الرومانتيكي في التاريخ متضمنة في تصور المجتمع ككائن عضوي ، ولقد ذهب هذا التفلفل الى ما هو أعمق من مجرد الاهتمام بالتاريخ ، أو حتى بالافتقار بوجود شيء ما في التاريخ يمكن أن يعلم . فلقد تساوى هذا التفلفل حقا هو ومعنى الورع والتقوى ، فلقد أدرك الرومانتيكيون ، الذين كانوا يحيون في زمان سريع التغير ، حماقة الانقطاع كليا عن الماضي ، والوثوق في العقل المجرد أكثر من الاعتماد على التاريخ ، وتعلموا كيف يعظمون أسلافهم بدلا من الأسف لهم ، وراوا في الأمة التاريخية مجتمعا باستطاعتهم تصوره كممثل لهويتهم ، حتى وهو مستمر في نموه ، وعرف عن ادmond بيرك هذا النوع من الورع ، فلقد انحاز لجانب « التواصل » و « ايثار العصور الغابرة » و « التقاليد العريقة » . وجميع هذه المصطلحات من الكلمات المحببة له . ولا وجود لامتداح للتاريخ يتماثل وهذه الجملة المقتبسة من كتابه عن الثورة الفرنسية (*) (١٧٩٠) :

« لعلنا نعرف نحن معشر الانجليز المحدثين أننا لم نكتشف شيئا ، وأنه من المتعذر اكتشاف شيء ما في الأخلاقيات ، أو اكتشاف الكثير في المبادئ الكبرى لفن الحكم ، أو تصور الحرية ، فقد أدركت هذه المعاني قبل مولدنا بأمد طويل . . . فبدلا من أن نلفظ المعاني العريقة المستحوذة علينا ، فإن من واجبنا أن نتعلق بها . »

وطرح هررد تصورا لهذه التاريخية الجديدة في مقالين حظيا بأكثر قدر من الرواج . وفي المقال الأول الذي كتب ١٧٧٤ ، قارن التاريخ بشجرة تتفرع منها جملة غصون ، دائمة التجديد لنفسها . وكان هررد معنيا حينذاك بالتركيز على المواضيع التي يزهو بها عصر التنوير ، والتي تزين منجزاته ، وأصدر أحكاما بالاطراء أو اللوم على العصور السابقة ، واستند في دفوع نقله على كاتب سويسري مغرور (**) ألف قبل ذلك بعشر سنوات كتاب « تاريخ البشرية » ، ومجد فيه تقسم الانسان من الهمجية الى حضارة عصر التنوير ، وأعلن هررد « النسبية التاريخية » كعقاب للنظرة المؤمنة بالتقسم . واختاف عن الاجتهادات التعميمية للفلاسفة ، فاعتقد في تميز الحضارات والأفراد بالطابع الفردي . وقال : « لكل أمة . وأيضا لكل عصر ، مركز لسعادته مثلما يوجد مركز جاذبية لكل جرم سماوي » . وبناء على هذه الحقيقة ، لا يصبح القول بوجود معايير كلية للحكم . فاذا أردت حقا فهم أي بلد آخر ، أو قرن آخر ، عليك أن تتفلفل في أعماقه وأن تشعر به في داخلك . وهكذا رد هررد الاعتبار

Reflections on the Revolution in France : Edmund Burke. (✕)

Isaak Iselin,

(✕✕)

لكل العصور والشعوب كالمصريين والفينيقيين واليونان والرومان ، وأيضا للقرون الوسطى التي رفض أن ينظر إليها نظرة استعلاء وتبسط . وكان العصر الأوحى الذي لم يهتد هررد إلى كلية طيبة يقولها عنه هو عصره ، الذي رآه غارقا لأذنيه في الترف ، ومسرفا في التعلق بالعقلانية والخضوع للآلية ، « التي يتوهم أنها مرادفة للحبوية » . وعندما كتب هررد هذه المقطوعة الباكورة لم يكن قد تحرر تماما من تأثير النزعة المتشائمة في النظر للتاريخ عند روسو .

وكان أكثر عصور الماضي التاريخي استهواء للرومانتيكين هو القرون الوسطى . ولقيت عصور أخرى أيضا الثناء ، بما في ذلك اليونان القديمة ، التي صبغها الشاعر الألماني هيلدرلين مثلا بصيغة رومانتيكية ، باعتبار اليونان من البلدان التي ما زالت قريبة الصلة بالطبيعة المقدسة . غير أن القرون الوسطى وحدها - التي تمتد حقبة طويلة وتضم في صفوفها الشهداء المسيحيين في عهد ديوقليطس (*) في حد طرفيها ، وشكسبير وميلتون في الطرف الآخر - هي التي بمقدورها الهام حركة حضارية في حجم حركة الأحياء القوطي . وتضم هذه الحركة كل ميدان من ميادين الفكر تقريبا : ١ - الفكر الديني (المدافعون عن المسيحية من أقران شاتوبريان ، وحركة أكسفورد في إنجلترا) ٢٠ - الكتابة التاريخية (كالدراسات الرائعة للفرز النورماندي ودوقات بورغونيا والصلبيين ، التي كتبها بعض المؤرخين الرومانتيكين) (**) ٣٠ - القصة والرواية (وعلى الأخص روايات والترسكوت وهيجو وشاتوبريان ، التي قرأها الجميع بما في ذلك المؤرخون) ٤٠ - الفن والعمارة (بما في ذلك دور البرلمان التي وضع تصميمها سير تشسارلز باري بعد نشوب الحريق ١٨٣٤ ، والكثير من الكنائس القوطية الجديدة التي أشرف على بنائها المهندس المعماري الإنجليزي ولبي بوجين) . وألهمت حركة إعادة أحياء القوطية أيضا عملية ترميم العمارة الوسيطة ككاتدرائية كولونيا ومجموعات اللوحات الفنية الوسيطة والوثائق التاريخية . والدراسات الباكورة في التاريخ الجرمانى (***) ، المشروع المعزز المحبب الذي ظهر حديثا (١٨١٩) ، من أمثلة هذا الاتجاه الأخير . ولم تنفرد المسيحية بأسر انتباه هررد . فقد انبهر أكثر من ذلك بالعصور الوسطى الجرمانية ، وبالحرارة الفتية

(٤) Gaius Aurelius Diocletianus واسمه في الأصل Diocles صعد إلى مرتبة قائد جيش الإمبراطور الروماني نومريان . واختاره الجيش بالقرب من نيقومديا في نوفمبر ٢٨٤ ق م . للانتقام لقتل مليكه . وانتصر في معركة مارجوس . وأثبت حنكة عندما علا عن أعدائه .

(**) كالأخوة de Barante و Thierry

Monumenta Germaniae Historica.

(***)

التي ارتادها القوطيون والانجلوساكسون والفرنجة وآخرون ، والتي نشطت وبثت روحا جديدة في حضارة اعتراها الوجود . ولم يأت هررد بجديد عندما وصف العصور الوسطى في ألمانيا « بالعصر المتفرد » ذاته فقد تميز نوفاليس بروح مثالية أعظم عندما تصور القرون الوسطى كمثل أعلى لجميع العصور باعتبارها العصر الأعظم للإيمان ، ولما تمتعت به من وحدة ، وما اكتنفها من أسرار « واحساس بالقدسية » ، وتبخرت كل هذه الميزات في عصر التنوير الذي خلفها . وغالبا ما صورت العصور الوسطى كمصر ذهبي للفروسية - العصر الذي أصبح مهددا بالغزو الصناعي - وأيضا كمصر الحرفية والنوق السليم .

وكرزت بقدر أكبر المقالة الثانية لهررد ، وهي الأطول ، ولم يتما : تأملات في فلسفة التاريخ (١٧٨٤ - ١٧٩١) ، وأفاضت الكلام عن معنى التقدم مثلما ركز المقال الأول على الاتجاه الجديد للنزوع نحو الروح الفردية (الفضائل التي تتميز بها كل أمة ويتميز بها كل قرن) والنسبية ، وتحدث هررد في هذا المقال « عن تربية البشر » . وتعلمه نحو الروح الانسانية (*) . ويقصد هررد بهذا المصطلح « الماهية الجوهرية للانسان » وتكوينه السامي ، الذي يضم العقل والحرية والأحاسيس والنوازع الرفيعة المقام ، بما في ذلك تعاطفه على الآخرين ، الذي وصفه هررد « بأنه ليس شبيها جازما في النفس ، ولكنه قابل للتحقيق (بالقوة) » . وأخيرا استبعد هررد من مذهبه روسو ، واتجه بدلا من ذلك الى مقارنة التاريخ بسلسلة مؤلفه من حلقات مترابطة بالضرورة « بملحمة الله عبر العصور وجميع القارات والأجيال » . ولا يصح وصف هذا التصور بمذهب في التقدم ، بالمعنى الذي يفهمه عصر التنوير على أقل تقدير . واستمر بقاء أثر من روسو لكي يدفعه للتشكك في امكان التقدم نحو دولة ما في المستقبل تتسم بالكمال ، « فالنزعة الانسانية » بمثابة قيمة او مبادئ هادية ، تقترب منها كل حضارة بالقدر الذي يناسبها ، ولعل هذا المثل لا يقبل التحقق بصورة كاملة عند أية حضارة على الأرض ، وفوق كل هذا ازداد هررد في هذه الحقبة اتجاها نحو تصور وجود هدف ما ، وطريقة التقدم نحو هذا الهدف ، بعد أن أدرك بطريقة أكثر اكتمالا الجانب النامي (التطوري) في التاريخ ، وكيف يبدل التاريخ من مظهره كأنه « بروتيوس الأبدى » ، وكيف يحمل كل شعب في جعبته ما حدث من قبل ، وان كان يحاول يتفوق على ما يتعرض له من أحداث ، حتى يزداد اقترابا من غاية « الروح الانسانية » ، بما يتناسب معه . وكان هررد قد ذكر بالفعل في المقال الأول ، وهو يشعر بالدهشة :

« أن ما يحدث بعد تقدما صحيحا وتطورا متواصلًا ٠٠٠ ويصح أن يوصفه بالضرورة في أوسع نطاق لها . وأثمرت «التاريخانية» عند من جاءوا بعده من مفكرين ، وبصورة واضحة عند هيجل . فبرغم اختلافاته الحقيقية والمهمة عن هررد إلا أنه استطاع استحباب نظريته ، وتقديمها في صورة مذهب . ففي فصل بعنوان « مبدأ التطور » في كتابه محاضرات في فلسفة التاريخ ، عند هيجل مقارنة بين التاريخ والطبيعة . فليس في وسع الطبيعة إلا تكرار نفسها ، بلا نهاية . (ولا يخفى أن هيجل لم يجمع أية نظرة رومانكية إلى الطبيعة) ، ومن جهة ثانية اعتقد هيجل أن التاريخ لا يتصف بالسكون اطلاقا ، فبحكم تميزه بالتغير ، وتجده الدائم ، وتقدمه نحو تحقيق الكمال ، فإن طبيعته ما زالت « لم تتحدد » . وعند هيجل ، تجسم الروح نفسها تاريخيا في الجزئي ، يعني في روح الجماعة (*) .

اعتادت التاريخانية الرومانكية تفسير التاريخ بارجاعه إلى الفاعلية « الروحانية » المقابلة للقوى المادية ، فقال كارلايل - مسائرا اعتقاده بأن الروح تعمل من خلال الأبطال ، وبذلك تشكل مسار التاريخ : « أن الروحاني هو الذي يحدد المادى دائما . وما تاريخ العالم إلا سير عظماء البشرية » ، الذين استمر كارلايل يصفهم في محاضراته عن « الأبطال وعبادة البطولة » (**). « بأنهم مبعوثون إلى العالم » . ومع هنا فلم يتماثل البطل عند كارلايل مع صورة الهمية عند هيجل ، أى لم يتخذ معنى « الفرد التاريخى العالمى ، الذى يدور حوله دائما موضوع التاريخ أكثر من كونه الذات الفاعلة فيه ، ويسخره (مكر العقل) لتنفيذ ما يريد وفقا لمشيئته » . فالبطل عند كارلايل يبرز كفرد خلاق ملهم من عل ، ولكنه ليس خاضعا لجمعية ما ، لأن أفكاره وأفعاله تصنع التاريخ أو توقفه . وكان رد فعل كارلايل أشد قوة ضد الجمعية المفروضة من الجوانب المتدنية . إذ أصر على القول : « بأن الانسان سليل قوة عليا ، وليس عبدا للظروف وللضرورة ، ولكنه القاهر الظافر بحكم انتمائه للسماء » . وليس لدى الرومانكيين أى أثر من آثار النزعة البيئية التى روجها عصر التنوير ، والتى جنحت إلى تشويه سمعة الأبطال ، ووصفتهم بأنهم « صنائع الظروف » أو المؤثرات الاجتماعية .

وعندما نتأمل ما جاء فى أعقاب الرومانكية ، فاننا نرى أنها حققت دورا ربما فاق الأهمية التى تزعم عنها ، وعلى الرغم من محو بعض معتقداتها ، إلا أنها وضعت خاتمتها الدائم على العالم الحديث . وترجع

عزيرتها الى أنها فوق كل شيء قد كانت على دراية بالضرورة • اذ كان الرومانتيون يعون بقدر أبعد مما شعر به « فلاسفة التنوير » انهم يحيون في عالم لا يكف عن التغير • ولقد قال كارلايل مستشهدا بشيللر : « ليست الحقيقة كينونة ثابتة • انها فعل مستمر » (*) ، غير أنه بالنسبة لكارلايل ومعظم الرومانتيين لم يكن هذا التصور غالبا نذيرا مفزعا بقدر كونه نذيرا محذرا ، ويستطرد كارلايل ويقول : « لا شيء في التغير مصدر ازعاج • فالأمر على عكس ذلك تماما ، لأن التغير يكمن في جوهر نصيبنا في الحياة على هذا الكوكب » • فلم يكن التغير قد بدأ يتخذ مظهرا مفزعا ، لأنه كان بالامكان ربط الصيرورة بالكينونة ، وان لم يلزم أن يكون ذلك باتباع السبل التقليدية • أو لعل الأدق هو القول بأن ما حدث في العصر الرومانتيكي كان من بشائر الهوية بين الكينونة والصيرورة ، بمعنى عدم إمكان تكشف الحقيقة الا في عالم دائم التغير •

المراجع

- M. H. Abrahms. *The Mirror and the Lamp : Romantic Theory and the Critical Tradition* (1958).
- M. H. Abrams. *Natural Supernaturalism : Tradition and Revolution in Romantic Literature* (1971) .
- J . S. Allen, *Popular French Romanticism : Authors, Readers and Books in the Nineteenth Century* (1981).
- I. Berlin, *Vico and Herder : Two Studies in the History of Ideas* (1976).
- K. Clark. *The Romantic Rebellion 1863*.
- J. Engell. *The Creative Imagination : Enlightenment to Romanticism* 1961.
- H. C. Hatfield. *Aesthetic Paganism in German Literature from Winkelmand to the Death of Goethe* 1964.
- G. G. Iggers *The German Conception of History : The National Tradition of Historical Thought From Herder to the Present Day* (1968).
- H. M. Jones, *Revolution and Romanticism* (1974).
- J. J. McGrand, *The Romantic Ideology : A Critical Investigation* 1983.
- H. Peyre. *What is Romanticism ?* (1986).
- P. Santon. *Pugin*. 1971.
- J. E. Toews. *Hegelianism : The Path toward Dialectical Materialism 1805-1841*. (1980).
- W. Vaughen, *German Romantic Painting* (1982).
- A. Walicki *Philosophy and Romantic Nationalism : The case of Poland* (1982).
- C. Welch. *Protestant Thought in the Nineteenth Century* (1972-1985).
- R. Welhk. *Concepts of Criticism* (1963).

المرأة ، عملها وأسرتها في أوروبا القرن التاسع عشر

جوان . و . سكوت - لويز . أ . تيلي

يحيط بفهمنا لتجربة المرأة في القوة العاملة في القرن التاسع عشر قدر كبير من الاضطراب . وكثيرا ما يزعم أن النساء القابعات في دورهن كن تشتغلن بأعمال غير منتجة ، وأن تحول المرأة من البيت الى نوع ما من اماكن العمل الرسمية قد أدى الى حدوث تغير اجتماعي حاد نسبيا ، والواقع ، أن الملامح البارزة للتجربة الاقتصادية والاجتماعية للنساء اللاتي اجتذبن اساسا للخزنة المنزلية وصناعة الملابس والمنسوجات قد كشفت في نقلهن مظاهر من التقاليد الريفية من قيم وممارسات وتراكيب اجتماعية الى الأوضاع المدنية والصناعية الجديدة .

وكانت اقتصاديات الأسرة هي اهم مجال مارست فيه المرأة نشاطها قبل نزوحها الى المدينة ، وما تلا ذلك . اذ كانت النسوة يمارسن في المناطق الريفية عددا كبيرا من المهام الاقتصادية داخل دورهن . ولربما عملن في مرحلة صباهن وبلوغهن الى كسب العيش لكسب اجر يضاف الى ايراد الوالدين . وقد يدخرن أيضا جانبا من اجرهن للاستعانة به في دوطة الزواج . وبمجرد زواجهن ، كن غالبا تواصلن العمل في دورهن وفي أعمال الحياكة والغزل ، الى جانب رعاية أطفالهن . وكثيرا ما اضطلمت المرأة بمسئولية ادارة المسائل المالية المنزلية .

ونقلت النساء بعض هذه المهام الى المدينة . اذ كانت اغلبيية النسوة من المشتغلات بالخزنة المنزلية وحياكة الثياب وصناعة المنسوجات صغيرات في السن ، ووحيدات . فقد كن من بنات أسر ريفية ، ومن ثم كن هن السهل اعفاؤهن من أعمال الفلاحة ، وانتقلن عن طريق الأنواع الثلاثة للعمالة الى حياة تسودها الأوضاع السائدة في « البيوت » . وكانت الفتيات

(*) نللا عن Comparative Studies in Society and History (Vol. 17)
من ص ٢٨ - ٤١ - ومن ص ٤٢ - ٦٤ تأليف Joan W. Scott, Louise A. Tilly

اللواتي يكنفن بأعمال من هذا القبيل يحولن جانباً من أجرهن الى البيت لكي يضاف الى دخل الأسرة . ولربما ادخرن بعض المال ، استعداداً لمواجهة مطالب الزواج في نهاية المطاف . أما نوع العمل الذي ينجز في الخدمة المنزلية أو في حياكة الثياب أو في النسيج فكان من نوعية الأعمال التي جرت العادة على نهوض المرأة الريفية به . وعندما تزوج الفتاة النازحة من الريف الى المدينة للعمل بها ، فانها تتخلي عادة عن العمالة . ولكنها لا تتوقف عن العمل توقفاً تاماً . فائناً، رعايتها لأطفالها ، فلا بأس من أن تشارك بالعمل نصف الوقت ، كان تشتغل في معظم الأحيان بالحياكة ، مما يساعدها على الاسهام في اقتصاديات الأسرة دون انقطاع عن أداء واجباتها المنزلية .

وعلى نهاية القرن ، تأثرت التجربة الاقتصادية وعمل النساء بالكثير من القيم الفردية المنزع ، ولكن التجربة البدئية للنسوة اللاتي اشتركن في ميلان العمالة عكست قدراً ملحوظاً من استمرارية القيم والممارسات التي انتقلت من الحياة الريفية الى حياة المدن .

كانت النساء اللواتي اشتركن بالعمل في أعداد كبيرة في القرن التاسع عشر ينتمين بأعداد كبيرة الى الطبقات العاملة والريفية . وشغلت معظمهن وظائف في الخدمة العامة وحياكة الملابس ، أو صناعة المنسوجات . وفي انجلترا ١٨٤١ وحتى ١٩١١ ، عكفت معظم النسوة العاملات على أداء الأعمال المنزلية ، أو على خدمة أشخاص آخرين . وفي ١٩١١ ، بلغت نسبة المشتغلات في الحمة المنزلية (بما في ذلك النسالات) ٣٥٪ وفي صناعة النسيج ١٩٪ وفي تجارة الملابس ١٥٫٦٪ . وفي ميلانو طبقاً لما جاء باحصاءات ترجع الى السنوات ١٨٨١ و ١٩٠١ و ١٩١١ ، تركز عمل النساء بالمثل على الاشتغال بالمنازل . وجاءت أعمال حياكة الملابس في المرتبة الثانية ، وركز العمل في النسيج بدرجة أقل مما حدث في انجلترا، وبالمثل في فرنسا، مع استبعاد الاشتغال بالزراعة ، كانت الميادين الرئيسية لاشتغال المرأة هي العمل في النسيج وحياكة الملابس والحمة بالمنازل . وفي فرنسا ، شغلت ٦٩٪ من النساء العاملات - خارج الزراعة - هذه الميادين الثلاثة ١٨٩٦ فكانت نسبة المشتغلات خادمت بالمنازل ٢٨٪ ونسبة المشتغلات بالحياكة وصناعة الملابس ٢١٪ والمشتغلات بالنسيج ٢٠٪ . وحدث تحول في النسب آنفة الذكر ١٨٩٦ . ولكن كان المجموع الكلي ٥٩٪ موزعاً كالآتي : المشتغلات بالمنازل ١٩٪ والحياكة ٢٦٪ والنسيج ١٤٪ .

وعلى الرغم من الاختلاف الكبير في معدلات التصنيع بين انجلترا وفرنسا وإيطاليا ، إلا أن الدلائل تشير الى أن النساء في الجالات الثلاث

لم تُشتركن في أعمال المصانع (باستثناء مصانع النسيج) - بأعداد كبيرة . والأرجح هو أن التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي صاحبته التطور الذي نجم عن ازدياد المدن وانتشار الصناعة قد خلقت فرص عمل في الغلب من القطاعات التقليدية ، التي شغلت فيها النساء أعمالا شبيهة بأعمالهن في المنزل . وضمت التغيرات الاقتصادية التي أدت الى ارتفاع نسبة العمالة بين النساء ، ما حدث من تصنيع للمنسوجات ، والتطور الذي أدى الى الاكثار من انشاء المدن ، وما يصحبها من اوضاع جعلتها تعمل في أعمال الانتاج وتسويق السلع الاستهلاكية ، وكمواقع لتشغيل الخاديات بالمنزل . وتضمن التوسع في انتاج السلع الاستهلاكية تزايد الصناعات الكبيرة للملابس بالقطعة ، وانتقل الانتاج من ورش الحرفيين الى بيوت المشتغلين بحياكة الملابس « المفصلة » . وخلق هذا التغير في عملية الانتاج فرص عمالة لأعداد كبيرة من النساء . وأدى ما أعقب ذلك من تدهور لهذه الطريقة في انتاج السلع الجاهزة ، ولاحال منتجات المصانع محلها ، بالإضافة الى تدهور صناعة المنسوجات وتقديم الصناعات الثقيلة ، أدى الى حدوث هبوط في اشتراك المرأة في القوة العاملة في البلدان الثلاثة التي أشرنا اليها .

ولم تكن الوظائف المسورة للنساء محدودة في عددها ونوعها فحسب . ولكنها كانت أيضا منعزلة ، بمعنى أنها كانت تقتصر في شغلها على النساء على وجه التقريب . وكانت النساء شاغلات هذه الوظائف عادة من صغيرات السن ، ومن غير المتزوجات ، ففي ميلانو ، كان ٧٥٪ تقريبا من النساء بين سن الخامسة عشرة والعشرين يعملن ١٨٨١ و ١٩٠١ . وانخفض عدد الاناث اللواتي تجاوزن سن العشرين المشتغلات في صناعة النسيج ، والملابس الجاهزة ، ويفترض أن هذا يرجع الى زواجهن عند بلوغ هذه السن ، وتوقفهن عن العمل . وكانت المهنة الانثوية الوحيدة التي بلغت نسبة لا بأس بها (٥٠٪ وأكثر) للعاملات اللاتي تجاوزن الثلاثين هي الخدعة بالمنزل . وكانت معظمهن من العازبات . وفي بريطانيا العظمى ، يلاحظ وجود أنماط نسبية مماثلة في البيئات المسورة المتفرقة ، إذ كانت سن أغلب النساء العاملات في منازل القطن بلانكشير ١٨٣٣ (ما بين ١٦ و ٢١) . ولم يتجاوز عدد المتزوجات بينهم ٢٥ ٪ في مقاطعات لانكشير ١٨٤١ ، ويزعم هويت حدوث زيادة في النسبة اما بين المتزوجات . أو الأراامل بين العاملات في منازل القطن ارتفعت أحيانا في تسعينات القرن التاسع عشر ، ثم انخفضت بعد ذلك . أما العاملات الأقل تخصصا في لندن في ثمانينات القرن التاسع عشر ، فقد بلغت سنهن أساسا بين ١٥ ، و ٢٥ سنة .

وعندما اشتملت أعداد الاحصاءات في آخر الأمر على بيانات عن الحالة الاجتماعية (الزواج) لوحظ بعض اختلافات كبيرة بين مختلف

البلدان • ففي ١٩١١ ، بينما بلغت نسبة العاملات بين النساء العازبات في بريطانيا ٦٩٪ ، لم يزد عدد العاملات من المتزوجات عن ٩٦٪ . أما في فرنسا ١٨٩٦ ، فكان بها ٥٢٪ من النساء العازبات يعملن ، و ٢٨٪ من المتزوجات • وعلى الرغم من اتصاف الأدلة المتوافرة لنا بأنها انطباعات متناثرة ، الا أنه يبدو أن قلائل من النساء قد ظلن يعملن بعد انتشار التصنيع وتقدمه (على الأقل في الفترة السابقة لسنة ١٩١٤) • وهكذا كان في بريطانيا البلد الأكثر تقدما في الصناعة ١٩١١ أدنى نسبة من النساء المتزوجات العاملات • أما فرنسا ، وفيها كانت الزراعة والصناعة خاضعة للتنظيم على نطاق أضيق من الحال في بريطانيا ، فكان فيها عدد أكبر من النساء العاملات في سوق العمالة •

فلماذا كانت النساء تعملن في القرن التاسع عشر ؟ ، ولماذا كانت الغلبة للصغيرات في السن والعازبات في العمالة الأثوية ؟ للجأبة عن هذين السؤالين لابد أولا أن نفحص العلاقة بين هؤلاء النسوة وعائلتهن الأصلية (العائلات التي كن تنتمين إليها لدى مولدهن) ، وليس عائلتهن بحكم الزواج ، أو العائلات التي تكونت بعد انجابهن • وعلينا أن نتساءل (ليس فقط عن طبيعة نظرة الأزواج الى اشتغال زوجاتهم) وانما أيضا عما دفع الأسر الى الزج بفتياتهن الى سوق العمالة كعاملات في حياكة الملابس أو خدمات المنازل •

لقد كان آباء وأمهات أمثال هؤلاء الفتيات أثناء فترة التصنيع غالبا من القرويين والقرويات ، وفي حالات أقل من العمال بالمدن • وعنما نفحص الأصول الجغرافية والاجتماعية لخدم المنازل اللاتي تمثلن أكبر نسبة في مجموع النساء العاملات ، سيبين الأصل القروي واضحا • إذ كان ثلثا جميع خادمت المنازل في إنجلترا ١٨٥١ ، من بنات عمال يعملون في الريف • وليس لدينا أرقام عن مجموع المشتغلات في فرنسا ، وان كانت الدراسات المحلية توحى بتمائل الأنماط • فمثلا لقد اهتمتى شاتلين(*) في دراسة لميلون الى أنه ما بين ٥٤٪ من خادمت المنازل (١٨٧٢) كن اما نازحات من مناطق قروية أو أجنبيات • وقدرت إحدى الباحثات في بحث أجرته عن فرساي في الحقبة الواقعة بين ١٨٢٥ و ١٨٥٣ ، عدد النساء الخادمت من بنات الفلاحين بـ ٥٧٫٧٪ • وفي بوردو ، بينت دراسة مماثلة أن مجموعهن ٥٢٫٨٪ • وفي ميلانو في نهاية القرن ، كان الأبعد احتمالا هو أن تكون الخادمت منحدرات من أبوين ترجع أصولهم الى المدينة • ولنحاول الآن تمثل التجربة التاريخية للنساء العاملات ابان المراحل البكرة للتصنيع • فلما كانت الاكثرية من المنتميات أصلا الى الريف ، فاننا سنبدأ

بفحص اقتصاديات القرية أو اقتصاديات الأسرة التي دفتها قيمها
واحتياجاتها الاقتصادية الى الزج بيناتها الى سوق العمالة .

ولقد عرض المعقبون على أحوال العديد من مختلف المناطق في أوروبا
أوصافا مماثلة للتنظيم الاجتماعي للقرى . والظاهر أن هناك اتفاقا بين
علماء الانثروبولوجيا والمؤرخين الاجتماعيين على الاعتقاد بأنه بغض النظر
عن ناحية الانحدار من الريف « فإن الفلاحين يمثلون وحدة اجتماعية مسبقت
الصناعة ، و نقلت الى المجتمع المعاصر خصائص ترجع الى تركيبة ثقافية
 واجتماعية واقتصادية أقدم وأبعد اختلافاً . ويعد أصل التنظيم هو الأسرة ،
« التي ساعدت تضامنها على التزويد بالاطار الأساسى للتعاون المتبادل
 والتوجيه واعطاء الصبغة الاجتماعية » . ويتركز عمل الأسرة عادة في الحقل
الذى تملكه الأسرة ، ويعتقد أنه يخص جماعة من الأشخاص أكثر من انتمائه
 لشخص بفرده . « فهناك وحدة خفية تجمع بين الفرد والأسرة والحقل .
 والملكية الفلاحى هي بحكم الواقع ملكية أسرية ، يقوم فيها رأس الأسرة بدور
المدير أكثر من تمثيله دور مالك أرض الأسرة » .

ونحن تصادف ترديدا لأوصاف فلاحى أوروبا الشرقية عند ميشيل
أندرسون عندما قارن الحياة الفردية بلانكشير بالحياة الفردية في إيرلاندا
في بواكير القرن التاسع عشر ، وأشار الى أنه فى كلا الحالتين كان « أساس
التضامن الأسرى الوظيفى هو تبادل الاعتماد المطلق بين أعضاء الأسرة ،
 بحيث لا يتصور الآباء أو الأبناء وجود بدائل للأسرة كمصدر للتزويد
 بعدد مهم من الاحتياجات الضرورية . وتزيد الأدلة المستقاة من إيطاليا هذا
 النمط . وعلى الرغم من أن لومبارديا فى أواخر القرن التاسع عشر
 كانت تمثل نوعا من الاخوانية (*) (يعنى الحالة التى يشترك
 فيها الاخوة داخل الأسرة فى العيش والعمل فى الأرض سويا)
 التى كانت بمثابة بديل شائع لأصغر صورة من صور الأسرة ،
 الا أن الأسرة المألوفة كانت هي الوحيدة الأساسية للإنتاج . ويساهم
 كل عضو من أعضاء الأسرة بما فى مقدوره الاسهام به من عمل
 فى الحقل . وفى حالة النساء والنشء ، بالعمل فى مناطق مدنية قريبة
 أو فى مصانع النسيج بالريف . وتحول أجورهم وأجورهن الى رأس البيت
 أو الأسرة . وفى حالة الاخوة الذين يعيشون فى بيت واحد ، يعهد للاكبر
 سنا بدور الرأس المدبرة ، والعناية بالمسائل المالية وعلاقات التعاقد ، لصالح
 الكل . ووصف جوييس (**) فى دراسة حديثة للأوضاع فى نورماندا فى
 القرن الثامن عشر التطور التدريجى للأسباب التى كانت تساق عند طلب
 الزواج ، عندما كانوا يلجأون الى اتمام اجراءاته فى الكنيسة . ففى نهاية

Frererche

(*)

Gouesse

(**)

هذا القرن ، ازداد شيوع عبارات مثل « سعي وراء السعادة » أو الرغبة في العيش حياة هنيئة • ويرى جويس ان اختلاف الكلمات المستعملة ربما كان مسألة سطحية • أما ما عنته جميع هذه الأقوال - رغم أن قلائل قد بينوا ذلك صراحة - فهو أن الشخص يتزوج لكي يعيش • فالزوجان يمثلان جماعة عمل ، أي أصغر وحدات العمل • وفي بريطانيا في القرن التاسع عشر « كان جميع العاملين في الحقل يؤلفون جماعة عمل ، يرتبط كل منهم بالآخر برابط أشبه بالرباط الذي يجمع طاقم السفينة » •

وعلى الرغم من اختلاف أنظمة الميراث واختلاف مساحات الأرض المسورة ، فإن نظرية الاقتصاد الفردي التي وضعها شايانوف لروسيا في القرن التاسع عشر مازالت صالحة للتطبيق في حالات أخرى • وأساس هذا النظام هو الأسرة الروسية ، أو إذا توخينا الدقة قلنا انه بيت الأسرة في روسيا ويعنى (جميع من يأكلون في طبق واحد) • ولهذا البيت الأسرى دور مزدوج بوصفه وحدة إنتاج واستهلاك • إذ تتركز دوافع أعضائه - بعكس الأهداف الرأسمالية - « على توفير احتياجات الأسرة أكثر من تركها على تحقيق الربح » • وتلوم المشكلة الأساسية للأسرة حول تنظيم عمل أبنائها لتدبير ميزانيتها السنوية وحول رغبة واحدة لادخار رأس المال، أو استغلاله ، إذا سمحت الظروف الاقتصادية بذلك •

ولبناء الأسرة ، أو بيت الأسرة واجبات محدودة واضحة تستند أولا - على أعمار أبناء الأسرة وبناتها وموضعهم وموضعهم في الأسرة • ثانيا - على ذكورتهم أو أنوثتهم • إذ لا يقتصر الأمر على تخصيص مهام مختلفة لهم ولهن • فهناك اختلاف في مكان العمل الذي يخصص لكل جنس ، ففي أغلب الأحيان - وإن كان هذا ليس دوما على الإطلاق - يعمل الرجال في الحقول ، بينما تدير النساء البيت وتتولين تربية الأنعام ووعايتها ، وتشرفن على الحديقة ، وتتولين تسويق الفائض من الناتج اليومي والدواجن والخضروات • ولديهن عمل موسمي أيضا في مواسم الزراعة والحصاد • وعبر أحد عمال البناء في إحدى قرى فرنسا عن الشروط التي يرغب توافرها في زوجته في العبارات الآتية :

« نحن نعرف أن هناك بلدانا تتزوج فيها المرأة ، وتأمل أن يقتصر عملها على العمل بالبيت ، غير أن فرنسا لا تعرف أي شيء من هذا القبيل ، والأمر على عكس ذلك ، فزوجتي تتماثل هي وباقي الزوجات في الريف ، لأنها نشأت على العمل في الحقل من الصباح الباكر حتى المساء • ولم تتناقص مقطوعة عملها بعد زواجنا •• » •

وليس من شك أن زوجات البنائين من أمثال زوجة صاحبنا البناء الذي تحدثنا عنه ، كان لهن وضع خاص • فبعد أن رحل أزواجهن لفترات زمنية

طويلة لبناء المنازل في ليون وباريس ، فلقد اضطرون لاداء جميع المهام الزراعية اليومية ، لان نظام تقسيم العمل في قريتهن كان يقضى بنهوض النساء بأغلب الواجبات الزراعية ، واشتغال الرجال بدور الحرفيين في المدن . وكان عمل النساء في الحقول بالغ الأهمية مما دفع أسرة أحد سكان القرية .في مناسبة ما الى محاولة تزويجه بفتاة كانت أمها أرملة ، واعتقدت الأسرة أن تحقيق هذه الفكرة سيكسب حقلها جهد عرق اثنين بدلا من واحدة .

على أنه رغم تفرد المثل الذي ذكرناه ، إلا أن القاعدة السائدة في الاقتصاديات القروية كانت تنص على اضطلاع النساء بالعمل في الحقل . ويبين من تقرير أعمال الفلاحة في البرويج(*) في منتصف القرن التاسع عشر عن الحاجة لمجهود النساء كعاملات تتمتعن بخبرة فائقة ، وغالبا ما كان الشباب يختار نساء يكبرونهم سنا كزوجات . وكتب زونت : « يعتمد التقدم المادى للأسرة على الزوجة بقدر اعتماده على الزوج » . وعندما وصف خردريك لى بلاي(**) عادات الزواج عند القرويين السلافيين لاحظ : « ان الفلاح يراعى عند اختيار الزوجة صلاحيتها لزيادة عدد الأيدي العاملة في الأسرة » .

ولم يقتصر عمل المرأة على الحقل ، بل كن تقمن بمختلف الأعمال التي تعتمد على ما باستطاعتن تأديته . وامتد نشاطهن في أغلب الأحيان فشمل مهمة توفير الغذاء أو القوت للبيت وتربية الماشية وصناعة الملابس . وبالاستطاعة العثور على أسانيد مؤيدة لذلك في جميع الدراسات المعتمدة على المشاهدات الخاصة ، والتي تحدثت عما يجرى داخل الأسرة مثل كتاب لى بلاي ، الذى روى حكاية زوجة عامل في مزرعة للكروم « تركزت مهمتها الأصلية على رعاية البقرة التي تملكها الأسرة . فكانت تجمع الدريس وترعاها ، وتحمل لبنها الى المدينة لبيعه . وهناك زوجة أخرى « كانت تعمل مع زوجها أثناء مواسم الحصاد ، وتفعل الملابس ، وتشارك في أعمال أخرى للفلاحين وملك الأراضى فى المزارع المجاورة » . وكانت تنسج الكتان أيضا لأسرتها ، وتبيعه فى السوق . واتجهت نساء أخريات الى حياكة القفازات أو الملابس ، وركزت بعضهن على أعمال الترميض . وفى المناطق المحيطة بمدينة ليون الشهيرة بصناعة المنسوجات الحريرية ، تولت المرأة عملية تربية دودة القز ، وشاركت فى غزل الحرير . وفى لومبارديا بايطاليا شغلت المرأة بالمثل فى عملية تغذية دودة القز فى موسمها ، فى نفس الوقت الذى كانت تؤدى فيه واجبها فى البيت الأسرى . وتعتمد الأعمال من هذا القبيل من الظواهر التقليدية لتعزيز دخل الأسرة .

Eilert Sundt

(*) تقرير

(٦ أجزاء) Les ouvriers européens — Le Play. (١٠٠)

ويصر لى بلاى على ادراج جميع أنشطة أبناء الأسرة فى بحوثه الخاصة بمواردها المالية ، استنادا « الى اسهام جميع الأنشطة الصغيرة التى تنهض بها الأسرة فى استكمال دخل عائلتها الأساسية » . وكثيرا ما يلاحظ اضطلاع النسوة « بمهام أشق من المهام التى تعهد للرجال ، وحرصهن على تحقيق الرفاهية للأسرة » وغالبا ما يثبت وجود المرأة الفارق بين الاقتراب من الجوع فى حالة عدم وجودها ، وتوفير الحياة الكريمة نتيجة لمشاركتها . وقدم بنشباك(*) تقريرا أعدته احدى الابريشيات عن المرأة القروية، وعن كيف كانت تعجز عن العثور على عمل أثناء الأزمات « مما أصابها بحالة من اليأس والشعور بالعجز لعدم قدرتها على الاسهام بجهد يساعد على تعزيز دخل الأسرة ، والاحساس بالمرارة ، لأنها لم تقدم لزوجها أية خدمات خلاف رعايتها لأسرته فحسب » .

والظاهر أن موقفا مماثلا قد ساد بين الأسرة غير المشتغلة بالزراعة ، وبعض الأسر المقيمة فى المدن . والواقع أن ما ذكره شايانوف عن الاقتصاد الريفى يبدو مناسباً للتعريف بالخصائص المميزة لتنظيمات الطبقة الاجتماعية فى البيئات السابقة للصناعة . وتحدث بيتر لاسلت(**) عن بيت الأسرة كمركز للانتاج ، عندما لم يكن محل العمل منفصلا عن البيت ، وكان البيت هو المقر الدائم لجميع أفراد الأسرة . فمثلا فى بيت أحد النساجين ، كان الأطفال يتولون عمليات التمشيط والتنجيد ، بينما تقوم الفتيات الأكبر سنا والزوجات بعمليات الغزل ، ويتولى الأب عمليات النسيج . وفى بيوت العمال العاملين بالمدينة كثيرا ما يحدث تقسيم عمل مماثل . فمثلا عند عمال المغاسل فى باريس ، يتوقع قيام جميع أفراد الأسرة بالعمل ، وان كانت النسوة تنفردن بمسئولية « تحضير الصابون » والكى . والواقع أن هذا النوع من المهام ، كان يؤدى على خير وجه سواء تولاه الرجال أو النساء . وكثيرا ما كان الوالدان يوصيان فى وصيتهما بأن تؤول محالهم وزبائنهم لبناتهم ، مثلما يوصون بتوريثها لأبنائهم . وتساعد زوجات الحرفيين أزواجهن أحيانا فى عمليات الحياكة وصنع الأحذية والخيازة ، وأحيانا كن يدرن المحلات ويتولين بيع السلع واجراء الحسابات . وعملت زوجات العاملين المهرة فى أدوات القطع كوسيطات بين أزواجهن وأرباب عملهن . فلم يقتصر دورهن على التقاط الأدوات لأزواجهن عند عملهم بالبيت ، ونقلهن للمنتجات بعد انتهاء العمل فيها الى صاحب العمل ، بل كن تتولين عمليات مثل التفاوض فى أمور كسحن البضائع والأجور .

Pinchbeck.

The world we have lost.

فى كتاب

Peter Laslett

(*)

(**)

وعندما يكلف الزوج بعمل خارج داره ، كانت النساء تضطلعن بأعمال خاصة بهن . وتماثلت زوجات العمال في المدينة هن ونظرائهن في الريف . فكن يساهمن في اقتصاديات الأسرة ، كالعناية بزروع الخضروات وتربية المواشى - غالبا بعض الخنازير والدواجن - وتسويق الفائض . واقامت بعض النسوة مشارب في دورهن ، كما لجأت أخريات لبيع الأغذية والمشروبات من اعدادهن خارج البيت . واتجهت زوجة أحد صانعي السكاكين في مدينة شيفيلد «الى تحضير شراب مخمر» يدعى بوب ، كانت تصنعه في زجاجات وتبيعه خلال شهور الصيف لسكان المدينة . هذه أمثلة من بواكير القرن التاسع عشر ، ولكن ليس كلارك اشارت الى وجود عمليات اشتغال بالبستنة وتجارة الثياب في انجلترا في القرن السابع عشر . وذكرت مثلا مناسبا آخر لامرأة فقيرة « كانت تبيع المواد الغذائية المرصدة للتلف أثناء انتقالها من بيت لآخر » . واستمرت هذه الممارسات في القرن التاسع عشر . وذكر لى بلاى تفاصيل عن امرأة المانية متزوجة من أحد عمال المناجم ، كانت تحمل المواد الغذائية على ظهرها وتزور المدينة مرتين أسبوعيا ، حيث تشتري الدقيق والبطاطس . الخ . ثم تحمل هذه الأصناف على ظهرها وتطوف بها في أنحاء كثيرة (١٠ كيلومترات) ، وتخصص جانبا من هذه الأغذية لبيتها، وتوزع جانبا آخر على أترياء المدينة، ثم تبيع ما تبقى في السوق مقابل ربح بسيط . وابن القرن الثامن عشر في باريس وبوردو وبين الطبقات الشعبية ، « كان الدور المهم للنساء في الاقتصاد المنزلي مقبولا ومعترفا به . وامتهنت نساء كثيرات بعض المهن والحرف لكسب دخل اضافي . وكن يعملن كخدمات وغسالات وحائكات ، ويدرن الحانات ، ولا بأس من العمل أحيانا كمحلات تحملن أحمالا ثقيلة جملة مرات في اليوم الواحد . ولم يكن لديهن أى مانع أيضا يحول دون اشتغالهن بالتسول والتهريب اذا دعت الحاجة لذلك » . وكان دور الأم في اقتصاديات الأسرة بالغ الأهمية . « فربما أدت وفاتها أو اصابتها بالمعجز الى اضطراب الأسرة الى اجتياز الحاجز الضيق - وان كان عظيم الأهمية - بين الفقر والاملاق . » وكانت الأعراف الشعبية التي تقدر قيمة عمل المرأة عظيمة الأثر خلال معظم القرن التاسع عشر .

وثبت دور المرأة وعدم امكان الاستغناء عنه من قدرة الأرامل في عدة مجتمعات على الاشراف وحدهن على ادارة أية مزرعة (مع الاستعانة بأفراد قلائل لقاء أجر) ، في الوقت الذي شعر فيه الرجال الأرامل بأن هذه المهمة تكاد تكون مستحيلة ! . وقد ثبت ذلك على نحو أوضح أيضا في فترات الشدة المالية . وتصر هانتون(*) على القول بأن النساء كن أول من يشعر

بالآثار المادية للحرمان ، ويرجع ذلك أولا الى كونهن يحرمن أنفسهن من الغذاء في سبيل اطعام باقي أفراد الأسرة . وتحدث آخرون عن مواقف مماثلة . ويمثل التقرير الذى كتبه أندرسون عن لانكشير ما حدث أيضا فى إيطاليا وإنجلترا وفرنسا : « فمن المشاهدات التى رواها الأطباء حالة تعرض الأبوين للتدهور الصحى بصفة عامة أكثر من اطفالهما . وكانت الأمهات - بوجه خاص - يصبن بشحوب اللون وفقدان الكثير من أوزانهن نتيجة للجوع » .

وساعد الدور الذى نهضت به النساء عادة فى اقتصاديات الأسرة على منجهن قدرا أكبر من القوة داخل الأسرة . وتكمل المصادر التاريخية المتناثرة أبحاث علماء الأنثروبولوجيا المعاصرين . ويبين من جميع هذه المصادر أنه بينما اتخذ الرجال الصدارة فى الإشغال العامة ، كانت الغلبة للنساء فى المجالات المنزلية الداخلية ، بل وتشير هانتون الى تمتعهن بالسيادة الاجتماعية داخل الأسرة . وتعد اشارتها صدى لمشاهدات لى بلاى الرائدة - فى دراسته المستفيضة للأسرة الريفية والحضرية للطبقات العاملة (ما بين أربعينات القرن التاسع عشر وسبعيناته) شعر بالانبهار لدور المرأة : « النساء يعاملن بكل تبيجيل واحترام . وكثيرا ما يتمتعن بتفرد كبير فى المسائل الأسرية » (*) ولاحظ مدى جديتهن واجتهادهن فى العمل دون انقطاع أكثر من أزواجهن . ويستخلص من ذلك « مدى تأثير عملهن وجهودهن وذكائهن فى التأهيل لتحمل أعباء الأسرة .. » .

ويرجع سر نفوذ المرأة ، بعد قصرها بطبيعة الحال على ميدان الأسرة ، الى ادارتها لبيت الأسرة . وفى بعض المناطق ، كانت زوجات الحرفيين يسكنن دقاتر للحسابات ، مثلما تفعل زوجات أو بنات المزارعين ، واكتسبن الدراية بآفة الأرقام من الماهن بعملية امسك حسابات بيت الأسرة ، وباعتبار المرأة كانت مسئولة عادة عن عمليات البيع الخاصة بالبيت فى السوق ، فانها كانت تتولى عمليات التجارة أيضا . وعلى الرغم من انصاف عمليات الحساب « النسوية » ببداوتها ، الا أنها كانت وسيلة للتعامل مع العالم الخارجى . وكثيرا أيضا ما كانت الزوجات العاملات تسيطرن على محافظ الأزواج ، وتصدرن القرارات المالية ، بل وتقررن المقدار الذى يسمح به « كمصروف » للزوج للصرف منه على النيذ والطباق ، ولا يعد وصف لى بلاى لما كانت تفعله زوجة احدى النجارين الباريسيين خاصا بفرنسا وحدها :

« كانت قبض مرتبة الشهري بمجرد استلامه له . وتتولى كل صباح اعطاء زوجها ما يلزم من مال لشراء ما سيتناوله من وجبات خارج المنزل . وتوكل لها وحدها عمليات ادارة البيت وطريقة التصرف في موارد الأسرة طبقا للعادة السائدة بين العمال الفرنسيين » .

والحق ، لقد كانت هذه الممارسة وثيقة الصلة بدور الزوجة . ويشهد بذلك أنه بعد حلول المصنع محل البيت كموقع لعمل الحرفيين دأب بعض أصحاب المصانع - أحيانا - على دفع أجور الأزواج «لزوجاتهم» . « والظاهر أن الزوجات سواء كن في اللورين أو بريتاني أو لانكشاير ، أو بين عمال المناجم في شمال انجلترا أو الفلاحين أو عمال لندن كن يسيطرن على الموارد المالية للأسرة (*) ، ويتحكمن في بعض جوانب من القرارات الأسرية . فالرجل يزهو ويتبختر ويتراش الموائد ويصدر الأوامر ، أما القرارات المهمة كشراء مزرعة أو بيع بقرة أو دفع دعوى على الجار واختيار زوج الابنة ، فمن الأمور التي يجب أن تتم عن طريق (الباترونة) ! . أو كما لاحظ أحد المزارعين المتقاعدين في قرية فرنسية لأحد علماء الأتروبولوجيا الزائرين « العصمة دائما في يد الرجل . ليس من شك أن هذا هو ما يقوله القانون . أما ما يجري في الواقع فمسألة أخرى . ولكنك لن تجد لهذه الناحية أي ذكر في القانون المدني » (**)

وعن المهم أن نؤكد هنا أننا نتحدث عن النسوة المتزوجات . فكل ما تمتعت به هؤلاء النسوة كان من نتائج اشتراكهن بحكم كونهن زوجات في الجهد المتبادل والدور المميز الذي اضطلعن به اعتمادا على جنسهن . ولقد انحصر تأثيرهن على المجال المنزلي ، وإن كان هذا المجال قد اتسع الى حد كبير في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للأسرة . وفي هذا الموقف ، يصح القول بأن النساء قد اشتركن بدور فعال بعملهن في مؤسسة الأسرة .

ولقد شاركت الفتيات في الحياة الاجتماعية منذ وقت مبكر في أسر الطبقات الدنيا ، للنهوض بمسئوليات الأسرة والعمل « فالفتيات تبدأن المشاركة بمساعدة أمهاتهن في كل أعمالهن بمجرد سماح قوتهن البدنية بذلك . وكثيرا ما كن يخرجن من بيوتهن للختمة في أعمال الفلاحة أو للختمة بالبيوت . وهناك أخريات تتلمذن على بعض النساء وتعلمن منهن الغزل والحياكة . وفي المناطق الريفية بسويسرا ، حيث كانت تمارس هناك أيضا صناعات الاكواخ ، كانت فالفتيات تنهضن بدور مساعد مرغوب

Chef d'exploitation
Code civil.

(*)
(**)

الى حد كبير . فكان بالمقهور اسناد عمليات الغزل والنسيج اليهن أثناء اشتغال الأم بأعمال البيت . « وكن يسلمن مستحقتهن - كمسألة مفروغ منها - للوحدة الاقتصادية للأسرة » . « اذ كان الحفاظ على ملكية الأسرة له الصدارة على السعادة الفردية » . وتعلم الفتاة منذ نعومة أظافرها شعارا يعرفها « أن عمل المرأة لا يمكن أن ينتهى أبدا » ، مهما كان العمل الذى ستتولى أدائه . ومن ثم كانت تبدي استعدادا للعمل بجد ونشاط طيلة حياتها تقريبا . ولا بد أن تكون نصائح الأبوين قد رددت هذه الكلمات الموجهة الى فتاة صغيرة وكتبت ١٧٤٣ : « عليك أن لا تتوقعى الزواج اذا كنت فى حالة لا تجددين فيها أنت ورجلك فرصة للعمل - فالأحق وحده هو الذى يرضى عن اتخاذ زوجة تعيش عالة عليه ، ولا تساعد بعملها فى سبيل الأسرة » . ومن هذا يبين أن ما كان يتوقع هو اشتراك النساء بالعمل ، وتمثل الأسرة وحدة قائمة على العلاقة الاجتماعية والاقتصادية . معا . هذه اذن هى قيم الحضارة التى اعتنقتها العائلات التى كانت تزج بناتها للعمل فى بواكير مراحل التصنيع :

ان عمل المرأة يعزز اقتصاديات الأسرة . وبالمقهور تعديل أدوارهن - مثلما يحدث فى حالة الأزواج والأخوات والآباء - وضبطه لمواجهة الظروف العصبية وتبديل الأحوال . وهنا يوسعنا أن نستفيد مما ذكره شايانوف عن الأسباب التى تؤدى الى دفع المرأة للعمل :

« عندما لا يكون فلاحنا فى حالة تساعده على تدبير أموره بنفسه ، ولا يكون قادرا على تولي عملية بيع جهده نظير مقابل يفي باحتياجاته ، والحصول على ما يعتقد أنه أوفى ما يستحق ، فانه يتخلى مؤقتا عن عمله الخاص ، ويتحول ببساطة الى أجير يعمل تحت امره آخرين ، وبذلك يتفادى التعرض للبطالة » .

ان هذا يعنى أن العائلات التقليدية كانت تستعين بشتى أنواع الاستراتيجيات للنهوض بصالح الوحدة الأسرية . فأحيانا كانت الأسرة عن بكرة أبيها تعمل كأجيرة للعمل فى مزارع الغير . وفى أحيان أخرى ، كان الرجال يضطلمون وحدهم بهذه المهمة . وفى حالات نادرة ، كان يمهّد بذلك الى صبي أو أكثر من صبيان الأسرة . وغالبا ما تكلف الأمهات فى أوقات الشدة أو الأزمات الاقتصادية بأعمال اضافية فى الصناعات المنزلية . وهذا يفسر لماذا كانت مثل هذه الأعمال فى الأغلب موسمية ، أو بصفة فردية . أما عادة ارسال الاولاد ذكورا واناثا للخدمة فى حقول أخرى ، أو للعمل فى مدن قريبة ، فانها وسيلة أخرى ظهرت فيما بعد ، أى وسيلة لمد نشاط الأسرة - بصفة مؤقتة - الى ما هو أبعد من مواردها المحدودة لزيادة دخلها . وبذلك تحقق التأمين الاقتصادى الذى يساعدها على البقاء .

وتأثرت بلدان أوروبا (في أواخر القرن الثامن عشر في إنجلترا وبعد ذلك في فرنسا وإيطاليا) بما حدث من تغير كبير في البنيان الاجتماعي ، مما أدى الى اتباع هذه الاستراتيجيات ، والى ابتكار سبل أخرى (لمواجهة الضغوط والفرص الجديدة) لتحقيق الأهداف التقليدية للاقتصاد الأسرى . ففي غرب أوروبا في القرن التاسع عشر ، أدى ازدياد عدد السكان الى حدوث انكماش في مساحة الأرض في بعض المناطق . وفضلا عن ذلك ، فقد ترتب على الزراعة على نطاق واسع ، وترشيدها ، تعريض المناطق المنتجة انتاجا عشوائيا لشدة الضغوط التنافسية . وأدت الأشكال والطرائق الجديدة للانتاج الصناعي أيضا الى احداث تحول في موضع وطبيعة عمل الحرفي في الريف والمدينة . وفي هذا الموقف ، تزايدت حاجة أبناء العائلات – وبصفة خاصة الصغار – الى العمل خارج البيت . وأدى تزايد الأشغال المنزلية المرتبطة بمصانع النسيج المحلية بالريف ، وازدياد عدد سكان المدن (وما صحب ذلك من ازدياد في الحاجة الى سلع استهلاكية وخدمات داخلية) الى خلق فرص عمل جديدة .

ففي لومبارديا على سبيل المثال ، وهي مقاطعة في شمال إيطاليا عاصمتها ميلانو ، مارس الفلاحون منذ أمد بعيد العمالة الزراعية المكثفة على أراض مستأجرة ، وإبان القرن التاسع عشر ، تزايد عدد الفلاحين غير القادرين ، على اعالة أسرهم المتنامية على هذه الأرض المستأجرة ، فلجأوا الى خيارات مماثلة للوسائل التي اعتادوا اتباعها . فتوجهت النسوة والفتيات اللواتي كن أقل انتاجية من الرجال للعمل بمصانع الحرير القريبة من الريف، وقصدت أخريات ميلانو للعمل كخدمات بالمنازل ، أو بمصانع الملابس الجاهزة ، فيما كان بالضرورة أعمالا انتاجية هامشية قليلة الأجر ، واستغلالية . اذ كان الهدف هو الحصول على اى قدر من المال لارساله للبيت .

وظهر نوع آخر من الاستراتيجية في زيورخ بسويسرا . تحدث عنه رودولف براون . ففي الأصل كان المتبع عند الفلاحين القيمين بالأرض هو اشتراك جميع أبناء الأسرة في العمل لتحقيق هدف واحد يلتقى عنده الجميع ، أى كخدم أو جنود أو أشباه خدم في بيوت أقاربهم الذين ورثوا الأرض ، ويضاف الكسب من خضيلة العمل الى دخل العائلة . والحفاظ على الملكية له الصدارة فوق تحقيق سعادة الأفراد . فلم تعد مسألة من يتزوج من ، وفي أى سن ، مسألة تخضع لقرار الفرد ، بقدر كونها من المسائل التي يجرى الاتفاق بشأنها داخل الأسرة . وتسببت الضغوط الديموجرافية والاقتصادية في تجريد بعض العائلات مما تملك من أرض ، واضطر آخرون الى الاشتغال بأعمال اضافية الى جانب الاشتغال بالزراعة ، كالمعمل مثلا في الصناعات الريفية ، وبخاصة مصانع النسيج . وفي هذه المناطق ظهر

ما يدعى نظام «الراست» (*) ، ويعنى هذا المصطلح ، دفع الأولاد قدرا من المال لذويهم نظير السكن والأقامة . وفي الحالات التي لا يعملون فيها في البيوت ، ولكنهم يشتغلون بأعمال الغزل في أحد البيوت الأخرى ، كان الأولاد يدفعون «الراست» لربة البيت . ولقد نظر الى هذا المبلغ ، والى هذا الاجراء كمسألة مسلم بها . واستقر هذا النظام ، واتخذ صيغة ثابتة ، وتغير حجم الاسهام المحدد بتغير علاقات العمل بين أبناء الأسرة ، ويخبرنا براون بحدوث تصدع في التعاون الأسرى نتيجة لما حدث من تحولات من هذا القبيل . وليس من شك في أنه أصاب الرأي . ولكن النقطة المهمة في المثل الذي ضربته زيورخ ، وما أرادت اثباته ، هي ما يجرى عند حدوث تحولات في القيم والممارسات القديمة من مؤثرات تستوجب احداث تكييفات استراتيجية تتواءم والأوضاع الجديدة .

ويمقدورنا الاتيان بأمثلة ماثلة عن حالات الأسر غير المشتغلة بالزراعة أيضا . فلقد أدت الثورة الصناعية الأولى في انجلترا الى احداث تصدع في الوحدة المحلية للبيت ومقار العمل ، بعد نقل عمليات الغزل ، ثم النسيج بعد ذلك ، الى المصانع . غير أن دراسة سملسر(**) للتغير الاجتماعى فى الثورة الصناعية قد بينت أنه فى حالة المصانع الأولى للنساجين، انتقلت الأسرة بكاملها كوحدة عمل الى المصانع . وسمح الرؤساء للنساجين العاملين باستئجار معاونيهم . واختار النساجون زوجاتهم وأولادهم وأقرب المقربين وأقارب صاحب العمل . وانضم العديد من الأولاد - وبخاصة الأصغر سنا - الى المصنع بعد الحاح من آبائهم . وبطبيعة الحال ، لم يستمر اتباع اقتصاديات البيت فى المصانع فى بواكير التصنيع ، بعد عشرينات القرن التاسع عشر ، بالنظر الى ما طرأ على العمل من زيادة التخصص والتنوع . غير أن عملية التوافق المبدئى والتكوين الاقتصادى المتغير ، قد أدت الى اتباع القيم القديمة بعد تكييفها لى تتواءم هى والأوضاع الجديدة .

ومما يثبت ذلك على أفضل وجه فى حالة النساء العاملات ، العازبات اللاتي مثلن السواد الأعظم من قوة العمالة والنساء المتزوجات العدييدات أيضا . فقبل القرن التاسع عشر بأمدة طويل ، كانت الأسر الدنيا ترسل بناتها للعمل . واستمرت هذه الممارسة والقيم والأسس التي ارتكنت عليها ، كما يبين من وجود أعداد كبيرة من النساء العازبات العاملات ، وأيضا من متوسط أعمار القوة العاملة من الاناث ، ومن أنواع العمل التي كانت تسند لهؤلاء النسوة ومن سلوكهن الفردى .

Rastgeben

(*)

Neil Smelser كتاب Social Change in Industrial Revolution

ويستبدل من تكون القوة العاملة للآلات في أوروبا بصفة أساسية من صغار النساء العازبات - أو الفتيات بلغة معاصريهم - على استمرار بقاء القيم الأسرية . فكانت الإبنات يتكبدن نفقات طائلة للإقامة في بيوت الريف والمدن . ولعل هذه المبالغ كانت تفوق ما ينفق على الأمهات . وكان تعتمدن على عمل الأسرة وإخواتهن . وعندما انتقل العمل إلى خارج المنزل، ولم يعد استمراره مؤكداً ، اقتضى صالحو الأسرة تشغيل بناتها خارج البيت . ونظر إلى الخدمة بالبيوت ، أي الملاك الرئيسي لمعظم القرويات كميكان تقليدي لممارستن للعمل . وكثيراً ما بدت هذه الوسيلة آمنة طريقة للهجرة ، لأن الفتاة تشعر بالأطمئنان إلى وجود مكان يأويها ، يتوافر فيه الغذاء والجو الأسرى . غير أن هذا السبيل لم يخل من بعض المخاطر . إذ كانت بطالة الخدم واستقلالهم من الحقائق المعترف بها . ومع هذا ، ففي خلال القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من أن العديد من الفتيات اللاتي كن يتزايدن عدداً ، سعياً وراء الخدمة في المنازل ، ويرغمن على الإبتعاد عن بيوتهن على نحو فاق ما كان يجري تقليدياً ، إلا أن هذا التحرك نفسه لم يبد أمراً مستغرباً ، لأن الخدمة بالمنازل كانت عملاً مقبولاً لما لها من مزايا كتييسير الاحتماء بأحدى العائلات . والانتماء لبيت من البيوت .

ولا يصح هذا الحكم عن الخدمة بالمنازل فحسب ، وإنما أيضاً عن صور أخرى من الأعمال الأنثوية . فلقد حاول أصحاب مصانع النسيج في إيطاليا وفرنسا تهيئة جو « عائلي » للفتيات العاملات عندهم . وكانت هناك قواعد للسلوك تحدد أنشطتهن ، وعهد للرأهيات بالإشراف على المنشآت التي تقمن فيها ، فكن بمثابة أولياء أمورهن ، بل وأحياناً اتجه بعض أصحاب المصانع إلى ترتيب زيجات مناسبة للآلات العاملات عندهم . وحققت هذه الممارسات في المصانع النفع لصاحب العمل أيضاً ، لأنها ساعدته على رقابة ما عنده من عمالة ، وحدثت من عمليات ترك العمل وتبديله . كما خدمت صالحو عائلات الفتيات أكثر من عائلات العازبات ، لأن أجور الفتيات كانت تحول بطريقة مباشرة إلى أولياء أمورهن . ولا نود التعرض هنا لما كانت تبغمه المصانع عندما كانت تحول عنابر نومها إلى مؤسسات خيرية . غير أن علينا أن لا ننسى أهمية اقتدائها بالأسرة في علاقات العمل والعلاقات الاجتماعية ، وما حققه هذا الإجراء من أثر لصالح الأسر لحد ما .

واتبعت ممارسات مماثلة في صناعات «الابر» ، التي ازدهرت في مراكز الحضر . فلقد ترتب على ارتقاء صناعة الملابس الجاهزة ، حدوث تحول مزدوج في صناعة الملابس . فأولاً به حل العمل بالقطعة في البيت محل العمل بالورش . ولم يتحقق إلا في وقت متأخر . في إنجلترا (١٨٥٠) وفي فرنسا . في سبعينات القرن التاسع عشر . الإعتتماد على المدينة في

للصناعة (وتاخر حدوث ذلك في ايطاليا بضع الوقت) بعد أن ساعد التقدم في صناعة الآلات الحديثة على إعادة تنظيم صناعة الملابس في المصانع . وفي الفترة التي اتسع فيها نطاق العمل بالقطعة ، اهدت النساء الى فرص كثيرة للعمل . وكانت النساء اللاتي يعشن في المدن فعلا ، يصحبن عملهن معهن الى البيت بحكم العادة . أما النازحات الوافدات فقد احتجن الى بيوت ، ومن هنا نشأت فكرة تحويل بيوت بعض النساء صاحبات الذكاء الوقاد ، وبالاعتماد على رأس مال بسيط ، الى دور لايواء العاملات بالقطعة ممن يعملن معهن . وعلى الرغم مما أحاط هذا العمل في كثير من الأحيان من استغلال وأحوال معيشية بائسة ، الا أنهم استطعن خلق جو « بيتي » للفتيات يعني بيتا تستطعن العمل فيه على نحو مماثل لما كن يفعلن أو تفعله أمهاتهن في البيت .

وتعد الخدمة بالمنازل ، وصناعة الملابس ، والعمل بمصانع المنسوجات ، المجالات الثلاثة التي تركز عليها عمل النساء غالبا . وهذه المجالات جميعا من القطاعات التقليدية لعمل النساء . وبعبارة أخرى ، فإن نوع العمل الذي كان الأبوان يرسلان بناتهما فيه للعمل لم يكن يستلزم ابتعادا جنديا عن الماضي ، فكثيرا ما كنا نصادف زوجة أمضت « بنوتتها » في بيت أحد الأشخاص الآخرين . وكانت الأعمال بالقطعة وعمليات الغزل والنسيج شائعة في البيوت التقليدية . وعندما حدث تغير في « موقع » العمل ، أدى هذا التغير في نهاية الأمر الى حدوث سلسلة كاملة من الاختلافات الأخرى . ولكن مبدئيا بوسعنا القول بأنه لا بد أن تكون الأسرة قد شعرت بشيء من الارتياح عندما أرسلت ابنتها الى مدينة قصية ، واطمأنت الى أنها قد أرسلتها للعمل في مجال من المجالات اشتغال المرأة به .

وكما أرسل الآباء والأمهات بناتهم وهم مطمئنون الى مصيرهن ، والى ما ينتظرهن من توقعات تقليدية ، كذلك حاولت الفتيات اثبات صحة هذه التوقعات . وبلاستطاعة الاحتماء الى دلائل تثبت استمرار بقاء القيم الأمرية ، كما يبين من مواظبة الفتيات العاملات على ارسال بعض المال الى عائلتهن . وبينما اتجهت المصانع في بعض حالات الى ارسال أجور الفتيات ، الى آبائهن ، رأينا حالات أخرى حرصت فيها الفتيات على ارسال معظم ما توافر لهن من نقود الى البيت . وفي انجلترا ، لم يحدث قبل تسعينيات القرن التاسع عشر اتجاه الفتيات العازبات المقيمات بمنزلهن الى الاحتفاظ ببعض المال لانفسهن . ومنذ وقت أبكر في أوروبا ، كانت نظراؤهن يحولن أجورهن بأكملها عادة الى دخل الأسرة . وقامت ابنة أحد صانعي الأقفال في بلجيكا بخضمة أسرته في البداية بالاشتغال بأعمال الحياكة ، واعتادت تسليم أسرته كل ما تكسب ، مما أدى الى عدم توافر

أية مخدرات لديها عند زواجها * وكانت النازحات الإيرلنديات يرسلن نقودهن حتى عندما تعملن في أماكن بعيدة مثل لندن في إنجلترا أو بوسطون في أمريكا * وحتى في الحالات التي كانت الخدمات الفرنسيات والإيطاليات لا يتوقعن فيها الرجوع الى ديارهن للزواج ، والمعيش في موطنهن ، فاننا رأيناهن تحرصن على مواصلة ارسال المال الى بيوتهن * وكانت الفتيات الخدمات اللاتي تعملن عند إحدى الأسر المرموقة(*) في ريف فرنسا في الحقبة ما بين ١٨١١ و ١٨٧٧ ، ترسلن نقودهن الى الوالدين * وجرت بعض ترتيبات تنظيمية ، فكان المسيو فلاهو يرسل أطعمة بدلا من المال ، أو يدفع لايجار المستحق نيابة عن والده الفتاتين الخادمتين اللتين تعملان عنده ، أو يرسل اليه بعض الملابس والفحم * وفي بعض الأحيان ، كان الاخوة الذكور والبنات من صغار السن أو المتعطلين عن العمل ، يتلقون هذه العطايا التي كانت تخصم من استحقاقات الخدم * ويذكر لنا هوبشر(**) أن بعض المزارعين المستأجرين لأرضهم ، « كانت مساهمات بناتهم لا غنى عنها فبغيرها كانت ستتعدر فلاحه الحقول المؤجرة لهم » * ويردف قائلا : « بأن المعونة المقدمة من الفتيات لاولياء أمورهن بدت طبيعية تماما للطرفين » * فقد مثلت « تضامنا عائليا قويا كان يتطلب وجود ابن ناضج ومستقل اقتصاديا لكي يشارك في تقديم المعونة لأقربائه » * وكانت الفتيات العاملات في مصانع لومبارديا تسهمن بارسال مال لعائلتهن * وفي حالة اقامتهن على مقربة ، كانت العائلات ترسل اليهن سلالا من المأكولات بصفة منتظمة * وطبقا لتقرير ورد في إحدى السير الذاتية ، فإن صاحب العمل كان يحرص على ايفاد رجل وعربة للمرور على قرى الفتيات العاملات - أسبوعيا - لجمع سلال المأكولات المقدمة من العائلات *

وفي لانكشاير في إنجلترا ، كان هناك حرص على « الحفاظ على الاتصال » بين النازحات وعائلتهن * فكانت النقود ترسل للأهل ، وكانت بنات الأسرة تستدعين الى المدينة للعيش وسط أبناء من عائلتهن ممن سافروا ، وحدثت في أحيان أخرى عمليات « نزوح عكسي » * فمثلا أرسل أبناء البنات المتزوجات اللاتي تعملن في مدن النرويج كخدمات الى بيوتهن لكي يتولى جدودهم كفالتهن * وفي هذه الحالات ، يواصل الزوج الشاب وزوجته العمل منفصلين كخادم وخادمة للدخار تمهيدا لانشاء بيت الزوجية * وحتى في الحالات التي نزلت فيها عائلات بأكملها الى الولايات المتحدة ، فانها واطببت على اتباع هذه الممارسات * ولاحظت ويلاكاثر (***)

Finhaut أسرة (*)

Hubscher

(***)

My Antonia في كتاب Willa Cather (***).

قيام الفتيات النازحات من سبق لهن الاشتغال خادمت أو فى أعمال
معاونة للمزارعين ، بالمشاركة فى فك رهن المزارع المحصيبة التى أنشأها
آباؤهن فى نبراسكا .

وكشفت القيم الحضارية التى دفعت صغار الفتيات للعمل فى سبيل
أسرهن عن أنواع مختلفة من السلوك الشخصى . فليس من الغريب ادراك
ما لاحظه المؤرخون وعلماء السكان من تزايد فى عدد معدلات المواليد غير
الشرعيين فى العديد من المدن الأوروبية فى الحقبة الواقعة بين ١٧٥٠ ،
و ١٨٥٠ . ومن المفارقات أن يحدث ذلك الى جانب استمرار بقاء التقاليد
العريقة فى أطر جديد . فربما كان دافع الفتيات لمقاومة بيوتهن والاقامة
فى المدينة هو إقامة صداقات مع الشباب ، سعيا وراء احتمال الزواج من
أحدهم ، وأملا فى تحقيق ارتباط أسرى . وليس من شك أن ما حدث من
اختلاف فى القيم ، إنما يرجع الى احتمال أن لا تكون العادات الاجتماعية
التي تفرض فى البيت ، مناسبة للمدينة .

فمنعما تبتم الفتاة عن بيتها ، لن تقدر أسرته على فرض رأيا
الا قليلا على من ستتزوج ومتى ؟ . ولم يكن باستطاعة الضغوط التى
حافظت على استمرار الابنة السويسرية فى ممارسة الغزل فى بيتها حتى
بلوغها الأربعين من عمرها أن تؤثر على الابنة بعد نزوحها الى المدينة .
والواقع أن النزوح نفسه يدل على أنها لم تعد ترغب استمرار الوضع الذى
كان سائدا فى بيتها . ولا يخفى أن الشعور بالوحدة والانزوال فى المدينة
كان من بين عوامل الضغط التى حثت على الزواج . والأمر بالمثل فيما
يتعلق برغبة أية فتاة فى الهروب من الخدمة المنزلية ، حتى تصبح سيدة
نفسها والمتحكمة فى بيتها أسوة بأمها . وساعدت أيضا تقاليد الخدمة
بالبوت ، التى كانت تطالب عادة الخدم بعدم الزواج على حدوث علاقات
غير مشروعة ، ودفعت الكثيرات من الخادمت الى التخلي عن أطفالهن . وهذه
حقيقة معروفة منذ أمد بعيد . وما حدث بعد ذلك من اختلاف فى القرن
التاسع عشر فى أوروبا هو ارتفاع نسبة المشتغلات بالخدمة المنزلية على
نسبة المشتغلات بالمصانع . وهذا يعنى حدوث تزايد نسبي لم يسبق
له مثيل فى عدد المشتغلات فى هذا المضمار . وهذا عامل مساعد مهم
لانجاب أطفال غير شرعيين .

غير أن هناك دافعا آخر للزواج هو الدافع الاقتصادى . فلقد قيل
ان الفتيات العاملات فى المصانع كن يتقاضين أجورا مجزية . ولكن ليست
جميع الفتيات من العاملات بالمصانع . ولا ننسى أنه قلما حصلت النساء
العاملات بصناعة الابر وغيرها من الصناعات الصغيرة على ما يكفي لكى
يقيم أودهن مع ملاحظة حدوث تقلبات مستمرة فى تجارة هذه المنتجات ،

وما حدث من انخفاض في انتاجها وطلبها في انجلترا وفرنسا ، و جرت العادة على دفع أجور للنساء المشتغلات في هذه الحرف تساوى نصفه الأجر التي يحصل عليها الرجال مقابل أعمال مماثلة ، تمشيا مع الافتراض الغالب باعتبار أجور النساء جزءا من أجر الأسرة ، (وان كان هذا الافتراض لم تؤيده الحقائق دوما) ففي البيت الريفي كانت مقومات الحياة تتطلب عدة اسهامات ، وكان الاتجاه المنطقي لأى فتاة وحيدة ودفعتها الظروف الى الابتعاد عن أسرته وتتقاضى اجرا لا يكفى لاعالتها ، أو يمكنها من ارسال بعض النقود للبيت هو الشروع في البحث عن زوج باعتبار هذا الحل سيبكثها سويا من مواجهة مطالب الحياة .

وقد تشاء الظروف الحسنة ان تخطب « الفتاة الصغيرة ، ثم يجيء في أعقاب ذلك ما كان سائدا من ممارسات شبت عليها معظم الفتيات في المناطق الريفية ، فكن يضاجعن من ينوين الاقتران بهن من رجال . وعندما يحدث الحمل ، اما يختفى الرجال ، أو يواصلن العيش معهم ، وان كانوا لا يعتقدون القران . وأحيانا يتم الزواج بعد انجاب الطفل الأول ، أو ربما أكثر من طفل . وفي بعض الأحيان ، كان القيد الذي فرضته الضرورة التقليدية بتقديم دوطه عند عقد الزواج ، كان يعنى ان تعمل المرأة أثناء معاشرتها لعشيقها ، وان يطرح الشوار جانبا . وحال الافتقار الى السند الأخلاقي للأسرة والمجتمع المحلي والكنيسة دون تحقيق ما هو مأمول من الزواج . ولعل الافتقار الى المال، والاضغوط الاقتصادية القاسية ، بالإضافة الى اختلاف التوجهات والتوقعات - في أغلب الظن - من قبل الرجال ، قد حال دون وفائهم بوعودهم . ويبين مما شهدت به النساء المهجورات لهنرى مايهو(*) أنه كثيرا ما حدث الآتى : أ - لم يتوافر مال لعقد زواج صحيح . ب - كانت أعمال الرجل تستوجب كثرة التنقل . ج - خلق الفقر حالة من احتمال الشعور بالتوتر . د - التقاليد المحيطة بالطرفين ، والتي كانت تدعوها الى التحقق من حسن سير وسلوك الطرف الآخر ، والذي ربما لا يكون متوافرا . وينتهى الأمر بمطاردة صغار الفتيات للذئاب الذين نالوا ماربهم ، ومن ثم سلخوا نوحهن مسلكا تقليديا ، ثم تتغير الظروف وتظهر نتائج غير متوقعة غالبا مالا تكون سارة .

وحتى بين المومسات ، وكثيرات منهن كن من الملمات أو الخادمت
العاطلات عن العمل أو العاملات بالقطعة . ويلاحظ في حالتهن خلط عجب
من التوجهات القديمة والحديثة . ففي المجتمع السابق للصناعة ، كانت
نساء الطبقة الدنيا ، تبتكرن ما لا نهاية له من مصادر الاقليات ، وتوفر
الماكل للأسرة . وكان التسول مسألة مألوفة ، واعترف بالمغازلة ومعاشرة

بنات الهوى كوسائل للحصول على الخبز والدقيق في أوقات الشدة .
وفي القرن التاسع عشر ، في لندن ، ذكرت المومسات عند لقائهن بياهو
أن شعورهن بالخزي كان مجرد وسيلة للحصول على ما يسد رمق أسرهن .
وأوضحت امرأة انجبت طفلا غير شرعى رأيها فقالت ان الحفاظ على بقائها
وحماية طفلها من الجوع « قد أرغمها على الالتجاء للتمومس » ووصفت
أخرى العشاء الفاخر الذى تناولته مقابل تبذلها . .

على أن جميع العوامل لا يتعرضن للهجر بعد انجاب أطفال غير
شرعيين . كما أن معظمهن لم يجتنحن الى « التمومس » ، رغم ما يتصوره
أبناء الطبقة المتوسطة من تخيلات تدفعهم الى الانزعاج . فكثيرات منهن
انتهى أمرهن بالزواج ، وابتعدت أغلبهن عن القوة العاملة بعد الزواج .
ويعكس عدم وجود نساء متزوجات أكثر تقسما فى السن الاصرار على اتباع
التقاليد الأسرية . وعندما تتزوج الفتيات ، فلا أحد كان يتوقع استمرارهن فى
الاسهام بأجورهن فى تمويل بيت ذويهن . اذ يعنى الزواج عملية انتقال من
أسرة لأخرى ، والاضطلاع بتمثيل دور جديد . على أن بعض الفتيات
الوحيديات ظلن يتمسكن بقيم أمهاتهن وممارساتهن بعد الزواج . فلقد
كان الدور التقليدى للمرأة المتزوجة ، ودورها الاقتصادى الحيوى فى
اقتصاديات الأسرة وراء اشتغالها ، عندما كان ايراد عملها مطلوباً لتعزيز
ميزانية البيت . وعندما أصبح دخل زوجها وأبنائها كافياً لسد حاجات
الأسرة ، بادرت بترك القوة العاملة . وأحيانا لا تقدم أمهات الأبناء الصغار
على ترك القوة العاملة الا بعد تعطل الابن الأكبر عن العمل . ويحقق هذا
النمط ما هو منشود منه داخل نطاق ما يجرى فى العائلة من تطورات ،
ولكن فى حالات الحاجات الوقتية كالمرض أو موت رب الأسرة وعائلها ،
فلم يكن من المستبعد رجوع المرأة للعمل . وحتى عندما لا تكون مصدرا
للتمويل ، فإن اسهامها فى اقتصاديات الأسرة يعد أمراً جوهرياً . وفى
تسعينات القرن التاسع عشر فى لندن ، كانت زوجات الطبقة الدنيا
« تتحملن مسئوليات جسيمة ، سواء كن تتقاضين راتباً أم لا ، لأنهن كن
المتصرفات فى ايراد الأسرة ، ولم يكن مسئولات عن شراء المأكولات فحسب ،
وانما كن تتولين دفع الايجار وشراء الملابس ودفع أقساط التأمين ، والاشراف
على مصاريف مدارس أبنائهن » .

وعلى الرغم من أن نقل العمل الى المصانع وأماكن خارج البيت قد
يسر للمرأة الوحيدة الاضطلاع بهذه المهام تيسيراً متزايداً ، الا أن بعض
المتزوجات واصلن البحث عن عمل . وساعد التصنيع على تحقيق التحول
فى فرص شغل العمل تدريجياً . اذ استمرت الأعمال القديمة باقية الى
جانب الأعمال المستحدثة . واحتفظت النساء ممن تزوجن عمال صناعيين

يمشون في المدن بأساليبهن السلوكية التقليدية ، وقمن بتكليفها حتى تتوام والظروف المستجدة . وكانت أغلب الأعمال التي يعهد بها للمتزوجات وقتية . ويصف أندرسون أنواعا شتى من وظائف الخدم في بريستون ١٨٥١ ، ويقول « ان كثيرات كن تعملن على معاونة أزواجهن . وهناك أخريات لجان الى فتح محلات (بوفيهات) صغيرة للمأكولات والمشروبات » . ويردف قائلا : « ان أكثر من ثلث العاملات كن تشتغلن في أعمال بعيدة عن المجال الصناعي ، وعملت كثيرات أخريات على نحو غير منظم ، أو نصف الوقت » . وغالبا ما كان لا يجيء ذكر أسمائهن في السجلات الرسمية باعتبارهن لا يشغلن أعمالا محددة . والحق أن الصيغة التي وضعها أندرسون لتمثيل ما كان يجري في لانكشاير وتعبيره عنها بالقول بأنه بالمقدور « وصف نمط تكوين الأسرة في المدن بأنه كان متأثرا بالانماط الريفية التي سبقته » . ان هذا القول الذي جاء على لسان أندرسون ينطبق على حالات كثيرة جاءت بعد ذلك . فنحن نلاحظ في مدن وعواصم أوروبا وأمريكا وجود تشابه بين أنماط عمل المتزوجات والانماط الأقدم في الممارسات السابقة للصناعة . فعلى سبيل المثال - كانت النسوة النازحات الى مصانع النسيج في نيو انجلند من الجماعة الكبيرة الوحيدة من النساء العاملات المتزوجات اللواتي كن تعملن بانتظام باستثناء الزنجيات . ويشرح سمطس ما يعنيه فيقول ان ما كان يجتذبهن ليس العمل المألوف للفرز والنسيج ، لان الأهم من ذلك هو إتاحة الفرصة لهن للاشتراك مع أولادهن في العمل . « فالام التي يعمل أبناؤها بالمصنع أقدر على مراقبتهم اذا كانت تعمل قريبة منهم في نفس المكان » . وكيفت النساء النازحات ما لديهن من مهارة مع الأوضاع الأمريكية ، اعتمادا على خبرتهن بطبيعة الحال . وهكذا اشتركت الأمهات الايطاليات هن وأبناؤهن في قطف الثمار والخضروات في مزارع قريبة من بافالو ونيويورك ، ولعل هذه الأعمال ذكرتهن بما كن يفعلن عندما كن في جنوب ايطاليا . أما الايطاليات المقيمات في الطرف الشرقي من نيويورك فقد شغلن بحياسة السراويل أو صناعة الزهور من الورق بالاشتراك مع بناتهن في البيت . وعندما كانت هؤلاء النسوة يتابعن عملهن بالمصانع ومحلات الحلوى ، كان الرجال يكفون أحيانا على إدارة شئون المنزل ورعاية الأطفال . وتحولت النساء الايرلانديات المتزوجات ممن لا يملكن ما هو أكثر من الخبرة بالزراعة ، الى خادمت بالنازل . ولكن كثيرات منهن شغلن بتنظيف الابنية في نيويورك ليلا حتى يتفرغن لرعاية شئون أسرهن بالنهار .

وسواء عملت المتزوجات خارج بيوتهن أم لم تعملن فقد حرصن دوما على الوامعة بين عملهن واقتصاديات الأسرة . والواقع أن اشتغال النساء المتزوجات خارج بيوتهن يكاد يبدو أشبه برفاد داخلي من قيم ما قبل

الصناعة في نطاق أسرة الطبقة العاملة . فبعد أن بدأ أزواجهن وأولادهم بأمد طويل اتباع بعض القيم النازعة نحو الفردية التي صاحبت التصنيع ، واصلت هؤلاء النسوة التحلي بقيم التضحية بالذات ، واستنفاد كل طاقتهن في سبيل أسرهن . هذه القيم التي خلبت لب « لى بلاى » ، والتي تميز بها الاقتصاد الفلاحي واقتصاديات البيت . وليس من شك أن هذا هو ما عنته شهادة امرأة نيويورك التي استشهد بها بيتر ستيرنر : « لو اقتضى الأمر شراء شيء ما مثل زوج من الأحذية لأحد الأطفال ، فليس هناك ما يحول دون حرمان نفسى وحرمان أولادى من بعض الماكولات ، والاكتفاء بكوب من الشاي وكسرة من الخبز ، وتوفير الغذاء لزوجى أثناء قيامه بمهله ولا أبوح له بذلك قط » . فما دامت المرأة قد كرست دورها – اقتصاديا – لخدمة أسرتها ، فإنها تعتقد أنها أدت رسالتها على الوجه الصحيح الموائم للقيم الأسرية . وظل دور المرأة الاقتصادى فى عائلات الطبقة العاملة يجمع بين وظيفة ربة البيت والمديرة المالية والحائكة ، التي قد تدفعها الظروف للعمل خارج البيت والكسب من حين لآخر .

وهناك مثل آخر عظيم الدلالة يمثل التضامن الجماعى اعظم تمثيل . فلدت وولدت فرنسيسكا . فحوالى ١٨١٧ فى منطقة ريفية من أعمال مورافيا ، وظلت مقيمة فى موطنها الى أن بلغت الحادية عشرة من عمرها . وعاشت الطفولة المهودة لاية طفلة من طبقتها ، وتعلمت من أمها تدير البيت ، والمعاونة فى الفلاحة ، وتعلمت فى المدرسة القراءة والكتابة والحساب ، وأهم من ذلك الحياكة . واشتغلت فى عدة بيوت مختلفة على التعاقب لزيادة دخلها ، وكانت تغير من طبيعة عملها سعيا وراء هذه الغاية . واكتسبت من أحد البيوت خبرة فى الحياكة ، ساعدتها على ادخار بعض المال ، الذى كانت تقتطع منه جزءا ترسله الى موطنها الذى دأبت على زيارته من حين لآخر ، مرة كل سنة على الأقل لرؤية أهلها ، وتجديد جواز سفرها .

ولم تختلف تجربة فرنسيسكا عن تجارب صغار الفتيات من الأجيال التى سبقتها ، الى أن بلغت الثامنة عشرة من عمرها . بيد أنها عندما صممت على التوجه لفينا لتجربة حظها بدأت مرحلة جديدة من حياتها . وبعد أن تلقت أجمل التمنيات من والديها ، دفعت مصاريف السفر بالعربة من مدينتها . وبعد ثلاثة أيام من وصولها اهتدت الى العمل كخادمة ، وعاشت عند أسرة بورجوازية . وعملت عندها زهاء ستة شهور ، ثم تركت العمل عندما عثرت على عمل أفضل ، استمرت تشغله الى أن مات رب البيت (بعد ستة شهور من إقامتها) فتركت العمل وشغلت وظيفة خادمة فى دار أخرى استمرت تعمل بها سنة كاملة .

وعندما بلغت العشرين من عمرها ، وبعد أن استهوتها الفرص الميسورة للعمالة في بلد كبير ، وبعد أن شعرت بإجهاد العمل بالمنازل ، قررت العمل صبية لأحد نسايج الصوف ، الذي أفلس بعد سنة أخرى . وحالفها التوفيق فعثرت على عمل جديد ، وتخلت عنه عندما اكتشفت عدم استقراره ، فالتجته الى الاشتغال بحياكة القفازات لأحد المصانع الصغيرة . وكانت صناعة القفازات - بالقطعة - صناعة رابحة . وكان على فرنسيسكا أن تعمل « بالمنزل » الذي كان أشبه بعنبر للنوم ، فكانت تشاركها الفراش عاملة أخرى من « المشبهات » . وبعد أن شعرت فرنسيسكا باستهجان لهذا الوضع ، حالفها التوفيق فالتقت بنجار شاب من أصل ريفي ، فوافقت على مشاركته العيش . ولم تكن ممارسة المرأة للنوم مع خطيبها من العادات غير المعروفة في البيئة القروية لمورافيا طبقا لما ذكره لي بلاي . وسرعان ما أنجبت فرنسيسكا طفلا كانت ترعاه أثناء حياكتها للقفازات ، وادخرت في هذه الأثناء مالا يساعدها على الزواج . (إذ كانت السلطات الفيناوية حينذاك تطالب العمال باثبات قدرتهم على اعالة الأسرة قبل السماح لهم بالزواج . وكانت مهمة الادخار تقع على كاهل عروس المستقبل !) .

وبعد ثلاث سنوات لالتقاها بالنجار تزوجا ، ودفعت فرنسيسكا جميع تكاليف الزواج ، وزودت البيت « بالجهاز » المطلوب - من أغطية وأثاث منزلي - وبوصفها ابنة لأحد المزارعين الريفيين ، فانها أصبحت الآن ربة بيت عامل من عمال المدينة . وعلى الرغم من استفاد معظم وقتها في رعاية أطفالها وإدارة شئون البيت ، فقد استطاعت الحصول على عمل يدر عليها دخلا طيبا (١٨٥٣) . فقد تعاقدت على عمل يستمر ١٢٥ يوما كاملا في صناعة القفازات . وقدر لي بلاي مدة التعاقد بمائة وخمسة وعشرين يوما ، الا ان فرنسيسكا كانت تشتغل في حياكة القفازات بعض أجزاء من اليوم طوال معظم أيام السنة .

وساعد الإيراد المكتسب عن طريق العمل بالقطعة على تعزيز أجر زوجها بمال اضافي . ولكن بعد انشاء المصانع ، وتناقص الاهتمام بالانتاج بالقطعة الذي يجرى بالمنازل ، تفاقمت الصعوبات التي واجهت أم الأطفال الخمسة الصغار ، فاضطرت الى التخلي عن الواجبات المنزلية لكسب عيشها من عملها الخارجي . وساعدت الأحوال الاقتصادية في فيينا في خمسينات القرن التاسع عشر على تيسير نهوض فرنسيسكا بالدور المتوقع من امرأة تنتمي الى الطبقة الشعبية .

ولم تصمد القيم التقليدية بلا قيد أو شرط في وجه التطورات الحديثة ، أو النازعة الى التحديث . فعندما أقدمت الأم على تكييف

مخططاتها للتعامل والمواقف الجديدة مرت بتجارب مختلفة غيرت العلاقات داخل الأسرة ، وغيرت من تصورها لها . وكما استطاعت عملية التغيير استيعاب القيم والممارسات القديمة ، فانها استطاعت أيضا تغييرها .

واشتملت التحولات الأساسية على اتجاه لاحتلال القيم الفردية المنزج محل القيم الأسرية ، وغرست هذه التحولات الاعتقاد بأن الفرد مالك لنفسه أو لنفسها أكثر من كونه أو كونها مجرد جزء من كل اجتماعي أو معنوي . فلقد أثبتت هذه التحولات تكيف أبناء الأسرة مع احتياجات أسرهم ، تبعا لمبدأ الغاية تبرر الوسيلة(*) ، بحيث تحقق اسهاماتهم عائدا في المدى القصير جليا . ونمت هذه الاتجاهات في أشكال مختلفة تبعا لما واجهتها من ظروف . وبالرغم من كل هذا فقد بينت الدلائل وجود تماثل. كامن فيما جرى وفي النتيجة النهائية . فلقد سمح أولا للبنين ثم للبنات فيما بعد بالاحتفاظ ببعض ما يحصلون عليه من مال . ومنع الأبوان هذا الحق في بعض حالات . وفي حالات أخرى ، حددت الأسرة نصيبا خاصا لها . وفي حالات ثالثة ، كانت الابنة هي التي تقرر الحصة التي يتوجب عليها دفعها من أجرها لنوئها (وبمرور الزمان تناقصت هذه الحصة ، وتزايد علم انتظام مقادراها ومواعيد ارسالها) . وأشار أندرسون الى ما حدث من انعكاس للأوضاع من تأثير ما يتقاضاه الأبناء من أجور عالية . وأدى التوتر الناجم من الاختلاف على من له الأولوية : الأبوان أم الأبناء ، الى حدوث مشاحنات . وغالبا ما كانت تنتهي هذه المواقف الى مباحة الأبناء لبيوتهم باختيارهم ، وهم يشعرون بالاعتباط لما حصلوا عليه من حرية ، وبالقدرة على تقرير مصيرهم بلا كايح أو جامع .

وانتهى الأمر بأن أدى الابتعاد عن موطن الأسرة والهجرة الى اضعاف الروابط الأسرية ، كما أدت ضغوط الأجور المنخفضة والعيش المستمر في الحضر ، وازغام أعداد كبيرة من صغار الفتيات على الاستقلال في العيش ، الى شيوع الاتجاه نحو الحرص في الانفاق ، وتدعيم النزعات الأنانية ، فالتجهت الفتيات الى ايثار أشغال معينة باعتبارها وسيلة تسمح لهن بالانطلاق الاجتماعي والمهني ، أكثر من كونها وسيلة مؤقتة لكسب بعض المال للأسرة . واستمرت الخدمة بالبيوت هي وسيلة العمل الأساسية للمرأة حتى في أغلب أنحاء أوروبا الى أن بدأ القرن العشرون . (والواقع أن عدد النساء المشتغلات بالأعمال المنزلية في منتصف القرن التاسع عشر قد زاد زيادة هائلة) . ومع هذا ولما كان الاشتغال بالمنازل قد مثل العسل الأثري التقليدي ، لذا ساعدت وظيفه الخادمة على اتاحة الفرصة للعاملات بها على الانطلاق الجغرافي والتنقل من عمل لآخر . فبمجرد قدوم الفتاة

الصغيرة للمدينة ، واجتيازها فترة التكيف مع حياة الحضر ، في كنف احدى العائلات ، كان يوسعها البحث عن عمل أفضل وأكثر اثابة . وانتعشت أيضا نوقعتها بإمكان الزواج من شخص من المدينة يتقاضى اجرا افضل .

ولا يخفى ان هذه التجارب الجديدة ، وما تعرضت له هؤلاء الفتيات من صعوبات واحباط قد خلق عند صغارهن نزوعا أكثر اندفاعا نحو الروح الفردية ، ومحاولة التكيف تبعا لمبدأ الغاية تبرر الوسيلة ، وتزايد عيشهن وعملهن بصحبة رفقاء واتجهن لادخار بعض المال ، لانفاقه على شراء الملابس والمرفهات ، وتعلمن كيف يبحثن عن نفعهن ، وتقدير قيمة كل بنس تحصلن عليه واتخذت رغباتهن ومصالحتهن الصدارة فوق رغبات الأسرة ، ومصالحتها .

وايضا تعدلت مخططات العمل الأسرى من تأثير تناقص وفيات الاطفال ، وتزايد فرص التعليم . وبدلا من قيام الوالدين ، بإرسال جميع اولادهم للعمل لصالح الأسرة ، اتجهوا الى الاستثمار في سبيل تحقيق مستقبل أفضل لاولادهم ، وعدم إلحاقهم بالقوة العاملة ، وإرسالهم الى المدرسة . (ومن الواضح أن هذا المخطط قد اتبع في حالة البنين في وقت أبكر من انبعاث في حالة البنات ، وستنحلت عن التاريخ الدقيق لمتى بدأت هذه العملية فيما بعد) . وجمعت الأسرة في أخلاقياتها بين اقرار مبدأ انطلاق الأجيال ، والاتجاه المستحدث الفردي المنزع .

وهكذا شاركت عدة مؤثرات فيما اعترى اقتصاديات الأسرة من تدهور . فكان بين هذه العوامل : ١ - موضع فرص العمل . ٢ - ارتفاع مستويات الحياة والأجور العالية . ٣ - مدى القرب من مراكز التغير الاقتصادي . ٤ - زيادة التعرض للقيم البورجوازية ، والتمسك بها باعتبارها تتيح فرص الانطلاق نحو الروح البورجوازية المتزايدة . ٥ - التنوع العرقي والمنصرى في أنماط العمل والأنظمة الأسرية . ٦ - اختلاف معدلات التنمية في مختلف البقاع والبلدان . وساهمت جميع هذه العوامل في تدهور الأسرة كوحدة منتجة ، وأدت الى حدوث تبدل في القيم المصاحبة لها . وبالمقدور تحديد تاريخ حدوث ذلك على أنحاء شتى في مختلف المواقع والطبقات والفئات المنصرية . فهي لم تظهر عند الفلاح الأوربي والعامل الصناعى الأوربي الا فى القرن التاسع عشر . ولم تصل الى بعض بقاع مثل جنوب إيطاليا وريف إيرلاندة وريف فرنسا الا فى القرن العشرين . غير أن فائدة اتخاذ نموذج الأسرة كوحدة لتحليل العلاقات الاجتماعية والقرارات الاقتصادية لم تختف .

تطلب إعادة تحديد العلاقات الأسرية والتغيرات التي طرأت على تعريف عمل المرأة ، وما حدث من تبدل في مكانها ، قدرا كبيرا من الجهد . فلا يخفى حدوث جملة تغيرات . فلقد أدى ارتفاع مستوى المعيشة وازدياد أجور الرجال ، - مما يسر لهم اعالة أسرهم - الى انقاص ضرورة اشتغال المرأة المتزوجة بالعمل خارج البيت . (ولا ننسى أنه في بداية عهد التصنيع، كان الثمن الذي دفع مقابل ذلك باهظا ، تمثل في ازدياد نسبة الوفيات بين الأطفال والرضع) وحتى في حالة النسوة العازبات ، فقد قللت التغيرات الاقتصادية من فرص العمل التقليدية ، بينما فتحت أبوابا جديدة للعمالة للنساء الأكثر تعلما . فبعد الحرب العالمية الأولى على سبيل المثال ، قلت أهمية الخدمة بالمنازل كإيدان عمل لصغار النساء ، وحل عدد أصغر من الخادئات المستديمات اللواتي حولن هذا العمل الى مهنة محترمة بدلا من السيل الدائم التدفق من صغار الفتيات اللاتي كن تمثلن العاملات في خدمة المنازل . وترتب على ازدياد انتاج الملابس في المصانع الحد من فرص العمل المسورة للنساء في ميلانو وغيرها من البلدان . ومن جهة أخرى ، زودت الزيادة التي طرأت على الوظائف الجديدة في الخدمات الحكومية ، بعد اتساع نطاقها ، والخدمات المعاونة للمشروعات العامة ، والتجارة والخدمات الصحية والتعليم فرص عمل للنساء العازبات ، وبخاصة من حصلن على قدر ما من التعليم الأساسي .

وهناك شواهد توضح ما حدث بمرور الزمان من تبدل لدور النساء في بيوتهن ، يعنى دورهن كزوجات أو بنات . ففي بريطانيا ، بدأت نساء عائلات الطبقة العاملة تفقدن السيطرة على النواحي المالية منذ وقت مبكر من القرن العشرين . غير أن هذه العملية لم تكتمل حتى نشبت الحرب العالمية الثانية . فلم تحصل الفتيات العاملات على إيراد يستطعن الاتفاق منه على شؤونهن الخاصة الا في نهاية القرن التاسع عشر . وبعد حوالي ١٩١٤ تزايد عدد الفتيات العازبات اللاتي كن تحتجنزن بمبالغ متزايدة من أجورهن ، وخصص الأزواج جانبا من إيرادهن لمصروف خاص للزوجات . أما ما تبقى من إيراد الزوج فكان ينفقه وفقا لمشيئته . وتوحى الجادلات التي دارت في تنظيمات الطبقة العاملة أيضا بما حدث من تغير في تصور دور الأسرة . فلقد طالبت اتحادات العمال بأجور أكبر للرجال ، حتى يتسنى لهم اعالة أسرهم وإبقاء زوجاتهم بالمنزل . ووصفت بعض الصحف الاشتراكية المجتمع المثالي بأنه المجتمع الذي يسمح « ببقاء الزوجات الاشتراكيات الصالحات » بالمنزل لرعاية صحة « الأطفال الاشتراكيين الصالحين ، وتعليمهم » .

وتعد التغيرات التي أثرت في عمل المرأة ، ومكانتها في الأسرة ، في وقت متأخر من القرن التاسع عشر والقرن العشرين من الموضوعات التي

لم يكشف المؤرخون النقاب عنها بالفعل ، ومن غير المقدر فهم هذه التغيرات بمعزل عن السياق التاريخي الذي عرضناه . فلقد كانت أسر الفلاحين الأوروبيين والطبقة العاملة الأوروبية أول من تعرض للتغيرات البنوية في القرن التاسع عشر . وكانت هذه التجارب بعيدة عن الاتصاف بالاطراد . فلقد اختلفت تبعا للموقع الجغرافي والمؤثرات العرقية والزمان ، واشتملت على أنماط معقدة من الديناميات ومظاهر مختلفة لكيفية اتخاذ القرار عند الأسرة . على أن أول احتكاكات بالتغيرات البنوية في جميع الحالات قد اشتملت على عمليات تكييف ومواءمة مع مخططات تقليدية ، وكانت تخضع لقيم تمتد جذورها في اقتصاديات الأسرة . ولن يتسنى لنا فهم عمل السواد الأعظم من النساء في القرن التاسع عشر ، الا اذا أدركنا هذه الشروط . فعلى أن نفحص تجربتهن على ضوء قيمهن الأسرية ، وليس على ضوء قيمنا الفردية . فليس بالاستطاعة الربط بين قيمهن منطقيا وتاريخيا بالحقوق السياسية التي منحتهن حق التصويت . ولن يتحقق البدء في فهم الاضطراب الذي صاحب عمل المرأة ، ومكانتها الا اذا فحصت الافتراضات على ضوء المخططات التاريخية . فلا بد من استبعاد تفسير المذهب التطوري الذي يزعم وجود تجربة وحيدة ومتماثلة تشترك فيها جميع النساء ، أي تجربة تسير فيها العوامل السياسية موازية للعوامل الاقتصادية ، على ضوء الدليل التاريخي .

المراجع

- M. Anderson**, *Family Structure in Nineteenth Century Lancashire* (1971).
- J. A. Banks**, *Victorian Values : Secularism and the Size of Families* (1981).
- M. Hewitt** *Wives and Mothers in Victorian Industry* (1958).
- J. R. Lehnig**, *The Peasants of Marhes : Economic Development and Family Organization in Nineteenth-Century France* (1980).
- A. McLaren**, *Sexuality and Social Order : The Debate over the Fertility of Women and Workers in France 1770-1790* (1983).
- J. Murray**, *Strong Minded Women and Other Lost Voices from Nineteenth-Century England* (1982).
- I. Pinchbeck**, *Women Workers and the Industrial Revolution 1750-1850*, (1959).
- F. K. Prochaska**, *Women and Philanthropy in Nineteenth-Century England*, 1980).
- P. Robertson**, *An Experience of Women : Pattern and Change in Nineteenth-Century Europe* 1982.
- N. Smelser**, *Social Change in the Industrial Revolution : An application of Theory to the British Cotton Industry* (1959).
- B. G. Smith**, *Ladies of the Leisure Class : The Bourgeois of Northern France in the Nineteenth Century*, 1981.
- G. D. Susman**, *Selling Mothers' Milk : The Wetnursing Business in France 1715-1914*, (1982).
- M. Vicinus**(ed) *Suffer and Be Still : Women in the Victorian Age*, (1972).
- M. Vicinus** (ed) *A Widening Sphere : Changing Roles of Victorian Women*, (1980).
- S. R. Walkowitz**, *Prostitution and the Victorian Society. Women, Class, and the State* (1980).

الحمى ! الحمى !

أنطون • س • وول

ربما لا يوجد عامل من العوامل المؤثرة في الحياة اليومية في الماضي قد اختلف اختلافا بينا مع ما يجري في عصرنا الحاضر ، يتماثل هو وعامل تفشى الأمراض المعدية العنكاة التي لا يعرف سببها • وخلال القرن التاسع عشر ، اشتهمت هذه الأمراض على الكوليرا (وكانت مرضا مستحدثا تماما على تجرب الأوربيين) وعلى التيفوس والتيفود والانفلونزا والديفتريا • واضطرت الطبقات الفقيرة التي تقطن مدنا مكتظة بالسساكر من تأثير هذه الأمراض الى دفع ضريبة افدح من الضريبة التي دفعتها الطبقة المتوسطة والطبقة الأدرستقراطية ، وان كانت هاتان الطبقتان لم تامنا الإصابة بهذه الأمراض ، وأبلغ شاهد على ذلك هو وفاة الأمير البرت زوج الملكة فيكتوريا متأثرا باصابته بالتيفود •

ووقعت عدة تغيرات في النظرة العامة الى هذه الأمراض المميتة خلال القرن • فلفقد أحدثت تجربة الإصابة بالكوليرا إبان ثلاثينات القرن ، التي قتلت اناسا من مختلف الطبقات الاجتماعية ، اثر اصابتهم بمرض لم يسبق معرفته بأوربا ، وان كان معروفا تماما في آسيا ، أحدثت صلعة للحكومة الإنجليزية دفعتها الى اتخاذ اجراءات لمواجهة هذا الخطر ، وتركزت معظم اجراءات الحكومة على تحسين وسائل الصرف الصحي وتنقية مصادر المياه وترتب على ذلك حدوث تزايد مطرد وان كان حادرا - في مستويات الحكومات المحلية والمركزية في بريطانيا عن شئون الصحة العامة • ولم يكن مستطاعا ان تحقق هذه الجهود ما هو أكثر من التقدم المحدود بالنظر الى قصور المعرفة الطبية آنئذ ، ولم تعرف على نحو مرض الصيفة الجرثومية للعرى ، الا في الثلث الأخير من القرن ، وان استمر تردد السلطات والمسؤولين في الأوساط الطبية لسنوات عن الاعتراف بها ، والحكم عليها

(*) نقلنا عن
Endangered Lives : Public Health in Victorian Britain (1942) Anthony S. Wohl. تأليف

بالمقارنة بالنظريات المنافسة لها . وحتى بعد أن عرفت وسائل منع هذه الأمراض مثل التحصين ضد مرض الجدري ، فقد تارت معارضة أخلاقية-سياسية محلية تعترض على تفويض الحكومة لاتباع هذا السبيل من سبل العلاج . ومع هذا فقد نجحت السيطرة على معظم هذه الأمراض بقدر « معقول » في مشارف القرن العشرين ، برغم ما شاب هذه الناحية من بلبلة ومنافسات سياسية . ولقد شدتنا على كلمة « معقول » ، وربما كان من الواجب ملاحظة ذلك ، لأنه في العقد الثامن من القرن العشرين ، اجتاحت موجة من الانفلونزا الوبائية أوروبا وأمريكا ، أصابت أو فتكت بملايين ممن تعرضوا لهذا المرض .

السرطان والنوبات القلبية وحوادث المرور ، جميع هذه الأحداث من مقومات مجتمعنا الحديث . وليس هناك ما يدعو الى شعورنا بالقلق من حدوثها مادامت لم تصبنا بأى أذى . فالخوف والتهديد بالموت المفاجيء يمكن في كوامن وعينا . وكان القرن التاسع عشر يتماثل معنا في تخصيصه الجانب الأكبر من وقته وفكره للأحداث المباشرة الخاصة بالاستمتاع بالحياة ، أو الكفاح من أجلها أكثر من الجانب الذى يخصصه للتفكير فى احتمال الموت المبكر . اذ كان الناس على عهد الملكة فيكتوريا (ملكة بريطانيا) يحيطون الموت بمظاهر التقديس ، حتى يخفوا عن أنفسهم وطأة صدماته ، وحول الأثرياء الجنازات الى احتفالات مهيبة تتطلب نوعا خاصا من المراسم والاتيكتيك ، بل والفنون الزخرفية . وحولها الفقراء الى مناسبات تخضع لنفس البواعث السيكولوجية ، أى لكى يلتقوا بالأصدقاء والجيران ، وللاستعانة بنفس التقليد كبلسم يخفف من لوعتهم ، ويتيح الفرصة للشرب والغذاء والترثرة وأداء الشعائر ، ومشاطرة الأحزان والعطف على المحزونين . وتساعد عملية التذكرة على تيسير فرص المشووع والاحترام للموتى ، وللتخفيف من مشاعر لوعة فراق واحد من الأعزاء ، التى يشعر بها من استمروا باقين على قيد الحياة . وكان احتمال التعرض لموت مفاجيء غالبا ما يكون موجعا - من جراء الإصابة بمرض أو آخر من الأمراض الوبائية العديدة حينذاك - من الحقائق التى لا منص من وقوعها فى حياة أبناء القرن التاسع عشر .

وعندما نقول ذلك ، فاننا لا نقصد الايحاء بهول صلعة الموت على الأحياء . فعندما كانت تحدث إصابة « بالحمى » ، كانت تترك آثارها على حى بأكمله . وكانت مشاهدة الوالدين وأهل البيت أو صغار الأولاد وهم يتداعون على مهل أو يموتون فجأة من المشاهد التى يتعذر تفادى الباقيين على قيد الحياة الافلات من تأثيرها . ولم يكن بالمقدور مواساة أهل الفقييد الا بقدر محدود ، كتذكيرهم بحتمية وقوع هذا الحدث عندما تتقدم السن ..

ويبرز المؤرخون الاجتماعيون والطبيون الى التركيز على الأرقام الصماء لنسبة الوفيات . بيد أن مثل هذه الاحصائيات لا تكشف لنا الا القليل عما اعترى من بقوا على قيد الحياة من هزال ، أو عن الشقاء المادي أو السيكولوجي الذي ترتب على المرض أو الموت . وفيما يتعلق بتأثير المرض على الفقراء ، يمكن القول بأنه قد يعنى الانحدار الى درجة الكفاف والالتحاق بمعسكر من يستحقون الفوت . وقد يعنى المرض بالنسبة للمجتمع فى شموله تطل الحياة العادية والاحساس بالتوتر والهلعة التي تذكرنا بحالة مجتمع فرض عليه الحصار .

وبان القرن الثامن عشر ، ظهرت طائفة من مستحدثات الأغذية وتوافرت محصولاتها ، مما أدى الى حدوث تحسن فى توريد الغذاء ، تمخض عنه انخفاض فى نسبة الوفيات وازدياد مدعم فى عدد السكان . غير أن ما حدث من نزوح سريع الى الحضر فى بداية مراحل الثورة الصناعية لم يترتب عليه أى تبدل فى نمط التقدم العام . وتغير هذا الحال بأكمله تغيرا حادا قبل ارتقاء فيكتوريا لعرش انجلترا . فلقد ذاعت أخبار العودة المزجعة لمهد الأوبئة ، وجرت احصاءات بشأنها استندت الى أرقام منتزعة من بيانات الاحصاءات السنوية ، التي نشرها مكتب القبودات العامة الحديث الانشاء والأبحاث التي أجرتها الجمعية الاحصائية بلندن . وساهم ما نجم عن ذلك من ازدياد الدراية بارتفاع نسبة الوفيات بقدر كبير فى النهوض بالمدن فى عهد الملك جورج الخامس فيما بعد ، وصحب ذلك ارتفاع نسبي فى كثافة السكان المقيمين وسط المدينة الذين شعروا على حين غرة بانتشار الأوبئة ، مما شجع الطبقات الأثرى على ترك وسط المدينة والاقامة فى الضواحي . وساعدت عودة انتشار الأمراض المعدية والوبائية بمعدل عال - وبخاصة الكوليرا ، وهي مرض جديد على الحياة الانجليزية ، ولعلها أول وباء ينتشر فى البلاد منذ انتشار الطاعون فى القرن السابع عشر - على تذكير الانجليز فى عهد فيكتوريا بأنهم رغم ما أحرزوا من تقدم ، إلا أنهم ليسوا محصنين ضد اقتصاصات الماضى .

ان هذه الأمراض الوبائية الرئيسية ، رغم انتقالها على أنحاء مختلفة (أى عن طريق المياه الملوثة والأطعمة والملابس وأدوات الطهو وقمل الملابس والذباب أو رذاذ الفم) واحتياجها الى سبل مختلفة للعلاج ووسائل الوقاية ، تتأثر جميعا بالنظام الغذائي والنظافة الشخصية والعزل الصحي ، وترتبيات أسلوب العيش بالمنزل . وتتطلب هذه الأمراض شيئا أكثر من الفن العلاجي للطبيب ، والأبحاث التي يجريها المصلون . انها تتطلب من الدولة التفتيش والتحكم فى المصانع فى الكثافة السكانية المشسومية واهمال الريف . قصارى القول ، لقد دفعت هذه الأمراض الفؤلة للتضدى لمسائل الصحة العامة والاضطلاع بدور حارس البيئة .

ومن بين الأمراض القاتلة في العصر ، انفردت الكوليرا بنسبتها العالية كما أثبتت البيانات الإحصائية . فلقد اتبعت الكوليرا في تقدمها خطا صارما يلم من آسيا عبر أوروبا ، وغزا إنجلترا لأول مرة (١٨٣١ - ١٨٣٢) ، ثم عودت الكرة (١٨٤٨ - ١٨٤٩) ثم خفت حدتها (١٨٥٣ - ١٨٥٤) و (١٨٦٦ - ١٨٦٧) وتتساوى في الأهمية مع عدد الوفيات النسبة العالية للضححايا من مخالطى المرض (من ٤٠٪ الى ٦٠٪) ، وسرعتها في إصابة الأفراد . ومن غير المستبعد أن يموت الضحية بعد ساعات قليلة من ظهور أول أعراض المرض . ولكن الأعم من ذلك هو موته بعد عدة أيام من معاناة أوجاع الملمة والقىء والإسهال وخمول الجسم . وتنخفض درجة حرارة الجسم خلال هذه الأيام ، ويهبط النبض هبوطا شديدا ، ويتيسر الجلد . وخلال المراحل الأخيرة ، قد يعتقد أن المصاب قارق الحياة ، ورويت حكايات بشعة عن عمليات دفن متسرفة قبل الأوان ، وعن محاولة الضحية (الغلبان) الإفلات من المصير الزائف ، وتمزيق الكفن ! وازدادت المخاوف بعد أن حدثت حالات وفاة فجائية لأشخاص أصحاء ظاهريا . وكتبت إحدى المجلات (*) ١٨٣٢ مقالا عبر عما لوحظ من انزعاج :

« عندما نرى نفرا من أقراننا من المخلوقات ينعمون بصحة جيدة . ويتمتعون بكامل العافية وهم في مقتبل العمر ، تنتابهم بغتة أعراض تقلصات شديدة ، ثم يلقى بهم في القبر بعد ساعات قليلة . ألا تؤدى مثل هذه الحالات الى إثارة أشد الأعصاب صلابة ، والى إثارة هلع أقوى القلوب ؟ »

وهكذا اكتسبت الكوليرا اسم « مرض الصدمة » .

وزاد من حدة الانزعاج العام التقارير الواردة من أوروبا عن تعرض المسئولين أو الأطباء للمرض والمبالغة في ذكر الأخبار ، كما فعلت جريدة « لانسييت » عندما قالت « لم يتمكن أى شخص مهما علا مقامه من الإفلات من أوصابها . فقد أبيت عائلات كاملة ، وتحولت الأمم المتحضرة الى قطعان من الهج ، وتلاشت كل درجات التنظيم الاجتماعى وروابطه » . وليس من شك أن جريدة التايمز اللندنية كانت تبالغ ١٨٣٦ عندما اختارت عبارات مثل « الذعر الأكبر » . ولكن في السنة التالية ، وقعت ثلاثون حادثة من حوادث الشغب رافقت ظهور الكوليرا في لندن وليرفبول ومانتشستر واكستر وادنبرة وبرمنجهام وبريستول وشيفيلد وجلاسجو وجرينتش وبازل . وعلى عكس ذلك لم يحل تفشى الكوليرا فى مدينة هل وسلبى وليدز فى ربيع ١٨٣٢ دون حضور أهل البلاد القريبة من يورك مواكب القديس الذى يقام فى ذكرى وثيقة الإصلاح ١٨٣٢ ، كما

لم تساعد الكوليرا على تخفيف زخم التضاحم على مشاهدة السياق الأسبوعي للخيل . وقد أثار معظم أحداث الشغب المخاوف التي شاعت عن انتهاز طبلة الطب والأطباء فرصة تقشى الكوليرا للحصول على جثث الضحايا والاستعانة بها في دروس التشريح . وأشيع أنهم يقتلون ضحايا الكوليرا . وحدثت حالة من الخوف المرضى من الكوليرا (*)، امتلت بضعة أميال من مركز انتشار الوباء . فعندما ظهرت الكوليرا لأول مرة في سوندولاند في الشمال، ثار الذعر على الفور في مدينة كيرنفورن وجلوستر ونورويش وبليموث . وصحبت هذه الحالات دوما مخاوف الانتشال السريع(**) للمشتبه في موتهم والدفن المتعجل للضحية قبل التأكد من الوفاة ، أو الدفن في أرض مدنسة . ولا شك أن حالة الصحوه تتطلب الانتظار مدة معقولة بين الوفاة والدفن . وجاء اصرار الجهات المسئولة على سرعة دفن ضحايا الكوليرا متعارضا هو وعادة تكريم الموتى . فلقد حالت الأعداد الكبيرة للموتى دون احاطة عمليات الدفن بمراسم التكريم التي تتطلبها الأعراف . فكان رجال الدين يتلون شعائريهم في عجلة مع الابتعاد بالقدر الكافي الذى يوفر الأمان ، خارج حوش المدفن ، ولم تعر الجنازات أى اهتمام . وكما علقت شارلوت يونج على ذلك بقولها : « الأحياء أولى بالرعاية من الموتى » . وشعر الأيرلانديون بوجه خاص بالغضب من سرعة اجراءات الدفن ، وانجازها على وجه لا يناسب المقام . وفى بعض الأحيان ، حاولوا التصدى للسلطات عندما كانت تحضر لدفن الجثة ، ورفضت الشرطة المسئولة عن دساكر لندن الشهيرة الاقتراب من جثة أحد ضحايا الكوليرا ، وكان أقارب الضحية يحاولون حمايتها من الدفن المتعجل . وطلبت السلطات المحلية من بعض « الكونستبلات » الخاصين اقتحام المكان واخراج الجثة ، ولكن قواص الكنيسة أبلغهم بعدم سماح الأبرشية دخول أى كونستابل مهما كانت الأسباب ، ولن تقسم لهم أية مساعدة من الدار . وانتهى الأمر بتطوع بعض السقاين بحمل الجثة نظير خمسة بنسات لكل منهم . وهذا أجر سخى (لأنه يتساوى مع ما يتقاضونه لدى اشتغالهم يومين أو ثلاثة أيام) ويمثل ما سموه « بدل الهلع » (***) .

ودلت جميع الشواهد كحالة الخيل التي اجتاحت الحي بأكمله والرائحة النفاذة للغار المحترق وما يتصاعد منه من دخان كثيف ، ودمدمة نحيب أقارب الضحية عند خروج النعش مدى أثر الكوليرا . وابتد بعض المدن بعد هروب عدة آلاف من سكانها بمجرد لمحهم أول بوادر للكوليرا

Choleraphobia

(*)

Burking

(**)

Wages of Fear.

(***)

أشبه بمدينة أشباح : ولاحظ الدكتور اليزون « أنه قلما رثى أحد يسير في الطريق ، ولم يسمع أى صوت خلاف صوت العربة التي يركبها الأطباء ، والغمز الدائر على الألسن » . وفي مدينة بلستون قرب ولفر هانتون كتب أحد الشماسين بالكنيسة : « لقد توقفت تماما جميع أنشطة السكان ، ولم يعد هناك أى أحد يتمتع بالسلطة غير العوز والمرض والموت والفقر الشائع في كل مكان » . أما في ولفر هانتون نفسها ، فقد جاء وصف الطبيب المحلي لها على الوجه الآتي :

« في جميع الأركان ، لا يوجد غير أحد المرضى وأحد المحضرين وأحد الموتى . . . وساد الصمت المدينة ، الذي لا تقطعه غير أصوات دق جرس الخبز . ياله من صمت رهيب . وكانت الشوارع مهجورة ، لا يلمح فيها سوى خطوات الأطباء ، ومعاونيهم وهم يسرعون الخطى ، أو بعض من يبحرون بحثا عن يقدم لهم العون . ولا يسمع أى صوت غير أصواتهم وصوت أجش لحصان عربة الطبيب الأوحده وهو يهرع لاداء واجبه . ولعل هذه العربة كانت العربة الوحيدة التي تشاهد في الطرقات بعد أن كانت تعج عادة من شدة الزحام » .

ومما يثير الدهشة ، أن لا يوجد سوى قدر قليل من الذعر . وعلينا أن لا ننسى أن أول وبائين للكوليرا قد حدثا في فترة من فترات القلق السياسى والاجتماعى . وكشفا عن مقدار ما كان ينعم به المجتمع الانجيزى من استقرار .

ويزداد وضوح هذه الحقيقة على ضوء العجز الكامل عن السيطرة على هذا الوباء الوبيل ، ناهيك بالقدرة على منعه أو علاجه . إذ يستفحل شر مرض الكوليرا من جراء ابتلاع بعض المياه ، أو تناول طعام ملوث من تأثير نوع البكتريا المسببة لها ، وربما استطاع الفيبريو (*) الاستمرار في البقاء خمسة أيام في اللحم واللبن أو الجبن ، وبدرجة أقل في الخضروات ، وحتى ستة عشر يوما في التفاح . وبمقنوره العيش في الماء زهاء خمسة عشر يوما . وينتشر بدرجة أشد في المياه الملوثة بافرازات ضحايا الكوليرا ، أو عن طريق الذباب الذى يقفس أو يتغذى ببراز المريض .

وانقسم رأى الأطباء مما دفع الى اليأس من امكان تحليل اسباب الكوليرا . وبين مما نشر فى اكثر من سبعمائة بحث فى الحقبة الواقعة بين ١٨٤٥ و ١٨٦٠ عن الكوليرا فى لندن أن هذا المرض لم يكن « مرض الصلمة » فحسب ، ولكن أسبابه ومنعه كانا من الموضوعات التي تحتمل

تفسيرات شتى • ولاقت النظرية التي نعتقده أن الكوليرا من الأمراض المعدية الكثير من المعارضة • أولا - لأنها ستجر في ذيلها انشاء مناطق للعزل الصحي (كراتينية) • ويؤدى هذا الاجراء الى تعطيل التجارة ، وقيل ان أقصى ما يمكن أن يتحقق من وراء الحجر الصحي هو زيادة الفقر والبطالة لجباهير الشعب ، وبذلك تزداد خطورة انتشار الكوليرا • وعلى أية حال ، لم يكن من الميسور انشاء جهاز ادارى يحظى بالقبول لهذا الحجر الصحي داخل البلاد • وأثارت الاستماعة بالجيش شبح الاجراءات القمعية والأحكام العرفية • كما أن أجهزة الامن التابعة لوزارة الداخلية لم تكن جاهزة للنهوض بمثل هذه المهام • وعنهما قررت السلطة في ستراتفورد على نهر الافون فرض حصار حول المدينة ، كان عليها الاعتماد على زمرة طاعنة في السن ، وعلى الخثالة • ورئى أن هذا الاجراء لا يليق بمدينة خالدة انجبت أحد مفاخر انجلترا : شكسبير • أما الأهم فهو اصابة الكوليرا لبعض افراد من العائلة وعدم اصابتها لبعض آخر ، ومن ثم انهارت نظرية القائلين بانتقالها عن طريق العدوى • ورأت النظرية البديلة ارجاع انتشار الكوليرا الى « ميازمات » أو مخلفات العفن في البراز ، كما اعتقد شادويك • وبدا هذا الرأى وكأنه قد وضع اصبعه على السبب الحقيقى ، لأنه وجه الانتباه الى خطورة القاذورات ومخلفات الفائط المترتبة - بوجه خاص - عن عدم كفاية الصرف الصحي وتراكم القمامة •

على أن ازاحة الافرازات ازاحة كاملة كانت من المقترحات التي يحتاج تنفيذها الى وقت طويل ، بينما يتطلب القضاء على الوباء عملا فوريا • وذكرت عدة وسائل للعلاج ، أوحث معظمها باقتراب الفيكتوريين في تصورهم لمحاربة الأمراض الوبائية من القرون الوسطى ، أكثر من قربهم من عصرنا • وذكرت مجلة لانسييت في مقال مفعم بروح التفاؤل (١٨٣١) خبرا عن نجاح بعض يهود شرق أوروبا في النجاة من الكوليرا بفضل دهن اجسامهم بمحلول مؤلف من النبيذ والخل ومسحوق الكافور والمسطرده والغافل والثوم ومسحوق آخر للأجسام المجففة للخنافس التي تعرف هناك باسم الذبابة الإسبانية ! • ومر مورودو الأدوية المرخصة بأيام عصبية • اذ كان بين الوصفات أشياء عجيبة (*) • وفضل كثيرون الدواء الأكثر اغراء وتوافرا في الأسواق ، وكان عبارة عن عشرين نقطة من البلودنم (صبغة الأفيون) في زجاجة من البراندى !

(*) نكزت قائمة كبيرة لعلها معروفة للمشتغلين بالصيدلة او العطاره وعلى رأسها اكسير Moxon Effervescent Magnesium, Daffey. وخلطة من الخضروات الصحية الحقة •

أما العلاج الأبلغ أثرا ، رغم صعوبة الاعتراف بذلك ، وإن كان له أثر معترف به في طمأنة النفوس ، فهو إقامة الصلوات وصيام بعض أيام • وذكر هذا الاقتراح بعض أصحاب المناصب الدينية الوقورة • وأعلن في صوت هادر من فوق آلاف من المنابر أن الكوليرا عقاب أنزله الله بالناس لانحلالهم الخلقى والروحاني، ولافراطهم في الشراب، وعدم احترامهم لقدسية أيام السبت ، بالإضافة الى عدة ذنوب أخرى من ضمنها اعطاء حق الانتخاب لليهود ، والزواج من شقيقات المصابات بالوباء • واتجه الانجليكانيون بوجه خاص الى مطالبة الفقراء بالوثوق بالصلوات ، كما قدمت طائفة دينية أخرى كانت تطالب بالاستقلال الذاتي للكنائس علاجا أخلاقيا للوقاية من الكوليرا ويتلخص في التصف والنظافة والاجتهاد والجلد وتلاوة الكتاب المقدس • أما طائفة الوحدويين فنجحت الى نزعة أكثر عقلانية وأرجعت « الخطيئة الى الحالة العامة للطبقة الدنيا » ، التي تشجع على انتشار المرض • « وربما ساعدت الصلوات على شفاء الروح الجريحة ، ولكنها لن تداوي الجسد الممزق ، وإذا أفلحت في تنقية القلوب ، فانها لن تطهر الجو • • »

واتبع نفس الاتجاه الى حد كبير اللورد بامرستون • فعندما طلبت منه بعض الطوائف الكنسية أثناء زيارته ١٨٥٣ اعلان يوم وطني للصوم أجاب وزير الداخلية : « إن خالق الكون قد وضع قوانين معينة لطبيعة الأرض التي نحيا فوقها • ويعتمد ما يصيب البشر من كرب أو فلاح على مراعاة هذه القوانين أو تجاهلها • » وأشار بامرستون الى أن الأجدى هو « الشروع في تطهير أحياء الطبقة العاملة في جميع المدن ، والنهوض بها » حتى يتسنى الخلاص من :

« مصادر العدوى التي اذا سمح لها بالبقاء ستولد الوباء بلا مراة رغم كل شعائر الصلاة والصيام التي تقوم بها الأمة المتحدة ، وإن كانت خاملة الهمة • وإذا بذل الجميع قصارى جهدهم لتحقيق سلامتهم ، سيكون من المناسب حينذاك التضرع لله لكي يوفق جهدهم » •

وعندما رجع سيرجون سايمون بذاكرته الى استعراض الأحداث في نهاية تاريخه الطويل ، انضم الى رأى بامرستون ورآه يرمز الى « مميزات عصر جديد » • إن هذا العصر ، وما يتميز به من تصميم الحكومة المركزية على ارشاد الجماعات والطوائف المحلية ، وتوجيهها ، قد بدأ عندما انتشر وباء الكوليرا ١٨٣٢ ، وما تمخض عن ذلك من مطالبة الحكومة للتحرك • وبينما لم تفعل الحكومة شيئا ما لمواجهة « الحميات » التي كانت متوطنة في جميع المدن الكبرى ، والتي كانت على المدى البعيد مسئولة عن بعض الاصابات التي أدت الى الوفاة ، وفاق عندها ضحايا الكوليرا ، إلا أنها قد غطت الآن مرغبة على اتخاذ اجراء ما • وتم الاسراع في تشكيل مكتب

مؤقت لصحة بعد تبادل الرأي بين «المجلس الخاص» (*) وكلية الأطباء الملكية ٠٠ وكان هذا المكتب يتألف من رئيس وأربعة أعضاء من كلية الطب والمشرف العام على الحجر الصحي والمدير العام للخدمات الطبية فى القوات المسلحة والمستشار الطبى لادارة التغذية واثنين من العاملين خارج الدوائر الطبية .

وأصدر هذا المكتب المؤقت للصحة سنة ١٨٣١ و ١٨٣٢ مجموعة من التوصيات فى شكل تعليمات صحية ، وطالبت هذه التوصيات الحكومات والادارات المحلية باقامة مكاتب للصحة . واقترح أن تضم واحدا أو أكثر من المعينين المسئولين وأحد رجال الدين وعددا من أصحاب الدور الخاصة (وهى توصية تميزت بها هذه المكاتب على الهيئات المحلية السابقة) وواحدا أو أكثر من المشتغلين بالطب . وتضمنت التوصيات قيام المكاتب المحلية بتعيين مفتشين للأقاليم والأحياء ، ولعلها المرة الأولى التى تقترح فيها الحكومة المركزية انشاء شىء ما فى جميع أنحاء إنجلترا ، « للاشراف على حالة غذاء الفقراء وملابسهم وفراشهم ، والتهوية فى دور اقامتهم ، وحالة المكان ووسائل التنظيف وعاداتهم ، ومدى اتصافهم بالاعتدال والتعفف ، ، واشير الى وجوب طلاء المساكن وتنظيف أغشية الفراش ، واقامة مستشفيات للكوليرا ، وانشاء معسكرات للحجر الصحي - وان كان هذا المطلب الأخير لم يتصف بقدر كاف من الجدبة - بالإضافة الى توزيع الغذاء والكساء على الفقراء ، وتوحى هذه التوصيات بإدراك الحكومة ضرورة توافر النظافة فى أماكن الإقامة ، وكفاية الملابس والغذاء الوافى لزيادة مقاومة المرض ، بعد أن تعرضت لضغوط شديدة من تأثير أزمة الكوليرا . على أنه فى المقدين التاليين ، انتقل التركيز بفضل جهود المصلح البريطانى سير ادوين تشلويك (١٨٠٠ - ١٨٩٠) الى اصلاح المرافق الأكثر عمومية كمصادر المياه وأجهزة الصرف الصحي .

وتميزت أغلب توصيات المكتب بمعقوليتها ، ولكن الجهات المسئولة ظلت حائرة فى تفسير أسباب نفشى الكوليرا ، ومن ثم عمدت الى اضافة نصيحة بالشروط الواجب مراعاتها عند اختيار وجبات الغذاء ، الى جانب نصيحتها باتباع النظافة الشخصية ونظافة المأوى :

« عليك أن تتناول فى وجبة الغذاء مقدارا معقولا من شواء اللحم البقرى بدلا من اللحم المسلوق ، مع كسرة من الخبز الناشف والبطاطس وزجاجتين من النبيذ المتزج بالماء أو مقدارا مكافئا من المشروبات الروحية المتزجة بالماء ، أو الجمعة السوداء . وعليك التزام الحرص على تناول الفاكهة والخضروات الطازجة ، وتجنب اللحوم السميئة والماكولات المفرطة

الخلوة ، وباختصار ، وخشية التعرض للأصابة بالكوليرا ، تناول الوجبات الغذائية الجافة ، واحرص على أن تكون وجبتك كاملة القيمة الغذائية أكثر من كونها متعددة الأصناف ، والتزم الحذر عند تناول وجبة العشاء ، لأن الكوليرا غالباً ما تصيب ضحاياها عند اقتراب منتصف الليل ، وفي وقت مبكر قبل الشروق .

واعترف المنشور نفسه بإخلاق « بعدم العثور حتى الآن على دواء للوقاية من الكوليرا ، وحذرت توصياته من رؤى الدجالين وما يقال عن جدوى عملية الاستنزاف بواسطة دودة العلق ، والحمامات الدافئة المتبوعة بالتدليك بقطعة من القانيل ، أو تناول مزيج من زيت الحوت واللون ، والضمايدات المنقوعة في مزيج من زيت الخردل والنعناع وزيت التربنتين الساخن » . ومن الطريف أن مجلة لانسييت لم تر في هذه الوصفات ما يستحق النقد ، واكتفت بالتعليق عليها بالقول بأن المكتب لم يوضح توضيحاً كافياً دور الأطباء .

أما داخل البلاد ، فقد شعرت المجالس المحلية بقدر من الانزعاج من فكرة انشاء مكاتب وقتية للصحة وشن حرب عشوائية نوعاً على القاذورات طبقاً للأسس التي وضعها المكتب العام ، وأنفقت مبالغ من المال لم يسبق لها مثيل على النظافة ، فاعتمدت ادنبرة مثلاً مبلغ ١٩٠٠٠ جنيه لمحاربة الوباء (١٨٣٢) . غير أن هذه المكاتب كانت مؤقتة ، وتماثلت في أثرها المهلك هي والكوليرا ، لأنها بمجرد انتهاء الوباء سينسى أمرها ، وترتجل الإصلاحات على عجل ، ولم ينظر إليها على أنها وسائل لمواجهة التحدي ، وأنها أساس للنظرة الشاملة إلى مشكلات الصحة العامة . وإذا نظرنا فيما وقع في هذه السنة ، سنرى أن السجل السنوي (٢) ١٨٣٢ قد ذكر انتشار المخاوف على نطاق واسع : ففي كل مكان داهمته الكوليرا لم تكن بالفظاعة ولم يترتب عليها ضحايا بالقدر الذي تخلته التصورات المسبقة ، وكان الفزع أشد بدرجة كبيرة من الخطر . وعندما اختفى المرض شيئاً فشيئاً « شعر الجميع بالدهشة لما أصاب الناس من شدة الهلع » . وعندما عاودت الكوليرا الظهور بعد عقد ونصف من الزمان ، تبين ببشاعة مدى ضلالة ما أنجزته السلطات المحلية ، فحتى ١٨٤٨ ، فشل الوباء في الحث على انشاء مكاتب محلية للصحة في شتى أنحاء البلاد ، واستمرت مراكز عديدة لتجمعات الأهالي تعاني من البلبلة ومن جهل الشرطة ، وعمال الصرف الصحي والأضامة ووصف الطرق ، الذين كانوا جميعاً يرزحون تحت وطأة تخلفهم وافتقارهم للكفاءة إلى درجة محيطة للأمال .

وفي ١٨٨٥ ، عندما اشرف الدكتور بالارد على عملية مسح للكوليرا بتكليف من مكتب الحكومة المحلية ، انتهى الى القول : « بأن بمقدورنا الآن أن نواجه بشعور أخف من الفزع مما تشعر به أية دولة أوروبية ظهور وباء الكوليرا ، وليس من شك ٠٠ أنه غلّي الرغم من ظهور الكوليرا في ٦٤ مجتمعا (١٨٩٣) ، الا أنها اقتصرت على احداث اصابة واحدة في كل ٤٢ حالة ٠ وهذا بالتاكيد مقياس تقريبي لما حدث من ارتفاع في مستوى الخدمات الصحية العامة ، وكما كتب المسئول الطبي عن الصحة (*) في مكتب الحكومة المحلية بعد شعور بالارتياح والتهلل : « لقد جاءت هذه النتيجة ، والتي لم يسبق لها مثيل في تاريخ الكوليرا - في اعتقادي - بفضل تحسن الأحوال الصحية في إنجلترا ، وفي ١٨٩١ ، تسنى للحكومة « استبعاد الكوليرا كأحد الأمراض المستوردة من الخارج ٠ وبعد أن كان متوسط الوفيات سنويا قد بلغ معدل ٢٣١ في المليون من الأحياء ، في الحقبة الواقعة بين ١٨٤٨ و ١٨٧٢ ، هبط هذا المعدل الى مقدار تافه ٠٠٦ (١٩٠١ - ١٩١٠) » .

وفي الفترة التي تفصل انتشار الوباء الأول للكوليرا ، وانتشارها في الوباء الثاني ، قلت المجاهرة نوعا ببرد الكوليرا الى انتقال المرض عن طريق العدوى ، أو ارجاعها الى عقوبة موقعة من الله ٠ أما النظرية « المiasمية » فاستمرت مهيمنة على الرأي الطبي العام ، حتى بعد ظهور نتائج التجارب التي أجراها الدكتور وليم باد والدكتور جون سنو (**) ١٨٤٩ ٠ فقد استخلص الدكتور باد الذي أجرى إبحانا عديدة للتعرف على أسباب التيفوس والتيفود (١٨٤٩) الاعتقاد بأن « الكوليرا كائن حي من نوع متمايز ، يدخل الجسم أثناء عملية البلع ، ويتكاثر في الأمعاء بتأثير التكاثر الذاتي » ، وأذاع سنو هذه النظرية على نطاق واسع (***) .

وأتاحت لسنو ١٨٥٤ الفرصة لاثبات صحة نظرياته ، عندما تتبع حالات الكوليرا على نحو درامي وقاطع الدلالة في بيوت مزودة بمياة ملوثة مستمدة من شركات للمياه في ساوثورك وفوكسهول ، وعندما حاول اقناع الساطات المحلة بايقاف ضخ المياه في شارع برود بسوهو (وهو من الأحياء المكتظة التي بلغت فيها نسبة وفيات الاصابة بالكوليرا خمسين شخصا يوميا) ، وتوقفت حالات الموت المفاجيء ٠ وعلى الرغم من عدم افلاح أحد في التعرف على فيروس الكوليرا قبل نجاح العالم الألماني كوخ في هذا الشأن ١٨٨٣ ، الا أن ما أنجزه سنو يعد انتصارا لعلم الأوبئة ٠

Moh.

John Snow, William Budd

*** كتاب (On the Mode of Communication of Cholera. ١٨٤٩)

(*)

(**)

وعلى الرغم من أن الكوليرا كان لها وقع درامى تفردت به بين جميع الأمراض ، إلا أن الحمى خلال القرن التاسع عشر هي التي استحدثت السلطة المركزية والسلطات المحلية على بذل أعظم الجهود لمكافحتها . فالكوليرا تروح وتجيء ، كما لاحظ « المجلس الخاص » ١٨٦٤ « أما حمى التيفوس ، فالظاهر أنها لا ترغب في مفارقتنا قط » . وكانت مختلف أمراض الحمى تتصف دوما بتوطنها وغلبة ارتفاع معدل الإصابة بها عن المعدلات المعروفة عن الأوبئة ، ومن ثم فإنها كانت ترتبص وتهدد صحة البلاد . ولفتت الحمى الأنظار الى أوصاب القاذورات والفقر ، وبذلك أرغمت السلطات على الالتفات الى مسائل الصحة العامة ، يعنى الظروف الاجتماعية والبيئية ، بعد التعرف على أثر مستوى المعيشة وعواقبه .

ويعرف التيفوس أيضا باسم «الحمى الأيرلاندية» وحمى «السجون» و « حمى السفن » و « حمى العفونة » و « حمى المعسكرات » والتيفوس مرض مآكر خداع ، ينتشر بصفة أساسية عن طريق براز المصابين . وكانت نسبة وفياته عالية ، وإن كان حتى أواخر عهده لا ينتهى بالوفاة الا فى حالة ثلث الحالات المبلغ عنها . وانخفضت نسبة الإصابة بالتيفوس فى سبعينيات القرن التاسع عشر فى سائر أنحاء انجلترا . وفى سنة ١٨٦٩ ، عندما أمكن التفرقة بين التيفود والتيفوس لأول مرة ، كانت هناك حالات وفيات من أثر الإصابة بالتيفوس مقدارها (٤٢٨١) حالة فى انجلترا وويلز . واقترب عدد الموتى من التيفوس فى سبعينيات القرن التاسع عشر من ١٤٠٠ سنويا ، وخلال العقد التالى ، انخفض المتوسط الى ما هو أكثر ، فوصل الى أقل من ربعمائة ، وانخفض عدد الوفيات فى التيفوس والتيفود معا الى ما يقرب الربع بين احصاء (١٨٥١ - ١٨٦٠) واحصاء (١٨٩١ - ١٩٠٠) وفى ليفربول ، وهى مدينة فقيرة يقيم فيها نازحون من الفقراء والعمال العرضيين ، وعرفت بشدة اكتظاظها بالسكان، وقد أثبتت هذه المدينة أثر القاذورات فى انتشار المرض . ولما عولج هذا السبب انخفض المتوسط السنوى للوفيات من جراء الإصابة بالتيفوس من ٧٤٨ (١٨٠٦ - ١٨٦٠) ومن ٦٠٢ (١٨٦٦ - ١٨٧٥) الى ٢٢٨ (١٨٧٦ - ١٨٨٥) . وتضاهل العدد الى ١٥ شخصا فقط (١٨٩٦ - ١٩٠٥) ، وتناقص العدد الى ما هو أكثر من ذلك بين ١٩٠٦ ، و ١٩١٣ ، الى عدد تافه ، يعنى أقل من ستة أشخاص سنويا . ومما يثير الانتباه أنه بالرغم من استمرار التيفوس فى البقاء الا أنه قد ازداد التحكم فيه بدرجة ملحوظة ، ولم يعد وجوده فى محافل ليفربول يحمل أى تهديد باحتمال تحوله الى وباء داهم يصعب السيطرة عليه .

ككيف نفسر هذا الانخفاض الملحوظ ؟ لقد شاع القول حديثا باحتمال رد الانخفاض الدرامي في التيفوس في سبعينات القرن التاسع عشر ، الى حد كبير الى التاريخ الطبيعي للمرض ذاته أكثر من رده الى ما حدث من تبدل في البيئة الفيزيائية نتيجة لمخطط واع . وتستند هذه الحجة - من ناحية - على الترتيب الزمني للانخفاض . فقد زعم أنه كان أسبق في الحدوث من ظهور آثار النهوض بمرافق الصرف الصحي وموارد المياه ، وما عاد من ذلك من آثار حميصة على السواد الأعظم من الأدميين . ويشار دعما لهذه الحجة الى أن المناطق التي عانت أكثر من غيرها من وباء التيفوس كثيرا ما كانت آخر المناطق التي جرت فيها اصلاحات لموارد المياه ، فلم يتم انشاء مرافق المياه الجارية في أحياء الطبقة العاملة في لندن - حيث كان التيفوس متوطنا - الا في سبعينيات القرن التاسع عشر . ولا يستبعد تفسير آخر ركز على حدوث « تغير خارجي في خطورة تأثير الكائن اللدقيق الناقل للمدوى » وابتعد عن تأكيد دور برامج اصلاح المدن تبعا لمخطط واع ، وهذا لا يعنى « انه استبعد هذا العامل الأخير استبعادا كاملا ، ولكنه سعى فقط لاعادة ترتيب أولويات العوامل العلية » .

وهناك بالتأكيد الكثير مما يدعم هذه النظرية التي صححت المعتقدات السائدة ، وبخاصة لأن انخفاض عدد الوفيات بالتيفوس بالرغم من عدم اتصافه بالاطراد على الإطلاق قد انتشر ابتداء من سنة ١٨٧٠ ، وبعد ذلك ، بينما لم يحدث تحسن مماثل في الرعاية الصحية في ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر ، اذ قلت خطورة الإصابة بالتيفوس واحتمال تسببه في موت ضحاياه في البقاع التي لم تصل اليها اصلاحات النواحي الصحية . ومع هذا فلعلنا نتساءل هل كان التيفوس سيتضاءل بنفس هذا القدر المهض في المواضع المزدهمة كحارات المدن الكبرى وسجونها ومحاكمها ، لو أنهم اكتفوا باضعاف الكائن اللدقيق ، ولم يعملوا الى ازالة القمامة ونزح نفاية الصرف الصحي ، فلقد تضاءلت الإصابة بالتيفوس ، وتباطأت سرعة انتشاره في مدن مثل بللماست ودبلن وسوندلاند ولينغربول ، أى في المدن التي تقاعست عن تنفيذ عمليات اصلاح المرافق الصحية وموارد المياه ، حيث نجح الفقر المنتشر في التمايش مع القاذورات ، وعندما تكون الكائنات الدفيقة في حالة نزوع الى الضعف فانها لن تحتاج الى ما هو أكثر من أوهى المؤثرات الاضافية (كرفع المستوى الغذائى مثلا) كي تزداد ضعفا . وبينما يصح القول بأن التيفوس قد خفف من قبضته المريعة قبل تعميم نظام الصرف الصحي ومشروعات المياه في شتى أنحاء انجلترا ، فلا يمكن أن ننكر أن أبسط التحسينات التي تمت في ستينيات القرن التاسع عشر كإلخلاء من القمامة الملوثة واستعمال الأواني والأسطال الجافة التي تتوافر فيها الشروط الصحية والاكثر من الاستعانة بالقطنيات

« الأسهل في غسلها من الملابس الصوفية » في صنع الملابس الداخلية وأغطية الفراش ، قد عجبت باضعاف أثر التيفوس . وإذا سلمنا بالقول بأن الطبيعة ذاتها كان لها دور أساسي في التخفيف من أثر التيفوس ، كمرض قاتل ، فلا بد أن نصحح هذا الرأي ونقول ان الطبيعة كانت تعتمد على جهود المجالس البلدية وتشجيعها .

وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، كان من الصعب التفرقة بين التيفوس والتيفود ، وكان هناك خلط بينهما ، وبينما يصيب التيفوس المريض بالوهن والخور وينتشر عن طريق قملة الجسم ، فإن التيفود من الأمراض البكتيرية ويتشابه هو والكوليرا في انتقاله بوساطة الطعام والشراب الملوثين . ويحتمل أن يكون حامله ، أى من ينقل المرض من شخص لآخر محصنا من الإصابة . وتضيف هذه الظاهرة الى غموض التيفود ، ويعرض مريض التيفود جميع أعراض الحمى وآثارها كإصابة بالفتور والخمول وفقدان الشهية والحرارة المرتفعة المتواصلة ، التي ربما صاحبها حالة اسهال شديد (ولا تصحب هذه الأعراض التيفوس على الاطلاق) . وربما كانت جرثومته عالقة بالماء ، وبخلاف ما يحدث في التيفوس ، فإن الإصابة به قد استمرت طيلة القرن التاسع عشر ، وتعرضت لها أيضا جميع الطبقات . فقد مات بسببه الأمير البرت ، وأصيب به إصابة خطيرة ادوارد أمير ويلز ، أثناء اقامته في القصر الريفى للكونتيسة لوندسبيرى (*) . ومات بنفس هذا المرض سايس الأمير والايرل شسترفيلد ، الذى كان مقيما بالقصر أيضا . وساعدت نجاة الوردب الشرعى للعرش البريطانى ، بعد أن كان مهددا بالموت على تحذير الآخرين من أبناء الطبقة الأرستقراطية بضرورة العناية بوسائل الصرف الصحى فى دورهم . وبعد ذلك بعامين ، تفشى التيفود فأصاب احدى كليات جامعة كيمبردج ، ولقت الانتباه الى بدوارة وسائل الصرف الصحى بالكليات التى يتخرج منها زعماء بريطانيا . وعلى الرغم من احتمال انتقال العدوى بالتيفود عن طريق سبل متعددة ، الا أنه من الواجب تشخيصه كباقى الأمراض الاسهالية كمرض من أمراض القاذورات . ومن غير المستبعد أن تكون المياة الملوثة ببراز آدمى وراء معظم الوفيات التى نجمت عن الإصابة بالتيفود فى القرن التاسع عشر . فمثلا فى مدينة ستوكبورت ، بلغت الإصابة بالدور التى لا يزيد إيجارها الشهرى عن أربعة جنيهات أربعة أمثال الإصابة فى الدور المجهزة بدورات للماء ، وثمانية أمثال الدور التى يتراوح إيجارها الشهرى بين خمسة جنيهات وثمانية . وعندما أوفد المجلس الخاص (١٨٧٠) الدكتور بوشانان (**) للتحرى عما اعتقد أنه

Countess of Londeborough.

(*)

Buchanan.

(**)

إصابة بالتيفوس (وإن كانت الحقيقة قد بينت أن الإصابة كانت بالتيفود)
وأى وجود مؤثرات « تحت الإصابة بالأمراض الاسهالية ، نظرا لسوء حالة
وسائل التخلص من البراز وتلوث مياه الشرب ، مما جعل الآدميين مرغمين
على شرب برازهم » .

ولربما ساعد تعميم وسائل الصرف الصحي التي ساعدت بلا ريب على
الاقبال من عدد المتوفين من جراء الإصابة بالتيفوس ، على زيادة عدد
وفيات الإصابة بالتيفود . وهذه نكتة تثير السخرية ! ويرجع السبب
الى أن عمال الصرف الصحي كثيرا ما يلقون بالبراز الملوث فى الأنهار
التي تعد مصدرا رئيسيا لمياه الشرب وبغض النظر عن السبب
الحقيقى ، فان التيفود قد استمر متوطنا حتى نهاية القرن ، وحات فى
أمره السلطات المحلية والحكومة المحلية ، وبمجرد التفاتهم الى أحد المصادر
التي يحتمل نقلها للعدوى ، ظهر مصدر آخر أثار اشتباههم كمصادر المياه
واللبن والمواد الغذائية مثل الكارسون المائى (حب الرشاد) وبعض
الأسماك . واعتبرت جميع هذه الأشياء من حين لآخر مسئولة عن انتشار
التيفود . وكانت مقاطعات نورثمبرلاند ودورهام ويوركشاير لتفادى
تكرار الإصابة بوباء التيفود . واستمرت مدن أخرى (*) تتعرض لوباء
التيفود حتى نهاية هذا القرن . إذ كانت جميع هذه المدن تستقى مياهها
من نهر التيمز ، وفيه تلقى عشرون قرية مخلفات صرفها ، دون تنقيتها .
وبوجه عام ، بلغ عدد وفيات التيفود ضعفى باقى الوفيات فى المدن والريف
على السواء .

وهكذا وأصل « التيفود » دوره كقياس لعدم كفاية مصادر المياه
وسائل الصرف الصحي حتى نهاية القرن . وعندما تفشى التيفود فى
بعض المواقع ، كميدستون مثلا ، انتهزت المكاتب المحلية وانتهز المسئولون
عن الشؤون الصحية الفرصة فقموا المختصين بالمياه محليا للمحاكمة .
وحتى عندما حدث اشتباه فى إرجاع التلوث الى مصادر أخرى (كاللبن
أو الروت الذى يستخدم لتسيخ التربة) كثير ما استغل التيفود كوسيلة
للمضط على شركات المياه المحلية للعناية بمراقبتها .

وعلى الرغم من غموض أسباب الإصابة بالتيفود وأسباب تفشيه ،
وعدم الدراية بها ، فقد نجحت وسائل تحسين الامداد بالمياه والعناية
بمراقب الصرف فى تخفيف آثاره الضارة ، إذ بلغ عدد الوفيات من التيفود
فى الحقبة الواقعة بين ١٨٩١ و ١٩٠٠ نصف عدد الوفيات من ١٨٧١ -

١٨٨٠ على وجه التقريب ، وما أن جاءت ١٩٠٤ حتى انخفض معدل الوفيات .
الى ما هو أقل من ثلث المعدل الذى ساد طوال سبعينيات القرن التاسع
عشر .

نظرنا حتى الآن فى الأمراض الوبائية التى تصيب الأمعاء ، وان كانت
الأمراض الرئيسية للقرن التاسع عشر قد اشتملت على العديد من الأمراض
التي تصيب الجهاز التنفسي والرئتين ، وعلى سبيل المثال ، كانت الانفلونزا
من الأمراض المتوطنة طوال القرن التاسع عشر ، وانتشرت بعض الأمراض
الوافدة فى فترات مختلفة بين (١٨٣٠ و ١٨٣١ وبين ١٨٣٦ - ١٨٣٧
وفى سنة ١٨٤٣ ومن ١٨٤٧ - ١٨٤٨ وأيضاً من ١٨٨٩ الى ١٨٩٢) ،
وعندما انتشرت الانفلونزا فى ١٨٤٧ و ١٨٤٨ بلغ عدد ضحاياها خمسين
ألف شخص فى لندن وحدها . ويعادل هذا العدد حوالى خمسة أضعافه
عدد وفيات الكوليرا (١٨٤٩) . وساعد على انتشار الانفلونزا نوع
المأكولات التى يتغذى بها الفقراء ، والتي تضعف مقاومة الجسم . وأيضاً
أحوالهم الاجتماعية العامة وارتفاع ثمن الوقود واستسلمت جميع الأطراف
للانفلونزا معظم سنوات القرن ، ولم تبدأ تثير اهتمام أجهزة الصحة العامة
الا فى القرن الحالى .

وتحولت أمراض عديدة أخرى الى أمراض وبائية من تأثير انخفاض
مستوى التغذية ، وما تبع ذلك من ضعف فى المقاومة . ولكن جميع هذه
الأمراض لم تتماثل مع الحالة التى وصلت اليها الحمى القرمزية ، ولقد
خشى الجميع هذا المرض ، لانخفاض نسبة نجاة الأطفال الذين كانوا
يصابون بها . (اذ كان ٩٥٪ من المصابين فى جميع الحالات من الأطفال
الأقل من عشر سنوات) . وفى وقت متأخر كثمانينات القرن التاسع عشر
كان هناك فى ادنبرة طفل يموت من بين كل ١٤ يصابون بالمرض ،
بينما اختطفت هذه الحمى ابان الوباء الكبير فى ثمانينات القرن التاسع
عشر واحدا تقريبا من بين كل خمسة أطفال من المصابين بها . وعلى الرغم
من الاشتباه فى تلوث اللبن كمصدر للمرض ، الا أن سببه الحقيقى لم
يعرف ، واستمر من الأسباب الرئيسية للامانة طيلة القرن . وفى ١٨٦٣ ،
مات من جرائها ٣٤٦٠٠٠ وفى ١٨٧٤ ما ينوف عن ٢٦٠٠٠٠ . وفى لندن
وحدها ، كانت سببا لموت ألف أو يزيد فى وقت متأخر (١٨٩١) .
وطالب سير جون سيمون (١٨٩١) بعد أن أصابه الاحباط لاختفاق
الاجراءات الصحية لمنع انتشارها ، بانشاء نظام للحجر الصحى يتماثل
فى الصرامة هو والنظام المفروض على الحيوانات المصابة ، وطالب أيضاً
بانشاء مستشفيات للحجر الصحى . وبطبيعة الحال ، تعذر انشاء نظام
لحجر الصحى فى المساكن المكتظة للفقراء . وعلى الرغم من الحاج هذه .

الضرورة ، الا أن السلطات المحلية تقاعست في الاستجابة لمطلب انشاء
عنابر للعزل في مستشفيات الأطفال والمستشفيات . ويرجع ذلك الى
الجهل بطريقة انتقال المرض ، والى التقدير ، وبعد ثلاثين سنة من تقدم
جون سيمون لأول مرة بمطلبه ، استمرت السلطات المحلية عاجزة عن
الاستجابة لرغبات المسئولين المحليين عن الصحة . وهكذا كان الأطفال
يتنقلون أحرارا من دورهم التي تعرضت للاصابة الى المدارس ، ويعودون
منها ناقلين المرض الى دورهم في أحيان أخرى ، (وكانت الحصبة بالمثل
من الأمراض المعدية التي لاقت نفس المصير) . وفي الحالات التي اتبعت
فيها اجراءات العزل المعززة بالتبليغ المباشر عن الحالة ، وبالرقابة المحكمة
على توريد الألبان ، كانت النتائج مذهلة في أغلب الظن . وبوجه عام ،
يمكن القول بأنه بين ١٨٦١ و ١٨٩١ ، هبط عدد وفيات الحمى القرمزية
بمقدار ٨١٪ . ويرجع ذلك جزئيا الى ضعف قوة الميكروب السببي الذي
يسبب الحمى القرمزية ، أو مناعة أهل الحضرة . وقد اشتركت عوامل
مختلفة في تحقيق انخفاض الإصابة بالحمى القرمزية ، مما جعلها لا تزيد
عن نسبة ١٩٪ من معدل الوفيات العامة في النصف الثاني من القرن
التاسع عشر .

ومن الأمراض المميتة الأخرى التي كان يخشى بأسها : الدفتيريا (*) .
وبعد أن يبدأ هذا المرض بتقرح في الحلق يتحول بسرعة الى تسمم الدم
وهبوط في القلب أو الى التهاب في الغشاء المغلف لفتحتي الأنف ، يتطلب
شق القصة الهوائية ، وغالبا ما كانت تجري هذه العملية عندما تسوء
الحالة ، كمحاولة أخيرة لانقاذ المريض ، وتستعمل في جراحاتها آلات بدائية
أو ربما بعض الأدوات المستخدمة في المطابخ ! وكان المسئولون عن السجل
العام يدرجون الدفتيريا ضمن مرضى الحمى القرمزية حتى ١٨٦٠ ، ولم
تعامل معاملة علمية جادة الا في النصف الثاني من القرن . وفي ١٨٨٣ ،
نجح ادوين كريبيس في التعرف على جراثيمها . وفي ١٨٩٤ ، شاع
استعمال مضادات السميات . وكما حدث في حالة الحمى القرمزية ،
كانت نسبة وفيات المصابين بالدفتيريا عالية (حوالي ٢٠ - ٢٥٪) وتماثلت
أيضا والحمى القرمزية في عدم معرفة سببها وطريقة انتقالها ، مما دفع
المسئولين الرسميين عن الصحة الى اعتبارها لغزا ، والى الجنوح الى القاء
تبعة الإصابة بها على الوسائل غير الصحية المتبعة في توريد الألبان .
وكان لهذا الاتهام ما يبرره . وشعرت الجهات المسؤولة عن الصحة العامة

(*) تسمى أيضا Croup وتعنى التهاب الحلق والتقرح والعلق في الحلق
أو التقرح الخبيث بالطلق أو حمى الحلق . وتوى هذه الأسماء من غموضها بمسمى
الجهل بطبيعة المرض .

بعد تزايد عدد وفيات الأطفال الأقل من ١٥ سنة من الدفتريا في السنوات العشرين الأخيرة من القرن بالاحباط . واحتدم الخلاف حول تأثير اللائحة التعليمية الصادرة في ١٨٨٠ على زيادة نسبة الوفيات من الدفتريا والحصبة والحمى القرمزية . وزودت لائحة ١٨٨٠ اللائحة التعليمية التي سبق إصدارها ١٨٧٠ ، بأنياب حادة أرغمت السلطات المحلية على تشديد مواظبة التلاميذ على الانتظام في الدراسة . وقيل ان ازدياد الاحتكاك بين الأطفال من بين الاسباب الدامنه وراء ارتفاع معدلات الوفيات .

ولعل « السل » كان أشجع الأمراض القاتلة التي تصيب الجهاز التنفسي أو الأمعاء ، وربما أمكن القول بأن ثلثي من ماتوا من المرضى في عهد فيكتوريا كانوا من ضحاياه . وهكذا صدقت تسمية الأديب الإنجليزي جون بنينان في القرن السابع عشر له « بالطاعون الأبيض » و « زعيم رسل الموت » . وعلى الرغم من الربط بينه عهدا طويلة وبين الفئانب والشعراء ، وعلى الرغم من إصابته لجميع الطبقات ، إلا أنه كان وثيق الصلة بمستويات التغذية ، وكانت أفدح وادهى إصاباته تحل في أحياء الطبقة العاملة بالمدينة ، ممن يحيون في ظروف تهوية سيئة وفي دور مكتظة . وكان المرض ينتشر بسرعة ، وتزداد خطورته القاتلة ، عندما تتكرر إصابته لشخص يقيم في أماكن سيئة التهوية ، واسترعى انتباه أحد الأطباء انتشار المرض بين الترتزية ، منذ مشارف هذا القرن . كما اجتذب انتباه « المجلس الخاص » شيوخه بين غيرهم من العاملين في أماكن مزدحمة كالتخزين وعمال المناجم وبائعي الملابس الداخلية . ومن المتعذر تحديد المسار البياني لسير مرض السل على نحو موثوق منه ، لاختلاطه في الأغلب بأمراض أخرى ، بما في ذلك السرطان ، ولم يكن هذا المرض من الأمراض التي تركز عليها الانتباه حتى ١٩١٢ . ومع هذا فالظاهر أنه في الحقبة الواقعة بين ١٨٥١ و ١٨٦٠ ، وبين ١٩٠١ و ١٩١٠ ، انخفض عدد الوفيات إلى قرابة النصف ، وعلى الرغم من الآمال المبشرة ، التي حملها هذا الانخفاض ، إلا أن السل قد ازدادت أهميته نسبيا حتى أصبح على نهاية القرن المرضى التالي للسرطان من بين الأسباب الرئيسية المؤدية للموت . وزعم ١٨٩٤ أنه في كل سنة ، يموت ثلاثة أشخاص لاصابهم بالسل مقابل مئة واحدة كانت تحدث أثناء العمليات الجراحية أو من جراء المرض . أثناء حرب القرم . ومع هذا فقد حدث انخفاض له أهميته . إذ ينسب نصف ما حدث من انخفاض في المجموع الكلي لمعدل الوفيات في النصف الثاني من القرن إلى ما حدث من انخفاض في نسبة الموتى بمرض السل .

« ويزودنا مرض السل » بدليل حساس ربما يفوق باقي الأمراض التي ذكرناها أنفا عن الحالة المعيشية في أي مجتمع » . ويحتاج التغاب.

عليه الى اجراء تحسينات بعيدة المدى فى احوال الإقامة ومعايير التغذية ونوعية الابان . ولقد حدثت تحسينات فى هاتين الناحيتين الأخيرتين ، ولكن ما باليد حيلة اذ ظل الاكتظاظ بالسكان مشكلة عارمة ، وظلت الاكواخ والساكر (*) التى ترتفع فيها نسبة الاصابة بالسل الى قرابة ٥٠٪ زيادة عن نسبة الوفيات فى النوع الآخر من محلات الإقامة فى المنطقة ، والتى اختلفت احوال معيشة الطبقة العاملة فيها عن ظروف الاعاشة ، بعد منتصف القرن .

ولا يستبعد أن تكون محاولات الجمعيات الخيرية وأجهزة الاشراف على الشئون الصحية قد ساعدت على تناقص الاصابة بالنسل ، فلقد حولت السلطات المحلية فى نهاية القرن التاسع عشر السيطرة على المنقذات المشوشة التى تنقل السل ، وأصدرت السلطات فى أولهاام تعليمات تحذر فيها المواطنين من ارتفاع نسبة العدوى من السل ، واحتمال انتشاره بمجرد بصق الشخص المصاب بالمرض . وحظرت التعليمات المواطنين من البصق فى الغرف العامة وعربات السكك الحديدية ، وغيرها من الأماكن العامة ، ونصحت باحراق المناديل والخرق التى يستعملها المسولون فور انتهائهم من استعمالها ، وأخطرت الكافة باستعدادها لتطهير البيوت التى يشغلها المصابون بالسل ، وبالمثل ، أصدرت السلطات المسئولة عن الشئون الصحية فى برايتون « تعليمات للوقاية للمصابين بالسل » ، حثت فيها المواطنين على عدم البصق الا فى « أوعية يمكن تفريغ محتوياتها قبل أن تجف » . وراود الجهات المسئولة الأمل بأن تقتدى انجلترا بالمثل الذى ضربته الولايات المتحدة ، وتحظر البصق فى الأماكن العامة ، وذكرت بعض جوانب من الوسائل الوقائية التى يصعب حصرها . . . وليس من شك أن التنبيه باستعمال المناديل وعدم البصق لم يسهم ببلور كبير فى الاقلال من احتمال نقل العدوى عن طريق الجو الحامل للجراثيم . ولعل السلطات الصحية قد تقاعست عن فرض القوانين التى تمنع البصق ، والتى تشدد على فرض رقابة صارمة على الابان ، لأنها لم تتبن النظرية الجرثومية للأمراض الا بعد لى ، مما حدا برئيس القسم الطبى فى الجمعية الطبية الانجليزية الى المجاهرة بعد قرابة ١٧ عاما من اكتشاف ميكروب السل بما يأتى :

« أقول ان بمقدورنا محاربة الدرن على الطريقة التقليدية ، برفع مستوى الوراثة عندهما يتيسر ذلك ، وبارتقاء مستوى البيت وأحوال المعيشة والعمل ، فجميع هذه السبل ممكنة على الدوام ، وتحتاج لتدخل المسئولين ،

أما هذه المطاردة المخبولة لجراثومة السل ، وكأنه بالاستطاعة تفريغها في مبطقة منها بنسان ونصف بنس ، ثم الخلاص منها ، فلمرى أنها أحقق حرب صليبية شنت على أساس بعيد عن المنطق ،

ولما كان قد أصاب في نظره للأسباب التي أضعفت مقاومة السل ، فانه قد كشف عن احجامه على الموافقة على الاعتراف بالسبب الأصلي للمرض ، وفي ذات الوقت ، فقد استمر الهلع من السل • ولجا الفقراء للوصفات الشعبية مثل أكل القواقع الحلزونية الحية وبيض الذباب ، أو استنشاق الهواء المتصاعد من أنفاس الخنازير والبقر والخيول ، أو استعانوا بمقاير الجبالين • وما من شك أن اتباع هذه الوسائل قد بدأ أرحم في نظرهم من انتظار الارتقاء بمستوى المعيشة الذي يستغرق وقتا أطول •

ومن بين جميع الأمراض البوابية في القرن التاسع عشر ، انفرد الجدري بإمكان التغلب عليه ، ووده ، اعتمادا على أحد الاكتشافات الطبية ، وقدر الانخفاض في نسبة الوفيات من المرض في عهد الملكة فيكتوريا بخمسة في المائة من معدل الوفيات من الأمراض • وتحقق ذلك بفضل التطعيم الاجباري الذي أقحم الدولة في المسائل الصحية العامة على نحو مباشر ، وبطريقة بدت ديكتاتورية في نظر بعض النقاد المعاصرين • ولقد شاع التحصين على نطاق واسع طبعا للعملية التي ابتكرها (١٧٩٨) العالم الفزيائي البريطاني ادوارد جينر (١٧٤٩ - ١٨٢٣) عندما اعتلت فيكتوريا عرش إنجلترا ، وصدر قرار من البرلمان ١٨٠٨ يبين مدى ما سيمود على رعايا جلالة الملك بالخير والفائدة من جراء انشاء معهد مركزي لتصنيع المصل • وفي ١٨٣٢ ، أنتجت منشأة الأمصال الوطنية (وكانت وقتئذ تحت اشراف كلية الطب الملكية ثم انتقل الإشراف عليها الى المجلس الخاص ١٨٦٠) ما ينوف عن مائة ألف عبوة من « اللنف » ، كما أنتجت بين ١٨٣٧ و ١٨٣٩ ثمانمائة ألف عبوة أخرى •

ومن المحتمل نسبة الفضل للتطعيم بالجدري في تعريف المواطنين على عهد الملكة فيكتوريا مبدا التخلل الحكومي في مسائل الصحة • وكتبت مجلة الجرافيك (١٨٧١) « ان منظر أبناء الشعب ، وهم يمرون أذرعهم اليسرى انتظارا لخشها ، لمن المناظر المثيرة للسخرية ، ومجرد اقبال الناس على ذلك يثير الضحك » • وعلى الرغم من أن مجلة الجرافيك قد اكتشفت ما يبرر السخرية من حالة الاطمئنان والرضا التي ارتسمت على أوجه المقبلين على التطعيم ، فان منظر « الاستسلام الرهيب » عند من يتهاون لخش أذرعهم ، والارتجاف من الرعب عند من لمس المشرط أذرعهم - ومهما بدا في هذا المنظر من مظهر آدمي هزلي - الا أنه كشف عن جوانب بعيدة الأهمية ، فلقد مثلت هذه الحالة وكشفت عن استعداد الرأي العام

للوثوق ثقة كافية في علم الطب ، مما دفعها الى تقبل الحقن بجراثيم من المرض اللعين . والواقع أن العملية برمتها قد برهنت على الابتعاد الملحوظ عن مبدأ اطلاق الحرية دون قيد أو شرط (*) ، والتحرر من تدخل الحكومة . ولم يكن مستغربا أن تهب حركة قوية مناهضة للتطعيم باسم الحفاظ على قدسية الجسم الأدمى وسلامة كيان الدولة ومستندة على أسس دينية وسياسية تهدف الى وجوب الدفاع عن حقوق الفرد ضد هذا التهديد الجديد للعولة المتطبية . وقيل على نحو شبيه بما يحدث الآن من معارضة للارغام على ارتداء راكبي الدرجات البخارية للخوذات بأنه من الواجب أن يسمح للفرد بتجربة حظه مع الموت ، بدلا من تعريضه للتهديد والخضوع لدولة بوليسية فضولية ثرثارة . ووضحت بعض النساء من أمثال آن سابل التي استدعاها المسئولون خمسا وعشرين مرة لاستجوابها لرفضها « أن تكون طرفا في عملية تسميم طفلها الرضيع » ، على حد قولها ، والتي واجهت الحكم بالحبس ، وفضلت ذلك على الخضوع لعملية التطعيم . وبذلك أصبحت هي وأمثالها شهيدات وشهداء لهذه القضية .

ولم تفرض الحكومة على عهد فيكتوريا التطعيم الاجبارى على الشعب ، قبل اجتياز مرحلة تجربة التطعيم الطوعى ، ومثل وباء الجدري (١٨٣٧ - ١٨٤٠) ، والذي مات فيه ٤٢٠٠٠ شخص تحديا كان من الضروري مواجهته . وكان الرد على ذلك هو صدور قرار بالاذن بالتطعيم (١٨٤٠) يبيح لكل شخص التطعيم على نفقة الدولة ، وأوكل عبء الاشراف على عملية التطعيم على المسئولين عن تنفيذ قانون الفقراء ، الذى كان متقلا بالفعل بالأعباء . ولم يتقرر التطعيم الاجبارى الا سنة ١٨٥٣ ، بعد أن أجريت دراسة من قبل جمعية علوم الأوبئة في لندن . ونص هذا القرار على الزام الآباء بارسال أطفالهم للتطعيم بعد ثلاثة شهور من مولدهم . وعلى الرغم من أن التقرير اعتبر التطعيم مسألة عامة في شتى أنحاء إنجلترا ، الا أن تنفيذ القرار تم على نحو عشوائى ، وتفشى الجدري بين ١٨٧٠ و ١٨٧٣ (ومات في هذه الفترة حوالى ٤٤٠٠٠ ، ربعهم تقريبا من لندن وحدها) وتوافق ظهور هذا الوباء هو تعيين مجلس صحى لشتون الجدرى انتهى الى اصدار قرار جديد لمكافحة هذا المرض ، واحكام تنفيذ الطابع الاجبارى للتطعيم ، والنص على الزام المكاتب المحلية بتعيين مسئولين عن التطعيم ، وفرض غرامة تصل الى ٢٥ بنسا على من يرفضون تطعيم أطفالهم ، وبالسجن لمن يرفض دفع الغرامة .

ولربما خطر بالبال احتمال اثاره وباء (١٨٧٠ - ١٨٧٣) قدرا كافيا من الفزع يدفع المواطنين لتعميم التطعيم ، ولكن ما حدث كان عكس ذلك ، ولقد حشمت الحركة المناهضة للتطعيم صفوفها في الربع الأخير من القرن . وترتب على ذلك هبوط معدل من طعموا من الأطفال من ٨٥٪ (١٨٧٣) الى ما هو أكثر قليلا من ٧٠٪ (١٨٩٧) ولقد كانت فاعلية التطعيم ضد الجدرى مسألة لا يتطرق اليها الشك . ففي وباء ١٨٧١ ، لم تزد نسبة الوفيات في لندن بين من أصيبوا بالمرض ، وسبق تطعيمهم عن ١٠٧٪ أما نسبة الوفيات بين من لم يطعموا فكانت ٤٥٪ ولا يستبعد أن ترجع أسباب التفاوت الى أسباب أخرى .

وبدأت الحركة المناهضة للتطعيم نشاطها بعد صدور القرار ١٨٧١ بتعيين مسئولين عن التطعيم في جميع أنحاء البلاد ، واستمرار الاجراء الذي اتخذه « المجلس الخاص » بايفاد مفتشين للتفتيش على المراكز المحلية للتطعيم . واعتبر « تدخل » الحكومة المركزية الى جانب الالزام الذي فرض على السلطات المحلية حينذاك بتعيين مسئولين عن التطعيم ، واستحابة اختيار حل بديل لذلك ، من قبيل الوسيلة التي كانت تتبعها مدينة لايسستر التي كانت تخطر المصاب أولا ثم تمزله - اعتبر لطمة انتهكت حريات السلطات المحلية ، واعتقد كثيرون تمشيا مع المخاوف الكامنة والملاحظة منذ امد بعيد في البلاد ، أن اهتمام الحكومة بالصحة العامة قد يؤدي الى اصصدار قرارات ديكتاتورية ، فحتى ذلك العهد ، اقتصر دورالحكومة على عملية الاعلام والاقناع ، ولكنها ظهرت - الآن - في لونها الحقيقي ، كوحش يشتهي الهيمنة ، وانضمت الى هذه الحجج الصيحات التي تسمح في كرامة الجسم البشري ، واعتبار التطعيم اجراء مصطنعا ، يتعارض والطبيعة (واضافت مجلة لانسييت على ذلك بأنه من غير الطبيعي أيضا ارتداء الملابس أو ركوب القطار .) . واستندت معارضة التطعيم الاجبارى كذلك على مبادئ دينية ، معنى القول بان حقن مدنسات في الدم رجس ، وهي حجة اعترف بها في نهاية الأمر في الفقرة التي تركت هذه المسألة لضير أولياء الأمر في لائحة الجدرى التي صدرت ١٨٩٨ ، بالرغم من الحجج المضادة « التي نددت بما يترتب على ذلك من لقاء الأطفال لحتفهم من اثر الاهمال » .

وكانت مدينة لايسستر وراء القوة المتزعمة لحركة مناهضة التطعيم ، ورغم سوء الأحوال الصحية في هذه المدينة ، فانها كانت تتمتع بمميزات كاختفاء البطالة منها وقلة الزحام وخلو سجلاتها الطبية من فداحة الاصابة بالجدرى بفضل اتباع طريقة « لايسستر » التي تقضى بالعزل الاجبارى لضحايا الجدرى ، والحجر الصحي لجميع من يضطرون الى

مخالطة المصاب ، واتباع برنامج متشدد فى النظافة ، وجراء عمليات تطهير ، ولا مانع أيضا اذا لزم الامر من احراق فراش المريض وملابسه ، وتطهير دار الاقامة ، وفى ١٨٦٩ ، تأسست جماعة لايسستر المناهضة للتطعيم ، واشتركت هى « وجمعية لندن لالغاء التطعيم الاجبارى » فى شن حملات منظمة ضد السياسات المركزية للحكومة ، وفى الحقبة الواقعة بين ١٨٦٩ و ١٨٨٤ ، حكم بالسجن فى لايسستر على ٦١ شخصا، وتصادعت الحركة عندما قامت مظاهرة كبيرة ١٨٨٥ التفت حولها جميع القوى المعادية للتطعيم القادمة من أكثر من خمسين مدينة ، وعلى الرغم من أن انخفاض نسبة الوفيات من الجدري ترجع الى التطعيم أكثر من نسبتها الى أى تحسن طرأ على الشئون الصحية ، الا أن القرار الذى صدر عن التنظيم ١٨٩٨ قد تضمن فقرة تنص على ترك مسألة التطعيم لضمائر الأفراد مما يسر على الآباء والأمهات تفضى التطعيم الاجبارى لأطفالهم ، وعلى نهاية ١٨٩٨ ، بلغ عدد الشهادات التى منحت للمعترضين الذين تركوا لضمائرهم تمشيا مع ما جاء فى اللائحة (٢٠٣١٤٣) شخصا ينتمى أكثر من ربعهم الى لانكشاير . وطالبت لايسستر بشهادات ل ٢٨٥٢٤ حالة ، وعلى الرغم من اشتراط اللائحة منع حصول الشخص فى الأغلب على تأمين على حياته واستئجار منزل ، أو الحصول على وظيفة بغير اثبات أنه أجرى التطعيم (فى حالة طلب هذه التراخيص من مجالس مقاطعة لندن ومجلس الاسكان بلندن) الا أن آلافا من الأطفال فى نهاية القرن ظلوا بلا تطعيم ، وبعد أن انخفضت نسبة عدد غير المطعمين الى ٣٠٪ فقط من الولادات المسجلة فى انجلترا وويلز ١٧٨٥ والى ٧٪ فى لندن ١٨٩١ ، ارتفعت نسبة الأطفال غير المطعمين باطراد حتى بلغت ٢٢٢ و ٢٢٦٪ على التوالي (١٨٩٨) . ولا يوحى ما حدث من نقص فى عدد المطعمين حدوث تناقص لضرورته ، بعد انخفاض الإصابة بالمرض (وانخفاض عدد حامله) أو انتشار الجهل بالدواء الذى يساعد على الوقاية من أوصابه ، أو قوة الشعور بتعزيز الحكومة (التى تحاول فرض وصايتها عليهم) لهم مما دفعهم الى الاعتقاد بأنهم يتمتعون بتمام الصحة والعافية ، فلقد أثبت الصراع حول مسألة التطعيم أن تحسّن أحوال الصحة العامة قد اتّمسك على ما هو أكثر من التزام الحكومة القوى برعاية صحة المواطنين ، أو حتى على تقدم الكشوف العلمية ، فقد كانوا بحاجة أيضا الى تعاون الحكومة المحلية والمستولين عن الصحة ومؤازرة العاملين بمهنة الطب فى جملتهم ، واستعداد الرأى العام لقبول أحكام السياسة الصحية للمولة .

ولا يخفى أن مختلف الأمراض تتطلب اجراءات حكومية متنوعة ، فالتيفوس والتيفود والكوليرا والأمراض الأخرى التى تنتشر عن طريق

الكائنات الدقيقة الموجودة في الماء والألبان أو الغذاء والتي تصيب الأمعاء أو تنتشر عن طريق الأصابع والذباب بالمقدور التقلّب عليها إذا أمكن تنقية المياه ، وتم انشاء مرافق صحية أفضل حالا ، وعندما يحدث تحسن في صحة الأشخاص . غير أن هناك أمراضا أخرى تنتشر عن طريق الفيروس ، عندما يتطاير رذاذ اللعاب في الجو . وإذا صح ما قاله أحد الثقات في الطب حديثا : « بأننا في كل شهقة نشهقها في غرفة تضم شخصا أو أكثر ، ينتقل هنا الرذاذ المتطاير من لعاب الآخرين الى أنوفنا ، وتتسارع هذه العملية كثيرا من جراء عمليات السعال والعطس ، ومن ثم يتعين اتخاذ اجراءات أخرى غير التدابير الصحية . فمن المستطاع تخفيف خطورة أمراض عديدة كالسل والحصبة والجدرى والحمى القرمزية إذا اتبع نظام للتنبية والانذار المبكر وعزل المصابين . وتتطلب هذه الاجراءات الوقائية قدرا من التعاون الوثيق بين السلطات الصحية المركزية ، والسلطات الصحية المحلية وبين المسئولين عن الصحة والرأي العام ، بقدر لا يقل عن القدر الذي يحتاج اليه لمحاربة القاذورات .

وزاد من خطورة مشكلة الأمراض التي تنتقل عن طريق الهواء ، المقدر الهائل من الاكتظاظ بالسكان ، والذي يسود معظم المراكز السكانية الكبرى ، والافتقار الى عدد كاف من المرافق ، وامتداد التحركات السكانية في القرن التاسع عشر ، والتي زجت بموجات جديدة من صغار شباب وفتيات الريف الى المدن ، ممن يتمتعون بصحة أوفر ، وبذلك ارتفع مستوى الصحة العامة . ولكن في مقابل ذلك ، فقد زجت حركة النزوح ذاتها بوافدين لا يتمتعون بقدر كبير من المقاومة لشتى الأمراض ، التي تنتشر في المدن الصناعية المكدسة بالسكان ، ودفعتهم للعيش وسط أهل المدينة الأصلية . ولعله لم يكن في جمية الحكومة ما تستطيع أن تفعله للحد من حركة الهجرة الداخلية (وعلى أية حال ، فان تأثيرهم على بداية المرض هو بالتأكيد مسألة بالغة التعميد) ، لأن حل مشكلة التكدس السكاني تحتاج الى أنواع شتى من الحلول طويلة الأجل ، التي يهتدى اليها بعد عناء ، وبعد تكرار المحاولة والوقوع في الخطأ ، على أن « الاخطار والعزل ، كانا من السبل التي يوسع الحكومة الدعوة اليها ، والارغام على اتباعها ، ولكن لسوء الحظ لم يتبع هذا الاجراء الا بعد تردد طويل . . .

ومنذ عهد باكر يرجع الى ستينيات القرن التاسع عشر ، نادى «سيمون» باتباع نظام فعال «للاخطار والعزل» لمحاربة الأمراض المعدية ، ولكن نداه ذهب أدراج الرياح ، في ١٨٧٤ ، ومن منظوره المركزي في مكتب الحكومة المحلية ، نسب استمرار الارتفاع الكبير في نسبة الوفيات

الى عاملين رئيسيين : ١ - الاغفال أو السهو « عن اجراء عملية اخلاء
 النفايات والفضلات الجامدة والسائلة من اماكن الايواء » ، ٢ - الترخيص
 الممنوح لحالات الامراض المعدية « بالانتشار الى خارج موطن الاصابة » ،
 وعلى الرغم من اللاحاح المستمر لجون سيمون ، الا ان انشاء مستشفيات
 للزلزل أو عنابر للزلزل فى المستشفيات القائمة بالفعل قد تأخر بوعا ،
 ففى ١٨٨٣ ، لم يزد عدد المدن التى ادخلت نظام الاخطار الاجبارى عن
 الامراض المعدية عن ٣٤ مدينة (*) ، تضم مليونين ونصف فقط ، وترك أمر
 الأخذ بنظام « الاخطار » لمشئنة المسئولين المحليين ، واتضح أن الحاجة
 كانت ماسة اليه ، ولقد اتبعت مدينة هادرسفيلد نظام الاخطار منذ وقت
 مبكر يرجع الى سنة ١٨٧٩ ، وجرى اتباع نظام الاخطار فى عدة مدن
 انجليزية ابتداء من ١٨٧٩ غير أن النظام لم يتبع فى جميع أنحاء إنجلترا
 الا بعد التصديق على لائحة الامراض المعدية ١٨٨٩ ، أى بعد عشرين سنة
 تقريبا من بدء المسئولين عن الصحة العامة حملتهم الدعائية ، وهما يثير
 الاهتمام عدم ادراج السل ضمن قائمة الامراض التى يتعين الاخطار عنها ،
 ويرجع ذلك أولا - الى ما قد يثيره هذا القرار من مصاعب اقتصادية
 (من جراء العزل الاجبارى) للسواد الأعظم الذين سيعانون من ذلك ، ومن
 بين أسباب التمهّل فى اتباع نظام الاخطار الطوعى اتقسام الدوائر الطبية
 فى الرأى فى هذه المسألة ، لأنه بينما حدث اجماع على وجوب الاخطار ،
 الا أن الرابطة المحلية للمسئولين عن الصحة العامة رأت القاء مسئولية
 الاخطار على عاتق الممارسين العامين . ورأى فريق آخر أن الانصاف يقضى
 بالقاء المسئولية على كاهل أصحاب الدور التى تحدث فيها الاصابة بالمرض ،
 وفى مثل فذ لروح المبادرة عند الطبقة العاملة فى المسائل الصحية العامة ،
 والعمل لصالحها ، اجاز مؤتمر اتحاد العمال ١٨٨٣ قرارا بالاخطار
 الاجبارى ، متضمنا مبدأ سبق عصره بالتعويض عن الخسائر التى تلحق
 بالأجور من السلطات المحلية .

ونصت لائحة الامراض المعدية ١٨٨٩ على أن يكون اخطار الأطباء
 للسلطات المحلية اجباريا ، واتبعته على الفور ٧٥ سلطة محلية ، ويقدم
 ١٨٩١ ، اتبعت ٥٥٥ ادارة صحية بالمدن و ٣٧٢ بالريف . وفى هذه
 السنة ، اعتقد مكتب الحكومة المحلية أن اللوائح قد نفذت (ولا يلزم
 بالضرورة أن تكون قد فرضت قسرا) فى مناطق يقطنها قرابة
 عشرين مليوناً من بين عدد السكان الذين كانوا يعيشون حينئذ فى

(*) مثل Llandudno, Jarrow, Nottingham, Burton, Bolton
 Harrington, Edinburgh, Preston, Oldéam, Leicester, Derby
 n Blackpool, Rotherham, Norwich, Blackburn.

انجلترا وويلز ، ويقدر عددهم بستة وعشرين مليوناً . ومن بين المدن المحلية (وعددها ١٤١ مدينة بالأقاليم يربو سكان كل منها على ٢٥٠.٠٠٠ نسمة) ، اتبعت اللائحة فيها جميعاً باستثناء ١٣ . وفي ١٨٩٣ ، كان عدد من يستظلون بهذه اللائحة نظرياً حوالي ٢٥ مليوناً .

ويمثل هذا التبنى الشامل للمقرارات التي تعفى الأشخاص من التنظيم ضد الجدري التزاماً من السلطات المحلية باتباع الطب الوقائي ، الذي ذهب الى ما هو أبعد من اصلاح المجارى ومرافق الصرف الصحي ومصادر المياه ، وعمليات الرصف . وتندرج جميع هذه الاجراءات تحت عنوان « وسائل النهوض بالمدينة وتجميلها » ، ومثلت هذه السياسة الاعتراف المتزايد على المستوى المحلى بالنظرية الجرثومية للفرض ، وربما كان ما الهما هو الدراية بعد صدور اللائحة التعليلية الالزامية (*) ١٨٧٠ . بأنه ما لم يراع مبدأ « الاخطار والعزل » ، فإنه لا يستبعد أن يزداد انتشار الأمراض المعدية ، التي تصيب الأطفال ، أو تنتقل اليهم بالعدوى .

وبعد أن ازدادت أعداد الأطفال المقبولين بالمدارس بين ١٨٧٠ و ١٨٨٩ ، ارتفعت نسبة الأولاد (من سن خمس سنوات الى خمس عشرة سنة) من ٢٢٧ / الى ٥٥ ٪ ، وازداد تبعاً لذلك انتشار أمراض مثل الحمى القرمزية والحصية ، ولم تتوافر الحوافز الصحيحة للمدرسين للإبلاغ عن حالات العدوى ، لأنهم كانوا يشعرون بالرضا اذا ارتفعت نسبة المواظبة بالفصول ، لأنها كانت تساعد على حصولهم على علاوات مالية من الحكومة .

على أن تبني اللوائح التي جعلت التنظيم طوعياً شياً ، وتقديم التيسيرات للعزل الصحي شياً آخر ، لأنها كانت تكيد السلطات المحلية مصاريف اضافية ، وتجعلها عرضة لاتهام بالاسراف من قبل دافعي الضرائب الذين لا يتوانون عن ترقب أية هفوة من هنا القبيل ، وعلى أية حال لقد كان هناك ترقب ملحوظ كثيراً ما تصاعد لدرجة الهلع من مستشفيات العزل ، لأنه لم يكن من الميقون منه البتة نجاح المسئولين بالمستشفى في وقف تسرب المرض الى الخارج الذي يفترض أنه انحصر في حيز معطود ، وتلويته للأماكن المجاورة ، وتهديتها ، فلا عجب اذا سمعنا ما كرهه دافعو الضرائب في اقليم محل كادنبرة عن كلف تعرضت عمليات الصرف الصحي في عنبر المرضى بالأمراض المعدية في احدى

المضحات- للفيض وغير مرفق الصرف الصحي كله ، وبذلك تنتقل العدوى الى جميع أنحاء المدينة . وعندما أقدمت إحدى الإدارات على انشاء مستشفيات للعزل لأول مرة ١٨٧٠ ، شن السكان المحليون حملة معارضة شرسة ، أدت الى اغلاق بعضها ، وتأجيل افتتاح البعض الآخر . وفي نهاية القرن ، اضطرت مدينة وندسور الى انشاء مستشفياتها المؤقت للجذري بالصاج المرعج محاذية لمزرعة يخترقها مجرى للصرف الصحي ، بعيدا عن المناطق السكنية ، وصدر كتيب عن الأحوال الصحية ١٨٨٥ تضمن الحديث عن مستشفيات الأمراض المعدية ، واحتوت القائمة بيانا عن المدافن وأعمال الصرف الصحي ، ومواقع تجميع القمامة .

وهكذا تباطأت جهود انشاء عنابر ومستشفيات العزل الخاصة .
فحتى وقت متأخر (١٨٧٩) لم تتوافر لأكثر من خمس الإدارات المسئولة عن الشؤون الصحية في الأقاليم (وعددها ١٥١٠) أية وسائل لعزل الأمراض المعدية ، وحتى بعد ذلك ، أى سنة ١٨٩١ ، لم يرتفع المجموع الكلي لهذه المنشآت الى ما هو أكثر من حوالى ربعمائة ، وتكرر القول بأنه كما يحدث في الكثير من قطاعات الصحة الأخرى ، كانت المشكلة في المقام الأول ، مالية ، لأنه برغم استطاعة الحكومة تقديم قروض ، إلا أن العيب كان يقع في نهاية المطاف على الموارد المحلية : ففي دريشاير على سبيل المثال ، كانت هناك جبهتان مسئولتان عن الصحة المحلية ، وقدرت الضرائب على كل منهما بمبلغ أربعة آلاف من الجنيهات . وقدرت الضرائب في أربعة أو خمسة أقاليم أخرى بمبالغ تراوحت بين أربعة آلاف وثمانية آلاف جنيه . وكتب المجلس المسئول عن الشؤون الصحية الى المجلس المحلي بدريشاير : « ليس في مقدور هذه الأقاليم انشاء مستشفيات لائقة ، لو حتى صيانتها ، والحفاظ عليها ، لو تم انشاؤها » ، وتبعاً لذلك لم توجد جهة مسئولة واحدة في دريشاير - وهي اقليم يتسع ل ٤٦٦.٠٠٠ نسمة - قادرة على انشاء مستشفى عزل دائمة ١٨٩٥ .
ويسرت لائحة مستشفيات العزل الصادرة ١٨٩٣ للمجالس المحلية انشاء مستشفيات للعزل ، وان كانت التكاليف المنتظرة لهذا المشروع قد أثبتت عزيمة الجسم ، ما عدا المدافعين بحجة عن الطب الوقائي ، وفي ١٨٨٢ ، قدمت الحكومة للحلية تكاليف انشاء السرير الواحد في أية مستشفى تحت الانشاء بمبلغ يتراوح بين المائتين والثلاثمائة جنيه ، وتجاوز مثل هذه المبالغ امكانيات الأقاليم الريفية الصغيرة ، والكثير من المدن أيضا . وعندما أرادت ليفربول في وقت متأخر انشاء مستشفى يضم ثلاثمائة سرير قدر لهذا المشروع اعتماد يتجاوز الثمانين ألف جنيه .

وهكذا اكتشفت المجالس المحلية في تسعينات القرن التاسع عشر ،
عدم كفاية مرافق العزل للأمراض الوبائية المعدية في أغلب أنحاء البلاد ،
ولقد جاء انشاء أكثرها على نحو عشوائي • ففي بعض الأقاليم كانت
مستشفيات العزل في الأصل دورا لايواء الكلاب الضالة ، ولم تزد
الأسرة فيها عن خمسة فقط ، ولم توجد بها أية وسائل للتطهير ، بينما
كانت تخدم قطاعات يقترب فيها عدد السكان من الأربعين ألف نسمة • وفي
مدينتين آخريين (*) اشتهرتا بصناعة الخزف ، وارتفعت فيها نسبة
الاصابة بأمراض الرئة ، لم يزد عدد الأسرة في مستشفيات العزل -
والأصح هو وصفها بمسكرات العزل - عن ثمانية عشر سريرا ، بينما
كان متوسط عدد السكان في المدينتين ٤٦٠٠٠ نسمة • أما مدينة
للانيللي (سكانها ٢٤٠٠٠) فلم يوجد بها أى مستشفى للعزل على
الاطلاق ، بينما كانت مدينة ويجامن أسعد حظا ، لوجود ستين سريرا بها ،
تخدم خمسين ألف نسمة ، ولم تكن المدن الأكبر حجما أفضل حالا •
اذ ضمت مدينة ليلز دارا واحدة للنقااة تحتوى على ستة وأربعين
سريرا ، ومستشفى للجدرى (٣٦ سريرا) وماوى صغير للناقهين من
الأطفال الذين شفاوا من الحمى القرمزية ، بينما كان تعداد هذه المدينة
٣٦٧٠٠٠ نسمة ، أما مدينة بولتون البالغ عدد سكانها مائة وخمسة عشر
ألف نسمة فكانت أول مدينة في انجلترا تحصل على سلطات تبيع لها
حق ارغام المواطنين على الاخطار عن الأمراض المعدية (١٨٧٧) • وقد
فرضت الزاما على كل من الأطباء وأصحاب الدور معا للإبلاغ عن الأمراض
المعدية ، ولكن لم يتوافر لها أية عناصر للعزل الى أن أنشئت بها مستشفى
للحميات ١٨٨٢ • وفي ١٨٩٥ ضمت هذه المستشفى اثنين وثلاثين سريرا
والقليل من الاكواخ ، واعتمدت مدينة ليفربول مثل الكثير من المدن الأخرى
على بعض الورش المحلية لايواء المرضى الذين يعانون من الأمراض المعدية •
وفي ١٨٨٥ زادت الجمعيات الشعبية في ليفربول من ضغطها على المسؤولين
الحكوميين بعد أن أخفقوا في تزويد المدينة بمرافق للعزل ، واقترحت
انشاء مرفق يضم ٥٧ سريرا كانت في أمس الحاجة إليها ، وانتهى الأمر
بارغام المدينة على الاستجابة لهذا المطلب ، وفي ١٨٩٢ ، زودت ليفربول
بثلاثة مستشفيات للعزل تسمح باقامة ٢٩٨ مريضا في مدينة يقدر عدد
سكانها بخمسمائة وثمانية عشر ألف نسمة • ولم تخصص مانشستر أية
اعتمادات لانشاء مستشفى للبلدية ، ولكنها اعتمدت على التبرعات التي
قدمت لانشاء « مصحة ملكية » تضم ٣٧٢ سريرا في عناصر العزل ،
وأنشأت برمنجهام (٤٧٨٠٠٠ نسمة) مستشفى للعزل يضم ربعمائة

(*) في مدينتي Burton, Burslem على نهر الترنث

سرير . أما برستون فكانت من المدن القليلة العناية بالشئون الصحية (عدد سكانها ينوف على ١٧٠٠٠ نسمة) ولم تنشأ أى مرافق للزلزل على أى نحو كان .

وبغض النظر عن عدم كفاية هذه المرافق ، إلا أنها كانت أفضل حالا من الأقاليم الريفية التى لم يكن بها أى بديل لاصلاحيات الأبرشيات ، وفى لندن ، كان الموقف أفضل حالا ، فيفضل لائحة المتروبوليتان للقراء ، زودت المدينة بشبكة من مستشفيات عزل الأمراض المعدية ، وأنشئ أول مستشفى للحميات (١٨٧٠) وخصص للمصابين بالجدرى والحمى القرمزية ، ولم يعد دخول المستشفيات مقصورا على الفقراء ، بعد أن قرر المسئولون بكل حزم الخلاص من وصمة التفرقه بين المعوزين وميسورى الحال . وفى ١٨٩٣ ، توافر لمصحات مدينة لندن أكثر من خمسة آلاف سرير ، أو بمعنى أصح كان هذا العدد من الأسرة تحت الانشاء فى مستشفيات الحميات ، وبينما كانت جملة وفيات الحمى القرمزية فى مستشفيات لندن تعادل ٢٪ من مجموع عدد وفيات هذه الحمى ، ارتفع بعد ذلك هذا الرقم الى حوالى ١١٪ (١٨٨٣) ثم ازداد ارتفاعا الى أن بلغ ٧٤٪ ، والأمر بالمثل فيما يتعلق بالدفتيريا ، فقد ارتفعت هذه النسبة من حوالى ٤٪ (١٨٨٨) الى ٣٨٪ (١٨٩١) . ولا يدل هذا المؤشر على عدم فاعلية العلاج بالمستشفيات بقدر دلالته على ازدياد عدد المصابين بأمراض معدية ، وكان الكثيرون منهم فى المراحل المتقدمة من المرض ، وسمح لهم بالعلاج فى المستشفيات التى تديرها البلديات ، وحث قرار «الاحطار الاجبارى» عن الأمراض المعدية على تسريع الخطى فى تنفيذ هذا القرار ، وازداد عدد من دخلوا مستشفيات لندن ١٨٩٣ وحدها ، عن عدد من دخلوا هذه المستشفيات طيلة العقد (من ١٨٨١ - ١٨٩٠) .

وصودق على قرار الاحطار الالزامى الصادر (١٨٨٩) بعد صدور قرار الحكومة المحلية (١٨٨٨) وكان من بين آثاره تخصيص مسئول صحى عن الاقليم وكان بمقدور هؤلاء المسئولين عن الأقاليم أحيانا الضغط على السلطات المحلية ، ورأينا مثلا المسئول الصحى فى أحد الأقاليم (*) يركز على الأمراض المعدية ويستحث السلطات المحلية على تنفيذ قرار « الاحطار الاجبارى » على الفور ، وعلى انشاء مرافق كافية للزلزل . ويفضل استمرار قوته الدافعة ، ارتفع عدد البلاغات من سبعة عشر

(*) الاقليم West-Riding فى يوركشاير .

بلاغاً (في نهاية ١٨٨٩) الى ٦٩ في (١٨٩١) . وارتفعت نسبة بلاغات مرض الجدرى والدفتريا والحمى القرمزية والتيفود التي سمح لها بدخول المستشفى من ١٤٪ الى ٣٠٪ .

لم يكن النساء مستشفيات لايواء المرضى الذين يعانون من امراض معدية على قمة الأولويات عند السلطات المحلية فقط . ولم يتم انشاء مستشفيات للمزل الا بعد الحاج مكتب الحكومة المحلية ، وممسور تشريعات شاملة . وليس بمقدورنا القول بأن السلطات المحلية استجابت بنفس الحماسة للنظرية الجرثومية للمرض ، مثلما فعلت قبل ذلك بثلاثين سنة في حالة البيروجيني (التي تعيش في الأوساخ والأدناس) . وعلى أية حال يمكن القول بأن التخطيط الصحي قد قوبل بالترحاب في عصر الملكة فيكتوريا الذي عرف باحساسه الحضاري ، ناهيك بقوة حاسة الشم عنده ، بغض النظر عما تطلبه من اعتمادات مالية ، ومن العسر القول بأن مبدأ « الإبلاغ والمزل » قد حظي باستهواء مماثل ، لارتباطه بالحجر الصحي ، والأسر وتقييد الحرية .

وعلى الرغم من اتصاف الاستجابة للأوبئة الرئيسية في عهد الملكة فيكتوريا بأوجه نقصها وحيرتها وترددتها ، الا أنها قد تركت أثراً مهماً ، وباستثناء الجدرى ، فانهم كانوا مضطرين لمحاربة هذه الأمراض دون حاجة الى الانتفاع بمزايا مضادات التوكسين أو التسمم ، ومع هذا فقد نجحوا في مهمتهم . وفي عصر عرف بما جرى فيه من اتساع في المدن وبسرعة ازدياد عدد السكان ، لابد أن ينظر الى هذه الحالة على أنها من دلائل انتصار الطب الوقائي ، انها شجاعة أيضاً على ما تمتع به عصر الملكة فيكتوريا من حماسة وخصب خيال وبدد نظر ، وبطبيعة الحال ، لم تنحن بجموع الناس بكل خشوع للوائح الحكومة المركزية ، ولما تضمنته من تعليمات ، كما أنهم لم يبتلعوا عن طيب خاطر أقراص التشريعات الالزامية ، ولا يمكن انكار حدوث تصدع ومرارة في كثير من الأحيان في علاقة الحكومة المركزية بالسلطات المحلية ، فلقد شب الصراع بين الطرفين باعتبارهما جهازين جديسي الانشاء . وكان أحد الطرفين يتكلم بلغة الصحة الوطنية والمزمية الوطنية والكفاية والتقدم ، بينما يستعمل الطرف الآخر مصطلحات المعدلات المتدنية وحق المحليات في اختيار قراراتها والاستقلال والحرية .

والى اللسان في الجزء الثالث

المراجع

- J. Brand, *Doctors and the State : The British Medical Profession and Government Action in Public Health (1870-1921)*, 1965.
- W. Coleman *Death Is a Social Disease Public Health and Political Economy in Early Industrial France (1831-1932)* 1982.
- M. Durrey : *The Return of the Plague : British Society and the Cholera (1831 — 1832)*, 1979.
- J. Eyler, *Victorian Social Medicine : The Ideas and the Methods of William Farr (1975)*.
- S. E. Finer, *The Life and Times of Edwin Chadwick* 1952.
- T. Gelfand, *Professionalizing Modern Medicine. Paris Surgeons and Medical Science and Institutions in the Eighteenth Century (1950)*.
- R. Lambert, *Sir John Simon (1816-1904) and English Social Administration (1963)*.
- R. E. McGrew, *Russia and the Cholera 1823-1832 (1965)*.
- M. Pelling, *Cholera, Fever and English Medicine. 1825-1865. (1978)*.
- F. B. Smith, *The Peoples Health 1830-1910 (1979)*.
- F. B. Smith, *Florence Nightengale. Reputation and Power (1982)*.
- C.E.A. Winslow, *The Conquest of Epidemic Disease : A Chapter in the History of Ideas (1980)*.
- A. J. Youngson, *The Scientific Revolution in Victorian Medicine, (1979)*.

اقرا في هذه السلسلة

- احلام الاعلام وقصص اخرى
الالكترونيات والحياة الحديثة
نقطة مقابل نقطة
الجغرافيا في مائة عام
الثقافة والمجتمع
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)
الأرض الشامخة
الرواية الإنجليزية
المرشد الى فن المسرح
آلهة مصر
الإنسان المصري على الشاشة
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة
الهوية القومية في السينما العربية
مجموعات النقود
الموسيقى - تعبير نفسي - ومنطق
عصر الرواية - مقال في النوع الأدبي
ديلان توماس
الإنسان ذلك الإنسان الفريد
الرواية الحديثة
المسرح المصري المعاصر
عنى محمود طه
القوة النفسية للأهرام
فن الترجمة
تولستوى
ستلندال
رسائل واحاديث من الملقى
الجزء والكل (مساورات في مضمير
الغيزياء الذرية)
التراث الغامض ماركس والماركسيون
فن الابد الروائي عند تولستوى
ادب الاطفال
احمد حسن الزيات
اعلام العرب في الكيمياء
- بتراند رسل
ي . رادونسكايا
الدس هكسلي
ت . و . فريمان
رايموند وليامز
ر . ج . فريس
ليستر ديل راى
والتر آلن
لويس فارجاس
فرانسوا دوماس
د . قدرى حفى وآخرون
أولج فولك
هاشم النحاس
ديفيد وليام ماکونالد
عزيز الشوان
د . محسن جاسم الموسوي
اشرف س . بي كوكس
جون لويس
بول ويست
د . عبد المعطى شعراوى
أنور المعداوى
بيل شول وادنبيت
د . صفاء خلوصى
رالف ثى ماتلو
فيكتور برومبير
فيكتور هوجو
فيرنر هيزنبرج
سيندى هوك
ف . ع ادنيكوف
هادى نعمان الهيتى
د . نعمة رحيم العزاوى
د . فاضل أحمد الطائى

- فكرة المسرح
الجحيم
صنع القرار السياسي
التطور الحضارى للإنسان
هل نستطيع تعليم الاخلاق للأطفال ؟
تربية النواجن
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة
التحل والطلب
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء
مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة
الصحافة
اثر الكوميديا الالهية بدائتى فى الفن
التشكيلى
الادب الروس قبل الثورة البلشفية
وبعدما
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير
الفكر الاوروبى الحديث (٤ ج)
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى
١٨٨٥ - ١٩٨٥
التشنة الاسرية والابناء الصغار
نظريات الفيلم الكبرى
مختارات من الادب القصصى
الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد؟
حرب الفضاء
ادارة الصراعات الدولية
الميكروكمبيوتر
مختارات من الادب اليابالى
تاريخ ملكية الاراضى فى مصر الحديثة
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة
كتابة السيناريو للسينما
الزمن وقياسه
اجهزة تكييف الهواء
- فرنسيس فرجون
هنرى باربوسى
السيد عليوة
جاكوب برونوفسكى
د . روجر ستروجان
كاتى ثير
ا . سينسر
د . ناعوم بيتروفيتش
جوزيف داموس
د . ليولار تشامبرز رايت
د . جون شندلر
بيير اليسر
الدكتور غبريال وهبه
د . رمسيس عوض
د . محمد نعمان جلال
فرانكلين ل . باومر
شوكت الريمى
د . محيى الدين احمد حسين
تأليف : ج . دالى اندرو
جوزيف كونراد
طائفة من العلماء الأمريكيين
د . محمد اسعد عبد الرؤوف
د . السيد عليوة
د . مصطفى عنانى
صبرى الفضل
جابريل باير
انطونى دى كرسبني
وكينيث هينوج
دوايث سوين
زافيلسكى ف . س
ابراهيم القرضاوى

الخدمة الاجتماعية والاضباط الاجتماعى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى
التجربة اليونانية
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية
العلم والطالب والمدارس

الشارع المصرى والفكر
حوار حول التنمية الاقتصادية
تبسيط الكيمياء
العادات والتقاليد المصرية
التذوق السينمائى
التخطيط السياحى
البذور الكونية

دراما الشاشة (٢ ج)

الهيروين والاينز
صور افريقية
نجيب محفوظ على الشاشة
الكمبيوتر فى مجالات الحياة
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية
وظائف الاعضاء من الالف الى الياء
الهندسة الوراثية
تربية اسماك الزينة
كتب غيرت الفكر الانسانى
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)

الفكر التاريخى عند الاغريق
قضايا وملاحم الفن التشكيلى
التغذية فى البلدان النامية
بداية بلا نهاية
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية
للكون
حوار حول النظامين الرئيسيين
الارهاب
اغتاتون

بيتر رداى
جوزيف داموس
س ٠ م بورا
د ٠ عاصم محمد رزق
رونالد د ٠ سمبسون
و نورمان د ٠ اندرسون
د ٠ انور عبد الملك
والت روستو
فرد ٠ س ٠ هيسى
جون بوركهارت
الان كاسبيار
سامى عبد المعطى
فريد هويل
شاندراميكرا ماسينيج
حسين حلمى المهندس
روى روبرتسون
دوركاس ماكلينتوك
هاشم النحاس
د ٠ محمود سرى طه
بيتر لورى
بوريس فيدروفيتش سيرجيف
ويليام بينز
ديفيد الدرتون
احمد الشنوانى
جمعها : جون ٠ ر ٠ بورر
وميلتون جولد ينجر
ارنولد توينبى
د ٠ صالح رضا
م ٠ ه ٠ كنج وآخرون
جورج جاموف
د ٠ السد طه ابو سديره
جاليليو جاليليه
أريك موريس ، الان هو
سيريل الدير

آرثر كيسلتر
توماس ٠ ١ هاريس
مجموعة من الباحثين
روى ارمز
ناجى متشيو
بول هاريسون
ميكايل اللى
جيمس لفلوك
فيكتور مورجان
اعداد محمد كمال اسماعيل
الغردوسى الطوسى
بيرتون بورتر
جاك كرابس جونيور
محمد فؤاد كويرلى
بول كونر
اختيار واعداد صبرى الفضل
توتى بار
نادين جورديس وآخرون
موريس بيريراير
ادامز فيليب
أحمد الشنوانى
جوناثان ريل سميث
ريتشارد شاخت
زيجمونت هينر
الفريد ٠ ج ٠ بتلر
اعداد ٠ د ٠ فيليب عطية

القبيلة الثالثة عشرة
التوافق النفسى
الدليل البيولوجى
لغة الصورة
الثورة الاصلاحية فى اليابان
العالم الثالث غدا
الانقراض الكبير
تاريخ النقود
التحليل والتوزيع الأوركسترالى
الشاهنامة (٢ ج)
الحياة الكريمة (٢ ج)
كتابة التاريخ فى مصر ق ١٩٠
قيام الدولة العثمانية
العثمانيون فى اوربا
مختارات من الاداب الاسيوية
التمثيل للسينما والتلفزيون
سقوط المطر
صناع الخلود
لدليل تنظيم المتاحف
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ ج)
الحملة الصليبية الاولى
رواد الفلسفة الحديثة
جماليات فن الاخراج
الكنائس القبطية (٢ ج)
كرانيم زواشنت

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١١٠٣٥ / ١٩٩٣

ISBN — 977 — 01 — 3603 — 4

استدراك

ص	السطر	الخطأ	الصواب
١٢٦	٢٢	ولت المحامى	ولفت المحامى
١٤٢	٥	محاولة للوصول	محاولة للحصول
١٧٧	٢٥	القرن الثانى عشر	القرن الثامن عشر
١٨٨	١٦	استهلال كولمان الذى سجله	استهلال كولمار سجله
٠٠٠	٢٣	وقال الاكليروس	وقام الاكليروس
٢٠٠	٦	وشرلى لانجى وبورج	وشعرت لانجر وبودج
٢٠٧	٣	من نهاية الصفحة القس الدستورى	الدستورى جمعية ابراشية فى اقليم ليموج

مازلنا نكتب التاريخ على النحو التقليدي، أي في صورة أحداث متعاقبة، فيما يدعى بالكرونولوجي أو الحوليات.

وقد تطورت الكتابة التاريخية منذ بداية القرن التاسع عشر وظهرت مدارس متعددة ومتنوعة مازال أثرها وأهنا في مصر. وقد جمع المؤلفان مجموعة من المقالات التاريخية التي تمثل التاريخ من شتى جوانبه.

ومن الموضوعات التي يتناولها هذا الجزء :

إندلاع الحرب الأهلية الإنجليزية

الحكم الفردي للويس الحادي عشر

ثمرد القوزاق وحرب الفلاحين في روسيا

وسائل التسويق في السوق الدولية

المرأة عملها وأسرتها في أوروبا القرن التاسع عشر

